سياسات الزُمر الحاكمة في مصر العثمانية





المشروع القومي للترجمة

تأليف : چين هاثواي
ترجمة : عبد الرحمن عبدالله الشيخ

418

المشروع القومى للترجمة

سياسات الزُّمر الحاكمة في مصر العثمانية

تأليف : چين هاثواى

ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤١٨

- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية

- چين هاثواى

- عبد الرحمن الشيخ

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ترجمة كاملة لكتاب :

The Politics of Households in Ottoman Egypt.

(The Rise of the Qazdağlis)

تأليف : **Jane Hathaway**

عن : **Cambridge University Press**

ضمن بسلسلة : **Cambridge Studies in Islamic History,1997.**

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 .

المحتويات

الخرائط والأشكال التوضيحية

الخرائط

الأشكال التوضيحية

قوائم

صفحة

:

(*) نسبة لبحر أيجه .

مقدمة المترجم

ملاحظات حول الترجمة العربية لهذا الكتاب

العنوان الأصلى لهذا الكتاب هو :

The Politics of Households in Ottoman Egypt , the Rise of Qazdaglis.

وبعد قراءة الكتاب قراءة متأنية اتضح أن وضع مقابل عربى للمصطلح household ليس بالأمر الهيِّن إن أردنا نقل المعنى الدقيق الذى تقصده الأستاذة المؤلفة ، فهى لا تقصد الأسرة ، وليس المقصود هنا – كما نعرف من فصول الكتاب – أسرات حاكمة كالتى شهدها التاريخ الأموى أو العباسى ... أو تاريخ الهبسبرج ... وهى لا تقصد « البيت " bayt " كما نفهم مضمونه الآن ، فمن غير المعقول أن يضم البيت كل الأتباع والمماليك والخصيان ... إلخ ، وكل الأموال والسلاح والعتاد ... إلخ ، رغم أن بيت زعيم الزمرة كان يستخدم كحصن وقلعة ، وقاعة اجتماعات، ... إلخ .

لقد جرى استبعاد « بيت » إذن كمقابل للمصطلح households كما استخدمته المؤلفة ، رغم أن الجبرتى حدثنا عن بيت القازدغلية وبيت البلفية وبيت الجلفية ... إلخ ، وكان يعنى تجمّعا مصلحيا سياسيا واقتصاديا حاول ربط نفسه بالعاصمة العثمانية استانبول ، ومد جذوره فى التربة المحلية (مصر) فى الوقت نفسه ، رغم أن المؤلفة تشير إلى محاولات بعض هذه التجمعات إحياء السلطنة المملوكية بالاستعانة بروسيا ، للتخلص من العثمانيين .

لم يبق أمام المترجم إلاّ استخدام الكلمة العربية « زمرة » والجمع « زُمَرْ » كمقابل عربى معقول للمصطلح الذى استخدمته المؤلفة Household لنقل المعنى كما

تقصده تماما ، فالزمرة لغة كما ورد فى المعجم الوجيز هى : الجماعة ، وتُكمل الصفات الملحقة بالكلمة المعنى المقصود :

زمرة عسكرية ، زمرة داخل الفرقتين المتنافستين (القاسمية والفقارية) ، زمر صغيرة داخل الزمرة الأكبر ، زمرة الباشا العثمانى ، زمرة القازدغلية وهى محور هذا الكتاب (وهى الزمرة التى منها بلوط قابان المعروف بعلى بيك الكبير) .... إلخ .

لكن لماذا لم نستخدم لفظ « جماعة » والجمع « جماعات » بدلا من الزمرة ؟ الواقع أن لفظ جماعة لفظ محايد وهو أقل دلالة من الزمرة التى تقصدها المؤلّفة ، فالزمرة المقصودة لها رأس ، يشترى مماليك ، ويكوّن « أتباعا » عن طريق المشاركة التجارية ، وتعيين وكلاء تجاريين ، وضم الجنود التابعين له فى الأوجاق (الفرقة العسكرية) وكذلك ضم الضباط الأدنى رتبة منه ، وضم الذين رقاهم حتى لو أصبحوا بعد الترقية أعلى رُتبة منه .. ويعمل كل هؤلاء على الارتباط بمصالح مشتركة ، وأحيانًا تكون بينهم صلة زواج أو تسرٍّ .. وفى هذا الكتاب قوائم انتساب (وليس نسب) عديدة توضِّح هذا المعنى ، وتوضح أن الصلات بين أفراد الزمرة متنوعة : مملوك ، تابع ، مجهول الهوية ، زواج ، تسرّى ... إلخ .

ولم يكن تكوين الزمرة بالضرورة من وراء ظهر الحكومة المركزية فى استانبول ، ولكنه كان دومًا تحت بصرها ، ولم يكن بالضرورة ضد رغبتها ، لكنها كانت دائما واعية بالحد الذى يجب أن يتوقف عنده امتداد كل زمرة ، وكانت الزُّمر غالبا أكثر وعيا بمصالحها ، تلك المصالح التى كانت تتفوق فى حالات كثيرة على الانتماء للدولة الأم (العثمانية) ، كلمة « زمرة » - إذن - صالحة تماما للتعبير عمّا ذكرناه آنفا .

* * *

ننتقل إلى مسألة أخرى فى الغاية من الأهمية ؛ لأنها كانت تضلل القارئ وتُبعده عن المعنى المقصود ، ونعنى بها الخلط بين ما هو « اسم » وما هو « رتبة عسكرية » فالجاويش والكخيا (الكتخدا) والسوباشى ، والأوده باشى (الأوضاباشى) والشوربجى ، والأغا ، ... كلها رُتب عسكرية لكن أحَداً لم يحجر على الناس تسمية أبنائهم أو أتباعهم بها ، تماما كما هى الحال الآن ، فليس هناك مانع أن يسمّى أحد أبنائه لواء أو (عقيد) أو (عميد) ، أو (جاويش) ... إلخ ، ولا تعنى تسميته لابنه

بأحد هذه الأسماء أنه بالفعل حامل لهذه الرتبة العسكرية ، كان لابد من وضع حد لهذا الخلط خاصة فى كتاب يتناول فى جانب كبير منه الرتب العسكرية الحقيقية أو الشّرفية ، وعلى هذا جرت الترجمة كالآتى :

– الكخيا عبد الله القازدغلى مقابلا للصياغة Abdallah Kahya al Qazdagli

الأوده باشى (الأوضباشى) على الطويل مقابلاً للصياغة Ali odabasi Al Tawil

– الجاويش على الطويل مقابلا للصياغة Ali Cavus Al Tawil

... وهكذا رغم أن الجبرتى وغيره من الكتب العربية تستخدم الصياغات

– عبد الله كخيا القازدغلى .

– على جاويش الطويل .

– على أوده باشى الطويل .

والسبب فى استخدام الجبرتى وغيره هذه الصياغات المُربكة هو التزام الصيغة العثمانية والتركية ، فالأتراك يقولون على جاويش ويقصدون : علىٌّ الحاصل على رتبة جاويش ، ويقولون إبراهيم كتخدا ويقصدون : إبراهيم الحاصل على رتبة كتخدا (كخيا) وبذلك يختلط الأمر مع إبراهيم جاويش الذى اسم أبيه جاويش ، وحسين أغا الذى اسم أبيه أغا ... وهكذا ، وهذه الصيغة العثمانية لكتابة الرتبة إن التزمنا بها فى العربية كانت مبتدأ وخبرا ؛ محمد جاويش : محمد : مبتدأ وجاويش ، خبر ، وليس هذا هو المقصود بالعربية ، فالمعنى يكون صحيحا بقولنا الجاويش محمد ليكون الجاويش مبتدأ ومحمد بَدَل ، ويبقى الخبر غير مكتمل لتكمله الجملة (الجاويش محمد فعل كذا وكذا) أما محمد جاويش فتوحى أن الجملة انتهت (مبتدأ وخبر) ، لذلك فقد التزمت بالصيغة العربية المألوفة (اللواء فلان قام بهذا وكذا ، وافتتح العميد فلان كذا وكذا) ولم أعتبر ذلك خروجا عن النص ، خاصة وأن

الكشّافات العربية تُضلل القارئ كثيرا بإيرادها على سبيل المثال عبد الرحمن جاويش ، وعبد الرحمن كتخدا كشخصين منفصلين بينما هما شخص واحد تمت ترقيته من جاويش إلى كخيا ، ولم يسلم الذين حققوا كتاب الجبرتى من هذا الخلط خاصة فى الكشافات ... وفى أكثر من مرّة نبّه الأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) على الفرق بين الأغا كرتبة عسكرية حقيقية والأغا كرتبة شرفية (الأغا الخصى مثلا) والأغا كاسم خالص ، وتخلُّصاً من هذا اللبس أخذت بأسلوب الترجمة الآنف ذكره .

ويجد القارئ مشكلة صغيرة أيضا فيما يتعلق بالأسماء ، لكن المصرى عادة لا يجدها مشكلة - بعكس القارئ غير المصرى ، فمفهوم طبعا أن فلان جرجا تعنى أنه تولى التزام جرجا ، وأن فلان منوفية يعنى أنه تولى سلسلة من الالتزامات فى المنوفية ، ولا يعنى أن المنوفية اسم لأمه أو أبيه ، ومع هذا أضفتُ أحيانا عبارات شارحة بين قوسين .

* * *

نعود الآن لنعرض فكرة موجزة عن فصول الكتاب التى تتعرض لمكانة مصر فى رحاب الدولة العثمانية ، وكيف أن مصر فى نهاية القرن ١٧ لم تعد منطلقا للقوات العسكرية لخوض معارك البحر الأحمر والبحر المتوسط ، خاصة بعد استيلاء العثمانيين على كريت من البنادقة فى سنة ١٦٦٩ وفشل الحصار العثمانى لڤيينا ١٦٨٣ ، وإطاحة الزيديين بالحكم العثمانى فى اليمن ١٦٣٦ ، ومن الآن فصاعدا أصبحت أهمية مصر مقتصرة على إرسال الإرسالية المالية والحبوب ، وبذا تحوّل ولاة مصر من عسكريين محترفين إلى موظفين بيروقراطيين ، كما أثر هذا بدوره على طبيعة الزمر العسكرية فى مصر ، بما فى ذلك الزمرة القازدغلية - موضوع هذا الكتاب .

ظهرت الزمرة القازدغلية فى مصر فى منتصف القرن ١٧ وتطورت وامتدت حتى أفرزت على بيك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، بل واستمرت حتى قدوم الحملة الفرنسية . وفى ظل التطور الآنف ذكره كان كل من يأتى لمصر يعمل على تسجيل اسمه فى قوات الحامية العثمانية كوسيلة لضمان أجر ثابت ، ويقوم فى الوقت نفسه بممارسة حرفة أو تجارة .

والمفهوم أن البكوات فى غالبهم كانوا ضمن المؤسسة العسكرية العثمانية لكنهم انفصلوا عنها شيئا فشيئا ، ويستعرض الكتاب الصراع بين العسكريين والبكوات فى هذه الفترة للسيطرة على موارد مصر الاقتصادية خاصة عن طريق تولى الالتزامات ، أو نظارة الأوقاف ، أو قوافل الحجاج ، أو كل ذلك معا ، وكان من فوائد الانتماء للأوجاقات (الفرق العسكرية) حتى بالنسبة لغير العسكريين هو الإعفاء من الضرائب ؛ مما جعل كل أصحاب الحرف أو المشروعات الصغيرة يلجأون للانضمام إلى الأوجاقات التى أصبح دورها أقرب إلى الشرطة منه للجيش .

كيف كوّن كل صاحب زمرة زمرته ؟ ما نتيجة الصراع بين ضباط الأوجاقات والبكلرية (البكوات) ؟ كيف امتد التنظيم العسكرى فى مصر العثمانية خارج النطاق العسكرى ؟ إن المؤلفة تفرد الفصول الأربعة الأخيرة عن الاستراتيچيات التى اتبعتها الزمر ، وذلك من خلال تحليل عميق ووثائق أرشيفية ثرّة .

كان المقر مرتبطا بالرتبة ، فإن التابع الرئيسى يحصل على المنزل والرتبة معا إذا مات رأس الزمرة .

وبيت رأس الزمرة يعرف « بالبيت المفتوح » ، وهى ظاهرة لم تعرفها مصر قبل العصر العثمانى كما تقول المؤلفة بهذا المعنى ، حتى أصبحت الاجتماعات التى تعقد فى هذه البيوت المفتوحة تضارع « ديوان » الوالى العثمانى كمحور أو مركز للسلطة السياسية . وتركز هذه الدراسة على أماكن سكنى الزمرة العسكرية داخل الأوجاقات أو خارجها ، وتربط ذلك بالحياة التجارية والمصالح الاقتصادية ، وتمركز الحرفيين الذين هم تحت « حماية » العسكريين ، وتذكر بالتفصيل أسباب نقل السكن خاصة بالنسبة للكخياوات (الذين يحملون رتبة كخيا التى ترد أحيانا فى الكتب العربية تحت مسمّى كتخدا) ومن الطريف أن تذكر المؤلفة أن أصحاب الرّتب العسكرية الذين كانوا يتوقّعون قيام اضطرابات ضدهم كانوا يتعمدون الإقامة بعيدا عن أماكن تمركز الحرفيين والتجار ، حتى إذا قاموا بمسيرة اعتراضية للتوجه إلى مقر إقامته ، تفرق عدد كبير منهم قبل الوصول لهذا المقر ؛ لأن هؤلاء العسكريين كانوا يتوقعون أن يكون عدد كبير ممن هم فى المسيرة من المحرّضين (بتشديد الراء وفتحها) وليس لهم مصلحة حقيقية فى المسيرة ، وبدراسة مواقع مساكن الضباط من ذوى الرتب العالية

أيضا ، لاحظت أن أحدا منهم لم يقم بإنشاء مؤسسات خيرية (مساجد وأسبلة .. إلخ) بالقرب من سكنه للسبب نفسه الآنف ذكره ، وإنما كان يقيم هذه المؤسسات الخيرية بعيدا عن أماكن سكناه ، مع استثناءات قليلة ذكرتها الباحثة ، وكان لكل واحد من النخبة العسكرية وغير العسكرية (رجال الدين مثلا) منزل فى الأحياء الفقيرة (الحسينية مثلا) يخبئ فيه جانبا من ثروته حتى إذا تم نهب بيته الأساسى وجد فائضا مخبوءا ، وتتعرض المؤلفة بالتفصيل لتداول الالتزامات بين البكرية (مؤسسة البكوات) الذين يُفترض أنهم تركوا الحياة العسكرية (رغم أن عددا منهم كان فى الأساس على رتبة كخيا ، ثم رُقى إلى البكوية) ، وضباط الأوجاقات (الفرق العسكرية) ، والصراع على ذلك . ومما يذكر فى هذا السياق أن « الترقية » إلى البكرية كانت فى بعض الأحيان - كما ذكرت المؤلفة - مجرد رغبة لإبعاد الضباط عن مراكز قوتهم ونفوذهم فى الأوجاقات ، كما أن (إبعاد) كبير الخصيان السود عن البلاط العثمانى كان فى بعض الأحيان مساعداً له على تكوين زمرة فى مصر ، ومساعداً له على مد نشاطه الاقتصادى .

وتربط المؤلفة بين انتعاش الزمرة القازدغلية وتجارة البن اليمنى ، كما تربط تدهور أسعار البن اليمنى - نتيجة إدخال الفرنسيين لبُن يمنى أنتجته جزر الكاريبى - بتحويل القازدغلية نشاطها إلى التركيز على الحصول على التزامات القرى ، وما نشأ عن ذلك من صراع ، والسيطرة على تجارة البن كانت تعنى بالضرورة السيطرة على طريق الحج .

لقد كان التحالف بين القازدغلية والجلفية (نسبة إلى قرية سنجلف فى المنوفية) تحالفا اقتصاديا فى الأساس ، وعن طريق الهيمنة الاقتصادية حققت الزمرتان سيطرة سياسية فى الفترة موضوع الدراسة .

* * *

والعنصر الثالث الذى عوّلت عليه الزمرة القازدغلية يتمثل فى كبير الخصيان السّود (الزعيم الطواشى الأسود) الذى كوّن بدوْره زمرة خاصة به ، ربطها بزمرة أخرى دعْماً لها ، وتحقيقاً لمصالح خاصّة .

ومن المفهوم أن زمرة كبير الخصيان السّود لن تتضمّن أى صلة عرْقية (صلة دم) فلا نسل من بنين أو بنات ، ولا إخوة ، ولا أب ولا أم ... إلخ ، فكبير الخصيان السّود رقيق أفريقى تم عرضه فى أسواق الرقيق بالقاهرة ، وجرى إخصاؤه ، ثم قُدِّم وهو صغير للخدمة فى الحريم السلطانى ، وترقّى فى هذا السلك حتى أصبح كبيرا للخصيان السود أو زعيما لهم .

لكن زمرته قد تتضمّن مماليك اشتراهم ، أو « أتباعًا » كونهم من خلال خدمته فى نظارة أوقاف الحرمين ، أو شياخته للمسجد النبوى ، أو وكلاء عينهم للإشراف على تجارته ، ومن المفهوم أنّ من يرثه فى أمواله لا يرتبط به بصلة دم ، فكلمة التوريث فى هذا السياق لا علاقة لها بأحكام المواريث المعروفة فى الفقة الإسلامى وإنما لها معنى أنثروبولوجى خاص ، وكذلك شجرة نسبه لا علاقة لها بالنسبة المعروفة ، وإنما هى شجرة انتساب affiliation . وأتباع الخصىّ الأسود ومماليكه يكونون زمرته household ، ولأن هؤلاء الأتباع ليسوا مقيمين معه فى تجمع سكنى واحد ، وربما لا يقيمون معه فى بلد واحد ، لذا فقد كان إطلاق مصطلح « بيت » الأغا الخصى الأسود فيه تجاوز كبير ، والأدق كما ذكرنا آنفا هو « الزمرة » كمقابل للمصطلح الإنجليزى household فى هذا السّياق .

وقد شكل كبير الخصيان السود فى وقت من الأوقات مركز قوّة خطير؛ إذ كان أحيانا أقوى من رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) نفوذا ، وذلك أثناء خدمته فى البلاط العثمانى ، أما بعد إبعاده إلى مصر فقد كان وسيلة من وسائل السيطرة العثمانية على ا لزمر المحلية فى مصر بإدخال عناصر لاشك فى ولائها للبلاط العثمانى فيها ، ومن هذه العناصر « كبار الخصيان السّود » .

وترجع خطورة منصب كبير الخصيان السود سواء أثناء خدمته فى البلاط أو أثناء إبعاده فى مصر إلى أنه كان يعايش الأمراء العثمانيين الذين كانوا يقضون سنوات تكوينهم معزولين فى أجنحة الحريم ، حيث كان لأمهات السلاطين الحاليين أو الذين سيتولوْن السلطنة فيما بعد نفوذ هائل ، وكان كبير الخصيان السود على اتصال بهن بحكم عمله ، وكان وسيلة للاتصال بينهن وبين السلطان وحاشيته ، كما كان يشرف على ميزانية الحريم .

وكان كبير الخصيان السود مرتبطا بمصر من البداية للنهاية ، ففى مصر تم شراؤه ، وفى مصر تم إخصاؤه ، ومن مصر تم إهداؤه للسلطان ليعمل فى الحريم السلطانى ، وإلى مصر يعود بعد إبعاده ، و الإبعاد Exile هنا لا يعنى العقاب ، وإنما كان هذا إجراءً طبيعيا ، وكان الخَصِى المُبعَد يجد فى مصر تربة مناسبة لتكوين زمرة والارتباط بزمرة ، فله فى مصر « تاريخ » واتصالات سابقة ، وكانت الزمر المحلية تتهافت لاحتوائه ؛ ليكون حلقة وصل بينها وبين البلاط العثمانى .

وكان لكبير الخصيان السود أهمية أخرى اقتصادية ، وأبعاد متشابكة يجدها القارئ مفصلّة فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

والله من وراء القصد .

مقدمة المؤلفة

يتناول هذا الكتاب صعود زمرة القازدغلية ، فهذه الزمرة معروفة – إلى حد كبير – خارج أوساط المتخصصين تخصصا دقيقا فى تاريخ مصر العثمانية قبل القرن التاسع عشر ، فهى معروفة فى الأساس كمجموعة على رأسها على بك المشهور وهو مملوك (رقيق عسكرى) جسُر فى أواخر العقد السادس من القرن الثامن عشر على تأكيد الاستقلال الذاتى لمصر رغمًا عن إرادة السلطان العثمانى ، لقد لفتت هذه الزمرة الحاكمة الانتباه كمجموعة من المماليك الچورچيين (مماليك من أصول چورچية) الذين سيطروا على البلاد ، ووجدهم نابليون قابضين على زمام السلطة فى مصر عند غزوه لها فى سنة ١٧٩٨ . لقد كان من الطبيعى أن تثير الطريقة التى سيطر بها المماليك (العبيد العسكريون) القوقازيون ثائرة السلطنة المملوكية التى حكمت مصر قبل غزو العثمانيين لها فى سنة ١٥١٧، ذكريات هذا فقد كاد الأمر يبدو – حتى بالنسبة للمتخصِّصين فى هذا الموضوع – إمكان وصف نظام الحكم الذى تسيَّدت فيه زمرة القازدغلية بأنه عوْدة لأساليب الحكم التى سادت أثناء السلطة المملوكية .

لقد أسّس الزمرة القازدغلية ضابط من الإنكشارية فى حوالى منتصف القرن السابع عشر ، و هكذا فما نفتقده فى التقييم السابق للزمرة The household هو تقديرنا للسياق والظروف اللذين ظهرت – وتطورت – فيهما قبل سيطرة على بك ، إن هذا السياق التاريخى هو فى المقام الأول سياق عثمانى ؛ لأن طبيعة الإدارة فى الإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر هى التى أملت التغييرات الحادثة فى القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر ، وأكثر من هذا فالقازدغلية اشتركوا فى التراث (الثقافة) العسكرى العثمانى فى الولايات والذى مهّدت تحولاته الأرضَ لسيطرة الچورچيين فى أواخر القرن الثامن عشر .

إننى أحاول هنا توضيح معنى هذا السياق بتحليل تطور القازدغلية فى نطاق الهيكل الإدارى العثمانى المتّسم باللامركزية وظهور تراث (ثقافة) عسكرية وإدارية على مستوى الإمبراطورية تعتمد على قيام الزّمر households ، فإعادة توجيه الأسبقيات من ناحية ، وتكوين الزُّمر وتوظيفها من ناحية أخرى تقدم لنا مفاتيح حاسمة لفهم المسار الذى اتبعه القازدغلية ، لكن لوضع القازدغلية - باتزان ضمن هذا السياق لابد لنا أولا من وضع مصر فى سياق تاريخ الإمبراطورية العثمانية خلال هذين القرنين الحرجَيْن .

التعريف بالكتاب

(للناشر الأصلي)

تتحدّى چين هاثواى ببراهين ساطعة التفسيرات السائدة عن المجتمع المصرى فى العصر العثمانى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتى مؤدّاها أن النخبة العسكرية فى مصر فى العصر العثمانى ليست إلاّ إحياء للمؤسسات التى كانت سائدة فى عصر سلطنة المماليك ، فالمؤلفة تؤكد أن الهيكل الأساسى الذى كانت النخبة المصرية تعمل من خلاله هو الزّمرة household المكوّنة من الرأس الراعى والتابعين (التوابع) ، حيث تتخذ هنا الزمرة شكل عنقود ؛ إذ يُتاح فيها قبول مزيد من الأعضاء الجدد (المجّندين) من مشارب مختلفة ، كما تتخذ هذه الزّمر (جمع زمرة) أشكالاً مختلفة .

وتركز الدراسة على زمرة القازدغلية Qazdağlı التى كانت فى الأساس فرقة أناضولية كبيرة ضمن فرقة (أوجاق) الإنكشارية فى مصر ، لقد سيطرت زمرة القازدغلية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وباستخدام وثائق الأرشيفات التركية والعربية والمصادر الأخرى ، ألقت چين هاثواى الضوء على الحالة التى استغلت فيها زمرة القازدغلية التسلسل الهرمى فى الإنكشارية ، بينما كانت – أى زمرة القازدغلية – تكوِّن تحالفات استراتيچية عن طريق الزواج والمصاهرة والمشاركة التجارية ورعاية خصيان البلاط العثمانى .

إن هذه الدراسة المثيرة سيكون لها تأثير كبير على فهم التاريخ المصرى والعثمانى ، وستكون من بين القراءات الأساسية للباحثين فى هذا المجال ، ولكل المهتمين بجذور التاريخ المعاصر .

توطئة

فى بداية مباشرتى لهذا العمل ، استفدت من نصائح وتشجيع كل من : ل .كارل برون Brown ، ومارك كوهين Cohen ، وميشيل كوك Cook ، وهاليل مالكيك malcik ونورمان اتيسكوڤتس Itzkowitz ، وبرنارد لويس ، و أ . ل . أودوڤتش Udovitch ، وقبل كل هؤلاء سيمال كافادار Cemal Kafadar ، فقد راحوا يحفزوننى بما لديهم من بصيرة نافذة ، وإننى ممتنَّة أيضا لإبراهام ماركوس Marcus الذى وجّه أبحاثى السابقة عن مصر قبل سنة ١٧٩٨ . وكان زملائى المتخصصون فى حقل مصر العثمانية كرماء معى جدا وقدموا لى عونا كبيرا ، ولا بد أن أخص منهم بالذكر دانيال كريكيليوس Daniel Crecelius ، وبيتر هولت Holt ، وأندريه ريموند André Raymond فرغم أننى تشكّكت فى بعض النتائج التى توصلوا إليها إلا أننى مدركة تماما أنه لولا جهدهم العلمى ما أمكننى التوصل لما توصلّت إليه ، وهناك زملاء آخرون قدموا لى نصائح متعلقة بمحتوى البحث ونصائح عند إعداد هذا الكتاب للنشر منهم فيليب برون Brown وريتشارد بوليت Bulliet ، وسيتفن ديل Dale ، وكارتر فندلى Findley ، وأولريش هارمان Haarmann ، وڤيكتوريا هوبروك Hobrook ، وإيڤ ليڤن Levin ، وآمى سنجر Singer ، وإيهود توليدانو Toledano ، واثنين من المتابعين فى مطبعة جامعة كامبردج لا أعرف اسميهما ، وقد أعد رون مكلين Ron Mclean من قسم خدمات الجرافيك بجامعة أوهايو Ohio الخرائط فى الوقت الذى أمدتنى فيه أقسام المخطوطات والكتب النادرة فى الجامعة بالصور الفوتوغرافية ، وقدم قاسم قره عمر أوغلو Karaômerlioglu مساعدات رائعة عند إعداد الكشاف ، وقدمت ميرجولد أكلاندا Mirğold Acland ومساعدتها إمّا مايز Emma Mayes فى مطبعة جامعة كمبردج إرشادات بهيجة تدل على خبرة فى كل مرحلة من مراحل النشر .

وما كان بإمكاني إنجاز هذا البحث دون كرم من الموجِّهين والعاملين فى الأرشيف العثمانى The Başbakanhk Osmanli Arşivi ، والمكتبة السليمانية Süleymaniye Library ، ومكتبة قصر طوبكابى وأرشيفه Topkapi Palace Library and Archives ، فى استانبول ، ودار الكتب المصرية فى القاهرة ، وقدّمت لى المكتبة الوطنية فى باريس ومكتبة المتحف البريطانى وقسم مجموعة مخطوطات جاريت Garrett فى مكتبة جامعة برينستون Princeton ميكروفيلمات للمخطوطات التى لديها ، ومن المفهوم أنه مما آنرنى أثناء البحث والكتابة والمراجعة مجلس مؤسسة فولبرايت ، ومعهد البحوث الأمريكى فى تركيا ، ومعهد الدراسات التركية ، فبفضل مساعدتهم فى فتح الأبواب والحصول على المواد اللازمة للبحث أمكننى مراصلة السير فى هذه الدراسة ، إننى أشكر مكاتب مؤسسة فولبرايت فى أنقرة وإستانبول والقاهرة ، وقنصلية الولايات المتحدة فى إستانبول Şükrü Hanioğlug ، وأعاننى مكتب البحث فى ولاية أوهايو Ohio أثناء عملية صياغة مخطوط بحثى وتحويله لكتاب ، وكذلك كلية ولاية أوهايو للإنسانيات .

وأخيرا فإننى أقدم خالص شكرى لبشير Beshir وستيلا Stella ، ولأمى مج هاثواى Meg Hathaway التى غرست فىَّ حب التعليم والتى جعلت التوجه الأكاديمى عندى ليس ممكنا فحسب وإنما مرغوبا أيضا ، وهناك بالإضافة لهؤلاء كثيرون ساعدونى بطريقة أو أخرى دون وعى منهم ودون إدراك منى .

ملاحظة :

ظهرت أجزاء من الفصلين الثانى والسادس قبل صدورهذا الكتاب على النحو التالى :

– الزُّمر العسكرية فى مصر The Military Household in Ottoman Egypt (IJMES 27 - 1995) أدرج فى الفصل الثانى من هذا الكتاب . 52 - 39

– تحالفات الزواج بين الزمر Military فى مصر العثمانية

Marriage Alliances among the Household of Ottoman Egypt . Al . 29 (1995) 133-49

أدرج فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

ملاحظات حول كتابة الأعلام والمصطلحات العربية والعثمانية

عند التعامل مع الأعلام والمصطلحات العربية والتركية العثمانية يجد المرءُ أنَّ عليه أن يختار بين طريقتين فى الكتابة ، لكننى حاولتُ - بدلاً من ذلك - أن أُزاوج بين طريقتين ، فأسماء كُلٍّ ذوى الشأن من المصريين وألقابهم ، وكذلك كل المسئولين العثمانيين - كتبتها جميعا بنقلها حرفا حرفا وفقا لطريقة كتابتها بالتركيّة العثمانيّة ، أما أسماء الأماكن والمواضع فى مصر وكذلك عناوين الكتب العربية وأسماء مؤلفيها العرب فكتبتها بالنقل حرفا حرفا وفقا لطريقة كتابتها العربيّة ، وعند الإشارة إلى أسماء المؤسسات حاولت أن أختار الصياغات الأكثر تآلفا مع ما اعتاد عليه القراء فى هذا الحقل ، فالمناصب العثمانية مثل قزلر أغاسى Kizlar Ağasi أو خازندار Hazindar - i Sehriyarf كتبتها منقولة حرفا حرفا من الصيغة التركية ، أما المؤسسات التى اشتُقّت أسماؤها من العربية والتى وردت عادة فى المراجع الثانوية بصيغها العربية (مثل : وقف وأوقاف الحرمين) فأوردناها بشكلها العربى ، وكذلك فعلنا بالنسبة للوظائف المحلية (مثل : صرّاف وقائم مقام) ، أما المصطلحات المملوكية فترد غالبا فى النص وفقا لورودها أول مرة ولم أجد ضرورة لشرحها وإلقاء الضوء عليها ، أما الألفاظ التى وجدت طريقها للمعاجم الإنجليزية فاحتفظت بها كما وردت فى هذه المعاجم مثل : علماء Ulema و Reaya

وقد اعتمدت طريقة الدورية الدولية لدراسات الشرق الأوسط The International Journal of Middle East Studies عند النقل حرفا حرفا من العثمانية والعربية إلى الإنجليزية ، وعلى أية حال فقد أخذت حذف العلامات الصوتية فيما عدا الخاصة بحرف العين فى أسماء الأعلام والأسماء التركية الشائعة غير المشتقة من اللغة العربية .

المختصرات

AI	Annales Islamologiques
BSOAS	Bulletin of the School of Oriental and African Studies
EI', EI^{2}	Encyclopedia of Islam, First & Second Editions
IJMES	International Journal of Middle East Studies
JAOS	Journal of the American Oriental Society
JESHO	Journal of the Economic and Social history of Orient.
MIDEO	Melanges de l'Institut Dominician des Etndes Orieutales
WZKM	Wiener Für die Kunde des Morgenlandes.

شكل (١)
نسب القازدغلية
وارتباطاتهم

= ارتباطات مصاهرة
-- ارتباطات بالزمرة
— ارتباط عصب (دم)
؟ غير مؤكد

رضوان بك الفقاري
حسن بك الفقاري
الكتخدا مصطفى القازدغلي ابن (بولوكباشي آغا)
al Hasri ابن الحصري
علي (؟)
مصطفى بك
إبراهيم بك
الآغا علي
الآغا محمد
ذو الفقار بك
الكتخدا حسن = أمينة خاتون = الآغا سليمان
الكتخدا عبد الرحمن
الكتخدا عثمان
الكتخدا نصيف
الكتخدا سليمان
الكتخدا إبراهيم
الكتخدا حسن
Biyiki بيكلي
رضوان بك
الكتخدا سليمان الجوخدار Cuhadar
الكتخدا محمد الطويل (؟)
الكتخدا عبد الله (؟)
الجاويش علي الطويل
بولوط قبان Bulut Kapan علي بك
حسن بك كشكش
عثمان بك الجرجاوي
الكتخدا يوسف البركاوي
الكتخدا محمد البركاوي
لاظ إبراهيم
علي بك ذو الفقار
عثمان بك ذو الفقار
حسن بك القاضي ؟
الشوربجي إبراهيم الصابونجي
الشوربجي محمد الصابونجي
حسن بك الصابونجي al-Sabunci
Qird علي بك القرد - إسماعيل - سليم تيمورلنك - محمد - عثمان
ابنة رضوان بك الجلفي al-Jalfi

الجاويش محمد قيالة
Bilifia الآغا حسن بلفية
إسماعيل بك = ابنة
ذو الفقار بك
محمد بك إسماعيل
إبراهيم بك ذو الفقار
قايتاس بك Qaytas
محمد بك قطامش
محمد بك
يوسف بك
خليل بك
علي بك
صالح بك
إبراهيم بك

شكل (٤)
الجلفية
ارتباطات
= زواج
-- برانى الزمرة
— صلة دم
؟ غير محدد

الأغا الحاج بشير (؟)
الخصي كبير الخصيان السود
الأغا محمد
منصور الزناهرسي
الست الجلفية = الكخيا حسن الجلفي
الأوده باشي شاهين
الشوربجي إبراهيم
الكخيا علي
أبو مناخير محمد يوسف
الكخيا سليمان
الكخيا رضوان
ابنة
إسماعيل بك
محمد الكاشف
علي الكاشف

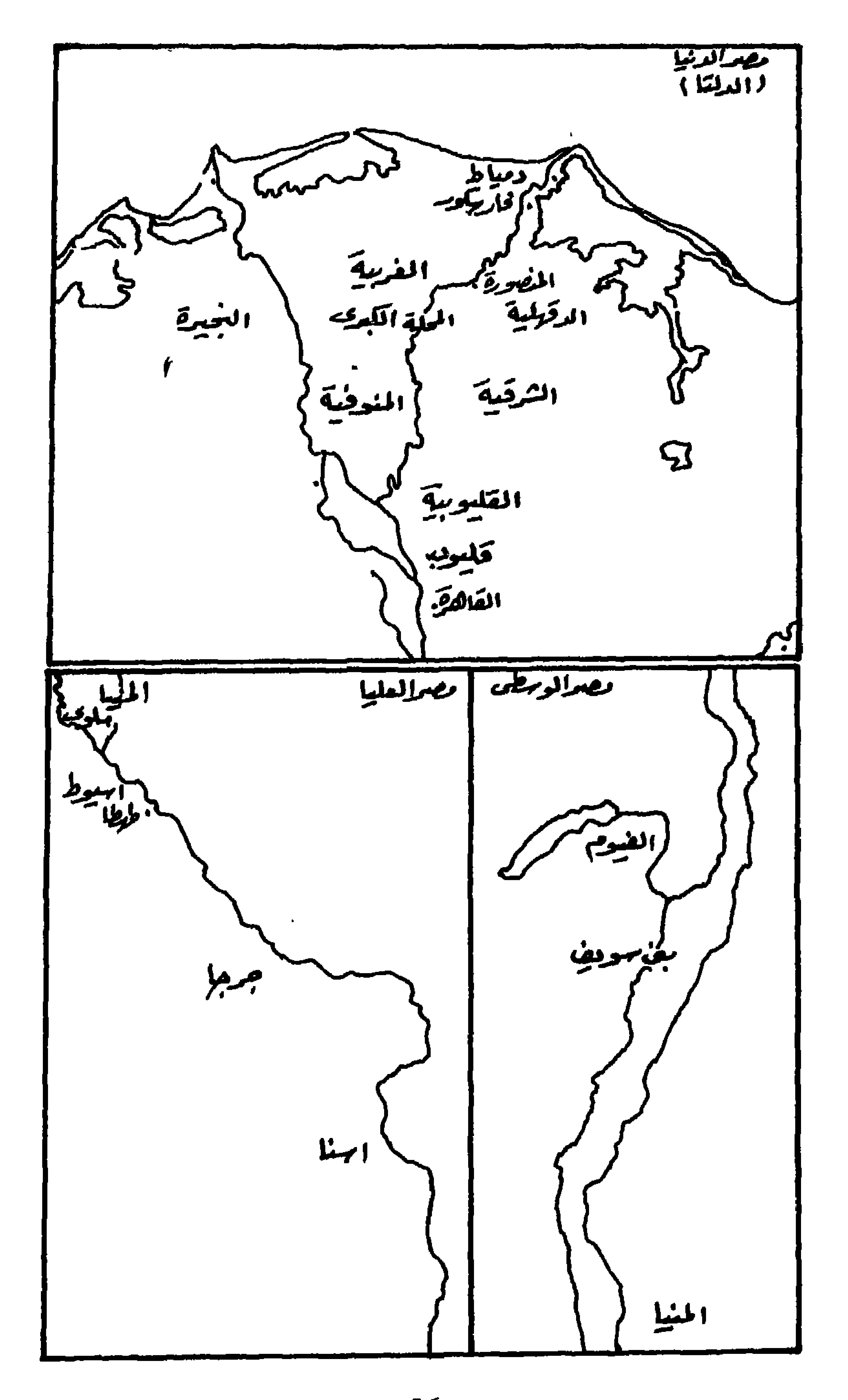
القسم الأول

مكان الزمرة الحاكمة فى تاريخ مصر العثمانية

الفصل الأول

مكان مصر فى الإمبراطورية العثمانية

فى صيف سنة ١٥١٦ كان واضحا لمعظم المتابعين لقصر طوبكابى الإمبراطورى العثمانى فى إستانبول – إنْ لم يكن لمعظم المقيمين فى المدينة بشكل عام – أن السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠) يستعد لحملة عسكرية حاسمة ضد واحد من عدوّيْه الرئيسيّين فى آسيا ، ففى بواكير هذا الصيف نصبت خيمة الحرب الخاصة بالسلطان فى أوسكودار Üsküdar على الساحل الشرقى للبوسفور ، وبحلول شهر يوليو كان قد وصل إلى معسكر جنراله سنان باشا فى ملطية Malatya فى شرق الأناضول ، وعلى أية حال فحتى هذا الشهر (يوليو) كان الهدف الذى سيوجه إليه سليم قواته موضع تساؤل ، فالإمبراطورية الصفوية الشيعية ذات الطابع العسكرى التى كانت قد سادت إيران فى بواكير القرن السادس عشر – كانت تمثل تحديا سياسيا وأيديولوچيا للإمبراطورية العثمانية ، مع أنه قبل ذلك بعامين فقط كان السلطان سليم قد ألحق بها هزيمة دامية فى جالديران (كَالديران) فى شمال غرب إيران ، وكان تحرك سنان باشا إلى ملطية Malatya لمواصلة المعركة ضد الصفويِّين ، وعلى أية حال فقد كان السلاطين المماليك الذين يحكمون مصر والشام والحجاز وجنوب شرق الأناضول قد أصبحوا مُزعجين – بشدَّة – لسليم ، ورغم أن المماليك كانوا على مذهب السُّنة كالعثمانيين فقد رفضوا دَعْم العثمانيين فى حربهم ضد الصفويين ، كما كان المماليك أيضا حاجزا بائسا ضد الوجود البرتغالى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وكانت العلاقات الدبلوماسيّة بين العثمانيين والمماليك قد تدهورت فى الأشهر الأخيرة ، فقد تعرّض سفيران عثمانيان للإهانة فى البلاط المملوكى فى القاهرة .


مصر الدنيا
(الدلتا)
دمياط
فارسكور
الغربية
المنصورة
الدقهلية
البحيرة
المحلة الكبرى
المنوفية
الشرقية
القليوبية
قليوب
القاهرة
مصر العليا
المنيا
ملوي
اسيوط
طهطا
جرجا
اسنا
مصر الوسطى
الفيوم
بني سويف
المنيا

لذا فقد كان لدى السلطان سليم أسباب تدفعه لخوض معركة مع كل من الصفويين والمماليك على حد سواء ، وعلى أية حال فعندما انضم السلطان سليم لجيشه فى ملطية Malatya فإنه بدلا من مواصلة زحفه شرقا إلى إيران ، استدار جنوبا عبر بوّابات Cilician Gates ، ودخل الشام بقواته ، لقد أصبح واضحا الآن أن سليم ينوى مهاجمة المماليك ، والتطورات السريعة للانتصار العثمانى على المماليك معروفة تماما ، لقد التقت قوات سليم بجيش السلطان المملوكى قنصوه الغورى فى سهل مرج دابق إلى الجنوب مباشرة من الحدود الحالية بين سوريا وتركيا ، ويُقال إن الغورى أصيب بالسكتة القلبية أثناء المعركة ، ولم يتم التعرّف على جثته ، وتروى الأساطير أن الأرواح (الجن) حملت جثته .

وواصل سليم طريقه جنوبا ، فاستولى على دمشق فى سبتمبر سنة ١٥١٦ . ودخل مصر فى مطلع سنة ١٥١٧ . وفى معركة استمرت ساعة خارج القاهرة اجتاح الجيش العثمانى قوات طومان باى خليفة الغورى ، ودخل العاصمة ، وبذا انتهى حكم السلطنة المملوكية[١] .

وفيما لا يتعدّى ستة أشهر من انطلاق سليم من ملطية Maletya أضاف للإمبراطورية العثمانية آلاف الكيلو مترات المربعة . لقد أصبحت الإمبراطورية الآن تضم قلب العالم الإسلامى بما فى ذلك الأماكن الإسلامية المقدسة بعد أن كانت كيانا بلقانيا أناضوليا غالب سكانه من المسيحيين ، وأصبح للعثمانيين أيضا وجود مُهيمن فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وفى البحر الأحمر ، لقد أتاحت هذه الإضافات الجديدة فرصا جديدة للإمبراطورية العثمانية كما ضاعفت من مسئولياتها ، وقد أصبحت مصر – فى الواقع – هى المسمار المثبِّت للحدود الجديدة للإمبراطورية ، فطوال قرن ونصف من بداية الحكم العثمانى لمصر كانت هذه الولاية هى المنطلق الإستراتيجى للحملات ضد البرتغاليين ، وللفتوحات العثمانية فى البحر الأحمر والحوض الشرقى للبحر المتوسط . لقد انطلق الفتح العثمانى لليمن فى سنة ١٥٣٨ من مصر ، واحتاج العثمانيون فى نضالهم الطويل المرهق للاستيلاء على كريت من البنادقة لآلاف الجنود من مصر ، وكان غالب ولاة مصر العثمانيين فى هذه الفترة عسكريين نشأوا فى كتائب الانكشارية ، وغالبا ما كانوا يحكمون ولايات أصغر (من مصر) ، والحقيقة أنه بعد غزو اليمن ظهرت مصر متمتّعة بتكافل سياسى مع اليمن ،

فكان والى مصر العثمانى يستطيع غالبا أن يتوقع سفره لليمن بشكل متوالٍ ، وفى هذه الفترة كانت نظم حيازة الأرض والنظم الإدارية فى اليمن هى حقيقة النظم نفسها فى مصر(٢) .

وكانت مصر أيضا - من منظور أكثر عمليّة - مصدرا غنيا بالمؤن للإمبراطورية ، فقد كانت ولاية مصر تدفع إرسالية مالية سنوية لاستانبول عرفت باسم إرسالية الخزينة irsâliye - i - ḫazíne ، وكانت هذه الإرسالية تفوق فى قيمتها أية إرسالية ترسلها أية ولاية أخرى(٣) ، وكانت مصر أيضا تقدم الرجال للمعارك التى تخوضها الإمبراطورية العثمانية ، ليس بالنسبة لمعارك فتح اليمن وكريت فحسب ، وإنما أرسلت أيضا رجالها للانضمام إلى الجيش العثمانى فى حروبه ضد إيران والنمسا ، وكانت مصر تقدم محاصيل حبوبها الوافرة لإطعام الجيوش العثمانية ولإطعام سكان الولايات العثمانية الأخرى إذا ما عانت من نقص محاصيلها ، وعن طريق مصر أصبح العثمانيون قادرين على الاتّجار فى العبيد السود الأفريقيين عن طريق السّودان .

وبانتصار العثمانيين على المماليك أصبحت الإمبراطورية العثمانية صاحبة السيادة على المدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، وادّعت لنفسها حقوق من يرعى هاتين المدينتين ، وكان كل من والى دمشق (الشام) ومصر ، مسئولين عن تجهيز قافلة للحج كل عام ، وكانت قافلة الحج المصرية تحمل الحبوب والأموال لفقراء المدينتين المقدستين ، كما كانت تصحب معها المحمل وهو محفّة رمزية تنتقل كل عام إلى مكة ، و كسوة جديدة للكعبة المكرمة أكثر الأبنية قداسة فى الإسلام .

وفى نهاية القرن السابع عشر تغيّر مكان مصر فى الإمبراطورية العثمانية تغيّرا مهما عامرا بالدلالات ، فلم تعد منطقة انطلاق تتجمع فيها القوات العسكرية لخوض المعارك فى البحر الأحمر والحوض الشرقى للبحر المتوسط ؛ فالبرتغاليون لم يعودوا يشكلون تهديدا للسيطرة العثمانية فى البحر الأحمر مع بداية القرن حيث راحت قوّة البرتغال تتضاءل ، وكانت كانديا (كانديه Candia) عاصمة البنادقة فى كريت قد استولى عليها العثمانيون أخيرا فى سنة ١٦٦٩ . ومع هذا فقد ظل الجنود المصريون يحملون على عاتقهم مهمة العمليات والحملات العسكرية فى الجزيرة (كريت) (٤) ، لقد انتهت (إذن) أيام المواجهات العسكرية الطارئة الملحة ، وفى هذه الأثناء أدّت

إطاحة الشيعة الزيديين بالحكم العثمانى فى اليمن فى سنة ١٦٣٦ إلى انتهاء مرحلة التكافل بين اليمن ومصر ، وأدّى إخفاق الحصار العثمانى لڤيينا فى سنة ١٦٨٣ إلى تسريح القوات العثمانية على الجبهة الأوروبية مما قلّص دور القوات المصرية فى معارك العثمانيين فى أوروبا . ومن الآن فصاعدا أصبحت أهمية مصر معلّقة بقدرتها على تسليم الإرسالية المالية والحبوب ، وتمويل المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، بذا تحوّل ولاة مصر من عسكريين محترفين إلى بيروقراطيين ورفاق قصور ، وستصبح هذه المهام الجديدة هى محور الاهتمام وعصب النزاع داخل جماعات الحكم نفسها فى مصر .

وواكبت تبعية مصر للدولة العثمانية تغيرات ديموجرافية (سكّانية) مهمة ، فسكان مصر – كما نعرف الآن – زادوا فى ظل الحكم العثمانى حتى بدأت الكوارث الطبيعية والاضطرابات السياسية التى سادت فى أواخر القرن الثامن عشر تعكس الاتجاه السائد ، فرغم أن القاهرة قد تقلّص وضعها من عاصمة إمبراطورية (لدولة المماليك) لعاصمة ولاية (عثمانية) إلاّ أنها – مع ذلك – كانت تضم عددا كبيرا من السكان ، كما كانت ذات مساحة كبيرة ، لقد كانت القاهرة وقت الفتح العثمانى تضم ١٥٠,٠٠٠ نفس وبحلول عام ١٨٠٠ أصبحت تضم ٢٥٠,٠٠٠ نفس(٥) ، وامتدت المدينة (القاهرة) جهة الغرب امتدادا كبيرا خلال حوالى ٣٠٠ سنة ؛ لأن النخبة السياسيّة والتجارية تحركت خارجة من المركز المزدحم بالسكّان والذى تمثّل القاهرة الفاطمية قلبه ، وفى خارج العاصمة أصبحت المدن التى كانت أسواقا للمديريات ذات أهمية تجارية أو استعادت هذه الأهمية – مثل دمنهور ومنية زفتى ، وأصبح الصعيد أكثر تكاملا كاقتصاد محلّى ؛ لأنه كان يتعيّن تقديم الحبوب من مزيد من قرى الجنوب للأعداد المتزايدة من المؤسسات الخيريّة على مستوى الإمبراطورية (الأوقاف ، والمفرد : وقف) لتمويل مكة والمدينة .

وأدى استيلاء العثمانيين على مصر إلى تدفق شديد ومتباين للبشر فى الولاية (مصر) مع أن العثمانيين نقلوا من مصر أعدادا كبيرة من الحرفيِّين وعلماء الدين المصريِّين إلى استانبول(٦) ، فقد بقى عدد كبير من الجنود العثمانيين فى مصر بعد الفتح لحماية الولاية الجديدة ، وكان هؤلاء الجنود من أصول تركية أناضولية مختلفة ، وشباب من البلقان تم تجنيدهم وفقا لنظام الدڤشرمة (ضريبة الدّم) ، وهو النظام

العثماني التقليدى الذى يتم بمقتضاه جمع الصبية غير المسلمين من المناطق المفتوحة ، ومجنّدين أتراك وكرد تم تجنيدهم بطريقة عفوية ، وفى هذه الأثناء وصل البيروقراطيون الناطقون بالتركية المختلفة أصولهم (أعراقهم) إلى القاهرة لينضموا إلى البيروقراطية المملوكية الذين ظلوا محتفظين بمناصبهم بعد سقوط السلطنة ، ونقل الولاة العثمانيون إلى القاهرة أعدادا كبيرة من أتباعهم الذين كانوا محيطين بهم ، وكلما بدأ دور مصر يتغير فى حضن الإمبراطورية العثمانية فى القرن السابع عشر راح رعايا أتراك آخرون يبحثون عن حظهم فى مصر أو على الأقل يلتمسون سبل العيش فيها ، وراح المرتزقة الأناضوليون يبحثون عن أساليب للرزق يمكن الركون إليها على نحو أكثر مما هو فى بلادهم بأن سجّلوا أسماءهم فى قوات الحامية العثمانية فى مصر كوسيلة لضمان أجور ثابتة (منتظمة) ، بينما يمارسون فى الوقت نفسه العمل فى ميدان التجارة الصغيرة ، وبحث ضحايا الاضطرابات السياسية فى إستانبول والأناضول عن ملاذ آمن فى مصر ، وأكثر من هذا ففى منتصف القرن السابع عشر بدأ نفى خصيان الحريم الإمبراطورى (السلطانى) بشكل روتينى إلى مصر حيث كدّسوا ثروات وجذبوا إليهم عددا كبيرا من الأتباع .

لقد كانت المجموعات العسكرية التى سارت فى ركاب الفتح العثمانى مختلفة اختلافا شديدا وواضحا عن النخبة العسكرية فى السلطنة المملوكية ، ومع هذا فلم تكن مختلفة عنها كُلِّيَّة ، لقد أدخل سليم الأول المماليك الذين أثبتوا ولاءهم للعثمانيين فى الجهاز الإدارى لكل من مصر والشام ، وأكثر من هذا فقبل عودته إلى إستانبول عفا عن عدد من المماليك المهزومين وسمح لهم بالبقاء فى مصر ، ويظهر أن إستراتيجية سليم فى اتِّباع هذه السياسة كانت قائمة على الموازنة بين القوات العثمانية المتمردة غالبا من ناحية والمماليك التائبين (الذين أعلنوا ولاءهم للعثمانيين) من ناحية أخرى .

وعلى النحو نفسه فإن النظام الإدارى الذى وضعه السلطان سليم وخلفه سليمان (١٥٢٠ – ١٥٦٦) لمصر كان يشتمل على عناصر فعالة من النظام الإدارى المملوكى بالإضافة إلى عناصر جديدة تكفى لضمان الهيمنة العثمانية ، وكانت أرض مصر الزراعية فى ظل السلطان المملوكى الراحل مقسّمة إلى أربعة وعشرين قيراطا موزعة على السلطان والأمراء والعسكر كإقطاع ، أو كحق انتفاع(٧) ، وهذه

التخصيصات دعمت الفرسان المماليك الذين يقودهم الأمراء ، وكان الأمراء - بمن فيهم السلطان نفسه - عبيدا أعتقهم السلطان السابق ، وكانت رتبهم تختلف وفقَ عدد الفرسان الذين يمكن أن تكفى إقطاعاتهم لتقديم الدّعم (المؤن وخلافه) ، ومن هنا كان هناك أمير عشرة ، وأمير أربعين ، وأمير مئة .

وكان الجنود الفرسان (أجناد ، والمفرد : جندى) مماليك الأمراء والسلطان الحاكم الذى يقودهم ، وعلى هذا فإن إقطاع الملوك من الناحية الوظيفية يشبه نظام التيمار فى مفعوله فى معظم الولايات العثمانية فى أوروبا وفى الأناضول قبل سنة ١٥١٧ . وكلاهما استلهم نظام الإقطاع السلجوقى السابق عليهما زمنا[٨] .

واحتفظ العثمانيون عند فتح مصر بالتقسيم المملوكى للبلاد إلى ١٣ قسما تضم ٢٤ قيراطا ، واستبعدوا المصطلح المملوكى « عمل » ذلك المصطلح الدال على القسم [المديرية أو المحافظة حسب المصطلح الموجود الآن - المترجم] لصالح المصطلحات العثمانية (ولاية « ڤيلايت Vilàyat) وناحية nâhiye ، أما جرجا الواسعة فى الصعيد فأطلق عليها المصطلح (إقليم) ، ويشير قانون نامه مصر الذى أعلنه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء the Grand Vizier) إبراهيم باشا فى سنة ١٥٢٥ إلى محافظى أو مديرى هذه الولايات ، أو النواحى ، أو الأقاليم باسم الكشّاف ، وهو مصطلح استُخدم للغرض نفسه خلال فترة حكم المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٨)[٩] ، وعلى أية حال فرغم هذا الإبقاء لم يحاول العثمانيون الاحتفاظ بنظام الإقطاع أو فرض نظام التيمار القريب الشبه منه ، وبدلا من ذلك صادر بسليم كل الإقطاعات واستعاض عن حائزيها بإداريّين معيَّنين برواتب محدَّدة عُرفوا باسم الأمناء emins أناط بهم جمع كل ضرائب الأرض ، وبحلول أوائل القرن الثامن عشر حل مصطلح التزام محل المصطلح السابق ، وفى ظل نظام الالتزام كان العسكريون من ذوى الرتب العالية ، والعلماء من ذوى المكانة (علماء الدين) يجمعون الضرائب الخاصة بوحدات إدارية معيَّنة على أن يدفعوا مقدما المبالغ المطوبة من هذه الوحدات لخزانة الوالى ، وبهذه الطريقة أصبحت عوائد كل الوحدات الإدارية ابتداءً من القرى حتى الولاية أو الإقليم أو الناحية بكاملها يتم جمعها بواسطة موظفين يتلقون أجورا على عملهم هذا ، وفى هذه الأثناء بدأ المزج بين الألقاب العثمانية والمملوكية يأخذ طريقه إلى التطبيق على هؤلاء الملتزمين ، وفى أواخر القرن السابع عشر كان الالتزام فى النواحى والولايات والأقاليم داخل مصر غالبا ما يُطلق عليه اسم سنجق Sancaks ، وهو يشبه

كثيرا ما ساد فى التقسيمات الإدارية الفرعية فى الأناضول والروميللى فى ظل نظام التيمار ، وكان القابضون على الالتزام يطلق على الواحد منهم بسنجق Sancak وسنجق بِك Sancak bey وبِك bey وأمـيـر ، وعلى أية حـال لابد أن نؤكّـد أن هؤلاء البكوات فى قرون الحكم العثمانى الوسطى فى مصر لم يكونوا صورة طبق الأصل من بكوات المماليك أو - حقيقة - للبكوات الكلاسيين فى ظل الحكم العثمانى ، لقد كوّنوا بكويّة beylicate عثمانية جديدة من جامعى الضرائب (الملتزمين) [١٠].

وباختصار فإن الإدارة فى مصر العثمانية ليست استمراراً للنظام الإدارى فى أواخر عصر المماليك ولا هى فرض للنظام الإدارى العثمانى الكلاسى ، وإنما هى إستراتيچية إدارية جديدة تحمل عددا من الملامح من كل من النظام المملوكى والنظام العثمانى التقليدى ، وهذا النظام الجديد (المختلط) يحاول التوفيق بين العسكر العثمانيين والمماليك السابقين . لقد كان المماليك منتظمين فى ست فرق (أوجاقات regiments) كانت مهمتها الأساسية حماية garrisoned مصر [١١] ، كان منها ست كتائب من الفرسان - الشركس - وهم مكوّنون من مماليك من أتبا ع الأمير المملوكى خاير بك الذى تعاون مع قوات العدو (القوات العثمانية) والذى عينه العثمانيون أول وال (عثمانى) لمصر ، وكان من المتوقع أن يكون حكام الولايات الداخلية فى مصر أو نواحيها من رتبة بسنجق بك Sancak beyi الذين يشبهون كثيرا نظراءهم فى المناطق المركزية للإمبراطورية ، وكما فى مناطق الإمبراطورية المركزية كان من المتوقع على نحو ما أن يكون قادة الفرق (الأوجاقات) أو الأغوات من الذين تمت ترقيتهم إلى هذه الرّتبة بسنجق بك Sancak beyi .

وربما لم يكن هناك مفر من أن يكون نظام الإدارة المملوكى العثمانى المهجّن غير مُتمشٍ مع خطة قانون نامه مصر الصادر فى سنة ١٥٢٥ ، وكان حُكم الأقاليم والنواحى والولايات الداخلية يكاد يكون مساويا لحكم الإمارات المملوكية (السابقة) ، رغم أن الراتب أو الأجر كان هو المقابل للقيام بمهام السنجق بك Sancak beyi وليس مَنْح الأراضى ، وقد رُقى الأمراء المماليك السابقون وبعض المجندين القوقازيين الجرد إلى رتبة السنجق بك ، حتى أنه فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ظهرت مجموعة جديدة من البكوات كطبقة بغض النظر عن الانتماء العسكرى لفرقة (أوجاق) ، ولا شك أن الرغبة فى كبح تأثير هذه المجموعة كانت وراء إقامة الحكومة العثمانية

لفرقة (أوجاق) سابعة فى سنة ١٥٥٤ ، وقد شغل هذه الكتيبة الجديدة (المتفرقة) Müteferrika خلاصة النخبة العسكرية الإمبراطورية وذراريهم ، وبعد تكوين هذه الفرقة (الأوجاق) بفترة وجيزة صدر الأمر الإمبراطورى باستثناء كل الفرق (الأوجاقات) الأخرى خلا المتفرقة من الترقية لرتبة سنجق بك Sancak beyi(١٢) وفى أعقاب (قانون) إصلاح الأراضى الصادر بسنة ١٥٥٣ ، الهادف إلى كبح تحويل عوائد الأراضى كمؤسسات الأوقاف بواسطة النبلاء المحلّيين(١٣) ؛ ظهر أن هذه الإجراءات تعكس رغبة الدولة العثمانية فى إحكام قبضتها المركزية - أكثر فأكثر - على مصر . لقد دلّت كل الظواهر على أن الحكومة العثمانية المركزية راحت تعمل على عثمنة البكلرية وعلى إيجاد رباط مؤسّسى بين البكلرية والجهاز العسكرى العثمانى Ottoman Soldiery ، وعلى أية حال فإن بكوات المتفرقة والجاويشية "Çavuş Origin بدأوا أخيرا فى مد جذورهم فى التربة المحلية ، وبدأوا فى تجنيد الأتباع لصالحهم ، وربما يفسر هذا ذكر الحَوليات فى بداية القرن السابع عشر لبكوات من أصول مختلفة : عبيد (مماليك) قوقازيين ، ومجندين من البوسنة والأناضول ، بل وبكوات من المصريين من أهل البلاد native ، ولم يكن هذا المزيج العرقى ليؤدّى إلا إلى المساهمة فى إحداث الفرقة فى الولاية (مصر) ؛ ذلك لأن بكوات المتفرقة العثمانيين والجاويشية وأتباعهم تناحروا مع العناصر الأخرى لشغل المناصب واقتسام العوائد .

هذا الانقسام قد يكون هو الكامن وراء ظهور عصبتين (فريقين ، أو زمرتين) فى النخبة العسكرية فى القرن السابع عشر : الفقارية (نسبة إلى ذى الفقار) والقاسمية (نسبة إلى قاسم) ، وقد اندمجتا مع فريقين (زمرتين) بدويّين قديمين ، إذ اندمجت الفقارية مع نصف سعد واندمج القاسمية مع نصف حرام Harám وامتدت المنافسة بين الزمرتين (الفريقين) فى القرن السابع عشر لتشمل المجتمع المصرى ، وتجاوزت مجال العسكريين لتضم البدو والحرفيين .

وظلت أصول هذا الانقسام (التشرذم) غامضة ، فلم تكن هناك زمرة مملوكية بالمفهوم النمطى ، تلك الزمرة التى كان يكونها السلطان المملوكى ليجمع أتباعه فى مواجهة زمرة سلفه ، ويربط ثلاثة مؤرخين حوليين — على الأقل - ممن كتبوا باللغة العربية بين ظهور هذا الانقسام الآنف ذكره والفتح العثمانى لمصر ، وهؤلاء المؤرخون الحوليون يُرجِعون ذلك لروايات أسطورية متعلقة بالعرق أو الأصل وربما كان لهذه الحكايات - فى الحقيقة - بعض الأساس(١٤) ، وثمة أدلّة ثانوية تشير إلى أن اسم

الفقارية يرجع إلى شعار الخليفة على بن أبى طالب وهو سيفه ذو الفقار، والذى كان يظهر واضحا على كثير من أعلام المعارك العثمانية خاصة أعلام الإنكشارية (١٥) ، وهذه النظرية تتفق مع الحكايات الأصلية التى تؤكد أن الفقارية - على عكس القاسمية - وقفوا إلى جانب العثمانيين ، أما مصدر دعوى القاسمية فأكثر غموضا ، فربما كانت هذه المجموعة لها صلة بالأسرة القاسمية الحاكمة التى حكمت اليمن بعد هزيمة العثمانيين (فى اليمن) بسنة ١٦٣٦ . وعلى أية حال فبنهاية القرن السابع عشر كانت الأصول التاريخية للفرقتين قد دخلت غياهب النسيان ولم تبقَ إلاّ الأساطير والزخارف ، لذا فعندما ذكر المؤرخ الحولى عبد الرحمن الجبرتى أن طريقة تمييز كل زمرة (فريق) عن الآخر كانت أن يرفع الفقارية علمًا أبيض وأن يكون لرماحهم عُقد بينما يرفع القاسمية علما أحمر وأن يكون لرماحهم أقراص (جمع : قرص) (١٦) .

وهناك سبب للاعتقاد أن هذا كان مجرد وسيلة من الوسائل بقيت للتمييز بين الفريقين .

ورغم مقاصد قانون نامه مصر أصبحت الروابط بين المؤسسة العسكرية والبكلرية غير ودودة مع نهاية القرن السادس عشر ، وفى أواخر السلطنة المملوكية كانت الصلة قد انقطعت بشكل مباشر وبوضوح - فى غالب الأحوال - بين المماليك الفرسان والأمراء المُقْتَقين ، وفى المناطق المركزية للدولة العثمانية ، وجدنا أيضا خطا محدّدا يتطوّر ليفصل بين ضابط الأوجاق (أو الفرقة العسكرية) ومنصب السنجق بك sancak beyi . وعلى أية حال فإن هذه الروابط المعوّل عليها لم تعد موجودة فى مصر ، ففى أواخر القرن السادس عشر أصبح للبكلرية قليل من العلاقات المباشرة مع الفرق (الأوجاقات) regiments ، بينما كان البكوات ذوى وضعية أعلى على نحوٍ ما من أى من ضباط الفرق (الأوجاقات) (١٧) ، هذه الفجوة بين البكوات من ناحية ، والضباط من ناحية أخرى أوجدت صراعات شديدة على النفوذ والعوائد بين المجموعتين ، وأدى انتشار الالتزام بحلول القرن السابع عشر إلى تفاقم النزاع بين العسكريين Soldiery والبكلرية ، لقد حرم الالتزامُ مصر من التمايز المنطقى التام بين العسكريين والبكوات والذى كان قد ساد - أى هذا التمايز - فى ظل نظام الإقطاع المملوكى ، أو الذى ربما يكون قد ساد فى ظل نظام التيمار العثمانى ، ففى ظل

النظام المملوكى (أيام السلطنة المملوكية) كان العبد (المملوك) المحرّر يرتقى إلى رتبة قائد فرسان ، وكان يتلقّى إقطاعا كهبةٍ ليعول الفرسان (وخيولهم) الذين يقودهم ، وفى ظل النظام العثمانى الكلاسى كان السنجق بك يتولى مجموعة من التيمارات تعرف باسم السنجق Sancak ، ولم يكن الإنكشارى – وهو من المشاة – يستطيع أن يكون لديه حق انتفاع بمخصصات كمخصصات الفرسان وإنما كان يتلقّى راتبا نقدا وعيْنا (مؤنا) من الخزانة الإمبراطورية ، وعلى أية حال فمع إدخال نظام الالتزام انضم البكوات للعسكريين Soldiery كموظّفين يتقاضون راتبا ، ونظرا لأن ازدياد رواتب الانكشارية كان أمرا غير مؤكد فى أواخر القرن السادس عشر وجدناهم هم وبقية العسكريين العثمانيين يجدون الحافز الكافى للدخول فى صراع للحصول على التزام ، فالالتزام الذى يمنحه السلطان يتيح للبكوات والعسكر دافعين مشتركين للمنافسة ؛ ليس فقط للاستمتاع بعوائد الالتزام نفسه وإنما أيضا الرضا السلطانى (الإمبراطورى) الذى يتيح لمن حصل على الالتزام الاحتفاظ به دون إزعاج (أى دون أن ينتقل إلى غيره) ، وباختصار فإن الفجوة بين البكوات والعسكريين كانت ملمحا محدّدا فى المجتمع العسكرى لمصر العثمانية نتيجة رفض العثمانيين السماح لمصر بالارتباط بالأعراف التى سادت فى أواخر العصر المملوكى ، أو – من ناحية أخرى – الأخذ بالنظام العثمانى الكلاسى .

وزاد الضغط على العسكريين فى نحو نهاية القرن السابع عشر عندما فاضت الولاية (مصر) بالجنود الأناضوليين ، سواء من الجند السلطانى (الإمبراطورى) أو المرتزقة ، فانتهاء الحرب التى طال أمدها فى كريت سنة ١٦٦٩ ، وتفكك قوات الجيش بعد فشل الحصار العثمانى لڤيينا سنة ١٦٨٣ . – أدى إلى تسريح عدد كبير من الجنود من العاصمة الإمبراطورية مما أدى لانتشارهم فى أنحاء الإمبراطورية ، وكان يطلق على هؤلاء المبعدين عن العاصمة الإمبراطورية إلى الولايات اسم الكابيكوللارت Kapikullart ، ومما غذّى هذا الفيض عدمُ الاستقرار الذى ساد فى الأناضول . وتذكر الحوليات المصرية أنه منذ وقت باكر يعود للعقد السادس من القرن السابع عشر (سنى الستين منه) كانت مجموعة من الجنود الأناضوليين الأفظاظ يجرون فى شوارع القاهرة وقد تملكهم سُعار القتل والتدمير[١٨] ، وفى مصر وجدنا عددا كبيرا من هؤلاء الجنود المسرّحين يتحولون إلى مرتزقة تم ضمهم بواسطة جماعات منظمة من الجنود العثمانيين ، أُرسلوا إلى الولاية (مصر) فى مهام خاصة ، ونتيجة هذا

التدفق نَعِم عسكريو الإنكشارية وكتائب الغربان Azeban Crops خاصة الضباط بثقل فى المجتمع العسكرى فى مصر ، لم ينعموا بمثله قبل ذلك ، لقد بدأوا يتحدون البكوات للحصول على العوائد المتاحة ولم يستطيعوا تجنب الدخول فى منافسة للحصول على الالتزامات ، وقد كانت الرغبة فى الحصول على الالتزامات قد زادت فى نهاية القرن السابع عشر عندما أخذت الإمبراطورية العثمانية بنظام توريث حيازة الالتزام مدى الحياة المعروف باسم المالكيان málikáns ، وعلى أية حال فإن النوع الوحيد من الالتزام الذى لم يكن ضباط الفرق يستطيعون الوصول إليه هو حكم الولايات والنواحى والأقاليم ، فهذا المنصب كان قاصراً على السنجق بك ، وكان يجدد سنويا ، ومع هذا فإن ضباط الفرق كانوا قادرين على منافسة البكوات فى الثروة والمكانة بمد جذورهم فى التربة المصرية ، وحصولهم على الامتيازات المربحة الأخرى ، وممارستهم التجارة .

والسمة المميزة لهذا البروز الجديد للعسكريين خلال هذه السنوات هى أن الأغوات – وهم الضباط الأعلى رتبة فى الفرق العسكرية – لم يكونوا يرقون إلاّ نادرا إلى رتب البكوية ، وكان هذا النوع من الترقية فى حقيقة الأمر بمثابة عقاب لهم ؛ إذ كان الهدف منه هو إبعاد الضابط عن قاعدته فى الفرقة (الأوجاق) (١٩)، وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تتيحَ هذه الترقية للضابط فرصة الحصول على التزام كبير فى الأقاليم أو النواحى أو الولايات الداخلية ولشغل وظائف مربحة كمسئول خزانة أو قائد لقافلة الحج . فالقائد الجونوليانى (من أوجاق الجمليان Gönüllüyan) القوى حسن أغا بلفية Bilifya يعد مثالا بارزا على ذلك ؛ إذ تمكّن من جعل بعض أتباعه أغوات ، وجعل بعضا من هؤلاء الأغوات بكوات ، باتباعه مثل هذه الإستراتيجية .

إلاّ أنه لم يكن كل المسجَّلين فى الفرق من الجند المخصلين (غير المخادعين) ، فقد كان من الممكن لأى مواطن من أى فئة (بل لأى مواطنة) أن يدرج اسمه فى أحد الفرق (الأوجاقات) ولم يكن هذا ممكنا فحسب ، بل كان مطلوبا أيضا ، وبهذه الطريقة يصبح المواطن جنديا شرفيا ويقبض الراتب الشهرى المخصص للفوج (الكتيبة) الذى سجل اسمه فيه ويُعفى من الضرائب ، ويعمد الجنود (العاملون) من جانبهم إلى الالتحاق بالحرف كوسيلة لزيادة دخولهم ؛ إذ لا يعوّلون على رواتبهم الحكوميّة التى لا يعوّل عليها ، وكان أوجاق الانكشارية هو الذى يسىء استخدام هذا

الامتياز على نطاق واسع ، فقد كان الانكشارية يجبرون حرفيي القاهرة بشكل متتابع على قبول هذه الفرقة ، وبذا يحققون لأنفسهم دخلا مربحا وكبيرا (يعوّل عليه) مقابل إدراج أسماء الحرفيين في سجلات أصحاب الرواتب في الفوج ، وبحلول القرن الثامن عشر كان هناك حوالي ١٤٠٠٠ من المقيمين في القاهرة ، أو ما تتراوح نسبتهم ما بين ٥٪ إلى ٦٪ من سكانها - مدرجين في سجلّات الأفواج العثمانية[٢٠]، ونكاد نكون على يقين أن جزءًا قليلا فقط من هؤلاء كانوا مقاتلين فعليّين .

وباختصار فقد انتقلت الإمبراطورية العثمانية من مرحلة الغزو العسكرى إلى دولة بيروقراطية جامعة للعوائد والدخول خلال القرن السابع عشر ، حيث اتّسم هذا القرن بمركزة موظفى الدولة والعاملين فى خدمتها فى الولايات ، وفى مصر تطوّر العسكريون من مشاركين فى المعارك الإمبراطورية والتجريدات العسكرية الخاصة فى الولايات إلى مجموعات محلية ذوات مصالح ، ولهم وضعهم الحصين ، والحقيقة أن أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر فى مصر شهدت مرحلة امتد فيها نفوذ العسكريين خاصة ضباط الفرق بطريقة لم يسبق لها مثيل ، ففى جانب كبير من هذه الفترة كان يُهيمن على مصر ثلاثة على رأسهم القائد فوج الجونوليان (الجمليان Gönüllüyan) حسن أغا بلفية ، وهو شخصية ماكرة سنتعرف عليها فى هذا الكتاب ، أما شريكاه فهما صهره إسماعيل بك وشخص آخر تحت حمايته وهو الضابط الإنكشارى الكخيا مصطفى القازدغلى ، وكان هؤلاء الثلاثة على رأس فريق الفقارية أحد الفريقين اللذين اقتسما مصر عسكريا وحرفيا وقبليا منذ بداية القرن السابع عشر على الأقل .

وكان الكخيا مصطفى القازدغلى - تابع الأغا حسن بلفية - هو الذى أسس الزمرة الحاكمة التى ستحكم مصر طوال قرن بعد ذلك ، بل إنه عند حلول أواخر القرن الثامن عشر كانت مجموعة القازدغلى تكاد تعرف بأنها زمرة الكخيا مصطفى ، وكانت الرتب العليا فيها من مجموعة من البكوات يكادون يكونون جميعا من المماليك (العبيد) الچورچيين (من أصول چورچيّة) ، وفى هذه الأثناء كانا قد فقدا كثيرا من أهمية تنظيمها المؤسس ، وقل دخل أتباعهما من العامة والبكوات ، مثلهما مثل الفرق العسكرية ، وعلى أية حال فقد كان بعض الضباط الإنكشارية من الرتب العليا لا يزالون ذوى أهمية للحفاظ على النظام فى القاهرة .

وتُظهر كل الشواهد أن تحولا حدث فى صفوف العسكريين فى مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، وبينما رجحت كفّة البكلرية فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وأصبح هذا الرجحان ملحوظا من قبل الدارسين ، إلاّ أن الظروف والملابسات التى سبقت ذلك وكانت سببا له ظلت بعيدة عن الدراسة المتأنية إلى حد كبير ، حقيقة إن ما قد نسّميه الفترة الوسطى فى حكم العثمانيين لمصر وبالتحديد الفترة من ١٦٥٠ إلى ١٧٥٠ ظلت – نسبيا – بمثابة مياه خلفية غير مكتشفة (منطقة منعزلة غير واضحة المعالم) فى تاريخ مصر العثمانية ، فهيمنة البكلرية فى أواخر القرن الثامن عشر ارتبطت بالظروف والملابسات التى سادت فى فترة أواخر السلطنة المملوكية (أى فترة ما قبل الفتح العثمانى لمصر) أكثر من ارتباط فترة حكم العسكريين (الفرق العسكرية) السابقة مباشرة لفترة حكم البكلرية بها (أى فترة نهاية السلطنة المملوكية) وعلى هذا فإن البكلرية الچورچية (البكوات المماليك من أصل چورچى) تُعتبر إحياء أو – فى بعض الحالات – استمرارا لممارسات الإمارات المملوكية ، ومن هنا فقد تميز عمل المجموعة الصغيرة من الباحثين الذين أوْلوا اهتماما فائقا لبنية النخبة العسكرية فى مصر العثمانية بالإلحاح على ربط مصر العثمانية بمصر المملوكية عَبْر البكلرية ، وصحب هذا الميل إلى الإشارة لأواخر القرن الثامن عشر باعتباره ذروة تطور البكلرية .

ولنضرب مثالا واحدا بهذا الاستعداد لتحليل المجتمع العسكرى العثمانى فى مصر بالمصطلحات نفسها لمجتمع المماليك السابق عليه بالدراسة الرائدة التى أعدها ب . م . هولت P.M.Holt التى اعتمدت فى الأساس على المصادر العربية والتى وضعت أسس الدراسات الحديثة للنخبة العسكرية فى مصر العثمانية ، ففى مقال يتناول أفكارا أساسية عن البكلرية المصرية فى القرن السابع عشر ، نجد هولت يُصور لنا إدخال كتائب المتفرقة إلى مصر فى سنة ١٥٥٤ . باعتباره مثل إدخال كتائب الخاصكية Khassakiyya فى السلطنة المملوكية ، وكانت الخاصكية مكوّنة من مماليك السلطان نفسه (العبيد التابعين له شخصيا أو الذين هم من ممتلكاته) ومن بينهم كان يتم اختيار الأمراء الجُدد[(٢١)] ، وعلى هذا فالمتفرقة فيهم شبه ظاهرى من الخاصكية ، ماداموا هم الحراس الشخصيين للوالى العثمانى ، وظلّت البكلرية لعدّة سنوات

قاصرةً عليهم ، بل إن هذه الكتيبة (المتفرقة) كان لها الاسم نفسه لكتائب المتفرقة فى العاصمة الإمبراطورية (العثمانية) ، وكانت المتفرقة المصرية ، كالمتفرقة فى العاصمة العثمانية ، يتم شغلها من جنود القصر - لا من سواهم - وبذا كانت نخبة من الحاشية العثمانية في مصر ، وأكثر من هذا كما رأينا ، فقد تم استحداثها فى مصر كجزء من محاولة عَثْمنة إدارة الولاية (مصر) .

ومعنى أن نصف هذه الفرقة (الأوجاق) ، بأنها مجرد عودة لنظام الفرقة الأخرى التى كانت موجودة زمن السلطنة المملوكية ، هو إساءة فهم لغرضها الحقيقى فى المجتمع العسكرى العثمانى فى مصر .

وهذه الدراسة تعمل على التمعُّن فى هذه الفترة الوسطى للحكم العثمانى فى مصر من سنة ١٦٥٠ وحتى سنة ١٧٥٠ ، اعتقادا منا أن أسباب التغيرات المختلفة فى صفوف العسكريين المصريين يمكن أن توجد فى سياق التاريخ العثمانى والمحلِّى ، ولقد ذكرت آنفا الحالة التى برز فيها العسكريون خلال أواخر القرن السابع عشر نتيجة تغييرات أساسية فى طبيعة الإمبراطورية العثمانية وما صاحبها ، أو لازمها من تغيرات فى الولايات التابعة لها ، وللهدف نفسه قصدت أن أتفحّص تكون المجتمع العسكرى فى مصر خلال هذه الفترة المهمة لأكشف عن جذور هيمنة البكلرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، إنها فترة جديرة بالدراسة فى حد ذاتها أيضا ، فالتحليل الدقيق للبنى (جمع : بنية) التى عملت من خلالها التشكيلات والتكوينات العسكرية ، والتداخل بين رتبها (مراتبها المختلفة) ، والتحالفات الإستراتيجية بين تكوينات الفرقتين المهيمنتين - كل هذا سيلقى الضوء على طبيعة المجتمع العسكرى ومكانه ضمن المجتمع العثمانى ككُل .

وقد اخترت أن أركز فى دراستى على زمرة **household** أسسها فى أواخر القرن السابع عشر الكخيا مصطفى القازدغلى فلم تكن زمرة القازدغلى ببساطة واحدة من بين التجمعات (المجموعات) العسكرية التى مارست الانتقال من سيطرة الفرق العسكرية إلى سيطرة البكلرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بل إنَّ الأقرب للصحة أنّ هذه الزمرة كانت فى طليعة هذا الانتقال وباعثةً له ، إن قصة التغيرات التى نقلت مصر خلال قرن من القيادة العسكرية الثلاثية إلى البكلرية المملوكية الجورجية هى إلى حد كبير قصة ظهور وتطور الزمرة القازدغلية .

الهوامش

(١) عن الفتح العثمانى لمصر وآثاره انظر :

– محمد بن أحمد بن إياس ، ترجمة : دبليو . اتش . سالمون

An Account of the Ottoman Conquest: Salmon of Egypt in the year A. H. 922 (A.D. 1516) London, 1921 .

– محمد بن أحمد إياس

Journal d'un bourgeois du Caire

ترجمة : جاستون وايت Weit ، ٢ مج (باريس ١٩٥٥)

– چان لويس باك – جرامون

Jean - Louis Bacque - Grammont Les Ottomans , Les Safavides et Leurs Voisins

(إستانبول ، ١٩٨٧) ص ص ١٨ – ٩٩ ، ٢٠٦ – ٢٠٧٪

P. M. Holt , Egypt & the Fertile Crescent - 1915-1922 : A Political history (Ithaka and London, 1966) pp. 3 - 45.

G. W. F. Stripling : The ottoman - Turks and the Arabs, 1511- 1574,

Ilinois Studies , in the Social Sciences, Vol. xxvi, no. 4 (Urbana, Il, 1942)

(٢) شمس الدين عبد الصمد ، دخول العثمانيين الأول إلى اليمن ، حرره عبد الله محمد الحبشى (بيروت ، ١٩٨٦) ص ٨٦ وما بعدها .

(٣) عن إرسالية الخزينة tribute انظر :

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt , 1517 - 1798 (Prin ceton, 1962 pp. 283. ff.

(٤) انظر على سبيل المثال أرشيف باسباكانليك العثمانى فى استانبول – الدفاتر المهمة ٩٩ ، رقم ٧٥ (١١٠١/ ١٦٨٩) .

Başbakanlik Osmanli Arsivi, Mühimme Defteri.

(5) André Raymond, " La Population du Caire et de l'Egypte à l'époque Ottomane et sous Muhammad Ali " in Memorial Ömer lutfi Parkan (Paris, 1980)

(6) Ibn Iyan, Journal d'un bourgeois du Caire , Vol.1.PP. 79 ff' Gaston Weit, " Personnes déplacées " Revue des Etudes Islamiques 27 (1959) 9 - 21.

(٧) عن نظام الأرض فى السلطنة المملوكية انظر : حسنين ربيع :

The Size and Value of Iqtā in Egypt 564 - 741 / 1169 - 1341 " in Michael Cook (ed.) Studies in the economic History of the Middle East : From the Rise of Islam to the Present day, (oxford , 1970)

A.N. Poliak, " some notes on Feudal System of the Mamluks " Journal of the Royal Asiatic Society (1937) 97 ff.

وعن المجتمع المملوكى انظر :

David Aylon, l'Esclavage du mamelouk (Jerusalem 1951)

وانظر أيضا دراسته :

Studies on the Structure of the Mamluk Army " Parts - 1 - 3 1955) 203 - 228, 448 - 76 and 16 (1957) 57 - 90.

(٨) عن الإقطاع السلجوقى ، انظر على سبيل المثال :

Claude Cahen., " l'Evolution de l'Iqta du Ixe au xiiie Siècle " in Claude Cahen, les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale (Damascus, 1977) .

وعن نظام التيمار العثمانى انظر على سبيل المثال :

Halil Inalcik : The Ottoman Empire :The Classical age , 1300 - 1600

Norman Itzkowitz & Colin Imber (London , 1937) pp. 114 - 118 . : ترجمة

(9) Heinz Halm, Ägypten nach den Mamlukischen Lehens registern, 2 vols (Wiesbaden, 1979) Vol. 1 pp. 60 ff.

كانت الولايات الفرعية المصرية (النواحى) البالغ عددها ١٢ هى :

المنوفية ، والقليوبية ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والبحيرة ، والجيزة ، والفيوم ، وأطفيح Atfih ، والعشمونية Ushmunayan ، ومنفلوط ، والبهنسا ، وجرجا . وعن تبنى العثمانيين للنظام المملوكى انظر :

- Misir kanunnánmesi " in Omer Lutfi Barkan xvve - xvi inct asirlarda Osmanlii mparatorluğunda Ziroû ekonominin hukuki ve mali esaslari, Istanbul Universitesi Edehiyat Fakultesi Yayinlarindan No 256 (Istanbul, 1943) vol . 1 , Chapter 105 .

- Shaw, Financial and Administrative Organization, pp. 28 ff, 60 - 62.

- P. M. Holt, " the Beylicate in Ottoman Egypt during the 17 the Century," BSOAS 24 (1961) .

(١٠) الكلمة ": Beylicate " نتجت عن إضافة لاحقة لاتينية للمصطلح التركى Bykik وهى تشير إلى منصب Post اليك . وهى كلمة شائعة فى الدراسات الثانوية عن مصر العثمانية .

(١١) وهى جاويشية Çavuşan ، وجمليان Gönüllüyan والتفكجية Tüfenkciyan ، Çerakise ، (الشركس) ، الإنكشارية (المستحفظان) والعزبان Ázeban

(١٢) الدفاتر المهمة Mühimme Defteri ، رقم ٤٨٧ (٩٧٢ /١٥٦٤) ورقم ٩ (١٥٧٦/٩٨٤)

(13) Stanford J. Shaw, " The Land Law of Ottoman Egypt (960 / 1553) ; A Contribution to the Study of Landholding in the Early years of Ottoman Rule in Egypt: , Der Islam 38 (1962) 106 - 37

(١٤) انظر على سبيل المثال ، أحمد جلبى (شلبى) بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولّى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ،نشر أ. أ. عبد الرحيم (القاهرة ، ١٩٧٨) ص ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

– عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٧ مج (القاهرة ، ١٩٥٨ – ١٩٦٧)

– أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، الدرّة المصانة فى أخبار الكنانة ، المتحف البريطانى – مخطوطات شرقية Ms. Or – ١٠٧٣ – ١٠٧٤ ، ص ص ٢ – ٥

(15) Zdzislaw Zyguslski, Jr. Ottoman Art in the Service of the Empire (N.y, 1929 pp. 45 - 51 , 69 ff.

Fevzi Kurtoğlu, Türk Bayragi ve Ay Yildt 2 (Ankara, 1938) pp. 74 - 7

Riza Nour (رضا نور) l'Histoire du Croissant " Revue de Turcologie (1933) 117/346

(١٦) الجبرتى ،عجائب .. مج ١ ، ص ٧١ .

(١٧) هناك استثناء خلال أواخر القرن السادس عشر عندما احتكرت كتائب المتفرقة حديثة التكوين البكارية .

انظر الفصل الثالث ، ص ٤٢ من النص الإنجليزى .

(١٨) انظر الفصل الرابع ، حاشية ٤٢ .

(١٩) انظر الفصل الرابع ، حاشية ٥٢ ، منذ أن أصبح حسن بلفية بك حتى أصبح قادرا على شقّ طريقه مجددا فى الفرق العسكرية (الأوجاقات) .

(20) Daniel Creceius, The Roots of Modern Egypt : A study of the Regimes of Ali Bey al- Kabir and Muhummad Bey Abu al-Dahab, 1760 - 1775 (Minneapolis and Chicago , 1981) p. 21

اقتبستها :

ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس . (١٩٧٥) ص ١٦٨ .

(21) Holt, Beylicate, 223

الفصل الثانى

الزُّمرة العسكريّة

تعريف الزمرة العسكرية :

مع بداية الزمرة العسكرية المعروفة بالقازدغلية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر لم تكن هى الوحيدة على السّاحة ، وإنما كانت واحدة من زُمرٍ عسكرية كثيرة فاعلةٍ فى القاهرة العثمانية ، فقد كانت الزّمرة العسكرية هى الوحدة الأساسيّة فى المجتمع العسكرى المصرى ، كما هو مفترض ، كما تطورت هذه الزّمر في ظلّ الحكم العثمانى ؛ لذا فمن الضرورى أن نعرِّف هذه الظاهرة - ظاهرة الزُّمرة العسكرية - قبل أن نواصل دراسة قيام القازدغلية . لم تكن الزّمرة العسكرية مجرَّد جماعة ترتبط برباط القُرّبى أو النَّسب ، رغم أن هذا ممكنا ، بل وعادةً ، كانت الزّمرة العسكرية تضم أعضاء من أسرة Family المؤسِّس (مؤسّس الزّمرة) ، وعلى أيّة حال فقد كانت الزّمرة العسكرية تضم زعيمها أو رأسها ، ومن يتمتّعون « برعايته » سواء كانوا أقرباء أو أنسباء له أم لا ، وكان يمكن لأفراد الزُّمرة المختلفة أن يتحالفوا معا ليكوِّنوا عُصبة أو فرقة Faction ، فقد كان الفقارية والقاسمية وهما عصبتان أو فريقان سيطرا على مصر خلال القرن السابع عشر وجزء من القرن الثامن عشر - كل منهما مكوَّنا من تجمعٍ من الزُّمر households المتحالفة .

واعتادت الدراسات الثانوية عن مصر العثمانية التى نُشرت طوال أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت أن تُعرِّف هذه الزّمر العسكرية بأنها زمر مملوكية أو جماعات مملوكية جديدة ، وهذا لا يفترض أنَّ الإدارة العسكرية لمصر العثمانية

كانت استمرارا لم يلحقه التغيير للنظام المملوكى فالمؤرّخون يسلّمون بالتغييرات الإداريّة التى ذكرنا خطوطها العريضة فى الفصل السابق ويسلّمون أيضا بتدفق مجموعات مختلفة من الأفراد العسكريّين إلى مصر سواء مماليك أو غير مماليك ، والمؤرخون متمسكون بأنه حتى طريقة التجنيد والتدريب العسكرى للمجموعة المحيطة برئيس الزمرة ظلّت باقية كما هى على الحالة التى كانت عليها أيام السلطنة المملوكية : فقد كان العبيد والمرتزقة - على حدٍ سواء - يتم إلحاقهم بزمرة الأفراد (النبلاء) الطموحين ، ويتلقون تدريبهم داخل هذه الزمرة ، وكان هؤلاء الأمراء أو النبلاء أصحاب الزُّمر يتأسَّون بنظام الجماعات العسكرية للسلاطين المماليك ، ومن هنا فقد كان يُنظر لزُمرة المملوك كملْمح أساسى فى المؤسسة العسكرية لمصر العثمانية .

ومع هذا فإن مفهوم « الزمرة المملوكية Mamluk household » ودلالته ، قلّما كان موضع تمعّن ودراسة فى المصادر الثانوية ، بينما تتناول هذه المصادر نشاطات وأعمال هذه الزمر المملوكية المختلفة ، دون أن تناقش - إلاّ نادرا - صحّة هذا المصطلح نفسه ، إنّ كتب هولت P. M. Holt وميكل وينترMichael Winter ، وستانفورد شو Stanford Shaw تشير بطريقة أكثر غموضا إلى الزّمر المملوكية كما لو أن هذا المصطلح لابد وأنه مفهوم لا يحتاج إلى بيان دلالته ، لقد أخذ دانيال كريسيليوس "Daniel Crecelius" على عاتقه أن يذكر لنا الخطوط العريضة لتكوين البيت المملوكى "Mamlukbayt" ، بينما سلّط أندريه ديموند André Raymond الضوء على محل إقامة الزعماء المماليك فى القاهرة ، أما جبريل بيتربرج Gabriel Piterberg فكاد يضع الزمرة household فى سياق عثمانى بتركيزه على أهمية العضوية فى الزمرة فى المجتمعات التركية - المونجولية العسكرية Turko Mongol military Societies بشكل عام ، وعلى أية حال فإنه يؤكّد أن طريقة تجنيد العبيد جعلت من الزّمر المملوكية فى مصر طبقة ذات شكل خاص[١] ، وحاول ديفد أيالون David Aylon أن يصف ممارسات الزمرة العسكرية وتكوينها فى العصر العثمانى كما فعل بالنسبة للزّمر العسكرية فى السلطنة المملوكية ، والحقيقة أنّه اكتشف أنّ طرق استخدامات الزمرة العسكرية فى العهد العثمانى تختلف بشكل أساسى عن الزمرة العسكرية فى عصر المماليك[٢] ، ورغم ذلك فإنه أصرَّ على أنّ الزّمرة العسكرية التى تغيرت فى العصر العثمانى ظلّت ظاهرة مملوكية ، وحقيقة الأمر أنّ طريقة تناوله للمجتمع العسكرى فى مصر العثمانية تأثرت

باقتناعه أنه مملوكى فى كل عناصره ، لقد كان الأمر بشكل عام أن المؤرخين ادَّعوا أنّ الزُّمـر العسكـرية فى مـصر فى العهد العثمانى كانت ميراثا مملوكيا ، حتى ولو لم تعد تعتمد اعتمادا كليا على تجنيد العبيد (المماليك) ، فإنها - رغم هذا - ظلّت تستلهم نُظم الزُّمر العسكرية فى عهد السلطنة المملوكية .

وأعتقد أنّ إعادة التأكيد على هذا المصطلح وما يُفترض من جذوره يمكننا من إلقاء الضوء على المجتمع العسكرى فى مصر فى العصر العثمانى بما يعكس - بشكل أكثر صدقا - ملامحه ويجب أن يتمحْور هذا التركيز الجديد على المفهوم الصعب (غير الثابت) لعودة ظهور نظام الزمرة العسكرية المملوكى فى العصر العثمانى فى مصر ، لقد كانت هناك بالتأكيد زُمر عسكرية فى مصر فى العصر العثمانى من النوع الآنف وصفه ، لكننا لا نستطيع أن نثبت أنها استلهمت بشكل مباشر من تكوين الزّمر العسكرية فى عهد السلطنة المملوكية ، أو أن الزمر العسكرية المملوكية كانت هى وحدها دون سواها مصدر إلهام الزمر العسكرية فى العهد العثمانى ، تنحو نحوها وتقلّدها ، ومن ناحية أخرى فإن الزّمر العسكرية هى الملمح الأساسى الذى يفسِّر المجتمع العثمانى ككُل فى الأعوام التى تلت حكم السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، ومن الطبيعى أن يكون النموذج الأصلى لزُمرة النخبة العثمانية (الزمرة العسكرية العثمانية للنخبة) هى نفسها الزمرة العسكرية للسلطان نفسه ، والتى وصلت لتطورها الكامل خلال حكم السلطان سليمان[٣] كانت مقر الزمرة الإمبراطورية فى قصر طوبقابى Topkapi ويضم مقار الخدم والعاملين داخل المقر - المطابخ ، والحدائق ، ومجالس الاستشارات الخاصة وأجنحة الحريم يحرسها الخصيان (الطواشية) - بالإضافة إلى المقار العسكرية ، ومدارس تدريب الحرس والخدم على السلاح بالإضافة أيضا إلى التدريب العسكرى للخدم الخصوصيين والحرس الشخصيين بأنواعهم المختلفة ، لقد كان كثير من هذه الفصائل العسكرية - مثل : البلطجية (حاملى البلطات Baltacis) والبستانية (الجنائنية Bastancis) - يقوم بدور مزدوج ؛ أى يؤدّون عملهم المدنى بالإضافة لأداء أدوارهم العسكرية[٤] .

وبينما كانت الزُّمرة العسكرية الإمبراطورية (السلطانية) بلا شك هى الزمرة المميّزة المبجلة فى إستانبول ، وفى نطاق الدولة العثمانية ككُل ، إلاّ أنها كانت تواجه

مناقسة ، أو على الأقل محاولة التمتع بالنفوذ نفسه والسلطان نفسه اللذين تتمتع بهما ، من الزّمر العسكرية الأقل درجة ، وذلك على الجبهتين (أى داخل استانبول نفسها ، وعلى مستوى الدولة العثمانية ككُل) لقد نافستها الزمر العسكرية للوزراء Uiziers والزمر العسكرية للولاة (حكام الولايات أو الأقاليم) ، وكان كثيرون منهم قد بدأوا مهامهم فى القصر السلطانى نفسه[٥] ، وكانوا من جماعات الجُند (العسكر) الذين اندمجوا فى ثكنات الانكشارية المركزية (على المستوى الإمبراطورى) فى العاصمة العثمانية ، وقد عقَّد تكوين المجموعات gangs خلال ثكنات الإنكشارية التقاليدَ التى كان إنكشارية إستانبول يعتبرونها امتدادا لزمرة السلطان (الذين يعيشون فى نطاق بيته) فمصطلحات الزمرة (البيت السلطانى بمفهومه الواسع) خاصة العاملين فى المطبخ تحدّد الرّتب والوظائف ، كانت الفرقة Corps تُعرف باسم الأوجاق (الوجاق Ocak) (المعنى الحرفى هو الموقد hearth) كما كان فى مصر ، بينما كان الشوربجى Çorbaci (مسئول الشوربة أو الحساء) والـ Aşcibasi (رئيس الطباخين) من رتبة الضباط ، وكان الإنكشارية يعبرون عن تمردهم بقلب الجِلَل (الأوانى) الخاصة بهم مشيرين بذلك إلى رفضهم طعام السلطان ، وبالتالى رفضهم لمكانهم فى نطاق زمرته (بيته بالمعنى الواسع للكلمة)[٦] ، ومن الناحية العملية فإنه بعد القرن السادس عشر عندما تفرقت المصالح الإمبراطورية بين عدد كبير جدا من الجماعات ذات المصالح فى القصر والعاصمة ، زادت التوترات بين هذه المجموعات المحلية المتصارعة .

وكان لهذا النوع نفسه من التوترات وجود فى الولايات العثمانية ؛ إذ كانت دور الولاة (دُور بالمعنى الواسع للكلمة والذى آثرنا ترجمتها بالزمرة لقربها للمعنى المقصود) تحاكى القصر السلطانى فى إستانبول ، وإن كان ذلك على مستوى أصغر ، لكن أىّ زمرة لوالٍ كانت تنافسها زُمر من النّخب المحلّية ، وكانت النخبة المحلية فى مصر تتكوّن فى الأساس من البكوات وضباط الفرق ، وكان فى مقدور الموظفين الرسميين العثمانيين – مثل الإداريين الذين قضوا فترة طويلة فى الإدارة أو الخصيان الذين تركوا الخدمة فى العصر السلطانى – أن يكونوا ضمن هذه النخبة ، وكان النبيل من هؤلاء يكوِّن لنفسه – على نحو نمطى – حاشية من العبيد (المماليك) والخدم والزوجات والمحظيات والحراس والأتباع المختلفين

يتجمعون فى مقر إقامته ، وكانت حاشية الوالى متجمعة فى قلعة القاهرة ، بينما كان البكوات يجمع كل واحد منهم حاشيته فى قصره وكان كثيرون من البكوات يمتلكون قصورا فى مناطق مختلفة مجاورة للقاهرة ، وكانت النخبة تميل للتمركز فى مناطق معينة فى المدينة (القاهرة) ، فأمراء عصر أواخر السلطنة الفاطمية كانوا يفضلون إقامة بيوتهم فى القاهرة الفاطمية وإلى الجنوب منها مباشرة وبالقرب من بركة الفيل فى جنوب غرب القاهرة ، وسار نبلاء الفترة العثمانية على النمط نفسه ، رغم أنّهم راحوا يُفضِّلون بشكل متزايد بركة الفيل حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما انتقلت صُرّة إقامة النخبة إلى بركة الأزبكية فى الشمال الغربى[(٧)] ، وتشير حوليات هذه الفترة – بشكل نمطى – لمثل هذه الإقامة حيث تتجمع الزمرة متخذة شكل عنقود باسم بيت bayt ، ومثل هذا التكوين (أو مثل هذه البِنية) هى التى يضعها غالب المؤرخين فى اعتبارهم عندما يتحدثون عن الزمرة المملوكية Mamluk household وهم على وعى بأنه ليس كل أفراد حاشية النبيل من العبيد (المماليك) .

بل إن مجموعات الأتباع كان من الممكن أن تتشكّل فى ثكنات الجنود العثمانيين فى مصر ، على نحو قريب الشبه جدا مما كان يحدث فى ثكنات الإنكشارية فى إستانبول ، وفى هذه العملية (عملية تكوين المجموعات) كان الضابط يُقوم بزرع الأتباع بين الجنود فى الأوجاق (الفرقة) فى الكتائب Crops التى يقودها[(٨)] ، ويُقّدم لنا تاريخ مصر فى العصر العثمانى أدلة كثيرة على وجود هذه المجموعات (التكتلات) كان على رأسها – بشكل نمطى – ضباط من الرُتب الأدنى ممن لم يكن لديهم المال (أو المكانة) الذى يمكنهم من تأسيس بيوت houses مُترفة خارج الثكنات ، وقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر قيام زعيمين – عوانيِّين بشكل خاص – فى ثكنات الإنكشارية : كچك محمد küçük وإفرانج أحمد Ifrange ، وكان كلاهما من رتبة الباشوداباشى başodabaşi وتعنى هذه الرتبة القائد الأساسى للثكنات (أوده Oda) ، وهى الوحدة الفرعية الأصغر فى كتائب الإنكشارية[(٩)] ، ولاشك أن التكوين الهرمى (الهيراركى) لحياة الثكنات ونسق الحياة فيها قد سهَّلا محاولاتهما لجذب الأتباع من بين من هم تحت قيادتهما ، وعادة ماكان يُطلق على هؤلاء الأتباع فى نطاق الأوجاق regimement اسم الطرف taraf أو الطائفة أو الجماعة ، فى الحوليات ، رغم أنَّ هذه المصطلحات يمكن أن تعنى أيضا تجمعات عسكرية واجتماعية أخرى[(١٠)] ، وهذه

المصطلحات لا تتناسب – بسهولة – مع الزمرة household المملوكية ، بل إن الحوليات تفترض أن هذه المجموعات gangs كانت مرتبطة بمقر الإقامة ؛ لأنه إذا ما أصبح لدى الضابط المال الكافى وتمت ترقيته إلى الرتبة الكافية ، فإنه يقوم – كإجراء طبيعى – بترك الثكنات ، ليقوم بشراء أو بناء أو مصادرة بيت house فى أحد ضواحى القاهرة حيث يكوِّن زمرة household خاصة به من العسكر والخدم(١١) .

وعلى هذا فقد كانت هناك فى هذا الوقت ثلاثة أنماط من الزّمر households تعايشت معا على المستوى المحلّى : زُمرة الوالى وغيره من الإداريين العثمانيين الحاليين والإداريين العثمانيين السابقين ، وزمرة النبلاء المحليين ، والزمرة أو المجموعات داخل الثكنات ، وعلى أية حال فقد كانت هذه الزمر جميعا متداخلة ، فقد أصبح المسئولون العثمانيون الذين كونوا زُمراً فى مصر من النبلاء المحليين ، تماما كما فعل رجال الثكنات الأقوياء الذين تركوا ثكناتهم وكوّنوا زمرا مصطنعة فى بيوتهم وحولها ، وفى هذه الحالة الأخيرة كان يمكن استخدام الزمرة كأداة للحراك الاجتماعى خلال الكادر (الإطار) العسكرى أو على الأقل كأداة للتأكيد على الوضعية الاجتماعية المؤثرة ، وفى الحالة الأولى تستخدم كأساس لتجمع (تلاقى) المصالح الإمبراطورية والمحلية بإتاحة الفرصة للمسئولين الإمبراطوريين لممارسة تأثير محلى واختيار أشخاص بارزين جدد على المستوى المحلّى .

وباختصار فلم تكن الزمرة household محدّدة تحديدا صارما كما لم تكن وجودا استاتيكيا (ثابتا غير قابل للتغير) ، فقد كانت هناك أنماط كثيرة مختلفة نوعا وحجما فى مواقع مختلفة ، وأكثر من هذا فقد ظلت الزّمر households تتطور باستمرار وتمتد من خلال الزواج ، والاندماج ، والانفصال نتيجة التنافس بين أفرادها ، لقد تطورت الزّمر households لتخدم حاجات مجتمع اشتدت فيه المنافسة ، كان يأتيه بشكل متتابع أعضاء جدد من أماكن نائية طاردة ، فقد كانت الزمرة المتحلِّقة حول البيت أو داخله بالنسبة للجندى الأناضولى أو القوقازى الذى وصل حديثا لمصر وسيلة للتأقلم وتكوين العلاقات الاجتماعية والتعليم ، كما كانت تمثل له درجة من درجات الأمان المالى ؛ لأنه كان من الممكن لعضو الزمرة أن يعتمد على راعى الزمرة (حاميها) لتسهيل طريقه للترقّى فى المجموعة العسكرية ، أو إعانته بالتزام أو إلحاقه بحرفة أو إشراكه فى مضاربة تجارية . وبالنسبة لرأس الزمرة household

كانت الزمرة وسيلة فعّالة لجمع الثروات بالحصول على الالتزامات والمناصب لأتباعه ، فثروة الزمرة the household ومكانتها وقوتها العسكرية تمكّن أعضاءها من ممارسة ضغط على الوالى العثمانى وعدد من الرّسميّين الآخرين ، وكذلك على التجار والحرفيّين الذين يجدون من المربح أن ينسبوهم إليهم ، لقد كانت الزمرة تحمى - على المدى البعيد - مصالح مؤسّسها ، وعند موت مؤسس الزمرة (راعيها أو رأسها) يدّعى قيادتها أو زعامتها أكثر الأعضاء قربا من الراعى المتوفًى (من كان محل ثقته أكثر من غيره) أو الأعلى رتبة ، وهذا يضمن استمرار سيطرة الزمرة على مصادر الثروة غير المستقرّة ، وبينما كان من الممكن أن تتنافس الزمر على المناصب وعلى السيطرة على مصادر الدخل ، فقد كان من الممكن أيضا أن تكوّن تحالفات مربحة فيما بينها ، فقد كان يمكن للزمر الصغيرة نسبيا ذات الموارد المحدودة أن تتحالف مع الزمر الأكبر والأكثر ثراء بحثا عن الحماية ، وحتى الضباط الأقل رتبة كان بإمكانهم تكوين أتباع فى التكنات بل وربما داخل منازلهم البسيطة ، وكان يمكن لهذه الزّمر الصغيرة أن تجمع الثروات وتدخل ضمن رتب النخبة من خلال تحالفات إستراتيجية واستثمار العوايد .

مصطلح « تابع » :

وعلى هذا يظهر بوضوح أن مصطلح « الزمرة المملوكية Mamluk household " يضلّلنا عن حقيقة المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ؛ لأنه يستثنى المجموعات (التكتلات أو الزمر) فى الثكنات ، ويتجاهل السّوابق والنظائر المصرية فى أنحاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية ، وأكثر من هذا فإن المؤرخين الحوليين ، وأفراد هذا المجتمع لم يستخدموا هذا المصطلح لإطلاقه على أنفسهم (إنْ جاز لنا الحكم من خلال كتاباتهم) ففى حوليات القرن السابع عشر والثامن عشر كان مصطلح (مملوك) يشير ببساطة للعبد العسكرى ، وأكثر من هذا فإن مصطلح « مملوك » وغيره من المصطلحات الدالة على الزمرة household مثل : بيت ، وطرف ، وطائفة لم يتم دمجها أو توحيدها (فى مصطلح أو مفهوم واحد) .

فالمصطلحات التى استخدمتها هذه المصادر تدل على غير ذلك ؛ إذ تعنى أن الزمرة household تضم غير المماليك بالإضافة للمماليك ، فالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى يستخدم تباعا عبارة « أتباع ومماليك » ليشير إلى حاشية نبيل ما (١٢) ، وقد أكّد الباحث جبريل بيتربرج Gabriel Piterberg – اعتمادا على استخدام الجبرتى – أن التابع (مفرد : أتباع) لابد أنه يعنى « غير المملوك » ، أما ديفد أيلون Aylon فعلى العكس منه يرى أن التابع هو ببساطة مرادف للملوك (١٣) ، وأميل إلى أن المصطلح لا يشير إلى العبودية (كون حامله مملوكا) وإنما يشير إلى أى تابع سواء أكان مملوكا أو غير مملوك ، وهذا المعنى كامن فى طريقة استخدام الجبرتى لكلمة « تابع » ، فالجبرتى يصف نسب Lineuge بولوت Bulut كابان (قابان) النبيل الشهير فى أواخر القرن الثامن عشر المعروف بعلى بك الذى ثار ضد السلطان العثمانى فى سنة ١٧٦٨ بأنه « ... الأمير الكبير على بك ... وهو مملوك الكتخدا إبراهيم تابع الجاويش سليمان تابع الكتخدا مصطفى(١٤) ولا تترك السجلات التارخية أى شك فى أن على بك كان مملوكا للكخيا إبراهيم القازدغلى ، وعلى أية حال فإن وضع الكخيا إبراهيم وراعيه الكخيا سليمان لازالا بعيدين كثيرا عن مثل هذا اليقين (لا زالا محل شك) ، ويبدو – فى ظل هذه الظروف – أن الجبرتى كان يستخدم بحذر لفظ « تابع » عندما يكون غير متأكد من كون الشخص الذى يتحدث عنه مملوكا أم لا .

وتميل المصادر الروائية العربية والعثمانية الأخرى لتأييد هذا التفسير لمصطلح « تابع » ، ويشير الرّحالة التركى فى القرن السابع عشر إيڤليا جلبى (شلبى) عدة مرات للتابعين والرّفاق tevābi ve havadarlar ، وفى هذه الأثناء أشارت الروايات عن الفتح العثمانى لليمن فى سنة ١٦٣٦ . إلى أتباع وألزام atba wa alzām أى ملازمون(١٥) ، وأكّد الكاتبان على أن هؤلاء الأتباع كانوا ضمن الحاشية أكثر من تأكيدهم على أنهم كانوا مماليك (بالمعنى الاصطلاحى للكلمة) أم غير مماليك .

ومع هذا فإن « التابع » ليس ببساطة مصطلحا ملائما للشخصيات العسكرية التى قد تكون مملوكية أو غير مملوكية ، فالأصح أن هذا المصطلح يبدو واقعا فى قلب تكوين المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ، وليس هناك ما هو أوضح من هذا النوع من الوثائق ذى الأهمية الفائقة لعمليات العسكر فى مصر ، وأعنى بها سجلاّت

الرواتب التى كانت تعدها الإدارة العثمانية فى أوقات المعارك الحربية[١٦] ، ففى هذه السجلات ليست هناك إشارات محدّدة لشخص رقيق (مملوك) أو شخص حر بالمولد ، فكلمة مملوك لا وجود لها فى هذه السجلات ولا وجود أيضا للكلمة التركية « قول Kul » أو أى لفظ آخر معبِّر عن العبد (المملوك) ، ومن ناحية أخرى نجد كلمة « تابع » تطلق على الجندى الذى يتجلَّى أصله كرقيق (مملوك) بنسبته نسبة عامة (فلان بن عبد الله) ، كما تطلق أيضا على الجندى المعروف الأب ، وكانت الإدارة العثمانية تحدِّد هوية الجندى لا بالنسبة لوضعه كرقيق (كمملوك) وإنما بالنسبة لمن هو « تابع » له (حاميه أو رأس زمرته) .

ولنصدر حكما صائبا عن مدى تتابع ذكر « التابع » فى سجلات الرواتب هذه لابد أن نلاحظ أن عدد الجنود الذين ينتمون إلى الزّمر يزداد ازديادا كبيرا فى كل الفرق (الأوجاقات) فى الفترة من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر ، فمن بين ٢٠٠٠ جندى مدوّنين فى سجلات الرواتب فى السنوات من ١٦٧٥ إلى ١٦٧٧ ، نجد ٧٥١ كُتب إزاء كل واحد منهم لفظ (تابع) ، ومن بين ٣٠٠٠ مسجلين فى سجلات سنة ١٧٣٧ – ١٧٣٨ ، نجد ١٥٦٨ « تابع » ، لقد ازدادت نسبة عدد « التابعين » بحوالى ١٥٪ ، وأكثر من هذا فإن عدد الزمر households ، وكذلك حجمها يبدو وكأنهما (عدد الزمر وحجمها) قد بلغا الذروة بين كتائب الإنكشارية والعزبان .

ومن الواضح أنَّ نوع الشخص الموسوم بالتابع هو أنه تابع عسكرى ارتبط بعلاقة تبعية براعيه (حاميه) أو لنقل ارتبط به بعلاقة انتساب ، وكان هؤلاء الرعاة Patrons الذين ظهروا فى قوائم الدفع (سجلات الرواتب Pay lists) وفى الحوليات يتكوَّنون من مجموعة متباينة المستوى تباينا كبيرا ما بين ضباط من رتب عليا إلى ضباط من رتب أدنى ، وبكوات ومسئولين إمبراطوريين (عثمانيين) وموظفين (بيروقراطيين) ومنتسبين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (أشراف) وغيرهم ، ولابد أن لفظ (التابع) كان ينطبق على تنظيمات مختلفة من تنظيمات الانتساب (الآنف ذكرها) ، ومع ذلك فإن التبعية العسكرية Military Clientage من هذا النوع بدت أكثر قوّة من نوع الانتساب الذى كان ينعقد بين شاعر من شعراء البلاط وحاميه

(راعيه) الإمبراطورى (العثمانى) أو ذلك الانتساب – على سبيل المثال – المنعقد بين الشركاء التجاريين ، وكان التابع Client يتفق مع راعيه (حاميه Patrom) فى حمل لقبه his sobriquet وأحقاده طوال أجيال متعاقبة ، وعلى هذا يمكننا أن نقول باطمئنان أنه بينما (التابع) عميل Client مؤكد لراعيه ، فإنه ليس مجرد « عميل » وإنما أكثر من ذلك Client .

ويمكن إلقاء مزيد من الضوء على مضمون « التابع » فى المجال العسكرى بملاحظتنا الاستخدام المعتاد لهذا المصطلح فى كل من المصادر التركية والعربية ، فتابع – نمطيا – مصطلح جغرافى يستخدم لتحديد أجزاء أو مناطق إقليم بعينه ، والأمر السلطانى الصادر فى سنة ١٧٣٣ . على سبيل المثال يشير إلى قرية بلفية Bilifya التابعة لولاية البهنسا الفرعية Vilayet-i Bahnasaviye'ye tabi [١٧] ويمكن ترجمة هذه الفقرة التركية حرفيا كالتالى : (قرية Bilifya تتبع ولاية البهنسا الفرعية « مديرية ») ، والمضمون هو أن Bilifya تابعة للبهنسا ، وبالتالى فهى من بين مجموعة القرى التى تضمها ولاية البهنسا (الولاية الفرعية) ، وقياسا على ذلك يمكننا أن نفهم كلمة (تابع) فى سياق الولاء العسكرى (أو التبعية العسكرية military Clientage) لتعنى الجندى المعتمد على ضابط أو بك أو مسئول والذى – أى الجندى – هو من بين مجموعة الجنود (العساكر) الذين يرعاهم هذا الشخص (ضابطا كان أم بك ..) ، وبعبارة أخرى فإن التابع هو عضو فى زمرة household راعيه أو بطانته entourage ، والحقيقة أن هذا المصطلح (تابع) كما بيّن لنا كتاب رفعت أبو الحاج – لا ينتمى إلى المصطلح المملوكى بأية حال ، وإنما يشير ببساطة إلى أى عضو فى أى زُمرة ، سواء كان هذا العضو – رجلا أو امرأة – مملوكا أم لا[١٨] ، وكى نركز على معنى العضوية ، فإن (التابع) يختلف عن المفهوم الذى تشير إليه الكلمة التركية شيراك أو چيراك çirak ، فهذا المصطلح الأخير يشير إلى شخص تحت حماية أو رعاية ذى نفوذ نبيلا كان أم مسئولا ، دون أن يكون – بالضرورة – عضوا فى بطانته أو زمرته ، حقيقة إن الاعتماد على الوثائق الرسمية والحوليات المحلية لتبيان مضمون كلمة (تابع) كمصطلح عام generic يدل على أعضاء حاشية أو زمرة النبيل بغض النظر عن وضعهم كمماليك (عبيد) يعطينا انطباعا أن الانتماء للزمرة أو الحاشية قد حجب الانتماء المملوكى (انتماء السيد بمماليكه) فى المجتمع العسكرى المصرى فى أواخر القرن السابع عشر .

الزمرة كمفتاح للتاريخ العثمانى :

مفهوم الزمرة – مع ما يسمح به هذا المفهوم من تباين واسع المدى – بدءا من الائتلافات غير الرسمية نسبيا داخل الثكنات العسكرية إلى التحالفات داخل محل إقامة الراعى (الحامى) وحوله تلك التحالفات العامرة بالتفاصيل – تقدِّم لنا إطارا أكثر مرونة وأكثر دلالة يمكن من خلاله تحديد المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية أكثر مما يمكننا من الفكرة التقليدية المتمثلة من النظام العسكرى للمملوكية الجديدة ، فبتركيزنا على الزمرة ، household كوحدة للتنظيم الاجتماعى استجدت فى حد ذاتها أكثر من كونها ظاهرة مملوكية متوارثة (عن عصر السلطنة المملوكية) ، يسمح لنا أيضا أن نوائم العناصر المتباينة تباينا لا جدال فيه والتى تشارك فى تكوين (بناء) الزمرة : العساكر (الجنود) والبكوات ، والمماليك (العبيد) القوقازيين ، والمسلمين الأناضوليين الأحرار بالمولد ، والنساء ، والتجار ، والحرفيين ، والعلماء ، والأشراف . والتركيز على الزمرة household يمكِّننا أيضا من إدراج مصر فى التكوين (البناء) الذى اتبعته الدولة العثمانية كَكُل خلال الفترة التى أعقبت موت سليمان الأول ، فالصِّفة المميزة لانتشار السلطة الإمبراطورية كانت هى ازدهار نظام الزُّمر الذى انتقل من المركز السياسى خاصة ، خاصةً من ولاة الولايات ومسئولى القصور ذوى الرتب العالية ، مثل هذه الزّمر كانت هى النموذج الأصلى الذى احتذاه الأعيان nota-bles المحليون عند إقامتهم زُمرهم ، وزُمر الأعيان هذه هى التى سادت المجتمعات المحلية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(١٩) ، وكان من المتوقّع أن يتكون الأعيان فى مصر فى جانب منهم من نبلاء عسكريين ، وكان أمام هؤلاء النبلاء العسكريين نماذج متعدّدة من الزّمر المكوّنة من نخبة مقيمة معهم ممثلة فى الزمر التى كوّنها الموظفون العثمانيون ذوو الرتب العليا الذين أرسلتهم إستانبول لإدارة الولاية ، وبطبيعة الحال كانت زمرة الوالى العثمانى هى التى تأتى فى المقام الأول ، لكن كان هناك عدد من الأشخاص الإمبراطوريين الآخرين أسس كل منهم زمرة ، فعلى سبيل المثال كان لقاضى عسكر (رئيس القضاة) زمرة ، وكان لرئيس الجماعة المنحدرة من نسل النبى صلى الله عليه وسلم (نقيب الأشراف) زمرة(٢٠) ، وقبل هؤلاء جميعا كان لرئيس الخصيان السود المنفى من الحريم الإمبراطورى زمرته(٢١) ، وكانت عادات الرعاية (أو المحسوبية أو الانتساب Patronage) المتبعة فى الزمرة قد خلقت أرضية

مشتركة بين المسئولين الإمبراطوريين فى الموقع(مصر) وفى إستانبول ومع النبلاء المحلّيين ، فقد راح ذوو الحيثية من الطموحين المحلِّيين يبحثون عن العمل لحساب (لصالح) المركز الإمبراطورى بالانضمام إلى زمر المسئولين الإمبراطوريين فى القاهرة ، وكان المسئولون الإمبراطوريون بدورهم يُدخلون أتباعهم (محاسيبهم) فى زُمر النبلاء المحلّيين ، وهكذا أصبحت الزمرة بمثابة رابطة **nexus** بين المركز والولاية .

وعلى النحو نفسه ، كان تكوين الزّمر كمعاقل للسلطة المحلية صورة طبق الأصل من الزمر الإمبراطورية التى تمزقت سلطتها المركزية وتقسّمت ، فعندما كان المسئولون والجنود العثمانيون يضربون بجذورهم فى الولايات التى تمركزوا فيها ، لم يكن من النادر أن يجدوا أنّ ولاءهم لمصالحهم فى البقعة التى تمركزوا فيها تنافس ولاءهم للسلطان ، وعندما كان هؤلاء الأشخاص يكوّنون جماعات تابعة وثروات وممتلكات فى الولاية ، أو بتعبير أكثر إيجازا عندما يكوِّنون زمرا – فإنهم يصبحون أعيانا محلّيين بالفعل – وسوف أستخدم هذا المصطلح (محلّيين) هنا ليكون له معنى فضفاضا – وعندما يصبح المسئول العثمانى من الأعيان المحلِّيين فى مصر لم يكن من الضرورى أن يشرع فى الحديث باللغة العربية بطلاقة ، ولم يكن من الضرورى أن يعتبر مصر بلده الأصلى ، بل على العكس قد يشير إلى العاصمة الإمبراطورية أو لولاية أخرى كبلد أصلى له ، فكل ما كان يحتاج إليه هو أن يجعل مصر قاعدة لعملياته ، وقد نفّذت بالفعل مجموعة كبيرة ومتنوعة من البشر هذا النوع من الإقامة **Localization** فى مصر ، كان منهم مسئولون عثمانيون وجنود ومرتزقة افتتحوا محلات تجارية فى أسواق القاهرة واشتروا لأنفسهم مماليك ، ولدينا سبب للاعتقاد بأن عددا كبيرا أسس زمرا شبيهة بما وصفناه أو التحقوا بها (,كانوا أعضاء فيها) .

فقد كان تكوين الزمر القابلة للنمو – أكثر من النضال للحصول على المماليك – هو الدافع الأساسى الذى دفع النبلاء فى مصر بدورهم لإتاحة الفرصة لهم لفهم أن تكوين الزمرة أصبح أكثر أهمية من ثراء المماليك ، ولم تكن أى زمرة لتقدر على البقاء دون أن يكون لها مصدر دخل ثابت نسبيا ، فعلى سبيل المثال لاحظ المؤرخون أن البكوات كانوا – على نحو نمطى – يستمدون دخولهم من الضرائب الزراعية (الالتزام) بينما ضباط الأوجاقات يعتمدون على الضرائب

المفروضة فى المدن (الالتزام الحضرى Urban tax Farms) كالجمارك ، واستمر هذا حتى بواكير القرن الثامن عشر ، عندما بدأ الضباط يحصلون على الالتزام الزراعى[٢٢] rural tax Farms ، و كانت الإستراتيچيات الاقتصادية للزمرة فيما عدا هاتين الإستراتيچيتين الآنف ذكرهما (الالتزام الزراعى أو الحضرى) لا توضع فى الاعتبار ، وجمعت زمرة القازدغلية جانبا من ثروتها من التجارة فى البن من المخا - الميناء اليمنى - عبر المدينتين المقدستين - مكة والمدنية - ومن ثمّ إلى مصر ، وأثناء التطور الباكر لهذه الزمرة (القازدغلية) بدا أن قيادتها وتحالفاتها اعتمدت جزئيا على السيطرة على العوائد من هذه التجارة والمشاركة فيها ، وكان انهيار أسعار البن اليمنى نحو منتصف القرن الثامن عشر ؛ بسبب تدفق البن من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى ورخص أسعاره - سببا فى قرار زمرة القازدغلية لاقتحام مجال البكلرية [٢٣].

وعلى النحو نفسه كانت الزمرة هى التى تصوغ الملامح الأساسية لحياة النخبة (التى لم تحظ بدراسة متأنية) خاصة ما يتعلّق بالزواج ومواضع الإقامة (المقر) ، فروابط الزواج التى ربطت زمرتين أو تشرّبت (استوعبت) الأتباع الذين لا جذور لهم (المقصود غير الأقوياء) ، كانت هى الإستراتيچية المفسِّرة (المفتاح) لأى رأس (زعيم) زمرة ، فعن طريق هذه الزيجات يزداد عدد أعضاء الزمرة ، كما أن هذه الزيجات تصوغ التحالفات السياسية ، وتتيح للزمرة موارد جديدة للثروة ، وأكثر من هذا فعن طريق الزواج تشارك زوجات الزعيم ومحظياته وأخواته وبناته فى النفوذ وتشارك فى ثروة الزمرة[٢٤] .

وربما كان أكثر ملمح من ملامح الزمرة وضوحا هو البيت house أو مبنى آخر يكون مكانا للتجمع ومعقلا للسلطة (القوة) السياسية ، وعادة ما كان الضباط من ذوى الرتب العليا والبكوات ، والمسئولون العثمانيون يجمّعون حاشيتهم وبطانتهم بمن فى ذلك زوجاتهم ومحظياتهم فى مقرّات تأخذ شكل البلاط ، وغالبا ما كانت مساكن النبلاء المتحالفين تتجمع (تتخذ شكل عنقود) فى مساكن متجاورة ، وعلى سبيل المثال فبحلول منتصف القرن الثامن عشر كان الشاطئ الجنوبى لبركة الأزبكية فى غرب القاهرة تسود فيه مساكن القازدغلية وحلفاؤهم[٢٥] ، وفى أواخر القرن الثامن عشر حلت مساكن رؤوس القازدغلية محل الديوان (مجلس الوالى) فى القلعة ،

كمحور للسلطة السياسية [٢٦] ، وعلى أية حال ففى أوقات الاضطرابات السياسية كان يمكن لزعيم الزمرة استخدام المقر the house كحصن يواجه منه أعداءه ، أو يختبئ فيه طلبا للنجاة منهم ، أو إخفاء الثروة إن كان لابد من الفرار [٢٧] .

أما الأكثر صعوبة فى تعريفه وتحديده فهو الزّمر الأصغر (الأقل عددا) والأقل ثروة ، ونعنى بها تلك الزمرة التى يكونها الضباط الأقل رتبة أو المسئولون الأقل درجة ، وهى الزمر التى تلتحم فى ثكنات قلعة القاهرة أو فى بيوت (مقرّات) أصغر نسبيا ، ويمكن للمرء أن يُحدس أن هذه الزمر الصغيرة كانت – إلى حد ما – أقل تنظيما من البيوتات الكبيرة (رغم استخدام كلمة homes هنا إلاّ أن المعنى أقرب ما يكون للزمرة الصغيرة) فما دام كثيرون من العساكر (الجنود) لديهم محلات تجارية أو حتى مساكن داخل أسواق القاهرة أو بالقرب منها [٢٨] وبالتالى لم يكونوا يميلون إلى التجمع بشكل نظامى فى مكان مركزى إذا لم يكن تجمعهم لازما للقيام بتجريدة عسكرية أو لاستلام رواتبهم ، لقد كان المركز الأساسى لزمرة الضابط ذى الرتبة الأدنى عادة هو حجرة داخل الثكنات العسكرية (أوده Oda) حيث يكون قائد الثكنة بمثابة سُرَّة أو قطب يتحلّق حوله أتباعه ، وبحلول القرن الثامن عشر كان قائدو الثكنات أو الأودا باشى odabaşis من بين رؤساء الزمر العديدين بين الإنكشارية والعزبان [٢٩] ، وكانت الزوجات والبنات أعضاء فى هذه الزّمر لكن بشكل عرضى جدا ؛ ذلك أن ميدان تنافسهن الرئيسى هو بيوت أزواجهن أو آبائهن ذوى المكانة .

وظلت أُسس (قواعد) الزمر فى الممتلكات المشتركة والاشتراك فى التجارة وتحالفات الزواج غير مُكتشفة حقيقةً فيما يتعلق بمصر فى عهد العثمانيين [٣٠] ، مع أن هذه القضايا تُعد أساسية لفهم تكوين الزمرة ، إنها تقدِّم لنا مساعدة فى الغاية من الأهمية لفهم إستراتيجيات تكوين الزّمر ، ولتحديد كل زمرة لمداها ، هذه الاعتبارات توسِّع مجال الزمرة فيما وراء التجمعات السكنية الكبيرة المملوءة بالمماليك وبالتالى فهى أكثر شمولا ، وأكثر صدقا فى الدلالة على إعادة بناء الزمر العسكرية فى مصر فى العهد العثمانى . إن الالتفات إلى مثل هذه المسائل يقدم لنا مفتاحا لطبيعة التجمعات فى الثكنات ، فإذا أمكننا بسهولة الإطلال على المجرى الرئيسى للتاريخ المؤسَّس أدركنا ضرورة هذا لتقييم المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ،

لقد كانت هذه الزّمَر الأقل هى اللبنات التى يتكون منها المجتمع المصرى ، ففى مثل هـذه المجموعات التى تكونت فى الثكنات كانت بدايات القازدغلية الذين حكموا Controlled مصر معظم القرن الثامن عشر حتى الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ .

ولنعطى ثقلا حقيقيا لمثل هذه الإستراتيجيات المختلفة للزمر ، وبالتالى لنفهم على نحو ما الرابطة بين تجمعات الثكنات (زمر الثكنات barrack Conglomerates) والزمر المتكوّنة فى مقار إقامة زعماء الزمر (وحولها لابد أن نأخذ بتعريف أكثر شمولا للزمرة العسكرية military household التى لم تكن تحتذى بشكل صارم النموذج الذى كان سائدا أيام السلطنة المملوكية ، وإنما كانت تركز على الحاشية العسكرية military entourage كأداة للتأقلم الثقافى والحراك الاجتماعى ، إننا بتناولنا هذه الوظائف للزّمر على مدى واسع بدءا من التجمعات المرنة إلى تجمعات الزمر العنقودية التكوين الراسخة فى مقر إقامة – يمكننا أن نتجاوز حدود ومفاهيم المصطلحات المملوكية (التقليدية) لنصل إلى نظرة أكثر دقة للمجتمع العسكرى الذى جرت العادة على وضعه تحت عنوان (المجتمع المملوكى) ، وفى الوقت نفسه نستطيع أن نضع المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية فى سياقه العثمانى بإعادة صياغته كتباين إقليمى قائم على ثقافة النخبة القائمة بدورها على الزمرة ، والتى وجدت فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، والتى جعلت ولايات الإمبراطورية متكاملة مع المركز الإمبراطورى .

هذا ما آمل تحقيقه فى هذه الدراسة ، فالزّمرة – واضعين فى اعتبارنا تباين تكويناتها ووظائفها – هى الإطار الذى أنوى تطبيقه على المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية ، وتستخدم الفصول التالية عملية تطور الزّمر ونشوئها ، وانحلالها ، كعدسات Lens ننظر من خلالها للتغيرات الحادثة خلال هذا المجتمع منذ منتصف القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما انتقل المجتمع العسكرى المصرى من مجتمع يسوده ضباط الفرق regimental officers إلى مجتمع يكاد يتفرّد بحكمه البكوات المماليك ، إن هذه العملية مُتضمّنة تماما فى الزمرة القازدغلية التى كانت هى نفسها قد مارست انتقالا من زمرة نشأت فى الثكنات يقودها ضابط إلى زمرة كاملة (نابتة الريش) على رأسها مماليك مُعتَقين (محررين) وأعضاؤها مماليك محرّرين .

ملاحظة عن المصادر :

إن اتّسام الكتابات التاريخية التى تتناول مصر فى العهد العثمانى بالإرباك راجع إلى اعتمادها بشكل غير متجانس على مصادر راجعة إلى آخر القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر ، خاصة حوليات عبد الرحمن الجبرتى المتعددة الأجزاء المعروفة باسم « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » والتى ألفها فى بواكير القرن التاسع عشر ، وربما كان من الطبيعى أن يعتمد على مصادر تعود لتلك الفترة باحثون مثل دانيل كريسيليوس Daniel Crecelius وجبريل بيتربيرج Gabriel Piterberg ؛ إذ أن اهتمامهم هو شرح الأحوال فى أواخر القرن الثامن عشر ، بل وحتى ديڤد آيلون David Ayalon يُقيم دراسته عن المؤسسات المملوكية الجديدة Neo - Mamluk - بشكل كامل - على ما أورده الجبرتى ، بينما ميكل ونتر Winter يحسم قضاياه بالرجوع لمصادر سابقة على الجبرتى ، ويورد فى الوقت نفسه أمثلة من الجبرتى ، أما بيتربيرج Piterberg فهو - بالإضافة لذلك - يستخدم روايات غير دقيقة لمعاصر الجبرتى - الشاعر إسماعيل الخشّاب [٣١] .

وحوليات الجبرتى فيها ميزات ، فهى واضحة وبليغة وتم نشرها فى عدة طبقات ، وأكثر من هذا فبالنسبة للأحداث التى تلت صعود الكخيا إبراهيم القازدغلى يمكن التعويل على حوليات الجبرتى ، وهى - أى حوليات الجبرتى - بالفعل المصدر الروائى العربى الوحيد والجاد المتاح لنا فيما يتعلق بهذه الفترة ، ومن المعروف الآن أن الجبرتى استعار كثيرا من مادته المتعلقة بفترة زمنية أسبق من أحمد جلبى (شلبى) ومن حوليات أخرى[٣٢] ، والذى لا يوضع فى الاعتبار كثيرا هو أنه بحلول الوقت الذى كتب فيه الجبرتى حولياته ، كانت جوانب بواكير القرن الثامن عشر وما قبل ذلك بطبيعة الحال ، قد اختلطت بالفعل بالخرافات وبما هو غير حقيقى . فحكايات البكوات الكبار والضباط ذوى الرتب العليا من الفقارية والقاسمية قبل حلول السيطرة القازدغلية - كانت قد أصبحت جزءا من المعارف الشعبية التى يتذكرها الناس بشكل غامض ومبهم ، وقد تناول الجبرتى موضوعه بشكل أنجح بكثير مما فعل الخشّاب الذى قدم لنا رواية مشوّهة لهذه الأعوام الباكرة ، فعندما وصف الخشاب على سبيل المثال أصول زمرة القازدغلية ، كان من الواضح أنه لم يكن على وعى كامل بمؤسس الزمرة الكخيا مصطفى ، فقد ذكر أن القائدين الأولين هما الكخيا مصطفى

ومملوكه الكخيا إبراهيم ، وأكثر من هذا فقد بدا غير واعٍ تماما بالترتيب النظامى لرتب الأوجاقات فلم يذكر أى رتبة دون الكخيا رغم الحقيقة التى مؤدّاها أن معظم زعماء الزمرة قد جمعوا بسلطانهم (نفوذهم) وهم فى الرتب الأدنى درجة ، وبشكل عام فإن الخشاب كان يميل لاستخدام مصطلح (مملوك) كنوع من السّلال Catch all يضع فيها كل نبلاء مصر العسكريين ، كما كان يستخدم المصطلح نفسه بحرية ليطلقه على النبلاء فى مراحل سابقة ممن قد لا يكونوا مماليك بالمعنى الحرفى للكلمة [٣٣] ، إن الأثر النهائى هو صبغ صعود البكلرية من أصول مملوكية فى أواخر القرن الثامن عشر برنين تاريخى a historical reçonance قد لايكون له وجود ، ولإعطاء انطباع أن المماليك كانوا أكثر انتشارا فى القرن السابع عشر وبواكير القرن الثامن عشر فى المجتمع العسكرى المصرى ، مما قد يكون فى الحقيقة أمرا واقعيا .

إن طبيعة هذه الفترة الوسطى للحكم العثمانى فى مصر يمكن – وهذا طبيعى – تمثُّلها بشكل أكثر صدقا فى مصادر تم تأليفها فى هذه الفترة نفسها ، إن مدى الحوليات من هذه الفترة والمتاحة لمؤرخ مصر العثمانية أصبحت مؤخرا محل اهتمام [٣٤] ، وبشكل عام فإن هذه الحوليات تمخضت عن مدرستين تاريخيتين مختلفتين : المدرسة الأكثر انتشارا هى المدرسة البيروقراطية التى أفرزت روايات تاريخية مرتبطة ارتباطا شديدا بتتابع الحكام وهى تراعى مراعاة شديدة تتابع الأحداث[٣٥] ، وتنتمى حوليات الجبرتى (عجائب الآثار ...) بالإضافة لأربع حوليات أخرى استخدمتها فى الدراسة التى بين يدى القارئ لهذه المدرسة ، وقد تم تأليف هذه الحوليات الأربع فى القرن الثامن عشر وبالتالى فهى مرتبطة نسبيا بالأحداث التى يهتم بها هذا الكتاب ، وحوليتان من هذه الحوليات الأربع مكتوبتان باللغة العربية ، إحداهما : مجهولة المؤلف بعنوان (أخبار النوّاب ....) والثانية : كتبها أحمد جلبى (شلبى) بعنوان (أوده إشارات Awdah Isharat) وهناك حوليتان باللغة التركية : تآرخى مصر Tariḫ - i - Mişir لعبد الكريم بن عبد الرحمن ، وتاريخى مصرى القاهرة (تاريخ مصر القاهرة) لمحمد بن يوسف الحلاق[٣٦] .

والطائفة الثانية من المراجع الروائية هى التى وصفها الجبرتى نفسه باعتبار كاتبيها من العسكر العاديين Common Soldiers ، ففى المقام الأول تأتى مجموعة من الحوليات مكتوبة باللغة العربية تعرف باسم شامل هو « مجموعة الدمرداش » وتتكون

من ثلاثة تواريخ تم تأليفها فى بواكير القرن الثامن عشر [٣٧]، وهذه التواريخ الثلاثة كلها مرتبطة بكخيا فرقة (أوجاق) العزبان Azeban ، ومن هنا كانت الصفة « عسكرى » أو جندى Soldier ، وعلى أية حال فهذه الصفة « عسكرى » صفة مضلّلة ؛ لأن هذه الأعمال (التواريخ) هى فى حد ذاتها روايات وأخبار منقّحة مصقولة تعرض لنا وعيا بيروقراطيا عاليا لكاتبيها ، وعلى أية حال فقد كان هناك وعى بيروقراطى للفرق regiments فى مواجهة وعى الإدارة المالية ، ومن هنا فإن مؤلّفى هذه التواريخ الآنف ذكرها كانوا متوافقين مع الطقوس العسكرية ومع تفاصيل الإجراءات العسكرية (بما فى ذلك المعارك الحربية) ، وقد استخدمت مجموعة التواريخ الثلاثة الأخيرة منسوبة – نسبة غير حقيقة – إلى أحمد الدمرداش ، وهى بعنوان (الدرّة المصانة فى أخبار الكنانة)[٣٨] .

والمقابلة المفيدة لهذه التواريخ المحلية تتمثل فى التواريخ الإمبراطورية التى ألفها مؤرخو البلاط العثمانى الرسميون (S. Vak'anüvis) ، وعدد من هذه التواريخ الإمبراطورية الرسمية تضمّنها كتاب الإمبراطورية العثمانية ذو الأجزاء المتعددة والذى كتبه المستشرق النمساوى جوزيف فون همر – بورجستال [٣٩] Jo-sef Von Hammer - Purgstall وهذه التواريخ الشاملة لا تركز على المنطقة موضوع الدراسة كتركيز التواريخ المحلية ، إلاّ أن مؤرخى البلاط كانوا غالبا ما يُلقون الضوء على الظروف المحلية بوصفها فى سياقها من التاريخ العام للإمبراطورية ؛ إذ كان يمكنهم كشف سر الحكايات الطويلة والخرافات التى يوظفها مؤرخو الولايات (المؤرخون المحليون) ، وكان مما يحقّق الغرض نفسه غالبا وصف الزوار القادمين من إستانبول لمصر سواء فى مهام رسمية أو غير رسمية ، ومن الأمثلة على ذلك تلك الأقسام التى تتناول مصر من خلال رحلات رحّالة القرن السابع عشر الشهير إيڤليا شلبى (جلبى) Evliya Celebi والتاريخ الذى كتبه الباحث صمدانى زاده سليمان أفندى Semdani Zade Findikhih Süleyman الذى عاش فى القرن الثامن عشر[٤٠] ، وقدم لنا مثل هذا المنظور العريض نفسه الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر ، وربما كان أكثرهم أهمية فى هذه الفترة الرحالة اللاهوتى البريطانى ريتشارد بوكوك R. Pococke الذى كان حاضرا فى مصر والكخيا إبراهيم القازدغلى فى ذروة سلطته[٤١] ، وكان ريتشارد فى الحقيقة ضيفا على عثمان بك ذى الفقار المنافس الرئيس للكخيا إبراهيم ،

وكان وصف روكوك للكوادر العسكرية فى مصر دقيقا ، وقد تناول هذه الكوادر قُبيل التحول من سيادة الفرق Regimental Prepanderance إلى سيادة البكرية ، وفى هذا الصدد فإن رحلته قد تستخدم لإصلاح المفاهيم الخاطئة التى قال بها من كتبوا عن أواخر القرن الثامن عشر قبل الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney .

ووراء المراجع الروائية نجد عالم الوثائق الرحب الذى لا قرار له ، وبالنسبة لهذا الكتاب حاولت اكتشاف الوثائق التى تشير إلى علاقة مصر بالعاصمة الإمبراطورية لكونها تتيح فهما أعمق لمؤسسات مصر العثمانية ، وللسياق العثمانى للأحداث المحلية التى تناولتها التواريخ المحلية بتفصيل شديد ، وكانت مجموعة الدفاتر المهمة (مُهمّى دفترى) التى تسجِّل أوامر السلطان للولاة وغيره من المسئولين العثمانيين فى الولايات هى أهم المصادر الأرشيفية ، وهذه الدفاتر الوثائقية محفوظة فى الأرشيف العثمانى فى إستانبول Başbakanlik Osmanli Arşiui ، وكانت الأوامر النمطية الصادرة من السلطان تُوجّه للوالى أو للوالى بالإضافة إلى المسئولين البكوات الرئيسية (عادة أمير الحج ، ومسئول الخزانة) والضباط ، وفى حالات نادرة كان يُفرد النبلاء المؤثرين بالخطاب ، وبالنسبة للقرن الثامن عشر هناك مجموعة من الدفاتر (مجموعات الوثائق) خاصة بمصر تحت عنوان « دفاتر مهمة – مصر » ، وعلى أية حال فلكى نبحث الحوادث السابقة على القرن الثامن عشر لم يكن أمامنا خيار سوى متابعة مجموعات الوثائق الهامة (مهمّى دفترى) (٤٢)، وعلى أية حال فقد أثمر الجهد نتائج مفيدة ، فعلى سبيل المثال وجدنا معلومات كثيرة فى هذه الدفاتر عن الأحوال التى سادت خلال القرن السابع عشر فى منطقة غرب الأناضول حيث ترجع أصول زعماء القازدغلية .

أما الزعيم الخصىّ الأسود الذى تناولنا نفوذه فى الزمر العسكرية المصرية فى الفصل الثامن فيفتح لنا جبهة أرشيفية جديدة تماما ، ومعظم مادّتى المتعلقة بهذه الشخصية الماكرة استقيتها من أرشيفات قصر طوبقابى Topkapi ، وتحوى هذه الأرشيفات خليطا هائلا من الوثائق تضم ما يتعلق بزعيم الخصيان السود وغيره من خصيان (طواشية) القصر المخزون ، ووثائق وقف ، وتوجيهات سلطانية ، وسجلات المداخيل والمصروفات ، بل وحتى نسخ من أحكام المحاكم الشرعية فى القاهرة ، وبهذه الأرشيفات أيضا عدد من الوثائق متعلقة بالنبلاء المصريين .

ويقدم لنا أرشيف Basbakanlik وثائق أكثر تركيزا على الإحصاءات فى شكل سجّلات مالية ، وهذه الوثائق تقع فى أنواع « فئات » ثلاثة : على سبيل المثال ، حيازة الأرض ، والأجور والرواتب ، والمداخيل والمصروفات الخاصة بالمؤسسات المختلفة ، وقد بحثت فى نوعين من الوثائق فى مجموعة وثائق Maliyeden Müdevver النوع الأول هو « مقاطعة دفترى » يضم العوائد التفصيلية المتوقعة من التزام القرى village tax farm (المفرد : مقاطعة) فى كل أنحاء مصر خلال سنى العشرين من القرن الثامن عشر ، ولهذه الوثائق (الدفاتر) أهمية طبوغرافية كبيرة بالإضافة لأهميتها المالية مادامت « الروايات » الطبوغرافية عن نهاية عصر السلطنة المملوكية كانت مُفتقدة فى مصر العثمانية ، ولكن هذا السجل (الدفتر) ذو أهمية خاصة لهذه الدراسة ؛ لأنه يقدم لنا أسماء وألقاب الملتزمين (جامعى الضرائب من الفلاحين Tax farmers) وبالتالى يبين لنا مدى انتشار ضباط الفرق كملتزمين rural tax farmers بحلول العشرينات من القرن الثامن عشر .

وأخيرا فإن مجموعة وثائق Maliyeden Müdevver تضم دفاتر كثيرة للرواتب العسكرية لكل الفرق (الأوجاقات) السبع فى مصر ، وهذه السجلات (الدفاتر) تعد مصدرا وحيدا لتكوين هذه الفرق ، وما بداخلها من زُمر عسكرية military entourages ، وقد تفحّصت اثنين من هذه السجلات (الدفاتر) بالتفصيل : سجل (دفتر) منها يتناول فترة قريبة من بداية الفترة التى أتناولها فى كتابى هذا ، وسجل (دفتر) فى حوالى آخرها .

الهوامش

(١) انظر على سبيل المثال

Holt, " Beylicate " 218, 225; Holt, Egypt on the Fertile Crescent, pp.73,85, 90-92. Michael winter " Turks, Arabs Mamluks in the Army of Ottoman Egypt " WZKM, 72 (1980), 90-100; Shaw, Financial & Administrative organization ,pp.37, 63, 194; Crecelius, Roots of Modern Egypt, pp.,30-1 André Raymond. " Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au xviie Siècle "JESHO 6 (1963) 58 - 103, Gabriel Pilierberg, " The Formation of an Ottoman Egyptian Elite in the 18th Century. IJMES 12 (1990) 280.

(2) David Ayalon, " Studies in al-Jabarti I: Notes on Transformotion of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans " part 2, JESHO 3 (1960) 290-9. Ayalon'most significant Finding is that the "Open house "(البيت المفتوح) of the Ottoman Era had no Parallel in the Mamluke Sultanate (p. 297).

ليس لنظام البيت المفتوح العثماني نظير في السلطنة المملوكية .

(3) Leslie P.Peirce, The imperial Harem : Women a Sovereignty in the Ottoman Empire (N.Y & Oxford , 1933) ; Gülru Necipoglu- Kafadar, Architecture, Cerermonial, & power. The Topkapi Palace in the 15th & 16 the Centuries (N.Y., 1991).

(4) I.H. Uzunçarşih, Osmanli Devleitinin Saray Teşkilati (Ankara , 1945), especially pp. 432-39, 465-87; Uzunçarsih, Osmanli Devleti Teskilatindom Kapukulu Ocaklart, 2 vols (Ankara, 1934 -1944) Vol. I, pp. 60-65, 137 -8,478 vol.II p.198 EI², S.V. Bostandji " by I. H. Uzunçarsili, EI², S.V. " Adjami Oghlan " by Harold Bowen .

(5) Metin Kunt, The Sultan's Servants : the transformation of Ottoman Provincial government 1550 - 1650 (N.Y., 1983) ' Rifaat A. Abou - el - Hajj , " The Ottoman Vezir and Pasha Households, 1683 -1703 : A preliminary Report " JAOs 94 (1974) 438 - 47 .

(6) Uzunçarsih, Kapulu Ocaklart , vol. 1, pp. 167 - 71 , 234 - 7, 254 - 9 .

(7) Roymond, " Essai de géographie " , Andre' Raymond, " Les Quartiers de Résidence de l'étite de l'époque mamelouke Ottomane (XIV - Xviie Siècle)

بحث مقدم لمؤتمر « المماليك فى المجتمع المصرى » عُقد فى باد همبورج Bad. Homburg ، ألمانيا، ديسمبر ، ١٩٩٤ .

(٨) أحمد جلبى (شلبى) ، والجبرتى يشيران إلى الزمرة الكبيرة للجاويش عثمان çovus القازدغلى فى هذه الحال انظر عجائب الآثار للجبرتى ، مج ٢ ، ص ١٢ ، وأحمد شلبى (أوده Awdah) ص ٦٠٨

(٩) عن كجك محمد Küçuk Mehmed انظر على سبيل المثال الدمرداش : الدرّة ، ص ص ١٤ ، ٢٦ ، وأحمد شلبى : أوده Audah ص ص ١٩٠ وما بعدها ، والجبرتى : عجائب الآثار ، مج ١ ، ص ص ١٣٠ وما بعدها (1963) P. M. Holt " the Career of Küchuk Muhammad " (1676 - 1694) . BSOAS 26 269 - 87 .

وعن أفرانج أحمد ، انظر عبد الكريم بن عبد الرحمن : تاريخى مصر (بالتركية) ، استانبول ، مكتبة سليمان ، . MS Hekimoglu Ali Paşa , 705 Fos 128r - 146v .

أحمد شلبى ، أوده ، ص ص ٢٢٩ وما بعدها ، والجبرتى : عجائب الآثار ، مج ١ ، ص ص ١٠٧ وما بعدها ،

André Raymond, " Une ʿRevolution au Caire sous les Mamelouks : La Crise de 1123 / 1711 " AI. 1 (1966) 95 - 120 .

(١٠) على سبيل المثال ، فإن زمرتى entourages زعيمى القازدغلية الأولين : الكخيا مصطفى ، والجاويش حسن Cavus كان يُطلق على كل منهما (طرف) أو (طائفة) . انظر الجبرتى : عجائب الآثار ، مج ١، ص ١٠٧ ، ٢٣٨ ، عبد الكريم : تاريخى مصر (Fo . 135 v) . ومن الطريف أن تجمعات مشابهة لوحظت فى الجيش السوفييتى السابق فى ألمانيا الشرقية ، انظر :

" Bad Blood in Germany " : The Soviet Army - Can't leave soon enough " Newsweek, November 12, 1990 , p. 42 .

(١١) عن بيت الجاويش عثمان القازدغلى ، انظر الجبرتى : عجائب الآثار ، مج ٢ ، ص ٤٨

Doris Behrens - Abouseif, Azbakiyya and its Environs ; From Azbak to Ismail, 1476 - 1879 (Cairo , 1985) pp. 55 - 62' Raymond, " Éssai de géographie " 74 .

(١٢) انظر على سبيل المثال ، الجبرتى : عجائب الآثار ، مج ٢ ، ص ٩٠ (الجمع : أتباع ؛ لكن يتم استخدام توابع فى بعض الأحيان) .

(13) Piterberg, "Formation of an Ottoman Egyption Elite" 279 ,Aylon."Studies in al - Jabarti" part 2, 279 - 83.

(١٤) عن " Studies in al - Jabarti " Aylon Part 2, 279

(١٥) إيفليا جلبى (شلبى) :

Evliya Çelebi Seyahat namesi , 10 vols (Istanbul , 1888 - 1938) vol. VII, p. 722,

(١٦) درست بالتفصيل سجلين من هذه السجلات :

Istanbul , Basbakanlik Osmanli Arşivi, Maliyeden Müdevver 4787 (1086 - 8) and 7069 (1150) .

ولمزيد من التفاصيل عن محتوى هذه الوثائق انظر الفصل الثالث من كتابنا هذا ، ص ص ٣٧-٤٦

(17) Istanbul, Başbakanlik Osmanli Arşivi, Mühimme - Misir, vol .V, No 18 , dated 1146 (1733) .

(18) Abau - el - Hajj , " Vezir & Paşa Households" P. 441.

(19) Kunt, The Sultans' Sevvants

خاصة الفصل الخامس والخاتمة، وانظر أيضا :

Abau - el - Hajj " Vezir & Paşa Households " 446 - n . 37 .

(٢٠) ظل نقيب الأشراف يتم تعيينه من استانبول حتى القرن الثامن عشر ، عندما راحت أسرة البكرية فى احتكار هذا المنصب .

(٢١) انظر :

jane Hathaway " The Role of the Kizlar Ağasi in Seventeenth- Eighteenth Century Ottoman Egypt " SI 75 (1992) , 141 - 58 .

(٢٢) انظر على سبيل المثال :

Shaw, Financial & administrative Organization , pp. 28 - 36 , , 102 - 133 ' André Raymond , Artisans et Commerçants au Caire au xxIIIe siècle , 2 vols . (Damascus , 1973 - 4) vol , II, pp. 612 - 57 , 710 - 26, 772 - 5

(٢٣) انظر الفصل السابع ، ص ص ١٣٤ – ١٣٧ .

(٢٤) انظر الفصل السادس ، وأيضا :

Jane Hathaway, " Marriage Aliances among the Military Households of Ottoman Egypt " AI 29 (1995) , 133 - 49.

(25) Raymond . " Essai de géagraphie " 37 ff; Behrens - Abouseif , Azbakiyya and its Environs , pp. 94ff.

(٢٦) انظر على سبيل المثال ، الجبرتى : عجائب الآثار ، مج ٤ ص ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(27) Hathaway " Marriage Alliances" : 18 ff .

(28) André Raymonde , " Soldiers ın Trade : the Case of Ottoman Cairo". British society for Middle East Studies Bulletin 18 (1991) 21 ff .

(٢٩) انظر الفصل الثالث ، ص ص ٤١ – ٤٢ .

(٣٠) لدراسة الظاهرة فى أوروبا فى العصور الوسطى انظر :

Carol Lansing , The Florentine Magnates :

Lineage and Faction in a Medieval Commune (Princeton, 1991)

خاصة الفصول من الثانى إلى الخامس – فى " Soldiers in Trade " التى اقتبسناها آنفا ، قام André Raymond بدراسة فائقة الوراثة .

(٣١) إسماعيل الخشاب ، تذكرة لأهل البصائر والأبصار مع وجه الاختصار ، باريس ، المكتبة الوطنية ، مخطوطات عربية ، ١٨٥٨ .

(32) P.M. Holt "Ottoman Egypt (1517 - 1793) : An Account of Arabic historical Sources" in P.M. Holt (ed .) , Political and Social Change in Modern Egypt (London, 1968) .

Danial Crecelius " Ahmad Shalabi ibn ᶜAbd Al - Ghani and Ahmad Kakkhudao ᶜAzaban Al - Damurdashi :

Two Sources for Al - jabarti's Aja " ib al ather " in Daniel Crecelius (ed.) Eighteenth Century Egypt : The Arabic Manuscript Sources (Claremant , CA 1990)

واستعار الجبرتى أيضا على نطاق واسع من حوليات الدمرداش التى ناقشناها فيما بعد .

(٣٣) رغم أن جبريل بيتربيرج Piterberg كان واعيا بعدم دقة الخشّاب إلا أنه قَبِلَ قوله أن الكخيا إبراهيم القازدغلى كان مملوكا (انظر : Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite " 281 and n . 32.

وهذا الانطباع عن الكخيا إبراهيم يجد صداه فى رواية الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney الذى يصور الكخيا إبراهيم الذى لم يطلق عليه أبدا لقب القازدغلى الذى لا أصل له ، والذى تسبب فى « ثورة » أعادت المماليك للسلطة ، وكان ڤولنى مقتنعا أن إبراهيم نفسه مملوك . انظر :

Volney (Constantine - François Chasseboeuf) Travels throught Syria & Egypt in the years 1783 , 1784 & 1785 . Trans. from the french, 2 vols (London, 1805) vol. 1 pp. 90, 104 - 5, 152 .

(٣٤) تبقى معالجة هولت معالجة موثقة

Holt, " Ottoman Egypt " ; P.M. Holt, " al - Jabarti's introduction to the history of Ottoman Egypt " BSOAS 25 (1962) , 38 - 51 , Stanford Show " Turkish source - materials for Egyptian history " in P.M. Holt (ed .) , Politibs & Social Change in Modern Egypt (London, 1968).

هناك مجموعة جديدة من المقالات التاريخية عن مصر فى القرن الثامن عشر جمعها Crecelius

(٣٥) عن الدراسة المفصلة ، انظر .

Jane Hathaway " Sultans , Pashas, Taqwims & Mühimmes : A Reconsiderations of Chronicle - Wrighting in 18 th Century Ottoman Egypt " in Crecelius (ed) Eighteenth Century Egypt .

(٣٦) لمؤلف مجهول : أخبار النُّواب من دولة آل عثمان من حين استولى السلطان سليم خان عليها (إلى ١٧١٦/١١٢٨) إستانبول ، مكتبة طوبقابى (مخطوطات Ms Hazine 1623) أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أودا إشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (إلى ١٧٣٧/١١٥٠) نشرة عبد الرحمن عبد الرحيم . القاهرة ١٩٧٨ . عبد الكريم بن عبد الرحمن ، تاريخ مصر (بالتركية) (إلى ١٧١٦/١١٢٨) إستانبول ، المكتبة السليمانية ، (مخطوط Ms Hekimoglu Ali pasha 705) . محمد بن يوسف حلاق - تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) (إلى ١٧١٥/١١٢٧) ، مكتبة جامعة استانبول (T. y . 628)

(37) Al - Jabarti is quoted in Holt " al Jabarti's introduction " 39

الحوليات التى نحن بصددها هى :

– مصطفى بن إبراهيم المدّاح القنالى Al - Qinali مجموع لطيف يشتمل على وقائع مصر القاهرة (إلى ١٧٣٩)

– مؤلف مجهول : كتاب مجموع الدرّة المصونة فى وقائع الكنانة (إلى ١٧٥٤ – ١٧٥٥)

– أحمد الدمرداش : الدّرة المصونة فى أخبار الكنانة (إلى ١١٦٩ /١٧٥٥ – ١٧٥٦) .

لمعرفة الوصف الكامل لهذه الحوليات انظر :

Holt, " Ottoman Egypt" And Holt " The Career of Kuchuk Muhammad " , 269 - 87

توجد حولية المدّاح القنالى al - Qinali تحت عنوان « تاريخ وقائع مصر القاهرة ، كنانة اسمه تعالى – فى أرضه – موجود فى دار الكتب المصرية / مخطوطات / ميكروفيلم رقم ٢٧٩٧٠

(٣٨) هذا اسم واحد من الكخيات من كتائب العزاب وقت كتابة الحولية . من غير الواضح ما إذا كان الكخيا نفسه أو أحد أتباعه هو كاتب الحولية ، ويزعم القنالى أنه « تابع » المتوفى حسن أغا الدمرداش العزابى .

(39) Józef Von Hammér - Purgstall, Geschichte des osmanischen Reiches, 10 vols (Pest, 1827 - 35)

الترجمة الفرنسية فى ٨٠ مجلد ، ويوجد أيضا تحت عنوان :

Histoire de L'empire Ottoman (Paris, 1835 - 43) .

والـ Vak' anüvises الذى تعرض له Von Hammer هو بالنسبة للفترة التى نتحدث عنها فى كتابنا هذا : محمد رشيد . وكشك شلبى زاده Küçukçelebizade ,

إسماعيل عاصم (١٧٧٢ – ٨) ، ومحمد صبحى (١٧٣٠ – ١٧٤٣)

وسليمان عزّى (١٧٤٤ – ١٧٥١) وأحمد واصف (١٥٧٢ – ١٧٧٤) .

وعن هؤلاء المؤرخين انظر :

Franz Babinger , Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke (Leipzig, 1927) pp. 268 - 70 , 293 - 9, 287 - 8 , 335 - 7.

وكان فون همر Von Hammer مدركا بما فيه الكفاية أهمية إستخدام الحوليات التركية التى تتناول الولايات مثل : الحلاّق (الذى يسمّيه Sohnes Júsufs) ، عندما تقدم هذه الحوليات رواية مفصّلة للحوداث .

(٤٠) إيفليا شلبى ، سياحة نامه ، مج ١٠ ، حمدانى زاده سليمان أفندى ، تاريخ صمدانى زاده ، نشره منير أكتيب Aktepe ، ٤ مج فى ٣ (استانبول ١٩٧٦) ولابد أن يذكر المرء أيضا مصطفى على : وصف مصطفى على للقاهرة فى سنة ١٥٩٩ ، نشره وترجمة أندرياس تيتز Andreas Tietze –(ڤيينا ، ١٩٧٥) . ورغم أنه أُلّف قبل الفترة التى نؤرخ لها فى هذا الكتاب إلا أنه يلقى كثيرا من الضوء على مؤسسات مصر فى العهد العثمانى .

(41) Richard Pococke , Adescription of the east and some Other Countries, 2 vols (London , 1743)

وصدر له ملخص مع إضافات بعنوان :

Travels of Richard Pococke, L.L.D., F.R.S. , Through Egypt , Interspersed with Marks and Observations by Capain Norden (Philadelphia - 1803)

(٤٢) لمعرفة شيء عن الدفاتر المهمة Mühimme

انظر :

Shaw, " Turkish Source Materials " Stanford J. Show," The Ottoman Archives as a source for Egyptian history " JADS 83 (1963) , 447 - 52 .

Türkiye Cümhüriyeti Başbakanlik Devlet Arşivi Genel Müolür lügu , Baş bakanlik Osmanli Arşivi Rehberi (Ankara, 1992); Atilla Çetin, Baç bakanlik Arşivi kilavuzl (Istanbul, 1979) , Midhat Sertoglu, Muhteva Bakummdan Baçvekalet Arsivi (Ankara, 1955) .

الفصل الثالث

التحوّلات فى المجتمع العسكرى " المصرى "
فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

والخطوة الأخيرة لإعداد المسرح لظهور زمرة القازدغلية هى تحديد الاتجاهات العامة فى المجتمع العسكرى فى مصر خلال الفترة التى وصلت فيها هذه الزمرة للشهرة . لقد انتهينا إلى أن فترة أواخر القرن السابع عشر وبواكير القرن الثامن عشر شهدت نفوذا غير مسبوق لضباط الفرق (الأوجاقات) regimental officers ، حقيقة إن زعامة الزمرة قد راحت تتأرجح بين البكوات والضباط خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، ومعنى ذلك تأرجح النفوذ بين هاتين الطائفتين (البكوات والضباط) فى هذه الفترة المذكورة ، ورغم أن الطائفتين كانتا مرتبطتين اسميا من خلال إمكانية ترقية الأغا إلى بك كما كان يحدث فى العاصمة (إستانبول) إلا أنّ هذا الترقّى لم يكن أبدا راسخا رسوخا تاما إلاّ كوسيلة لإبعاد الضباط المؤثّرين (ذوى النفوذ) عن مراكز نفوذهم ، فالحقيقة تفيد أنّه كان هناك توتر مؤكّد بين المجموعتين (البكوات والضباط) منفصلاً تماما عن الولاءات للزُّمر ، فكل مجموعة من المجموعتين (الضباط والبكوات) كان متاحا لها مصادر مختلفة للدخل : البكوات متاح لهم الالتزام tax farms فى الريف ، بما فى ذلك حكم الولايات (المديريات) والنواحى وهو منصب مُربح (يُدر عائدا) ، والضباط كان متاحا لهم الالتزام فى المدن Urban tax farms كالالتزام بجمارك موانى البحر الأحمر والبحر المتوسط ، ومن الطبيعى والأمر كذلك أن تنظر كل مجموعة (البكوات والضباط) للأخرى بعين الشك فيما يتعلق بتجميع الثروة .

انتقال رؤساء الزمر من بكوات لضباط فرق

إدخال الحكومة العثمانية لفرقة المتفرّقة لمصر فى النصف الثانى من القرن السادس عشر – يبدو أنه جعل البكلرية فى ذروة القوة (السلطان) والنفوذ بعملها على إضفاء الطابع المحلّى على ضباط المتفرقة الذين صعُدوا إلى رتبة البكوية ، فبدأوا فى تجنيد أتباعهم من الفرق التى كانوا فيها سابقا[١] . وفى حوليات مصر العثمانية التى كتبت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ بكوات بعينهم فى الظهور قُرْبَ نهاية القرن السادس عشر ، وكان هؤلاء فى غالبهم – كما هو مسلَّم به – من المتفرقة المحلِّيين والجاويشية Çavuşan الذين أتوا إلى مصر من القصر الإمبراطورى ، ومع هذا فإنهم يبدون كذلك مثل الأمراء المماليك السابقين الذين سُمِح لهم بالبقاء فى مصر فاشتروا عبيدا (مماليك) من القوقاز لإلحاقهم بزمرهم to their household ، وبحلول سنى الثلاثين من القرن السابع عشر كتب إيڤليا جلبى (شلبى) أنه يوجد كثير من الشركس فى مصر[٢].

لقد كان كل النبلاء العسكريين فى مصر ينافسون على الرياسة ، تلك الظاهرة (الرياسة) التى كان معناها الدقيق موضوعا لبعض الاستنتاجات والتخمينات ، فالرياسة كم وصفها هولت Holt تبدو شكلا غامضا (غير محدد) من السلطة ، والبك القائد أو الضابط القائد يدّعى الرياسة ، وكان يُشار إلى ذلك فى الحوليات بعبارة « انتهت إليه الرياسة »[٣] ، وكلما أدّى توازن القوى فى مصر إلى انتقالها مرة أخرى من البكلرية إلى الفرق (الأوجاقات) مرة أخرى كلما تغير بالتالى القابضون على (الرياسة) ، وعلى هذا ففى بواكير القرن السابع عشر قبضت مجموعة من العسكر على « الرياسة » ، بينما شهد منتصف القرن التالى الضابط الإنكشارى الكخيا إبراهيم القازدغلى وهو يشارك فى الرياسة مع الضابط العزبانى (من فرقة العزبان) الكخيا رضوان الجلفى[٤] Jalfi ، وفى أواخر القرن الثامن عشر تصبح « الرياسة » قصرا على البيك الزعيم القازدغلى ، ومع هذا فإن التدقيق فى الحوليات يفيد أن « الرياسة » ليست تعبيرا مجردا وإنما هى جماع منصب الرئيس Collective headship الذى يضم الضباط من ذوى الرتب العليا والعوائد المالية المتراكمة لهم ، هذه المناصب التى تكون جماع منصب الرئيس يظهر أنها تتمثل فى قادة الفرق السبع بالإضافة إلى شاغلى مناصب البكلرية الأساسية : قائد الحج ، والدفتردار (مسئول الخزانة)

وأخيرا شيخ البلد أو رئيس القاهرة headman of Cairo والسبب فى أن الأفراد مثنى وثلاث ، يدعون انتهاء الرياسة إليهم ، ربما كان يكمن فى اختلافهم فى الثروة والأهمية والمنصب ، وعلى هذا فدلالة عبارة « انتهت إليه الرياسة » ربما كانت لا تعنى أن الشخص الذى تشير إليه العبارة هو وحده القابض على زمام الرياسة ، وإنماقد تعنى أنه الأغنى والأقوى (من بين آخرين) .

وبنهاية القرن السابع عشر بدا أن البكوات قد لعبوا دورا أكثر بروزا فى الإدارة المصرية وما صاحب ذلك من تجميع ثروات كبيرة ، وفى هذه الفترة بالتمام بدأت الحوليات تُسجل تمردات عسكرية بعد عقود من الهدوء الظاهرى [٥] ، وكان أحد أسباب التمردات العسكرية – بلا شك – هو زيادة نفوذ البكوات ؛ إذ طوَّر البكوات من مصالح أتباعهم فى المتفرقة والجاويشان مما أدى إلى تضاؤل فرص الجنود الأقل ارتباطا بهؤلاء البكوات ، وكان أكثر من تأثَّر بهذا الوضع فرق الفرسان الثلاثة : الجونوليان Gönüllüyan ، (الجمليان) ، والتوفنكيان Tüfenkciyan ، والشركس Cerakise ، ورغم أن هذه الفرق كان يطلق عليها غالبا اسم فرق السيباهى ، إلاَّ أن أفرادها لم يكونوا يتلقون مخصَّصات الخيَّالة ممثلة فى حق الانتفاع ، لكنهم كانوا يعتمدون على الرواتب الشهرية التى كانت أقل من أى رواتب يتقاضاها أفراد الفرق (الأوجاقات) الأخرى ، وكلما نما الالتزام قلَّت قدرة الخزانة على دفع الرواتب فى أوقات العسر ، وبالتالى عانى جنود فرق الخيالة وبلغ الأمر ذروته فى سنة ١٦٠٩ م ، عندما أعلن الجنود المتمردون من فرق الخيالة Sipahi ولاءهم للإمبراطورية العثمانية وعينوا هم أنفسهم – سلطانا لهم (خاصا بهم) ، وقد قمع الوالى العثمانى التمرد بالتعاون مع البكوات ، الذين زاد نفوذهم بالتالى [٦] .

وفى الأعوام التى أعقبت تمرد السباهية (فرق الخيالة) استعرض بكوات مصر قدرتهم على عزل أى والٍ يهدد مصالحهم ، وفى هذه المرحلة فرض الفريقان الفقارية والقاسمية نفسيهما على الحوليات التى تناولت تاريخ مصر ، وثمة عنصر عِرْقى فى هذا الانقسام[٧] ، فالواقع أنّ أحد التفسيرات قد يكون السبب فى النزاع بين البكوات الذين أتوا من القصر الإمبراطورى فى استانبول من ناحية وأولئك الذين يعودون إلى زمرة الأفراد المماليك الذين تعاونوا مع العثمانيين أثناء الفتح العثمانى وبعده ، ورغم أن هذا الانقسام إلى فقارية وقاسمية كان أبعد مايكون عن الوضوح إلاّ أن الفريق

الأول (الفقارية) كان يحوى عناصر تركية وأخرى من البلقان ، أما الفريق الثانى (القاسمية) فيضم القوقازيين[٨] كما تشير كل الشواهد .

حقيقة إن بعض التعالى العرقى الشركسى ظهر بين عناصر من فريق القاسمية خلال العقود الأولى من القرن السابع عشر ، فالقاسمى رضوان بك أبو الشوارب سمّى اثنين من أبنائه « خوشقدم » ، وهى من الأسماء التى تذكّرنا بأسماء سادت فى عهد السلطنة المملوكية [٩] ، وادّعى لقب رضوان بك « الكبير » وموّل عملا يُرجع نسبه فيه – من خلال السلطان المملوكى برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٩ هـ) لقبيلة قريش العربية التى ينتمى إليها النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكان الهدف من هذا العمل فيما يبدو إثبات أن القاسمية هم الأوْلى بقيادة قافلة الحج بسبب إخلاصهم للمدينتين المقدستين [١٠] .

وحاولت الحكومة العثمانية السيطرة على هذين الفريقين (القاسمية والفقارية) بتقسيم مناصب الحكم والإدارة بينهما ، فأبقت رياسة قافلة الحج للفقارية والدفتردارية للقاسمية ، أما من ناحية الواقع الفعلى فإن بعض السلاطين والصدور العظام (رؤساء الوزارات) كانوا يحابون فريقا على حساب الآخر وفقا لمصالحهم ، وفى هذه الأثناء راح كل فريق يبذل قصارى جهده لشغل المناصب ، لقد كانت رياسة قافلة الحج على نحو خاص مرغوبة لإتاحتها فرص التجارة الحجازية واليمنيّة ، بل والتجارة مع الهند أيضا لأنّ شبه الجزيرة العربية كانت محطة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط ، وبعد أن اغتصب اثنان من البكوات الشركس من القاسمية المنصبين خلال العقد الرابع من القرن السابع عشرنقل البلاط العثمانى دعمه للفقارية ممهّدا المسرح لظهور الزعيم الفقارى البارز رضوان بك . لقدتولّى البيك رضوان منصب قيادة قافلة الحج لحوالى ربع قرن رغم جهود السلطان مراد الرابع لإزاحته عن منصبه هذا [١١] ، وخلال هذه الأعوام رسّخ الفريق الفقارى وجعل منه قوة هائلة ، ولموازنة القوى ظهر أنّ العثمانيين قد طعموا الفريق القاسمى بجنود بُوسْنيين من العاصمة ، وتشير الحوليات التركية لأحمد بك بوشناق (Bosniak) ، وأخيه شعبان ، وابن أخيه إبراهيم بك أبو شنب باعتبارهم ينى كابى Yeni Kapi ، وهذا اللقب (ينى كابى) يكاد يشبه حى الينى كابى على ساحل مرمرة فى استانبول القريب من قصر أم سلطان[١٢] ، وقد أتاح موت رضوان بك فى سنة ١٦٥٦ . الفرصة لأحمد بوشناق



منطقة القوقاز والبحر الأسود

لتدعيم سلطان القاسمية ، وبازياد النزاع بين الفريقين اندلعت سلسلة من المعارك الدموية بينهما شملت كل أنحاء ريف مصر خلال سنة ١٦٦٠ . بلغت ذروتها بمذابح نصبها القاسمية للفقارية المهزومين ، لقد غدا البلاط العثمانى بسرعة حذرا من إسفاف البكوات فسارع للتخلص من المنتصر أحمد بك بوشناق[١٣] .

لقد أدّى هلاك عدد كبير من البكوات فى سنة ١٦٦٠ ، ومحاولة الحكومة العثمانية كبح جماح من تبقّى منهم بعد ذلك إلى ظهور فراغ فى النخبة العسكرية فى مصر حتى أن ضباط الفرق راحوا يستعدون لملئه ، وبغض النظر عن فساد البكلرية فإن عددا من التطورات مكنت الضباط من الوصول إلى صدارة النخبة العسكرية فى الولاية ، وقد أضاف فيض الجنود القادمين من العاصمة والمرتزقة المسرّحين فى هذه الأعوام للعسكرية المصرية قوة عددية ، وقد انضم عدد كبير منهم أيضا لزُمر الضباط households . كما هو واضح من سجلاّت الرواتب (انظر الجدول ٣/١) .

وراح الضباط من ناحيتهم يوسّعون مواردهم المالية ، وأصبحت سيطرتهم على جمارك مصر مؤدية لربح وفير بشكل غير عادى خلال القرن السابع عشر مع قدوم البن من اليمن وما نتج عن ذلك من حركة تجارية فى البن عبر البحر الأحمر ، وقد شارك ضباط كثيرون تجارا من عدد من البلاد ممّن يتاجرون فى البن والبهار عبر البحار ، وجعل ازدهار تجارة البن الضباط يرغبون فى الحصول على الالتزام فى القرى المصرية التى تنتج الحبوب التى تأخذها قافلة الحج إلى الحجاز ، فرغم أن هذه الحبوب كانت موجهة أساسا لفقراء المدينتين المقدستين ، إلاّ أن جزءا منها كان يتم مبادلة البن به فى الحجاز[١٤] ، وكان هناك ضباط بالفعل يقبضون على التزامات قرى على نطاق محدود فى العقود الأولى من القرن السابع عشر[١٥] ، وفى حوالى نهاية القرن شجع استقدام نظام « المالكين Malikane » أى نظام حيازة الالتزام طوال الحياة أعدادا متزايدة من الضباط ليصبحوا ملتزمين للقرى ، لقد كانت القرى – نسبيا – موردا آمنا للدخل فقد كانت التزامات القرى أساسَ ثروة كثير من الزّمر .

واستفاد الضباط أيضا من حقيقة أن البلاط العثمانى اعتبرهم محلَّ ثقةٍ أكثر مما كان يعتبر البكوات ، واعتبرهم أكثر انضباطا (من السهل إدارتهم) أكثر من البكوات ، لقد كانت واجبات وحيازة الضباط أكثر تحديدا ووضوحا من واجبات البيك

وحيازته ، وعلى هذا ففى النصف الأخير من القرن السابع عشر أناطت الدولة بالضباط عددا كبيرا من الواجبات على سبيل الامتياز ، لقد كان على كثيرين من هؤلاء الضباط أن يعملوا فى الإشراف على الأوقاف (المفرد : وَقْف) ومؤسساته الخيرية ، لقد بدا أنه من المعتاد أن يُعين الوالى العثمانى فى مصر أغا الإنكشارية ناظرا لوقف أى مسجد فى الولاية[١٦] ، وكانت أوقاف الحرمين الأربعة العثمانية (الإمبراطورية) الضخمة هى الأكثر أهمية بكثير وكانت عوائدها تأتى من مختلف أنحاء الإمبراطورية وكان يشرف عليها (يتولى نظارتها) كبير الخصيان السود للحريم السلطانى [١٧]، وعلى أية حال فقد كان عدد كبير من القرى المصرية موقوفة على المدينتين المقدستين وتنقل غلالها إليها فى موسم الحج ، ولهذا السبب كان المشرفون على البقعة the spot (موضع الوقف) ويقال لهم المتولِّين mutevellis (المفرد: متولٍّ) يتم اختيارهم من بين النخبة العسكرية فى مصر ، ورغم أنه لم يكن هناك تفكير فى رُتب هؤلاء المشرفيين (المتولّين) فقد ساد البكوات فى هذه المناصب الإشرافية حتى أواخر القرن السابع عشر ، وعلى أية حال فحتّى هذا الوقف كان نقل الإشراف إلى ضباط بعينهم من الإنكشارية والعزبان يتم عن طريق أوامر سلطانية ، وكان الإشراف على هذه المواقع حافزا كبيرا للضباط للحصول على التزامات القرى الموقوفة على الحرمين [١٨] .

وشهد القرن السابع أيضا تغيرا فى ميزان القوى بين الفرق (الأجاوقات) السبع ، فبينما ظلت كتائب الخيالة الثلاثة هى الأدنى فى الفرق ، فإن الثروة النسبية والنفوذ النسبى للفرق الأربع الأخرى قد تغيّرا ، فكلما غدت النخبة العسكرية أكثر توطُّنا وأكثر مددا بالأفراد الذين يأتونها من العاصمة العثمانية أصبحت المتفرقة – التى كانت فى وقت من الأوقات زبدة الفرق والطريق للنفوذ السلطانى – أقل أهمية وأقل عددا ، وبحلول نهاية القرن السابع عشر أصبحت الرتب التى كانت فى وقت من الأوقات قصراً عليهم (على المتفرقة) لأتباع الضباط من الفرق الأخرى (انظر الجدول ٣/١) ، كما أصبحت كثير من الامتيازات التى كانت قصرا عليهم مثل : الهورد horde ؛ أى الحق فى فرض ضريبة على المواكب الاحتفالية من حق كتائب الإنكشارية والعزبان التى ظهرت الآن كفرق فى صدارة السّاحة المصرية [١٩]، فدائما – الآن – كانت أكبر الفرق – وهى الإنكشارية – هى التى حلت محل المتفرقة كأكثر

الفرق ثراءً وأكثرها نفوذا ، لقد استفادت الإنكشارية والعزبان من حقيقة أنها غير مرتبطة بديوان الوالى كما كان الحال بالنسبة للمتفرقة والجاويشان Çavuşan ، وإنما كانت تعتمد على قوتها المنفصلة فى ثكناتها فى قلعة القاهرة ، ونَعِم الإنكشارية أيضا بشبكة أتاحت لهم نفوذا كبيرا بين الأقسام التجارية للقاهرة حيث كان كثير من الحرفيين والتجار تحت « حمايتهم » وأدى ارتباطهم بالجماهير إلى دعم دورهم فى حراسة Policing القاهرة وحفظ النظام العام ، وكان أغا الإنكشارية بحلول القرن الثامن عشر يقوم بمعظم وظائف المحتسب فى الأسواق كالتفتيش على الموازين والمقاييس ، والأخلاق العامة ، وسلوك الأقليات الدينية[٢٠] ، وأدى إرسال جنود إنكشارية لحراسة قافلة الحج ومشاركة الإنشكارية بكثافة فى المعارك خارج مصر إلى إتاحة الفرصة لهم للقيام بارتباطات تجارية خارج مصر لم تنعم بها الفرق الأخرى ، وكاد الإنكشارية يسيطرون تماما على الجمارك وتجارة البن ، وكانت الفرقة الوحيدة التى كان يمكنها بمعنى من المعانى تحدى نفوذ الإنكشارية فى نهاية القرن السابع عشر هى فرقة العزبان التى كانت قد حلّت فى هذا الوقت محل المتفرقة كثانى أكبر فرقة فى مصر ، ونَعِم العزاب – كالإنكشارية – بالقوة اعتمادا على قواعدهم فى القلعة منفصلين عن ديوان الوالى ، كما أنهم أيضا أشرفوا على أحد الأوقاف السلطانية الكبيرة والعديد من الالتزامات فى القرى ، بالإضافة إلى حقهم فى الهورد horde (فرض الضرائب على المواكب الاحتفالية) ، وفى بداية القرن الثامن عشر اندلع نزاع طويل ومرير بين الإنكشارية والعزبان خرج منه الإنكشارية قوة هائلة أكثر من أى وقت مضى .

تكوين الزُّمر داخل الفرق العسكرية :

يظهر تكوين الزّمر ملازما تلازما طبيعيا لزيادة أعداد الفرق (الأوجاقات) وزيادة أنشطتها – وتُظهر المقارنة بين سجلين من سجلّات الرواتب فى آخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر زيادة أعداد العساكر ممن كانوا أتباعا للضباط وغيرهم من الشخصيات البارزة ، بينما راح الضباط الأدنى رتبة – يجمعون بشكل متزايد – الأتباع الخاصين بهم ، على أيّة حال فقبل أن نكشف عن الأدلة التى

نستخلصها من هذين السجلين لابد من كلمة عن بنية هذه الفرق (الأوجاقات) ، والترتيب التصاعدى (الهيداركى) فيها .

كان لكل من الفرق السبع فى مصر طبيعة محدّدة كما كانت كل فرقة من هذه الفرق تمارس دورا محددا فى إدارة الولاية ، وكانت فرقتان هما : المتفرقة والجاويشان Çavuşan – تضمان خيّالة ومشاة – قد ارتبطتا بديوان الوالى ، وكانت المتفرقة فى البداية هى الأعلى مكانة بين الفرق كلها ، وكانت (المتفرقة) تتكوّن فى الأساس من مماليك الوالى ، فإذا شغرت إحدى الرتب فيها تمّ شغلها – مباشرة – عن طريق القصر الإمبراطورى ، وكانت المتفرقة فرقة كبيرة تماما ؛ إذ لم يكن ليفوقها عددا سوى الإنكشارية ، وكانت فرقة الجاويشان Çavuşan أقل – بكثير – عددا ، وأقل مكانة ، وكانت تتكون فى الأساس من المماليك المهزومين (أمام قوات السلطان سليم) والذين أعلنوا ولاءهم للسلطان العثمانى ، وكانت الشواغر فى هذه الفرقة يتم شغلها من أعضاء من فرقة الخيالة الثلاث ، وكانت فرق الخيالة هذه الجولونيان (الجمليان Gönüllüyan المتطوعون) ، والتوفنكيان Tüfenkciyan (التفكجيات أو التفكچية ، وتعنى : الرماة بالبنادق) ، والشركس هى الأقل عددا والأدنى رواتب من بين الفرق (الأوجاقات) السبع ، وكان يُناط بهم القيام بالأعمال الروتينية غير المرغوبة مثل : تسليم الرسائل وجمع الضرائب من الجهات والنواحى وحفظ النظام فى الريف ، وظلت رتبهم مزيجا من رتب المتطوعين وأتباع الضباط فى الفرق الأخرى ، وعلى أية حال فقد ظهر أن كتائب الشركس قد تميزت بنسبة عالية من أبناء البكوات والضباط يشغلون رتبا فيها (أى فى كتائب الشركس)[٢١] .

وكانت فرقتا المشاة : الإنكشارية (المستحفظان) والعزبان متزاملتين فى قلعة القاهرة ، وكانت ثكنات الإنكشارية ومركز تجمعها عند بوابة الإنكشارية ، كما كانت ثكنات العزبان ومركز تجمعهم عند البوّابة المعروفة باسمهم ، وكانت هذه الثكنات ومراكز التجمع بعيدة تماما عن القسم من القلعة الذى يُعقد فيه ديوان الوالى ، وكان الإنكشارية إلى حد بعيد هم أكبر الفرق العسكرية فى مصر ؛ إذ بلغ عددهم فى نهاية القرن الثامن عشر عدة آلاف ، وكان عددهم يزداد بشكل دورى ؛ لأن استانبول كانت ترسل لهم أعداداً جديدة – تجمعهم من أى مكان تتراوح ما بين مئات قليلة إلى ألفين ،

وكان الإنكشارية يؤدون أنساقا معقدة من الخدمات : لقد كانوا مسئولين عن حفظ النظام فى القاهرة ، وحراسة الأسواق والموانئ ، وبالإضافة لهذا كانوا يؤمّنون قافلة الحج وهى فى طريقها للمدينتين المقدستين وفى أثناء عودتها ، وكانوا أيضا مستعدين للقيام بحملات عسكرية داخل مصر كما يشاركون فى المعارك الإمبراطورية (خارج مصر) مَنْ يرسلهم الوالى للمشاركة فى هذه الحروب ، أما العزبان فكانوا يقدمون خدماتهم فى الأساس كحراس لحصون الحدود كما هو دورهم فى الإمبراطورية العثمانية عامة ، وكان يمكن تواجد حاميات العزبان فى الإسكندرية ودمياط ورشيد وخان يونس والعريش وبحيرة البرلس وبنى سويف وغيرها من المواقع الهامة وكذلك خارج بوّابات القاهرة الفاطمية[٢٢] .

وكان الاسم الاصطلاحى للفرّقة هو : (أوجاق Ocak) وهى كلمة تعنى حرفيا المُصْطلى أو الموقد ، وأحيانا كان يطلق عليها اسم بولوك bölük ، وكان كل أوجاق (وجاق) – مع إمكانية استثناء المتفرقة والجاويشان[٢٣] – يتكون من عدة أقسام divisions كل قسم منها يطلق عليه أيضا اسم بولوك ، وهو أمر يُسبب الخلط ، وكل بولوك يتكون بدوره من عدة ثكنات أو أودات (أودات Odas) ، وأعلى الضباط رتبة وهو القائد الرسمى للأوجاق هو الأغا ، وعلى أية حال فقد كانت السلطة الفعلية غالبا فى يد قائمقامه (Li Lieutenant) أو الكخيا (كتخدا Kethüda) Kàhya ، وكان أكثر رتب الأوجاق شيوعا فى معظم الكتائب هو فيما يبدو رتبة الجاويش (الشاڤوس) ، وكوّن قادة الأوجاقات صفا أعلى من الضباط (الاختياريّة) وهم أولئك الذين يلبسون عباءة ، واسعة الأكمام مفتوحة من الأمام تعرف بالتركية والعربية باسم : دلامه dolama وحرّفتها المصادر الأوروبية إلى دولمان[٢٤] dolman ، وكان على رأس كل بولوك بولوكباشى bölükbaşi أو سرْبولوك Ser bölük ، وكان على رأس كل أوده (أوضه Oda) أوضباشى Odabaşi أو سرْ أوده Ser Oda ، ولا يلبس الجنود من رتبة أوضباشى (أوده باشى) ومن دونهم الدلامة وإنما يلبسون سروالا واسعا يعرف بالفارسية : شلڤر Shalver حُرّف بالعربية إلى سروال[٢٥] Shirwal وكانت رتبة الشوربجى Corbaci (المعنى الحرفى : صانع الحساء) رتبة غير واضحة ، وكانت بين الإنكشارية الإمبراطوريين تساوى ضابط أورطة Orta ، وهو أعلى من الأوضباشى Odabaşi ، وفى مصر كان الشوربجى أكثر أهمية نسبيا فى كتائب العزبان ، كما كان الأوضباشى والجاويش أكثر أهمية فى كتائب الإنكشارية .

وعندما كانت الفرق (الأوجاقات) تُستدعى للمشاركة فى معركة إمبراطورية يقوم كتبة الإدارة العثمانية بإعداد سجل رئيسى يضم أسماء ومرتبات كل أفراد الأوجاقات السبع المشاركين فى المعركة ، ويعرف هذا السجل بالتركية العثمانية باسم : ميڤاسيب دفترى **mevácib defteri** (سجل الرواتب) أو أسامى دفترى **Esáme defteri** (سجل الأسماء) وقد لايحوى مثل هذا السجل ماهو أكثر من اسم الجندى والراتب إلاّ أنه – على أية حال – قد يضم فى أحيان قليلة معلومات أخرى : كاسم والد العسكرى وحاميه أو حاميه (راعيه) فقط ، وأصله وربما مهنته .

وسجلات الرواتب هذه هى بلا شك مصدر إحصائى دقيق يُعوَّل عليه ، إلاّ أن كمية المعلومات التى تقدمها عن كل عسكرى غير موحّدة ، وأكثر من هذا فإن العساكر الذين ترد أسماؤهم فى السجل هم الذين يشكلون القوة الرسمية التى تشكل – نمطيا – من عُشر إلى ربع العدد الإجمالى لكل أوجاق **Ocak** (٢٦) ، وعلى أية حال فإن هذا لا يعنى أن من وردت أسماؤهم فى هذه السجلات هم الذين يذهبون فعلا للمعركة ، فعادة إرسال « بَدل **Proxy** » لميدان المعركة ، كانت ممارسة واسعة الانتشار(٢٧) ، يمكن إذن اعتبار الأسماء المدرجة فى سجلات الرواتب كسجلات لأفراد الأوجاقات الذين يتسلمون رواتب ، وحتى هذا يجب أن نضع فى اعتبارنا أيضا أن كتّاب هذه السجلات كانوا غالبا ما ينسخون من سجلات سابقة ويضيفون معلومات جديدة يحصلون عليها من قادة الكتائب ، لقد كان عدد من المسجّلين فى هذه السجلات أفرادا معروفين من مصادر أخرى .

وتصبح مسألة التفسير أكثر صعوبة عند تناولنا الأبعاد الإحصائية ، فالأصول الجغرافية على سبيل المثال غير مسجّلة بالنسبة لغالبية العساكر ، وإذا اكتشفنا أن هناك تركيزا قليلا على الأناضوليين ، أيجب أن نعتبره مؤشرا لاتجاه أوسع ؟ لقد جازفتُ بذلك ، لكن هذا لا يصل أبدا إلى درجة اليقين ، وللسبب نفسه لا يستطيع المرء أن يكون متأكدا تماما من أن الاتجاهات (التوجهات) المستخلصة من هذه القوات المقاتلة تنطبق على الأوجاقات ككّل ، وباختصار فإن سجلات الرواتب تعطينا انطباعا بالاتجاهات العامة بين العسكر (من حيث انتمائهم العرقى) أكثر من كونها إحصاءات حاسمة ونهائية .

أول هذين السجلين اللذين يهماننا فى هذا الصدد هو : سجل الرواتب (ميقابسيب دفـــتـــرى) المؤرخ ١٠٨٦ - ١٠٨٨ (١٦٧٥ - ١٦٧٧) ويضم ٢٠٠٠ عـــسكرى ليخوضوا معركة غير محددة فى السجل ، لكن هذا التاريخ يتوافق مع الحملة العثمانية ضد حصن كامنيسز Kameniecz البولندى فى سنة ١٦٧٨ ، والسجل الثانى هو سجل الأسماء (أسامى دفترى) المؤرخ فى ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨) ويضم ٣٠٠٠ عسكرى ليخوضوا معركة ضد النمسا من المفترض أنها المعركة التى تمخّضت عن إعادة استيلاء العثمانيين على بلجراد[٢٨] وتُظهر المقارنة بين السجلين زيادة عدد العساكر سواء من كان منهم مملوكا أم مسلما حُرّا بالمولد ممن كانوا أعضاء فى الزمر كما تشير كلمة « تابع » ، وبحلول سنة ١٧٣٧ ظهر أن عضوية الزمرة أكثر ما تكون شيوعا فى كتائب الإنكشارية ، وكان التغير فى رؤساء الزمر بناء فقد كان عدد أقل من العساكر تابعين لمسئولين عثمانيين (إمبراطوريين) مثل أفراد الأسرة السلطانية المالكة والصدورالعظام (رؤساء الوزارات) وكبار الخصيان السود ، وكان لابد من توقع هذا الاتجاه الذى يعنى اللامركزية فى إدارة الولايات فى الإمبراطورية العثمانية بشكل عام كما يزيد من تأقلم النخبة العسكرية مع البيئة المصرية ، ويلاحظ أيضا وجود تغير هام فى رتب هؤلاء الضباط الذين يرأسون الزُمر households خاصة فى فرق (أوجاقات) المشاه ، وكان الأغوات فى القرن السابع عشر ممثّلين تمثيلا جيدا بين رؤساء الزّمر فى كل الأوجاقات أما رتب البولوكباشى فكانت سائدة فى كل الأوجاقات ماعدا الأوجاقين التابعين لديوان الوالى ، وسجل ١٧٣٧ - ١٧٣٨م - على أية حال - يعكس تغيرا فى هيئة الزمرة فى أوجاقىّ المشاه ، والآن فإن قيادة الزمرة أصبح يسودها الكخيات ، والجاويشية ، والأوضباشات ، وكذلك الشوربجية بين العزاب ، وتؤكد الأرقام الانطباع الذى تقدمه لنا المصادر الروائية عن زيادة نفوذ هؤلاء الضباط خلال الأعوام الواقعة بين تاريخىّ هذين السجلين من سجلات الرواتب ، وكان زعماء القازدغلية فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من كخيات الإنكشارية وجاويشيها ، وشهدت هذه الفترة نفسها ارتفاع شأن اثنين من الأوضاباشية (حامل رتبة الأوده باشى) الإنكشارية الحاسمين هما : كچك محمد Küçuk ، وافرنج أحمد ، وفى هذه الأثناء أسس الشوربجى إبراهيم الصابونجى من كتائب العزبان

زُمرة سادت هذه الفرقة (العزبان) طوال معظم العقدين الثانى والثالث من القرن الثامن عشر(٢٩).

لكن هذه النتائج يمكن أن تعنى أيضا أنّ الزّمر التى يرأسها الضباط الأدنى رتبة كانت نتيجة طبيعية لنمو كتائب الإنكشارية والعزبان ، وفى الفرق (الأوجاقات) الكبيرة المؤلفة من عدة آلاف نجد أن أكثر وحداتها انضباطا هى أصغرها خاصة الأودات Odas (المفرد : أوده أو أوضه) إذ كان من الممكن لأى أوضباشى أو شوربجى أن يجد أتباعا ممن هم تحت قيادته ، و « أتباع المعسكر هؤلاء يمكن أن يؤدوا دورا كمحور لزمرة فخمة ، يقوم الضابط بتجميعها طوال فترة ترقيه من رتبة إلى رتبة من جاويش (شاقوس) إلى كخيا ، وينقل زمرته (حاشيته) إلى مقر خاص به .

وتؤكد الأدلّة المُستقاة من فرق الخيالة الثلاث - الجونوليان (الجمليان) والتوفينكيان (التفكچية) والشركس - الانطباع الذى مؤدّاه أن الزُّمر تتكوّن خلال الفرقّ (الأوجاقات) ، وبينما كانت نسبة المشاركة فى زمرة أثناء الخدمة فى الفرق منخفضة فى السبعينيات من القرن السابع عشر (- ١٦٧٠) فإن هذه المشاركة قد زادت إلى حوالى ٥٠٪ بحلول سنة ١٧٣٧ . ففى هذه الفرق (الأوجاقات) الصغيرة لم توجد التقسيمات الفرعية وكانت الأوده (أوضه) لا وجود لها ، وكان معظم رؤساء الزمر فى كلا السجلّين الآنف ذكرهما أغوات أو بولو كباشات bölükbaşis ، وعلى أية حال ففى الوقت نفسه نجد حقيقة مؤدّاها أنّه لايوجد أفراد فى هذه الفرق « تابعون » أو « رعاة » لأفراد خارج فرقتهم ، سواء ضابط فى كتيبة أخرى أو مسئول إمبراطورى ، وبدلا من ذلك نجد أن فرق الخيالة تبدو منكفئة على ذاتها خلال القرن الثامن عشر ، وفى حالة فرق الخيالة - وإلى حد ما فرق المشاة - كان تكوين الزمرة لا يمثل بالتمام انتهازية الضباط الطموحين ، بقدر ما يمثل رد فعل التقلبات المصاحبة لعدم المركزية ، والأهم من ذلك عدم التيقّن من استلام الرواتب (فى مواعيدها) ، وبينما نظر الضباط للزّمر كفرص لزيادة دخولهم ، راح العساكر يوجّهون وجوههم لضباطهم لإعاشتهم (للحصول على ما يُقيم أودَهم) .

أما البكوات فكانوا - بشكل واضح - لا وجود لهم - إلاّ قليلا - كرؤساء زُمر فى كل الفرق (الأوجاقات) باستثناء كتائب المتفرقة فى الفترة من ١٦٧٥ إلى ١٦٧٧ ،

وهذا الاستثناء لا يدعو للدهشة ، وهو يفيد أنّ ضباط المتفرقة السابقين سادوا البكلرّية في العقود التى تلت إدخال هذه الفرقة إلى مصر ، ومن المفترض أنهم أعدّوا أخلافهم لتولِّى الرتب فى الفرقة ، والندرة الشديدة لرؤساء الزمر من البكوات فى سجلات الرواتب يمكن أن يشير إما إلى أن هؤلاء البكوات قد أبعدوا أتباعهم عن قوائم المقاتلين أو أنهم كونوا أتباعا خارج نطاق الفرق ، وكان هذا غالبا بشراء المماليك ، وفى الوقت نفسه عكس نقص أتباع البكلرية وجود فجوة بين البكلرية والفرق العسكرية ، وفى الحوليات كان المملوك أو أى « تابع » آخر يرقَّى – نمطيا – من رتبة أغا (قائد فرقة) إلى رتبة البكلرية ، وقد نستنتج أن مماليك البيك كانوا يتلقَّون رُتب الأغوات ورواتبهم وهم يكملون تدريبهم للوصول للبكلرية ، وأن هؤلاء البكوات لم يضعوا أعداداً كبيرة من أتباعهم فى سجلات الفرق العسكرية (الأوجاقات) ولم يعملوا على حصول عدداً كبير من هؤلاء الأتباع على رتب هذه الفرق العسكرية ، وللسبب نفسه كانت البكلرية غير متاحة فى العادة للضابط دون رتبة أغا ، الذى تنتهى ترقيته – نمطيا – عند رتبة كخيا ، وهؤلاء الضباط الأدنى رتبة كانوا – على العكس – يعتمدون فى تشكيل زمرهم على المسجّلين فى سجلاّت الفرق (الأوجاقات) ، وحتى العشرينات من القرن الثامن عشر كان الضباط فيما دون رتبة الأغا قد واجهوا – تقليديا أو مؤسسيا – عقبة لدخولهم البكلرية .

فالفجوة بين الأغوات والرتب الأخرى فى الفرق (الأوجاقات) التى ينتمون إليها انتماء ظاهريا ، ربما تكون قد أسهمت فى ازدهار الكخيات بحلول أواخر القرن السابع عشر ، ففى هذا الوقت بدأ الكخيات فى السيطرة على كتائب الإنكشارية والعزبان والشاويشية (الجاويشية Çavuşan) ، وكان قائد زمرة القازدغلية طوال العقود الأولى من ظهورها إما شاويشية (جاويشية Çavuş) أو كخياوية فى فرقة الإنكشارية ، ورغم أن أغا الإنكشارية ظل شخصا مهما للمحافظة على النظام العام إلاّ أن سلطته السياسية كانت تابعة لسلطة الشاؤوس Cavus (الجاويش) والكخيا ، وخلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان منصب الأغا وكذلك الوالى Wali (رئيس البوليس Chief of Police) هو حفظ أتباع النبلاء القازدغلية .

أما بالنسبة للتكوين العرقى (الإثنى) للأتباع فى سجلات الرواتب هذه فإننا نجد أن أكثر التغيرات وضوحا فى هذا الفيض من الأناضوليين المسلمين الأحرار

بالمولد ، والمماليك القوقازيين خاصة الچورچيين ، والاتجاه الأوضح والذى يتخذ سمة عامة هو الانتقال من السكان الغربيين إلى السكان الشرقيين ؛ إذ حل العساكر القادمون من شرق الأناضول والقوقاز محل عساكر الأناضول والبلقان ،

وهذا الاتجاه - بلا شك - كان له أثر كبير مع تغير الأولويات العسكرية للإمبراطورية العثمانية فى بواكير القرن الثامن عشر ، فبعد هزيمة العثمانيين عند ڤيينا وما صاحبها من خسائر كثيرة فى المجر أصبحت الاشتباكات العثمانية مع إمبراطورية الهبسبرج أقل عددا ، لقد تحوّل اهتمام الإمبراطورية العثمانية الآن إلى الإمبراطورية الصفوية المناوئة فى إيران ، وإلى الإمبراطورية الروسية التى كانت دائما مصدر تهديد ، ومن هنا أصبحت طرق الجيوش التى ستخوض المعارك تتجه إلى شرق الأناضول والمناطق القريبة منه ، ومن هنا أصبح أسرى الحرب والمجّندين فى غالبهم من ذوى الأصول الشرقية (شرق الأناضول وما يجاوره) .

وعلى أية حال فقد كان كثيرون من أفراد المجموعات القوقازية يتكونون من مماليك چورچيين اشتراهم النبلاء العسكريون فى مصر ، ويكاد يكون من المؤكد أنّ وجود هؤلاء الچورچيين راجع لتغير أوضاع مملكة چورچيا المسيحية فى القرن الثامن عشر ، لقد كان القسم الشرقى من مملكة چورچيا تحت سيطرة صفويى إيران الذين استخدموا المماليك الچورچيين بأعداد كبيرة فى القرن السابع عشر ، وبعد تفسّخ الإمبراطورية الصفوية فى سنة ١٧٢٢ م انتهز المسئولون العثمانيون وولاة الولايات ونبلاؤها الفرصة لشراء مماليك چورجيين بأعداد كبيرة لم يسبق لها مثيل .

البكلرية فى أواخر القرن الثامن عشر :

استمرت هيمنة ضباط الفرق (الأوجاقات) وخاصة الإنكشارية حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وفى هذا الوقت أضعفت بسلسلة من التغيرات الاقتصادية موقف الضباط ؛ فقد أدّى إدخال نظام توريث الالتزام (المالكيان Malikáne) فى أواخر القرن السابع عشر إلى أن أصبح الالتزام الزراعى يتيح مداخيل أكثر ثباتا ، ومن ثمّ راح ضباط الإنكشارية يبذلون قصارى جهدهم للحصول على هذه الالتزامات ، وأكثر

من هذا فقد كان الالتزام الزراعى قد أصبح بديلا جذابا للاستثمار فى تجارة البن اليمنية التى أصبحت نتيجتها تنطوى على المخاطرة بشكل متزايد ، ففى بواكير القرن الثامن عشر دخل البن من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى إلى البحر المتوسط وبدأ ينافس البن اليمنى ، ورغم أن هذا البن القادم من المستعمرات الفرنسية فى الكاريبى كان أقل جودة من بن المخا (اليمنى) إلا أنه كان أرخص سعرا ، وسرعان ما أصبح المزيج من البن الكاريبى والبن اليمنى مشروب المصريين من ذوى الدخول المتوسطة ، ونتيجة هذا هبط سعر البن اليمنى[٣٣] وراح الضباط الإنكشارية الذين كونوا ثرواتهم من تجارة البن اليمنى يتجهون بشكل متزايد إلى الحصول على الالتزامات الزراعية ، وعلى أية حال ففى هذا الميدان (ميدان التنافس للحصول على الامتيازات الزراعية) كانوا أقل تميزا من البكوات الذين بإمكانهم الاحتفاظ بأكثر الالتزامات ربحية ، وتولِّى حكم الجهات والنواحى والولايات الفرعية (الأقاليم) ، وحتى الضباط الذين تولّوا التزامات القرى وجدوا مصالحهم مرتبطة بمصالح البكوات وتابعة لها ؛ إذ كانت الإدارات الفرعية فى أيدى البكوات ، حيث تقع هذه القرى[٣٤] ، وبحلول منتصف القرن الثامن كانت البكلرية قد استعادت مرة أخرى هيمنتها على مجموعة ضباط الفرق (الأوجاقات) .

ومنذ هذا الوقت حتى الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ م . كان المجتمع العسكرى المصرى محكوما بالبكوات القوقازيين خاصة الجورجيين من أصول مملوكية ممن ينتمون إلى زمرة القازدغلية الأكبر ، وبالإضافة لهذا فقد حصل هؤلاء البكوات على قدر كبير من الاستقلال الذاتى الفعلى عن الحكومة العثمانية المركزية ، ولم يعد الولاة العثمانيون يمارسون أى سلطة حقيقية على الولاية بل كانوا – من الفور – يُبعدون إلى الريف ويخضعون لشروط البكوات ، وكان على بك بولوت كابان Bulut Kpan المشهور قد وصل بالسيطرة البكلرية القازدغلية إلى ذروتها ، بقتله أو نفيه كل منافسيه من الزّمر المنافسة ، وفى سنة ١٧٦٨م . وصل به الأمر إلى تأكيد استقلاله عن السلطان العثمانى فسكَّ العملة باسمه وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وغالبا ما يعتبر الباحثون حكم على بك وخلفائه إحياءً لاستخدامات السلطنة المملوكية ؛ لأنه خلال ثلاث سنوات راح البيك الزعيم ومماليكه يحكمون الولاية واحتكروا المناصب وكدّسوا العوائد المالية عندهم ، وباختصار فإن على بك استحدث بكلرية مملوكية جديدة [٣٥] .

هذا المشروع (استقلال على بك) الممثل فى إقامة بكلرية مملوكية جديدة فى أواخر القرن الثامن عشر متناغم مع الحالة التى نظر فيها المؤرخون للعلاقة بين الفرق (الأوجاقات) العسكرية فى مصر وبكلرية القرن الثامن عشر ، فلأن العثمانيين هم الذين أدخلوا الفرق (الأوجاقات) لمصر فقد كان من المفهوم أنها المهيمن الطبيعى على المجنَّدين العثمانيين التقليديين : المرتزقة الأناضوليين والبلقانيين والجنود المجموعين وفق نظام ضريبة الدم (الدفشرمة) وهى الطريقة العثمانية التقليدية لجمع الصبية من مناطق البلقان المفتوحة ، وعلى النقيض من هذا فقد كان يُنظر للبكلرية باعتبارها خالفة السلطنة المملوكية ، ويبدو أن ب . هـ . هولت قد أصّل هذه النظرة ، وفى مقال أساسى أكّد هولت أن منصب صنجق بكَ Sancak beyi فى مصر العثمانية كان فى الحقيقة استمرارا للمنصب المملوكى أمير مئة الذى يشير إلى أن حامله لديه إقطاع يعول مئة فارس ، بينما عرُف التحولات فى نظام حيازة الأرض واستيعاب العناصر الجديدة فى صفوف العسكرية فى مصر بأن راح يُقابل المناصب والمؤسسات المملوكية والعثمانية ، وعلى هذا فقد ناظر بين فرقة (أوجاق) المتفرقة ، والخاصكية ، فالأولى ؛ كانت حارسة للوالى العثمانى ، والثانية ؛ كانت حارسة للسلطان المملوكى ، وازن بين أمير قافلة الحج فى عهد السلطنة المملوكية وأمير قافلة الحج فى العهد العثمانى ، وبين الدفتردار العثمانى والخازندار كبير المملوكى ، والقائمقام العثمانى ، ونائب الغيبة فى عهد السلطنة المملوكية(٣٦) .

وهناك نظرة أخرى تناقض هذه النظرات التى عقدها هولت Holt ، فقد يشير المرء أن كل هذه المناصب والوظائف فى الحقبة العثمانية – فيما عدا أمير قافلة الحج – قد وجدت فى إستانبول وربما كانت بنت ظروف إمبراطورية معاصرة أكثر من كونها إحياء للسلطنة المملوكية الميّتة ، ومع هذا فإن هذه المناصب العثمانية كانت بلا شك متوائمة بالفعل مع مصر بسبب وجود نظائر مملوكية لها .

واعتقاد هولت Holt أن البكلرية العثمانية قد ساندت أو على الأقل أحيت المؤسسة المملوكية اعتقاداً يشاركه فيه إلى حد كبير الباحثون الذين عاصروه والذين أتوا بعده ، حتى ستانفورد شو Shaw الذى اهتم فى الأساس بالأمور المالية وواصل الحديث عن « الميراث المملوكى » الذى وصفه أخيرا بأنه « المؤسسة الموازية » للإدارة العثمانية(٣٧) ، ويشير دانيل كريسيليوس Crecelius « إلى إحياء البكلرية المملوكية فى

القرنين السابع عشر والثامن عشر » التى وصفها بأنها نظام من نظم الحكم الذاتى[٣٨] ، ويعتبر كينيث كونو Kenneth Cuno على بك بولوت كابان مؤسس مجتمع مملوكى جديد ، وبالتالى فهو الممهد للأوتوقراطى محمد على باشا الذى حكم مصر فى مطلع القرن التاسع عشر[٣٩] .

وفى دراسات أكثر حداثة أصبحت الأرقام المتعلقة بالأصل العرقى والوضع الرِّقّى أكثر تحديدا ووضوحًا عند تعريف مصطلح (المملوك) ، ومن هنا وجدنا ميشيل ونتر Winter يذكر مرارا – لكن دون حسم – الصلة بين الوضع الرِّقّى (المملوكى) والعِرْق (الجنس) القوقازى ، ورتبة البكوية (البكلرية)[٤٠] ، وجبريل بيتربرج Piterberg يُسلم بأنّ العناصر غير المملوكة (غير الرقّية) خاصة الأناضوليين دخلوا البكلرية حتى قبل مرور فترة طويلة فى القرن السابع عشر ، لكنه جعل ما اصطلح على تسميته « النخبة المغلقة » من البكوات المماليك بحلول أواخر القرن الثامن عشر[٤١] ، وأدلة كلا المؤلِّفين هى « الفجوة » بين المجندين الأحرار بالمولد من ناحية ومماليك مناطق الإمبراطورية الوسطى والقوقاز ، هذه « الفجوة » توازى الفجوة الأخرى بين البكلرية ، والفِرق (الأوجاقات) ، فجوة بقدر ما رأينا المماليك يسودون فى البكلرية والرّتب العسكرية الأعلى ، بينما المسلمون الأحرار بالمولد يتراجعون فى الرتب أو يعملون فى الكتائب المعاونة ، ويؤكد ونتر Winter أن هذا التقسيم وجد فى وقت باكر من القرن السابع عشر محددا هذا الفَصْل على أساس أن النبلاء والمسئولين العثمانيين تتنازعهم فئتان : الروم أوغلانى Rúm Oglani ؛ أى المجنّدين الأحرار بالمولد من المناطق المركزية فى الإمبراطورية ، والمصرليّة (أو المصريين Misirlis) الذين راح يضمّن فيهم نخبة البكوات ، والضباط الذين راح عدد المماليك منهم يزداد شيئا فشيئا بمرور الوقت [٤٢] ، وتفسير ونتر Winter ليس دقيقا كل الدقة فى حكمه على استخدام مصطلح (المصرلية) والمصطلحات المرتبطة به فى الأوامر الإمبراطورية الصادرة عن السلطات العثمانية ، فحتى القرن الثامن عشر يظهر أن السلطان كان يستخدم عبارة « مصر كولاريم Misr Kullarim » ؛ أى (خدمة المصريين my Egyptian Servants) ليعنى به كل المؤسسة العسكرية دون فاصل بين مماليك ومسلمين أحرار بالمولد ، وضباط وأفراد مدرجين فى سجلات الأوجاقات ، وللسبب نفسه يبدو أن مصطلح (مصر عسكرلية Misir askerleri) أى عساكر مصر

كان يتضمّن كل القوّة المقاتلة فى الولاية بغض النظر عن الرتبة والوضع Status (أى إن كان العسكرى مملوكا أم حرا بالمولد) وكلا المصطلحين يُصنّف مماليك وروم أوغلانى Rum oglani ، أما النبلاء الأكثر بروزا مثل : أمير الحاج والدفتردار فكانت الأوامر الإمبراطورية توجه لهم الخطاب مباشرة (أى تنص على مناصبهم) وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بدأت الأوامر الإمبراطورية فى استخدام المصطلح العربى (مصريون) للإشارة إلى النخبة العسكرية مدركة تنامى الإدارة الذاتية autonomy للفرق العسكرية للولاية(٤٣) .

وبشكل عام فإن معظم المؤرخين يفترضون ضعفا متواصلا للفرق (الأوجاقات) أمام البكلرية التى أظهرت نفسها حاجزا مترابطا بين العبيد (المماليك) من ناحية ، والمسلمين الأحرار بالمولد من ناحية أخرى (٤٤) إنهم – أى هؤلاء المؤرخين – لا يفترضون أن مصر فى العصر العثمانى قد احتفظت (أو استعادت) روح العبودية (روح نظام المماليك فى أواخر عهد السلطنة المملوكية) فى شكل عبيد (مماليك) تم إعتاقهم ، وتمثّل هذا فى أن المماليك المُعتقين كانوا هم المفضّلين لشغل الرتب العسكرية العليا ، بينما غير الشركس وغير المماليك بمن فى ذلك أبناء الأمراء كانوا غالبا مُبعدين عن المجتمع العسكرى (٤٥) ، وكانت العسكرية فى مصر العثمانية ذات تركيب شديد التعقيد تضم مماليك وغير مماليك من أصول عرقية مختلفة ، ومع هذا فإن هؤلاء الباحثين يميلون إلى تصوير الأمر على أنه تسيد البكوات الچورچيين (من أصول چورچية) فى نهاية القرن الثامن عشر فى محاولة مدروسة منهم لإحياء أولويات السلطنة المملوكية فى ظل الحكم العثمانى .

ومضمون هذا التصوّر المتعلق بإحياء نظم السلطنة المملوكية فى ظل الحكم العثمانى لمصر يعنى أن تراث السلطنة المملوكية استقر فى حقبة البكلرية العثمانية ، وعلى هذا فإن هذا الانطباع يُسهم فى دعم فكرة الانقسام بين البكلرية من ناحية والفرق (الأوجاقات) من ناحية أخرى ، وتلك الفرق (الأوجاقات) كانت منذ البداية سند السلطة العثمانية ونصيرها فى مصر ، وإذا كانت البكلرية تمثل استمرارا أو إحياء للحكم المملوكى – كما افترض هولت Holt – فلابد إذن أن يكون البكوات مسئولين عن مساندة أو إحياء تراث الزمرة العسكرية على النسق الذى كان سائدا فى عصر السلطنة المملوكية ، ومن هنا فما يسمّى الزمرة المملوكية Mamluk

household فى مـصـر العـثـمـانيـة من الطبـيـعى أن ترتبط بالبكلرية ، وعندمـا لاحظ المؤرخـون تـكوين الزمـر من خـلال الفـرق (الأوجـاقـات) وأن المـاليك ألحـقـوا بسجلات الرواتب فى الفرق (الأوجاقات) ، انتهوا إلى أن هذا أحد علامات انهيار الفرق ، وما عاصره من ارتفاع شأن البكلرية فى وقت متأخر من القرن الثامن عشر ، ووفقا لهذه الخطة فإن الزمرة – التى من المفترض أنها ميراث مملوكى – هى بنية Structure أو تكوين غريب على الفرق (الأوجاقات) ، إنها تقطع تكويناتها الداخلية – الأودات (المفرد : أوده أو أوضـه أى الثكنات) والبولوك bölük (الأقسام الفرعية فى الثكنات) – بالسماح بالتسلّل إليـها من خارجها ، وعلى هـذا فـإن تفـسّخ الفرق (الأوجـاقـات) وتفـوّق البكلرية وتكوين الزّمـر هـى الملامح المتداخلة لتطور المجـتـمع العسكرى فى مصر خلال القرن الثامن عشر ، وأكثر من هذا أنها مرتبطة بالحقيقة التى مؤدّاها أن أعداداً متزايدة من المماليك كانوا يدخلون هذا المجتمع العسكرى ويصلون فيه إلى الذروة فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، وباختصار لقد بدا أن تفوق البكلرية والمماليك هو أوج تطور النخبة العسكرية فى مصر ، حقيقة لقد كتب دانيل كريسيليوس Crecelius وجبريل بيتربرج Piterberg بهدف شرح هذا التفوق وتفسيره ، وميشيل وينتر Winter رغم أنه بدأ منطلقا من نقطة أبعد فى التاريخ إلاّ أنه وجد أقوى المسوغات للتأكيد على أن البكوات المماليك أصبحوا نخبة متقرّبة Arabized ، كما ظهر على لسان العامة من المصريين كما يتبدى من التعليقات السّاخرة التى أوردها الجبرتى ذامًا القوات العثمانية التى وصلت إلى مصر فى سنة ١٨٠١م . للمساعدة فى إخراج الفرنسيين [٤٦] .

هذا الاستغراق فى تناول بكلرية القرن الثامن عشر فى سياق ارتباطها بالإمارة المملوكية يعطى صعود البكلرية نظرة غائية (يجعل بكلرية القرن الثامن عشر تتطلّع إلى إعادة نظم السلطنة المملوكية) كما لو أنها لم تعد تستطيع – على نحو ما – تجنب الانزلاق إلى عصر سابق (عصر السلطنة المملوكية) ، كما لو كان من غير المهم أن تستوعب النخبة العسكرية فى مصر الحقائق العثمانية الجديدة ، وبشكل عام فإن إصرارنا على أن حقبة البكلرية العثمانية ما هى إلاّ عودة لبكلرية السلطنة المملوكية يعنى الإصرار على صوغ الملامح الأساسية للمجتمع العسكرى المصرى كمجتمع مملوكى فى جوهره متجاهلين الأنماط العثمانيين الممكنة للمؤسسات نفسها ،

ولابد للمؤرخ أن يقلل من شأن التغيرات الأساسية فى نُظم الأرض التى كانت الإمارة المملوكية تقوم عليها ، وفى خليط المتقدمين للبكلرية ، وللرتب - إذا لم يكن الوظائف - المنطوية على عوامل البكلرية وفعاليّاتها ، وهذا يعنى أنه يجب على المؤرخ أن يستمر فى القول أن هذه التغيرات لم تغير بشكل أساسى الطبيعةً المملوكيةً للبكلرية ، إننى أخاطر بالقول أن السلطنة المملوكية كانت قد مارست فتنتها فى كل المجالات الفرعية فى مصر العثمانية ، حتى إن معظم المؤسسات الكبرى فى المجتمع العسكرى المصرى فى العهد العثمانى كان يُنظر إليها على أنها مؤسّسات مملوكية جرى إلحاق تعديلات فيها (جرى تكييفها مع الحقبة العثمانية) .

حتى حالة على بك المؤسس الظاهرى لبكلرية مملوكية جديدة فى أواخر القرن الثامن عشر تشير إلى عيوب هذا المشروع الموازى للنظام الذى كان سائدا أيام السلطنة المملوكية - وأعنى به الزمرة وسيطرة البكلرية - لم يكن على بك نهاية بسلسلة طويلة من المسيطرين البكوات ، وإنما الأقرب للصحة أنه كان مملوكا للكخيا الإنكشارى الطموح إبراهيم القازدغلى ، لقد بدأ الكخيا إبراهيم وكخيات آخرون من جيله يرفعون من أتباعهم إلى البكلرية منذ الثلاثينيات من القرن الثامن عشر وكان هذا بلا شك بهدف الحصول على أكبر الالتزامات الزراعية وأكثرها ربحا أعنى حكم الولايات الفرعية والجهات داخل مصر[٤٧] ، وعلى هذا كان التحول إلى القيادة البكلرية خلال زمرة القازدغلية هو - منطقيا - عمل الجيل السابق على علي بك وهو جيل ضباط الإنكشارية المقدامين الذين وجهوا أتباعهم للبكلرية ، وهذا التحوّل فى حد ذاته يدمِّر المشروع الذى به طوت البكلرية الفرق (الأوجاقات) تحت جناحيها ؛ لأنه فى حالة القازدغلية نجد أن الزمرة التى تطورت داخل أوجاق (فرقة) الإنكشارية ثم سيطرت عليها قد تغلغت ووصل بها الأمر للسيطرة على البكلرية ، والحقيقة أنه فى حالة زمرة القازدغلية نجد أن الزمرة اتحدت مع الرؤساء الأوضباشيين Odabasi وتشير سجلّات الرواتب أنه كان من الممكن تكوين الزمر تماما داخل الفرق العسكرية (الأوجاقات) ، وكان تكوينها يتبع التدرج الهيراركى داخل الفرقة (الأوجاق) ، وبينما تغص سجلات الرواتب بمماليك الضباط فليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن هؤلاء المماليك قد استغلوا ميزة كونهم مماليك لإفساد تكوين الفرق (الأوجاقات) .

وأكثر من هذا فإنه يمكن اعتبار البكلرية القازدغلية فى القرن الثامن عشر نتيجة اتخاذ القرارات الحاسمة داخل الزمرة ، فالقازدغلية لم توجِّه حركتها ببساطة من الالتزام الحضرى urban للالتزام الزراعى ؛ أى لم تتحول ببساطة من زمرة أوجاقية إلى زمرة بكلرية ؛ إذ أن الإنجاز المميِّز لهذه الزمرة القازدغلية هو قدرتها على كسب السيطرة على ضباط الفرق ، وعلى البكلرية فى آن واحد ، وبذا كانت زمرة القازدغلية قادرة على الاحتفاظ بمصادر دخلها التقليدية وأضافت فى الوقت نفسه المزيد من المصادر الواعدة المتاحة للبكلرية ، ومن خلال السيطرة على مثل هذه المناصب المهمة كأغا الإنكشارية والوالى Wâli فإن القازدغلية كانت قادرة أيضا على وضع يدها على نبض أسواق القاهرة ، وكان لها اليد العليا فى حفظ النظام العام ، وفى الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر أصبح ضباط الإنكشارية طبقة دنيا بين القازدغلية التى سادها البكوات .

وما دام اضطلاع القازدغلية بالبكلرية بدأ من فرقة الإنكشارية ، فلابد من تناولها فى سياق تطور الزمرة الباكر داخل كتائب الإنكشارية ، ومن هذا المنطلق يصبح واضحا أن هيمنة القازدغلية على البكلرية لم تكن ممكنة لو أن الزمرة لم تسيطر على هذه الكتائب (الإنكشارية) ، وفى الفصلين التاليين محاولة لشرح تطور الزمرة القازدغلية خلال كتائب الإنكشارية ، ومن خلال تغلغلها فى البكلرية ، وفى هذا السياق فإن توظيف القازدغلية للبكلرية هو مسألة تطوير للزمرة وهذا فى حد ذاته ليس ابتعادا راديكاليا عن تاريخ الزمرة السابق على ذلك ، بل إن هذا التأكيد يتضمن أن بكلرية أواخر القرن الثامن عشر ليست نتيجة منبثقة من إحياء ممارسات السلطنة المملوكية ، وإنما نتيجة طبيعية لتطور القازدغلية والزمر الأوجاقية الأخرى .

جدول ١/٣ تكوين الزمرة داخل الأوجاقات ، وفقا لما ورد فى سجلات

Maliyeden Müdevver ٤٧٨٧

(١٦٧٥ - ١٦٧٧) ورقم ٧٠٦٩

(١٧٣٧ - ١٧٣٨)

الفرقة (الأوجاق)	المتفرقة		الجاويشية		الجونوليان (الجمليان)		التوفنكيان (التفكجية	
تاريخ السجل	١٦٧٥-٧	١٧٣٧-٨	١٦٧٥-٧	١٧٣٧-٨	١٦٧٥-٧	١٧٣٧-٨	١٦٧٥-٧	١٧٣٧-٨
إجمالى عدد العساكر فى السجل	٢٥٩	٢١٦	١٢٩	٢١٦	١٢٩	٢١٣	١٠٩	١٨٦
عدد المندرجين فى الزمر (تابع)	١٨٨	١١٠	٥٨	١٠٤	٤٣	٩٥	٤١	٩٤

رتب رؤساء

الزمرة / العدد

الإجمالى للأتباع

حسب الرتبة :

● بكوات ٣٠/٢٢ ٦/٤ ٤/٥ ٢/١ ٢/١ ٤/٢ ٢/٢ ٢/٢

● كشّاف ٣/١ ٠/٠ ٠/٠ ٥/٢ ٢/٢ ٠/٠ ٣/٣ ٠/٠

● أغات ٨٧/٤١ ٥٦/٢٣ ١٢/١٠ ٣٦/١٣ ١٣/١٠ ٩/٧ ٩/٨ ١٣/١٠

● كخيات ٨/٧ ١/١ ٥/٤ ٢/٢ ١/١ ٢/٢ ٢/٢ ٠/٠

● جاويشية ١٢/١٠ ٢/١ ٢٤/١٧ ٢٨/١٢ ٤/٤ ٢/٢ ٠/٠ ٢/٢

● شوربجية	١/١	٠/٠	٠/٠	١/١	٠/٠	٢/٢	٠/٠	٩/٧
● بولوكباشي	٠/٠	٠/٠	١/١	٠/٠	١٥/١٠	٣٢/١٣	٢١/١٦	٢٧/١٢
● أوضاباشي	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠	٠/٠
● مسئولون								
إمبراطوريين	١٢/١٢	١/١	٥/٣	١/١	٠/٠	٢/٢	٣/٣	٠/٠
● علماء دين وأشراف وبيروقراطيين	١٣/١١	٧/٣	٢/٢	٥/٣	١/١	٩/٥	٠/٠	١١/٥
● أخرون	٣٦/٢٦	٨/١٢	٧/٧	٢٥/٢٢	٥٥	٣٤/٢٠	٣/٣	٢٥/١٧
● مماليك	٢١٨	٦٢	٦٨	٧٣	٦٢	٨٨	٦٣	٨٠
● غير مماليك	١٢٥	١١٢	٥٢	٩٦	٦٠	٨٧	٦٤	٨٩
● أناضوليون								
منتسبون إلى أوجاقات أخرى	٤	٣	٠	٩	٠	٣	٠	١١
● رؤساء زمر	٢٧	٨	١٨	١	٠	٢	٣	١
● أتباع	٥٧	٥	١٧	٢	١٨	٢	١١	١

تابع جدول ١/٣

الفرقة (الأوجاق)	الشركس		الإنكشارية		العزبان	
تاريخ السجل	٧–١٦٧٥	٨–١٧٢٧	٧ - ١٦٧٥	٨– ١٧٢٧	٧–١٦٧٥	٨–١٧٢٧
العدد الإجمالى للعساكر في السجل	٨٨	١٦٨	٨٧٤	١٢٦٣	٢٥٩	٨٤٧
عدد الزمر (تابع)	٤٢	٧٣	٣٠٢	٧٣٦	٧٦	٢٥٦
رتب رؤساء الزمرة / العدد الإجمالى للأتباع حسب الرتبة						
● بكوات	٢/٢	٤/٣	٢١/١٥	١٢/١١	٩/٥	١٢/١١
● كشّاف	٤/٤	٠/٠	٥/٤	٠/٠	٠/٠	١/٢
● الأغات	٦/٥	١٠/٧	٥٤/٢٢	٢٢/١٠	١٧/١٤	٢٥/٨
● كخيات	٣/٣	٢/٢	٣١/١٢	١٢٦/٢٦	٦/٦	٦٨/٢١
● الجاويشية	٦/٥	٣/٣	٢٥/١٤	١٩٨/٤٩	٩/٨	٦٠/٢٤

● الشربجية	٠/٠	١/١	٠/٠	٦/٦	٠/٠	٣١/١٩
● البولوكباشى	١٧/١٤	٢٩/٢٠	٧٠/٢٣	٤٧/٢٣	٨/٥	٧/٥
● أوضاباشى	٠/٠	٠/٠	٠/٠	١٢٦/٢٤	٥/٥	٦٦/٣٢
● مسئولون						
إمبراطوريون	١/١	٠/٠	٧/٣	٣/٣	٣/٣	٠/٠
علماء وبيروقراطيون وأشراف	١/١	٢/١	١٢/٨	٣٠/١٧	٦/٦	٥٤/٢٠
● آخرون	٤/٤	٢٠/١٣	٦٠/٣٤	١٤٥/٧٢	١٦/١٢	٣٦/٣٥
● مماليك	٥٩	٨٧	٤٤٣	٤٦٧	١١٣	٢١٠
● غير مماليك	٣٣	٦٥	٣٧٠	٥٤١	١٣٤	٣٨٦
● أناضوليون						
منتسبون لفرق (أوجاقات) أخرى	.	١	٣٦	٦٧	١٢	٥٩
● رؤساء زمر	٤	٦	٩	٣٣	٣	٣٣
● أتباع	٩	١	٧	٥٠	٧	٢٩

جدول ٢/٣ الأناضوليون والذين ترجع أصولهم إلى مناطق بحر إيجه بين الإنكشارية كما هم مسجلون في سجلات Maliyen Müdevver

٤٧٨٧ (١٦٧٥ - ١٦٧٧) و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ١٧٣٨)

المدينة أو الاقليم أو الانتساب	عدد الجنود	
	١٦٧٥ – ٧	١٧٣٧ – ٨
أكسارى Aksaray	١	١
ألاكا هيصار (حصار Alaka Hisar	١	٠
ألاينا Alanya	١	٢
أنطاليا Antalya	١	١
عرب كير Arabkir	٠	١
عينتاب Ayntab `Gazian tep "	٠	٤
خيوس (كيوس) Chios	١	١
كوريم (شوريم) Corüm	٠	١
دربند Derbend	٠	١
ديار بكر	٣	٦
أدرين Edrine	٣	٦
إرغلي Ergli	٠	٣
أرض الروم (أرزوروم Erzurum)	٤	٨
جليوبولو Gelibolu	٠	١
هاربوت Harput	٠	١

تابع جدول ٣/٢

المدينة أو الاقليم أو الانتساب	عدد الجنود	
	١٦٧٥ - ٧	١٧٣٧ - ٨
إسبرطة	١	١
استانبول	١	٥
أزميد Izmid	.	١
أزمير	.	١
قره حصار Kara Hisar	١	١
كرمان (قره مان Karaman)	.	١
قصطمونو Kastamonu	.	١
قيصرى Keyseri	٦	٢
قازدغى	٢	١
كوشاداسى Kuçadasi	.	١
لاظ LAZ.	.	١
مالاطيا Malatya	.	٦
ماراشى (Maras) أو (قهرمانماراس Kahramanmaras)	.	١
مرسين Mersin	١	.
ميدلّى Midilli (ليسبوس)	٢	١
نغده Negde	.	١
عثمانكك Osmankik	١	.

تابع جدول ٣/٢

المدينة أو الاقليم أو الانتساب	عدد الجنود	
	١٦٧٥ – ٧	١٧٣٧ – ٨
بازاركيك	٠	١
الروميللى (غرب الأناضول وشرق البلقان)	١	٠
تكه Teke	١	١
توكات Tokat	١	١
تركمان Turkmen	١	٠
أوسكودار Üskudar	١	٠

جدول ٣/٣ الأصول غير الأناضولية بين الإنكشارية
كما هى مسجلة فى دفاتر Maliyeden Müdevver
٤٧٨٧ (١٦٧٥ - ٧) و ٧٠٦٩ (١٧٣٧ - ٨)

المدينة أو الاقليم أو الانتساب	عدد الجنود	
	١٦٧٥ - ٧	١٧٣٧ - ٨
أفخاذيا Abkhazia	١	٤
Akkerman	٠	١
ألبانيا Albania	٣	٣
الجزائر[٣٠] Algeria	١	١
أرمينيا	٣	٠
Aydos	٠	١
بغداد[٣١]	٩	١
بلغراد	٢	٠
البوسنة	٩	٧
شركاسيا	٥	٨
قبرص Cyprus (؟)	٠	١
دمشق	١	٠
Frank	١	٠
جورجيا	٩	١٧
الحجاز	٠	١
المجر (هنجاريا)	١	٠

تابع جدول ٣/٣

المدينة أو الإقليم أو الانتساب	عدد الجنود	
	١٦٧٥ – ٧	١٧٣٧ – ٨
Iskodra (؟)	٠	١
يهود	٠	١
كرد Kurd	٠	٦
الموصل	١	٠
Nablus (؟)	٠	١
Sidon	٠	١
Silistre (؟)	٠	١
طرابلس (؟)	٠	١
Temeçvar	٠	٢
أوسكوب Üskup (سكوبج فى مقدونيا)	٤	٠
غير محدد	٠	٣

الهوامش

(١) هذا الاتجاه يصدّقه سجل الرواتب ١٦٧٥ – ١٦٥٧ – سجل Maliyeden Müdevver ٤٧٨٧ . انظر جدول ١/٢.

(٢) ايفليا جلبى (شلبى) سياحة نامة Seyahatnamesi مج ٧ ، ص ٧٢٣

(٣) انظر على سبيل المثال ، عجائب الآثار للجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٣٤ .

(4) Holt, Egypt and Fertile Crescent ,pp. 90, 93.

ميّز الدمرداش (الدرّة ، ص ١٨٥) بين « الرياسة » riâsa فى الإنكشارية و « الرياسة » فى العزبان . وعن إبراهيم ورضوان انظر الدمرداش (الدرّة ، ص ٥٦٠) .

(٥) انظر على سبيل المثال شمس الدين محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، الروضة الزاهية فى ولاة مصر والقاهرة ، القاهرة ، دار الكتب – قسم المحفوظات ، ميكروفيلم رقم ١٦٤٠ ، غير مرقّم .Holt, " Beylicate " 216 - 218

(٦) ابن أبى السرور ، الروضة الزاهية ، عن حيازة محمد باشا « كول كيران (قول قيران) " Kul Kiran

Holt , "Beylicate ", p.118

(7) Michel Winter " Ali Efendi's Anatolian Campaign Book' : A defence of the Egyptian Army in seventeenth century " Turcia 15 (1983) 267 - 309

(٨) أشار ملتن Meltin إلى اضطرابات عرقية بين « الغربيين » من البلقان والأناضول ، « والشرقيين » من القوقاز والكروستان . انظر مبحثه (Ethnic regional) (Cins) فى المؤسسات العثمانية فى القرن ١٧ IJMES 5 (1974) 233 - 9 .

(9) The Reigns of the Mamluk Sultans al - Ashraf Qaytbay and Qansuh al-Ghuri in Egypt (Seattle and London , 1993) pp. 19–24 , 47, 94 - 101

(١٠) مجهول المؤلف ، نسبة شريفة ورياسة منيفة تشتمل على ذكر نسب الجراكسة من قريش .

Princeton Univ. Lib., Garrett Manuscript Collection, MS. 186

H.P.M. Holt " The Exalted Lineage of Ridwan Bey" : Some observations on 17 th century Mamluk Geneology " BSOAS " (1959) 224 - 7 .

(١١) انظر على سبيل المثال ، الحلاّق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) ١٤٢ – ١٥٢

أحمد جلبى (شلبى) أوضا (أودا) حرص ١٤٧ – ١٤٨ وعن دور رضوان بك فى استعادة الكعبة سنة ١٦٣٠ . انظر ثريا فاروقى Suraiya Faroghi

Pilgrims and Sultans : The Hajj under the Ottomans (London & N.Y., 1994) pp.11, 115 - 119 .

(١٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) Fos. 156 r, 162 v.

ينى كابيلى Yeni Kapili تشير أيضا إلى باب الجديد فى قلعة القاهرة . انظرالحلاق ،تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) Fos . 179 v . 320 v.

عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fo. 78 v.) وعلى أية حال لم تستخدم أى من الحوليات العربية (باب الجديد) كنسبة

(١٣) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية) (Fos. 173 v. 320 . v.)

أحمد جلبى (شلبى ، أوده (أوضا) ص ص ٥٨ – ٥٩ .

(١٤) انظر

Pococke , A Description of East, vol. 1 p. 204 .

Michel Tuchscherer " Le Pélerinage de L'emir Sulayman Gawis al- Qazdugi, Sirdar de la Caravane de la Mekke en 1739 " AI 24 (1988) 175.

(15) Shaw, Financial and Administive Organizations , pp. 30 , 39 .

وانظر أيضا

EI[2]'s.v, " Malikane " by Iréne Beldiceanu - Steinherr .

(١٦) انظر الفصل الثامن

(17) Uzunçarsih, Osmanli Deretinin Salay Teskilatt, pp. 173 ff .

(١٨) انظر الفصل الثامن ص ص ١٤٨ – ١٥٠

(19) Shaw , Financial .... Op. cit., pp. 121, 194 .

(20) Raymond, Artisans et Commercantd. vol. II. pp 606 - 10 .

(٢١) وعلى هذا ، ففى سجل الرواتب المؤرخ ١٧٢٧ – ١٧٢٨

(Maliyeden Müdevver 7069) تم إدراج أعداد كبيرة من العساكر على هذا النمط :

(Mehmed / Ahmed Bey / Veledi) وعن طبيعة وواجبات الأوجاقات انظر :

Misr Kanunna

فى : Osmanli imparatorlugunda-shaw , Financial ... op. cit. pp. 189 ff.

(٢٢) المراجع القائمة الكاملة انظر :

Shaw, Financial ... p. 211

وعلى هذا فالعساكر المدرجون فى هذا السجل كسكندرية أو برلّسية قد يكونون عساكر حاليين أو سابقين فى فرق العزبان فى هذه المواقع : اسكندرية ، البرلس ... الخ

(٢٣) فى سجلات الرواتب نجد أعضاء الفرق (الأوجاقات) قد وردوا مسجلين وفقا للترتيب الهجائى للاسم الأول . ولاوجود للتقسيمات الفرعية .

(٢٤) وفقا لما ذكره ميشيل توشيرر M. Tuchsoherer فإن الدلامة (يكتبها dolma) يتم ارتداؤها فوق القفطان kaftan . انظر " Pélérinage " ١٨٤ (وتحدث أيضا عن عباءة زعيم البدو) .

(٢٥) الدمرداش ، الدرّة ، ص ١٦ .

(٢٦) أعلى النسب كانت بين الإنكشارية والعزبان ، وانظر أيضا :

Roots of Modern Egypt by Crecelius . p . 21.

(٢٧) أوضح شو Show هذه الممارسة .

Financial ... op . cit pp. 209 - 10 .

(٢٨) إستانبول ، أرشيف الصدارة العظمى .

(Maliyeden Müdevver 7487 (1086 - 8) and 7069

إننى ممتنة للبروفسير كولين هيوود Colin Heywood لمقابلته المعركة الأسبق .

(٢٩) الدمرداش ، الدرة ، ص ص ١٤٥ ، ١٨٥ ، ١٨٩ – ١٩١ ، ١٩٩ ، ٢١٢ – ٢١٣ ، ٢٣٢ .

(٣٠) الجنود من الجزائر يمكن أن يكونوا أناضوليين ما دام معظم أفراد الحامية الجزائرية قد تم تجنيدهم من الأناضول .

(٣١) العساكر البغداديون قد يكونون مماليك چورچيين .

(٣٢) انظر الفصل الخامس ص ص ١٠١ – ١٠٢ .

(33) Raymond, Artisans et Commerçants vol. 1, pp. 156 ff .

(34) Pococke , A Description of the East . vol. 1 , p . 164

(٣٥) انظر على سبيل المثال :

Crecelius Roots of Modern Egypt pp. 28 ff .

Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants : Land, Society & Economy in Lower Egypt , 1740 - 1858 (Cambridge, 1922) pp . 27 ff.

(36) Holt, " Beylicate" 223.

(37) Shaw, Financial ... Op. Cit . pp. 33, 37 , 186 .

(38) Crecelius, Roots .. op . cit pp. 2 - 23.

(39) Cuno, The Pasha's Peasants pp. 27 ff .

(40) Winter, Turks, Arabs & Mamluks p. 106.

(41) Piterberg, Formation of an ottoman Egyptian Elite 281 - 2 .

(42) Winter, Ali Efendi's Anatolian Campaign Book 272 ff.

(٤٣) على سبيل المثال :

Mühimme ilMisir , Vol . 1, No 64 (1121/ 1709) vol. Vii , nos . 214

(Mid - Receb 1168 / 1755) and 229 (Late Ramazan 1168/1755)

(٤٤) يستخدم Crecelius « البكرية المملوكية » و « دولة المماليك » على نحو تبادلى ليشير إلى كيان سياسى محكوم ذاتيا . (Roots of Modern Egypt, pp. 28, 29)

وانظر أيضا :

- Winter " Turks, Arabs & Mamluks, " 100 .

- Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite "281 .

(٤٥) كان الرقيق الأسود موضع ازدراء ، انظر على سبيل المثال :

David Ayalon " The Ciacassirns in the Mamluk Kingdom " JAOS 49 (1949) 135 - 47.

David Ayalon , Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom : A Challenge to Medieval Society (London , 1956).

(46) Winter, " Turks .. op . cit " 121 - 122 .

يذكر أن هذا الجيش يضم محمد على باشا الذى سيلعب دورا فيما بعد والذى ذمّه الجبرتى ، وهذا الاقتباس غير محايد ، بل منحاز بشدّة .

(٤٧) أحمد شلبى (جلبى) ، أوده (أوضا) ص ٥١٤ يسجل ما يُعد أول إشارة فيما أعلم لأحد ضباط الأوجاقات (الفرق) يرقى تابعا لمرتبة البكرية فى سنة ١٧٢٧ ، عندما جعل الإنكشارى الكخيا حسين الدمياطى من تابعه مصطفى أغا الوالى ، صنجق بك Sancak Beyi لجرجا والمنيا فى صعيد مصر .

الفصل الرَّابع

زُمرتا القازدغلية ، والجلفيّة : الظهور ، والمشاركة

بينما كانت زمرة القازدغلية تتخذ إطارها داخل فرقة (أوجاق) الإنكشارية كانت زمرة الجلفّية تلقى بظلالها على تطورها ، وتوازيها ، وقد ظهرت زمرة الجلفية بعد ظهور القازدغلية بعدة عقود ، لكنها - أى زمرة الجلفية - سادت فرقة (أوجاق) العزبان فى الوقت نفسه الذى أحكمت فيه زمرة القازدغلية قبضتها على كتائب الإنكشارية ، لقد صاغ الجلفية تحالف تبعيًّة دام طويلا مع القازدغلية تمكَّنت - القازدغلية - بموجبه من تحقيق مشروعها وتشكيل أسلوبها فى الحكم خلال منتصف القرن الثامن عشر ، لكن تحالف التبعية هذا الذى عقدته الجلفية مع القازدغلية لم يتم إلا بعد عدة أعوام كانت فيه الجلفية مترددة بين القازدغلية ومنافسيها الرئيسيين ضمن كتلة الفقارية (بيت ذى الفقار) ، ودراسة الجلفية مسألة مفيدة بالنسبة للمؤرخ فى مقابل المجموعة القازدغلية ، وربما كانت مثالا على دور القازدغلية أنفسهم ، مع أنَّ الجلفية كانت زمرة أصغر بكثير وأقل تعقيدا من أن يُعتمد عليها كزمرة مساعدة ، وكى نفهم كيفية تفاعلات الزمرة القازدغلية فى مرحلتها الباكرة لابد من فهم تفاعلات الجلفية فى مرحلتها الباكرة أيضا .

أصول الجلفيّة :

ظهر اسم الجلفية للمرة الأولى فى سجلات الأوامر السلطانية imperial المعروفة باسم الأوامر المهمة mühimmes فى سنة ١٧١٥م [١] ، لقد كانت هناك ثلاثة ملامح بارزة تميز هذه الزمرة وربما تحدّد إلى حد كبير سلوكها داخل المجتمع العسكرى

المصرى ، أول هذه الملامح : أنّ الجلفية ظهرت كزمرة صغيرة وغير معقدة التركيب نسبيا ؛ إذ كانت لا تشتمل إلا على سلسلة انتساب offiliátion رئيسية واحدة ، لذا فلم يكن يسودها الاضطراب بين الأفرع المتنافسة ، والملمح الثانى : أن الجلفية لم تنتم إلى أىّ من الفريقين الكبيرين المتنازعين الفقارية والقاسمية ، رغم أن الجلفية أبدت تعاطفاً مع بعض فروع الفقارية خاصة القازدغلية وزمرة ذو الفقاربك ، ولا شك أن غياب هذا النزاع فى الولاء قد أسهم فى تكوين الخاصية الثالثة للجلفية وهى أنَّ زعماءها لعبوا دور الوسيط بين الفريقين المتنازعين الفقارية والقاسمية ولعبوا دور الوسيط بين المتنازعين داخل الفريق الواحد ، وباختصار فقد ترك الجلفية انطباعًا أنهم مساعدون أو حلفاء مثاليون ، وهو الدور الذى لعبوه – حقيقة أكثر من مرة وأخيراً لعبوه لدعم القازدغلية .

وأصول زمرة الجلفية غامضة واختلطت بالأساطير اختلاطا كبير ، ويمكن أن نجد روايتين أسطوريتين فى الحوليات العربية التى كتبت فى بواكير القرن التاسع عشر ، فالجبرتى فى ترجمته للكخيا على الجلفى يؤكد أن عليا حصل على لقب(انتساب) جلفى Jalfi ، إذ يقول ما معناه : (أغا البنات)

لأن الأغا محمد ، مملوك الأغا بشير القزلار Kizlar وأستاذ The master الكخيا حسن (الجلفى أستاذ على) ، كان من بين توابعه رجل يُسمَّى منصور الزاتاهارشى al - Zataharci السينجالفى al-Sinjalfi من قرية مصرية تسمىّ سنجلف Sinjalf، كان ثريا وله ابنة أسمها خديجة فزوجها للأغا حسن فأصبحت معروفة بأسم الست الجلفية(٢) .

ولابد أن الأغا بشير القزلار al-kizlar كان واحدا من كبار الخصيان السود الخمسة الذين حملوا الاسم " بشير" وربما كان هو أول من حمل هـــذا الاســم منهم (الحاج بشير) الذى شغل المنصب (كبير الخصيان السود) من سنة ١٧١٧م إلى سنة ١٧٤٦م ، وكان لصلة الكخيا حسن الجلفى بالأغا الحاج بشير مضامين أعمق وأكبر بالنسبة لوظيفته ككبير للخصيان السود فى مصر كما سنرى فى الفصل الثامن – أهميتها للجلفيين أنفسهم والأكثر أهمية بالنسبة للجلفيين هو زواج الكخيا حسن من

ابنة منصور الزاتاهارشى Zataharci ، ولقب الزاتاهارشى لقب غامض مُحيِّر ، فاللاحقة التركية (شى) أو (جى Ci) تعنى نسبة إلى مهنة ، وإن لم يكن الأمر كذلك ففى الأمر خطأ فى النسخ ، وقد تكــون التسمية الصحيحة زاهر جى Zahireci وهى رتبــة دنيا فى كتــائب الانكشــارية الإمبراطوريــــة (العثمانية) ، وعلى أيــة حــال فحكايــة الجبرتى تتضمن أن الكخيا حسن كان أول جلفى خالص استنادا إلى زواجه من ابنة منصور .

ويقدم لنا الشاعر إسماعيل الخشّاب فى حوليته - ذات القيمة الأقل بكثير التى كتبها بناء على طلب الفرنسيين - رواية مختلفة عن خرافة تأسيس الجلفّية ، باع بائع زيت (معصرانى) زيت سمسم لعسكرى (جندى) ، ثم استضاف هذا البائع العسكرى فى بيته وأدى له خدمة ، وبعد ذلك بثلاثين يوما مات العسكرى ، فاشترى بائع الزين بيته ، وبعد أن عــاد بائــع الزيت إلى مدينته (بلده his balad) سينجلف Sinjalf حيث قضى فترة من الزمن ، رجع للقاهرة وبدأ يشترى المماليك ، الذين سجلهم فى الفرق (الأوجاقات) وتقدم للحصول على التزام ، وكان أحد هؤلاء المماليك الذين اشتراهم هو الكخيا سليمان الجلفى ، الذى يبدو أن الخشاب يظنه أعظم زعماء الجلفية وأستاذ master الكخيا رضوان الجلفى الذى تسيد مصر بشراكته مع الكخيا إبراهيم القازدغلى حوالى منتصف القرن الثانى عشر [٣] ورواية الخشاب تتفق مع رواية الجبرتى فى الدور المحورى الذى لعبته قرية سينجلف فى ولاية المنوفية فى دلتا النيل ، فالاسم جلفى يمكن فعلا أن يكون مشتقا من اسم هذه القرية مادام المسئولون العثمانيون - بل والخشاب نفسه - يبدو قد عامل بادئة اســم القريــة القبطية Coptic (المقصود المصرية) سن أو سين أو ساند Sin or Sand كبادئة منفصلة وربما ككلمة مستقلة [٤] والحقيقة أن هذه القرية قد تكون معروفة بين العامة باسم جلف بتعطيش الجيم أو بدون تعطيش Jalf or Galf رغم وجود (جلف) فى ولاية Subprovince بهنسا فى صعيد مصر ، وإذا كانت الجلفية تحذو حذو الزُّمر الأخرى والأفراد الآخرين الذين يحملون أسماء تنسبهم لقرى مصرية ، ففى هذه الحال يكون هذا اللقب (الجلفى) مشيــراً إلى إدارة التــزام قرية سينجلف Sinjalf ، ومن المحتمــل أن تكــون الزمــرة

(الجلفية) قد حصلت على هذا الالتزام من منصور الزاتاهرجى Zataharci أو تاجر الزيت [٥] ، وربما كانا هما شخصا واحدا (أى أن منصور هو نفسه تاجر الزيت) ، وإن كان اسمه فعلا Zâhireci ، فربما كان منصور هذا أحد ضباط الإنكشارية حصل على التزام وكان أيضا – وفى الوقت نفسه – يمارس أعمالا تجارية صغيرة . إن قيام التاجر بدور مركزى فى مؤسسة الزمرة قد وضعت الجلفية فى الوقت نفسه فى صفوف الزمر التجارية وغيرها من الزمر غير العسكرية التى انضمت للنخبة فى بواكير القرن الثامن عشر مثل الشرايبية Sharaybis والفلاحين والفكهانية Manavs (Fruiterers) ورواية الجبرتى عن أصول الجلفية أكثر توثيقًا من رواية الخشّاب ، والمصادر الأرشيفية بالإضافة لحوليات أخرى تشير إلى أن الكخيا حسن هو أول من حمل اللقب چلفى ، وهناك أمر سلطانى فى سنة ١٧١٥م يعين اسم الأوضاباشى شاهين الجلفى Jalfi'nin Şahin Odabaşi كواحد من سبعة متمردين فرّوا من مصر فى أعقاب الحرب الأهلية سنة ١٧١١ . وصدرت ثلاثة أوامر تباعا أسمته فيها " شاهين أوضاباش و، التابع الجلفى " [٦] ويعرفه الدمرداش بأنه الأوضاباشى (الأوده باشى) Odabasi شاهين الذى أصبحت رتبته " ثالث" thalith (الثالث رتبة عسكرية دنيا) " أثناء حياة الكخيا الجلفى " [٧] . وهذا الكخيا لا يمكن إلا أن يكون هو حسن ، فهو الجلفى الوحيد الذى ظهر في حولية الدمرداش ، والذى كان قد مات منذ عهد قريب ، وعلى هذا فلقب " الجلفى " الوارد فى مجموعة الوثائق العثمانية المعروفة بالمهمة "Mühimme" لابد أنه يشير بالتحديد للكخيا حسن ، والحقيقة التى مؤدّاها أن الأوامر السلطانية Imperial لم تطلق على " الجلفى " أبدا اسمه الأول (حسن) ولقبه (انتسابه) أمر استثنائى غير عادى ، ما دامت النسبة إلى أسماء الأماكن (المدن أو القرى ... إلخ) هى الاستثناء وليست القاعدة فى سجلات الوثائق المعروفة بالمهمة إلا إذا كان من المفترض أنه ينعم بارتباطات قوية مع الزعيم الخصىّ الأسود Chief Black Eunuch .

ومع هذا فإن الكخيا حسن يكاد يكون شخصية غامضة ، وربما كان مشهوراً بتوسيعه المشهد الحسينى وتجديده ، وهو المسجد المؤسَّس فى القرن الثالث عشر والذى يضم ضريحا يفترض أنه يضم رأس الحسين ابن الخلفية على (رضى الله

عنهما) ، والواقع – أى المسجد – خارج باب القاهرة المعروف بباب الفتوح [٨] ، وعلى أية حال فمن الناحية السياسية نجد أن أهم أدواره تجلت فيما يمثل التراث الجلفى عامة وهو توسُّطه فى النزاع بين الفريقين المتنازعين (الفقارية والقاسمية) وفى سنة ١٧١٢ م تدخل الكخيا حسن فى نزاع بين زعيم القاسمية إسماعيل بك بن إيواظ Ivaz ، وذى الفقار أغا (أصبح بك بعد ذلك) أحد أتباع مجموعة البلفية ، حول قرية قيمان العروس Qiman Al - Arus فى البهنسا التى كانت من أوقاف الحرمين ، [٩] ورتَّب حسن تسوية يحصل بمقتضاها ذو الفقار على نصف عوائد القرية طوال حياة الكخيا حسن ، وشروط هذه التسوية تشهد على النفوذ الواسع والمصداقية والمكانة التى لابد أن الكخيا حسن كان يتمتع بها ، ويذكر الجبرتى أن حسن ترقى من شوربجى Carbaci فى فرقة (أوجاق) العزبان إلى كخيتفى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١ م قبل موته بعام واحد [١٠] ، ويبدو كذلك – والأمر على هذه الحال – أنه أسس زمرته وهو لايزال شوربجيًا ، ولا نعرف عن هذه الزمرة إلا القليل ، فعلاوة على الأوده باشى شاهين الذى اختفى من التاريخ فى أعقاب هروبه من مصر ، كان أتباع حسن المعروفون هم – فقط – الشوربجى إبراهيم – وهو شخصية غامضة – والشوربجى على (الذى أصبح كخيا بعد ذلك) ، وبطبيعة الحال كان هذا الأخير هو الأكثر أهمية بكثير فى تطور الزمرة الجلفية [١١].

وبينما يظهر أن الكخيا حسن كان مملوكا فإننا لا نستطيع الجزم بوضع الكخيا على الذى كان يوصف ببساطة بأنه " تابع" الكخيا حسن [١٢] وبغض النظر عن وضعه فيظهر أنه كوّن حاشية من السرَّاجين الأناضوليين الأحرار بالمولد ، والسراج : مصطلح يعنى حرفيا المسئول عن السروج أو صانعها هو فى معظم الحالات من المرتزقة الأناضوليين أو البلقانيين المستأجرين كحراس شخصيين ويعتمد عليهم لأداء خدمات عسكرية غير نظامية بين الحين والحين ، وفى قرون أسبق كان السرّاج يقوم بمهام المراقب الليلى [١٣] . وكان كل أتباع الكخيا على المسجلين فى سجل رواتب ١٧٣٧ – ١٧٣٨ ، وقد أتوا من مدن الأناضول[١٤] ، وأكثر من هذا فالدمرداش يزعم أن الكخيا على رفض أن يضيف المرتزق لاظ Laz إبراهيم إلى زمرته لأنه – أى على – كان لديه بالفعل عدد كاف من السراجين [١٥] ، ويبدو أيضا أن زمرة الجلفية كانت

تضم عددا قليلا نسبيا من القيادات من المماليك المعتقين (المحرَّرين) الذين يعتمدون على مجموعات كبيرة من السرّاجين الأناضوليين ، وفى العقود الأولى من القرن الثامن عشر عندما كان العزبان يتنافسون مع الإنكشارية للوصول للمكانة الأرقى ، وتكوين زمر أكبر ، لابد أن يكون السرّاجون قد أصبحوا محط أنظار الضباط الأعلى رتبا كمورد متوفر ورخيص نسبيا للقوى البشرية .

لقد خدم على الجلفى وهو لايزال شوربجيا راعيه (حاميه His Patran) الكخيا حسن ، كخازندار Treasurer ، ومن خلال هذا المنصب بدا أنه حقق نوعا من الخبرة المالية والمصداقية فى قرية قيمان العروس المتنازع عليها ، وكان له دور فى استقرار الأمور بين ذى الفقار ، وإسماعيل بك بن ايواظ Jvaz ، وكان ذو الفقار مدينا لعلى الجلفى بتوفير مورد رزقه (١٦) ، وأدت وساطة على إلى الربط بين الجلفية وزمرة ذى الفقار بك الذى ظهر كزعيم لفرقة الفقارية ، وعندما أصبح ذو الفقار شيخ بلدٍ للقاهرة رد أفضال الجلفية عليه بأن جعل الشوربجى على والشوربجى إبراهيم (تابع آخر لحسن الجلفى) كُخياوين على التعاقب فى كتائب العزبان فى ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ و ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩ - ١٧٣٠م ، ووقفت هذه الترقية أمام طموح الكخيا يوسف البركاوى أحد زعماء شعب الفقارية التى تنافست مع الجلفية على الزعامة بين العزبان (١٧) وعلى هذا فبينما توثقت علاقة على الجلفى بزمرة ذى الفقار دخل فى خصومة مع البركاويين (بكسر الباء) الذين تصدوا له .

وخلال تولى الكخيا على منصب "كخيا الوقت" ظهر أوّل تحالف بين زعماء الجلفية والقازدغلية ، وعلى أية حال فالتحالف الباكر يناقض بنية التحالفات القازدغلية الجلفية التى أتت فى وقت لاحق ، لأنها أخذت شكل التحالف المتبادل مع عثمان بك تابع ذى الفقار بك ، ومثل هذا التحالف لم يكن ليتصوره زعماء القازدغلية فى فترة لاحقة ، أولئك الزعماء الذين كانوا فى الغالب أعداء ألداء لعثمان بك ، وفى أواخر سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر حوّل عبد الله القازدغلى الكخيا الإنكشارى بقية الزمرة القازدغلية بضم جهوده إلى جهود عثمان بك ذى الفقار الذى كان أميرا للحاج فى ذلك الوقت ، فبحلول عام ١٧٣٧/١٧٣٨ سيطر الكخيا عبد الله ، وعثمان بك ذو الفقار

والكخيا على الجلفى والدفتردار إبراهيم بك قطامش على رياسة الأوجاقات (الفرق) السبعة بالإضافة لمنصبى إمارة الحاج والدفتردارية ، وربما اتخذ عبد الله موقفه هذا الذى خرج به عن خط مجموعته كى يحصل على نفوذ وقوة يمكنانه من الوقوف فى وجه القوة المتزايدة للزعيم القازدغلى الأوده باشى إبراهيم (أصبح بعد ذلك جاويشاً Cavus ، ثم كخيا) الذى ظهر كمنافس رئيسى لعثمان بك ذى الفقار .

بل إن الجلفية حافظوا على روح الحياد رغم تحالفهم مع الكخيا عبد الله من ناحية وعثمان بك ذى الفقار من ناحية أخرى ، وتوسط الكخيا على – محتذيا بتوسطه هذا النموذج الذى جرى فى قيمان العروس – فى المعركة بين عثمان بك ذى الفقار والأوده باشى إبراهيم القازدغلى بخصوص قرية طهطا التابعة لولاية أسيوط فى صعيد مصر [١٨] ، وتم تعيين على كاشف (الكاشف على) أحد أتباع عثمان بك حاكما للإقليم فى سنة ٧٣٨ م . ومن ثم توغل فى طهطا وقتل شيخ البلد وكان حامل هذا اللقب هو شيخ القرية البدوى ، ولجأ ابن الشيخ (المقتول) إلى الأوده باشى إبراهيم الذى عرض تخليص الإقليم من عثمان بك وعين كاشفا فى زمرته هو (أى زمرة الأوده باشى إبراهيم) ، وعلى أية حال فقد اعترض عثمان بك اعتراضا صريحا على هذه المحاولة المكشوفة لإخراجه من السوق بلا حمص ، وأخيرا رتب الكخيا على الجلفى تسوية يقوم بمقتضاها عثمان بك بإحلال كاشف آخر من زمرته محل على كاشف (الكاشف على) وأن يعترف بابن شيخ البلد (المقتول) كخليفة لوالده فى منصبه (كشيخ بلد) ، وبهذه الطريقة ظلت إدارة طهطا فى زمرة عثمان بك بينما أصبح مرشح الأودة باشى إبراهيم رئيس القرية .

والحقيقة أن حياد الجلفية وجهودهم فى الوساطة بدت معرقلة لقدرة الحكومة العثمانية على التأثير فى النبلاء grandees الذين يسيطرون على عوائد مصر من خلال الرياسة (انتهاء الرياسة إليهم) ، وكان التكتيك العام للحكومة المركزية خلال هذه الأعوام هو تجاهل كل القابضين على زمام " الرياسة " لاسترداد عوائدهم (دخولهم أو ريعهم ...) وخلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر كان عثمان بك ذو الفقار محل غضب فى استانبول ، فبالإضافة لفشله فى استرجاع عقارات أستاذه Hismaster

المتوفى فقد كان أهمل إرسال الحبوب إلى المدينتين المقدستين كما أهمل إرسال الأموال السنوية Tribute التى ترسلها مصر إلى إستانبول [١٩] ، ودبرَّ مصطفى باشا والى مصر العثمانى وقت النزاعات التى حدثت فى طهطا مؤامرة ضد عثمان بك ، وغيره من القابضين على زمام الرياسة ، لكن الكخيا على عقد تسوية أحبط بها المؤامرة [٢٠] ، وكرر خليفته سليمان باشا العظم الخطة ونجح فى قتل الكخيا على باستخدام البركاوية منافسيه القدماء (أى منافسى الكخيا على) .

وأدت ظروف مقتل الكخيا على الجلفى إلى تغييرات كثيرة فى طبيعة زمرته التى كانت مكوَّنة فى غالبها من السرَّاجين الأناضوليين ، والحقيقة أن هذه الحادثة (مقتل الكخيا على) اوحت لنا بالكثير عن كيفية دخول هؤلاء السراجين للزّمر ، لقد كان القاتل الحقيقى لعلى كخيا هو شخص اسمه لاظ إبراهيم من المفترض أنه أحد أبناء منطقة تقع فى شمال شرق الأناضول معروفة باسم : لاظيستان Lazistan ، وقد وصفه الدمرداش بأنه سرّاج والى جرجا ، وكان لاظ إبراهيم قد قتل جنديا فى جرجا ، وهرب إلى القاهرة وتوسل إلى الكخيا على أن يجعله فى خدمته " مثل أبو مناخير فضة يوسف عندما قتل جنديا فى دمياط [٢١] . . . وقد جعلته أنت من العزبان made him an Azab [٢٢] ورفض الكخيا على متعللا بأن لديه عددا كافيا من السرّاجين ، فلجأ لاظ إبراهيم الذى اعتراه السخط لمنافس الكخيا على ، الضابط العزبانى الكخيا أحمد البركاوى تابع المتوفى الكخيا يوسف البركاوى الذى كلفه - بموافقة الوالى العثمانى - بقتل الكخيا على الجلفى ، ويستطيع المرء أن يخلص - من هذا المثل أن السرَّاجين كانوا قتلة وقطاع طرق كوّنوا روابطهم الخاصة بهم مع حماتهم من الضباط النافذين والبكوات رغم انتسابهم إلى فرقة (أوجاق) أو أخرى ، وفى كتائب العزبان حيث كان عددهم أكثر كان من الواضح أنهم يرقون إلى رتب الجاويشية [٢٣] Cauus، وقد قدم السرّاجون للكخيا على وكذلك لمنافسيه البركاوية بديلا جذابا عن المماليك لسهولة استجلابهم ، ومع هذا فقد كانت ارتباطاتهم برعاتهم (حماتهم) - كما هو واضح - لا تقل عن ارتباط السيد (الأستاذ) بالعبد ، والأمثلة من السرّاجين الواردين فى الحوليات تبين أنهم خدم يدافعون عن أسيادهم بعزم حتى الموت ، بل ومستعدون للقتل من أجلهم [٢٤] .

ورغم انتشار السرّاجين الأناضوليين فى زمرة الكخيا على الجلفى فى كتائب العزبان فقد ظهرت مسافة معينة بين هؤلاء العزبان المدرجة أسماؤهم فى سجلات العزبان ، وتابعى الكخيا على الأكثر نفوذا وهما الشوربجى سليمان والشوربجى رضوان ، حقيقة إن هذين الضابطين قد يكونا مملوكين لمؤسس الزمرة الكخيا حسن ، [٢٥] وفى سنة ١٧٣٩م. لاحت الفرصة للجلفية للسيطرة على كتائب العزبان عندما قهر عثمان بك ذو الفقار الكخيا أحمد البركاوى فى السيطرة على الأوجاق (فرقة العزبان) كانت خطة عثمان بك هى جعل الشوربجى سليمان " كخيا الوقت " فى كتائب العزبان من ترقية الشوربجى رضوان للبكرية ، لكن الأنفار وواجبى الرعاية Rank , File أصروا على قتل الشوربجى رضوان إن تم تعيينه سنجقا ، فاختار عثمان بك بدلا من ذلك أن يجعل رضوانا كخيا الوقت " وأرضى سليمان قائلا أنه سيجعله يتولى المنصب بعده (أى يخلف رضوانا فيه) [٢٦] ، ومن الواضح أن الشوربجى رضوان الجلفى كاد يركب موجه التأييد العام Popular فى منصب "كخيا الوقت " ، لكن المحاربين من الأنفار وواجبى الرعاية قبلوه على مضض .

ومن الممكن أن يكون لإخراج المدوّنين فى القوائم عدة أسباب ، ربما يكونون قد عملوا لصالح مجموعة البركاوى فى الوقت الذى ربما كانوا فيه يعتبرون رضوان قد عمل كثيرا جدا لصالح عثمان بك ذى الفقار ، وبالإضافة لهذا ربما يعكس حنقهم النزاع (الصراع) التاريخى بين كبار ضباط الفرق (الأوجاقات) من ناحية والضباط ذوى الرتب الدنيا والأنفار وواجبى الرعاية من ناحية أخرى ، والأشد كيداً هو التوريط الذى مؤداه عدم تقديم البكلرية الحماية لمواجهة سخط هؤلاء المدرجين فى السجلات enlisted men ، وخلال القرن الثامن عشر وجدنا البكلرية تتفوق على سلطة الأوجاقات (الفرق) ، وعلى أية حال فإن البكلرية حتى هذه النقطة بدت وكأنها لا تزال ينقصها السلطة المهيمنة الشاملة ؛ أى ظل وضعها إلى حد كبير كما كان عليه حالها فى القرن السابع عشر عندما كان ضباط الفرق (الأوجاقات) ذوو النفوذ يتم ترقيتهم للبكلرية لإبعادهم عن قواعد قوتهم .

وقد أتبع الكخيا سليمان الجلفى نفسه لرضوان نتيجة هذه الأحداث المؤسفة ، وعندما فعل هذا راعى التقاليد الجلفية التى قد نسميها " رفقة الأضعف -Weaker Cam rade " ، وعندما أصبح لدى الزعيم الجلفى تابعان بارزان بدا الواحد منهما قانعا بدعم الآخر له ، وعلى هذا فبينما خلف الكخيا إبراهيم الجلفى رفيقه على "ككخيا الوقت " فى كتائب العزبان فى الفترة من ١٧٢٩ إلى ١٧٣٠م. ظل على متسيِّدا ، ومن بين أتباع الكخيا على الكخيا سليمان ، وهو على النحو نفسه خلف الكخيا رضوان ككخيا الوقت ، ومع هذا فلم يتحدً أبدا سيادة رضوان ونفوذه (٢٧) وهذه العناية الواضحة فى الحفاظ على خط التتابع أو خط تولى السلطة أنقذت الزمرة الجلفية من النزاع على السيادة وهذا النزاع الذى أحدث الاضطراب فى معظم الزّمر الأخرى بما فيها القازدغلية .

وحاول الكخيا رضوان كرأس جديد للزمرة القازدغلية أن يواصل الالتزام بالتقليد الجلفى الثانى وهو القيام بدور الوسيط بين الفقارية ومناوئيهم ، وعلى أية حال فبحلول الأربعينات من القرن الثامن عشر كان النزاع بين عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم القازدغلى (الذى أصبح الآن شاقوساً " جاويشا " إنكشاريا) قد اتسع بحيث كان من المستحيل على الجلفية أن يواصلوا الاحتفاظ بأى قدر من الحياد مهما قل ، ففى نزاع سنة ١٧٤٣م. حول ناحية فرشوط فى ولاية جرجا فى صعيد مصر ألقى الكخيا رضوان المدين بمنصبه لعثمان بك ذى الفقار – بكل ثقله إلى جانب لقد اتسع نزاع فرشوط بالطريقة نفسها التى اتسع بها النزاع السابق حول طهطا ، لقد كان يدير فرشوط الشيخ همام شيخ الهوارة البدو الذين كانوا قوّة فعالة ومنتشرة فى صعيد مصر ، وعندما تم قتل شيخ هوارة فرشوط دفع الشيخ همام " حلوانًا "Hulvan (مبلغ من المال للحصول على الالتزام الذى كان يتولاه المتوفى) للجاويش إبراهيم القازدغلى الذى كان ينوى تعيين كاشف من زمرته فى فرشوط واعترض والى جرجا (ولم يكن هو سوى على كاشف " الكاشف على " الذى كان يشتهى فى فترة سابقة الاستحواذ على طهطا) على عثمان بك الذى منع الجاويش إبراهيم من تعيين كاشف من طرفه ، وسرعان ما تدخل الكخيا رضوان الجلفى كما لو كان ينتهز الفرصة للوساطة ، وعلى أية حال فقد كانت طريقته فى التوسط أقرب ما تكون للتهديد فقد ركب إلى منزل

عثمان بك وبصحبته مئة مرتزق Levends ، ويواصل الدمرداش الرواية « لقد كان عثمان بك – بوصفه سنجقًا – يحمل في يده مروحـــة من سعف النخيل ، ضرب بها خوذة Kavuk الكخيا رضوان » (٢٨) وكانت هذه الإهانة سببًا في مهاجمة الجاويش إبراهيم مباشرة لعثمان بك ، وطرده من مصر ، وقد يكون المقصود من إهانة رضوان (تلك الإهانة التي ألحقها به عثمان بك) هو أن البيك يريد أن يبين له أن خداعه مكشوف ، وقد وفّق رضوان أموره باتخاذه جانب الجاويش إبراهيم القازدغلي ، وذلك بخلاف موقف من سبقاه : الكخيا علي والكخيا حسن اللذان واصلا التمسك بنوع من الولاء التعاهدي مع ذي الفقار .

ورغم هذا فمما يدعو للدهشة هو أن الجلفية مع تحالفاتهم – في البداية مع بيت ذي الفقار ثم مع القازدغلية ، فإنهم كانوا يتوقعون – بشكل روتيني – أن يقوموا بدور الوساطة ، والحقيقة أنّ هذا الدور قد يكون ناشئا عن طبيعة هذه التحالفات التي كان فيها الجلفيون دائما تابعين أو مساعدين ، فهل أُسّست هذه الزمرة لتكون رابطة للوسطاء والمحايدين ولم يكن المقصود من تأسيسها أن تسيطر على مصر ؟ إن هيمنة الجلفية على كتائب العزبان تشير إلى أن الزمرة راغبة في القيادة ، وكانت قادرة على الاحتفاظ بها إذا حازتها ، فقد حاول الجلفية تجنيد أعضاء لا يقلون أهمية عن أعضاء أي زمرة قائدة أخرى ، ولنذكر هنا العدد الكبير من السراجين الذين ضمهم الكخيا علي للزمرة ، فالأقرب صحةً أن الجلفية وهم غير قادرين على التسلل للبكرية أو الكتائب الإنكشارية ، وجدوا لأنفسهم مكانا ملائما في السيطرة على كتائب العزبان وفي تكوين علاقات قوامها القيام بالدور المساعد للزمر التي تتسيد المؤسسات الأكثر أهمية ، هذه التحالفات – على أية حال – كانت تنطوي على مخاطرات ، فالجلفية لم تستطع منع المنافسات بين الزمر التي تحالفت معها من الهيمنة على حيادهم الظاهري (أي حياد الجلفية الظاهري quasi - neutrality) ، ومن هنا كان نبذ عثمان بك ذي الفقار للكخيا رضوان مع أن عثمان بك كان في وقت من الأوقات في جانب الجاويش إبراهيم القازدغلي .

وأكثر من هذا ففي هذا المجتمع كان التحالف يخلق دائما إمكانية حدوث تنافس بين المتحالفين مستقبلا ، فعند موت الجاويش إبراهيم القازدغلي بعد نزاع فرشوط

باثنى عشر عاما بدأت زمرة رضوان فى مواجهة غيره الكخيا عبد الرحمن القازدغلية ، ومنذ هذا الوقت أصبح الجلفية أقل فرعية لتجمع القازدغلية ومع هذا استمر دورها فى التوسط ، وخلال حكومة الأثنين المكونة من زعيمى القازدغلية إبراهيم بك ومراد بك فى نهاية القرن الثامن عشر توسط الكخيا المدعو محمد أرنادقود Arnavud الجلفى (خادم إبراهيم بك القازدغلى) مع آخرين بين أحد مماليك مراد بك وبين جمهور من العامة الساخطين (٢٩) .

أصول القازدغلية :

القازدغلية شركاءُ الجلفية الرئيسيون تعود نشأتهم لعدة عقود قبل حلفائهم الأصغر (الجلفية) إذ يمكننا قراءة اسمين لجنديّين ملحق بكل منهما اللقب (النسبة) قازطاغى Qâztagí فى سجلات كتائب الإنكشارية لسنة ١٦٧٥ (٣٠) ، وعلى أية حال فبحلول عام ١٧٣٧ أصبحت (قازطاغى) تشكل أكبر مجموعة مفردة بين كتائب الانكشارية ، وفى دفتر الرواتب اللاحق نجد ٥٤ إنكشارياً (أو ٣,٤٪) إما يحمل لقب قازطاغى ، أو تابعى (تابع) قازطاغى ، أو تابعى (تابع) فلان القازطاغى (٣١) ، وهؤلاء القازطاغيون لا يمكن إلا أن يكونوا ممثلين للزمرة التى اعتادت المصادر العربية على تسميتها بالقازدغلية Qazdoghli or Qazdughli التى نشأت فى كتائب الإنكشارية من بواكير القرن السابع عشر إلى منتصفه ، وبدأت إحكام هيمنتها على مصر كلها تماما بحول منتصف القرن الثامن عشر ، وفى المصادر الروائية العربية عادة ما تكتب (قازدغلى) أما سجلات الرواتب التركية فتكتبها (قازطاغى) وفى حوليتى وعبد الكريم (قازطاغلى) مما يوضح بجلاء أن هذا اللقب نسبة adjectival Form إلى قازضاغى أو جبل إداَ Ida فى غرب الأناضول (٣٢) ، وعلى هذا فالاسم قد ينطق كازدغلى (بالكاف) أو قازدغلى (بالقاف) ، ولاندرى إن كان يُنطق بالفعل على هذا النحو فى مصر القرن الثامن عشر ، ولا ندرى أيضا كيف تحول الاسم إلى شكله هذا قازدغلى ، فكيفية تحوله موضع نقاش ، ومن المؤكد أيضا أن الجيم (g) المشبعة اللينة

Soft or yumuşak) تنطق كالچيم (g) المشبعة (المعطشة hard) بين كثيرين من المرتزقة من الأناضوليين أنفسهم ، وكان هذا النطق من خواص مناطق شرق الأناضول التي أتى منها عدد كبير من المرتزقة ، والاختلافات فى طريقة إملاء الكلمة قد يجعل المرء يشك فى أن الاسم التركى كان يكتب فى بعض الأحيان بشكل خاطئ من قبل ناسخ لُغتُه الأولى هى العربية مما يجعله غير متآلف مع الأصوات فى اللغة التركية وكيفية كتابتها ولا يدرى دلالتها الجغرافية ، والحقيقة أن تحولا جذريا مشابها يحدث تباعا فى الحوليات العربية فى هذه الفترة ، فالكلمة التركية داغ dağ (جبل) تتم كتابتها (دال Dal) حتى فى الكتابات التركية ، ومن ناحية أخرى قد يكون تحويل الحرف اللين (المتحرك) من الألف a إلى الضمة غير المحدودة (U) وقد يكون هذا ناتجا عن خطأ بسيط فى النطق ربما يكون راجعا لنبرة أناضولية من نوع ما ، هذا من ناحية ، أو لنبرة قاهرية مرتبطة بلهجة أهل القاهرة من ناحية أخرى ، وربما يكون الأمر فى أعوام لاحقة أن الاسم مشتق فى جانب منه من الكلمة التركية أوغلو Oglu وتعنى : ابن ، وبالتالى يكون الاسم لاظوغلى يعنى (ابن لاظ) .

ويؤكد الجبرتى فى ترجمته لمؤسس الزمرة القازدغلية الكخيا مصطفى أنه رومى الجنس ، وكلمة " روم " و " رومى " خلال هذه الفترة تشير – نمطيا – لمناطق الامبراطورية العثمانية التى كان البيزنطيون يحكمونها قبلهم ، أعنى البلقان ومناطق الأناضول الغربية مع تركيز خاص على العاصمة الإمبراطورية (العثمانية) [٣٣] ، وعلى هذا فليس هناك سبب يدعونا للشك فى أن الكخيا مصطفى القازدغلى سُمى باسمه هذا، لأنه أتى إلى مصر قادما من الكازداغى Kazdağı وهى جزء من سلسلة جبلية على طول ساحل خليج إدرميت Edremit فى بحر إيجه ، وهذا السلسلة تختلف عن سلسلة أولو داج Uludag القريبة من بورصه Bursa ، فهى ليست خضراء مورقة وإنما صخرية شديدة الانحدار، ومع هذا تكسوها الغابات بكثافة ، والقسم الأعلى من كازداغلى يتكون من صخرة حادة جرداء [٣٤] ، وبين سلسلة الجبال هذه والبحر يوجد سهل ساحلى مزروع بأشجار الزيتون ، وأقرب المدن الكبيرة إليه هى إدرميت Edremit وبين الحين والحين يلتقى المرء بمركز كبير لإنتاج زيت الزيتون [٣٥] .

ومن الناحية التاريخية لعب الكازداغي دورا مهما فى صناعة الأخشاب فى الإقليم ، فقد تولى رجال القبائل التركمانية البدوية المعروفون باسم يوروك Yürükş والذين استقروا فى هذه المنطقة فى القرن الخامس عشر مهمة قطع الأخشاب واعتنقوا العلوية Alevism التى توقر الإمام عليا رغم أنهم ليسوا شيعة ، وعرفت سلالة هؤلاء البدو بالتهتاسيين tahtacis [٣٦] ، ولا نستطيع أن نجزم بما إذا كانت الزمرة القازدغلية فى مصر تعود فى أصولها إلى هذه القبائل أم لا ، وعلى أية حال فيظهر أن أخشاب من كازداغى وصلت إلى مصر خلال الحقبة العثمانية [٣٧] ، وأكثر من هذا فقد كان العثمانيون يحبذون - بشكل روتينى - إلحاق جنود لخوض المعارك الإمبراطورية من بين مجموعات قبلية أخرى خاصة الكرد وتركمان المناطق الشرقية فى الأناضول ، وفى وقت متأخر من القرن السابع عشر أصبحت مناطق الأناضول الغربية - خاصة بجا Biga وكاريسى Karesi الواقعتين شمال شرق الكازداغى - هى المورد الأول لتكوين العسكرية الإمبراطورية عوضا عن المناطق السابقة [٣٨] ، ومن المؤكد أن خشونة الحياة البدوية وعدم اتساعها بالاستقرار فى سلسلة جبال الكازداغى قد جعل العمل فى خدمة السلطان أكثر جاذبية فى نظر هؤلاء الجبليّين .

وتشير سجلات الرواتب إلى ورود عدد قليل جدا من القازدغلية بين العدد الثابت من الأناضوليين المرسلين إلى مصر بحلول منتصف السبعينيات من القرن السابع عشر ، وعقب ذلك راحت أعدادهم تزداد ، وفى هذه الأثناء ظهرت الأدلة على عدم استقرار النسبة وكذلك عن دوافع الهجرة (إلى مصر) فى منطقتى كاريسى Karesi وإدرميت Edremit فى وقت متأخر من القرن السابع عشر ، ونعلم من خلال عدة أوامر (سلطانية) نحس حركات تمرد بين الجنود أحدثت الدمار والخراب فى المنطقة فى السبعينات والثمانينات من القرن السابع عشر [٣٩] ، وكان هؤلاء الجنود فى غالبهم ممن تم تسريحهم بعد معارك السلطان محمد الرابع فى أوروبا خاصة بعد الهزيمة أمام أسوار ڤيينا فى سنة ١٦٨٣ ، وعندما لم يستطع هؤلاء الجنود أن يجدوا أعمالا مربحة فى الأناضول راح كثيرون منهم يبحثون عن فرص فى مصر وغيرها من الولايات العربية .

لقد كان هناك خيط رفيع يفصل بين العسكرية الإمبراطورية (العثمانية) والمرتزقة (قطاع الطرق) ، ما دامت أية أزمة اقتصادية من هذا النوع يمكن أن تنقل أى طرف منهما إلى موضع الطرف الآخر ، لكن خلال هذه العقود نفسها استقبلت مصر دفعة من العسكريين الإمبراطوريين (العثمانيين) تمت تعبئتهم وإرسالهم لمواجهة مشاكل خاصة فى الولاية (مصر) و كانت بعض هذه الكتائب أو المفرزات de-tachments ناتجة عن الجهود الإصلاحية لأسرة كوبرلو Küprülü (كوبريللى) التى خرج منها الصدور العظام (رؤساء الوزارات grand viziers) وفى سنة ١٦٧٠ خاصة عند حركة الإضراب أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) كوبروللو فاضل أحمد باشا ٢٠٠٠ جندى بالتوجه لمصر بقيادة الليفتنانت (الكخيا) قره إبراهيم باشا لإصلاح الأمور المالية فى الولاية [٤٠] ، ومما يؤكد هذا الاتجاه العام أن أندريه رايموند Ray-mond اكتشف تشكيلا من الجنود العثمانيين imperial (كابيكولو Kapikulu) فى سجلات التوريث فى أرشيفات المحكمة الشرعية بالقاهرة بين عامى ١٦٧٢ ، ١٧٢٦ ، وكثيرون من هؤلاء العسكر أتوا من الأناضول وليس بالضرورة – كما يظهر – من كازداغى [٤١] ، وتشير المصادر الروائية إلى أن هؤلاء العسكر الإمبراطوريين العثمانيين كانوا قد بدءوا فى إزعاج المجتمع القاهرى وإحداث الفوضى فيه منذ بواكير الستينات من القرن السابع عشر (١٦٦٠ – ١٦٦٩) ، ومن هنا وجدنا عددا من الحوليات تعدد من جديد ما أحدثه فى العقد السادس من القرن السابع عشر (١٦٦٠ – ١٦٦٩) خمسة من الجنود الأفظاظ من البلاط الإمبراطورى (العثمانى) والذين عُرِفوا فى العربية باسم : الذرب Zurub ، وهى جمع معرّب من الكلمة التركية زوربا Zorba بمعنى متمرِّد [٤٢] .

وعلى هذا فسجلات رواتب سنة ١٦٧٥ تشير إلى مواضع أناضولية ينتمى إليها الجنود بنسبة ٥:٤٪ بين الإنكشارية والعزبان (انظر جدول ٢/٣) ولابد أن يكون بعضهم على الأقل من عساكر الإمبراطورية (العثمانية) وركب الكخيا مصطفى القازدغلى – من ناحيته – الطرف المستدق بين العسكرى الإمبراطورى (السلطانى) والمرتزق الانتهازى ، لقد كان بالفعل قد رسّخ أقدامه فى مصر فى العقد الخامس من القرن السابع عشر (١٦٥٠–   ) إذا كان لنا أن نأخذ بما جاء فى الأمر السلطانى

الصادر فى سنة ١٧٥٣ م، والذى يشير إلى أحد " القازدغلية هو القازدغلى مصطفى من الأوضاباشية (من الرّتبة أوده باشى) قيّم المدرسة الباسياتية Basyatiyya فى مكة (المكرمة) قبل صدور الأمر بمئة عام هجرى (٤٣) ، وفى سنة ١٦٥٥ م ، لابد أن يكون مصطفى القازدغلى فى حوالى الأربعين من عمره ، ويمكننا أن نحدس أنه كان قد وصل لمصر قبل ذلك بعدة سنوات ، ومن الممكن أن يكون مصطفى قد حصل على رتبة أوضاباشى (أوده باشى) فى كتائب الإنكشارية الإمبراطورية (العثمانية) قبل قدومه إلى مصر وأنه كان واحدا من الأوضاباشية الإمبراطوريين (العثمانيين) الذين استقروا فى مصر وكوّن معهم تشكيلا متماسكا من الأوضاباشية فى مصر ، وعندما ظهر مصطفى بن محمد " قازطاغى » فى سجل رواتب سنة ١٦٧٥م . مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا السجل (القوائم) غالبا ما كان يشتمل على بيانات قديمة (غير متجددة) فمن المعقول أن يكون هو نفسه مؤسس الزمرة (القازدغلية) ، لقد كان واحدا من اثنين قازدغلية فى هذا السجل ، أما الآخر (الثانى) فهو على بن محمد الذى قد يكون أخاه ، ويخبرنا الجبرتى أنه عند وصول مصطفى إلى مصر أصبح سرّاجا لقائد الجونوليان (الجمليان Gönüllüyan) الأغا حسن بلفية Bilifya ، ولا ندرى إن كانت رتبة الأوضاباشى (الأوده باشى) فى فرقة (أوجاق) الإنكشارية فى مصر ملازمة (أو تساوى) منصب سراج ، لقد رأينا أنه فى كتائب العزبان أن هذا المنصب أكثر ارتباطا برتبة أعلى هى جاويش (شاقوس Çavus) كذلك فإنه من غير الممكن أن نقرر ما إذا كان الأغا حسن قد جند مصطفى أو ما إذا كان مصطفى قد تطوع للانضمام إلى زمرة الأغا حسن ، والسراج – كما لاحظنا آنفا – يبدو أنه مرتزق دفعته غالبًا ظروف ارتكاب جريمة للارتباط بزمرة (٤٤) ورغم أننا لا نملك دليلا على أن مصطفى القازدغلى ارتكب جريمة فربما يكون قد التحق بزمرة الأغا حسن بموافقته (أى موافقة مصطفى) وبرغبته الشخصية ما دامت لها هذه البنية العامة ، ومن ناحية أخرى فإن حالة تونس Tunisia تقدم لنا دليلا على أن ضباط الأوجاقات جندوا عساكر أناضوليين لتكوين حاشية لهم (٤٥) ، وفى هذه الحال قد لا يكون على مصطفى أن يتوسل إلى الأغا حسن طالبًا حمايته Patronage على نحو ما توسل لاظ إبراهيم أو أبو مناخير فضة يوسف" وإنما قد يكون حسن أغا قد عمل على اكتسابه لجانبه ، كذلك لا نستطيع أن نجزم بما إذا كان قد تم تجنيده للزمرة قبل وصوله لمصر

أم بعد وصوله إليها . على أية حال ، فإنه يبدو واضحا أن ضباط الأوجاقات (الفرق) قد استغلوا تدفق الأناضوليين على مصر فى القرن السابع عشر – سواء كانوا عساكر إمبراطوريين حاليين أو سابقين أو كانوا مرتزقة مستقلين (يعلمون لحسابهم) – كوسيلة جاهزة لتكوين زمرهم ، وكان عمل سرّاج – مهما كان ارتباطه بالأوجاقات (الإمبراطورية) – هو الوسيلة الشائعة للدخول فى المجتمع العسكرى المصرى ، وبهذا المعنى كان الكخيا مصطفى القازدغلى نموذجا نمطيا لقادم أناضولى جديد للزمر العسكرية فى مصر .

وإذا اعتمدنا على سجلات الدفع ، فإن الكخيا مصطفى القازدغلى ربما يكون قد جنّد سرّاجين – سواء أكانوا من الأناضول أم من غيره – فى زمرته ، وسجل الدفع المؤرخ لسنة ١٧٣٧ يدرج ١٤ عسكرياً من غير المماليك تحت عنوان هو " تابعى قازطاغى " أى تابع قازدغلى ، وبينما هذا التعبير قد يشير إلى التبعية لأى زعيم قازدغلى أو حتى لأى شخص من كازداغى ، فإن الكخيا مصطفى هو المقصود طالما أن عدة حوليات تشير إليه ببساطة بـ" القازدغلى" (٤٦) والأهم أن سجل سنة ١٧٣٧ يعطينا انطابعا بأن العمود الفقرى للقازدغلية طوال العدة عقود الأولى من وجودها تتكون من مسلمين أحرار بالمولد :

جدول ٤/١ المماليك وغير المماليك فى الزمرة القزدغلية

راس الزمـرة	مماليك	غير مماليك	غير معيّن
قازطاغى	٤	١٤	٧
الكخيا عثمان	١	٢	١
الكخيا سليمان	–	–	١
الباش جاويش عبد الرحمن	١	–	١
الباشا جاويش على	–	١	٢
الجاويش سليمان	–	–	٢
الجاويش حسن	–	٢	–
الجاويش حسين	–	٢	١

راس الزمـرة	مماليك	غير مماليك	غير معين
الجاويش عثمان	–	١	١
الجاويش سليمان	١	٤	١
الجاويش يوسف	–	–	١
السّر أوده عبد الرحمن	١	–	١
السر أوده أحمد	–	–	١
عثمان	١ (٤٧)	–	–

وباختصار فإن ظهور زمرة القازدغلية يرجع فى الأساس إلى فيض المسلمين الأحرار بالمولد – وكان كثيرون منهم من الأناضول الذين انضموا إلى شبكة الزمرة فى مصر خلال القرن السابع عشر ، والاتجاه الطبيعى للأوجاقات (الفرق) للاندماج فى الزمر لعب أيضا دورا فى ظهور هذه الزمرة القازدغلية ، وفى الوقت نفسه فقد كانت كثرة أتباع الكخيا مصطفى علامة باكرة على صعود الكخيا إلى مراتب القيادة فى الإنكشارية فتفوق على القيادة " الطبيعية " للضباط الأدنى رتبة ، كل هذه الظواهر كانت دلائل مشيرات إلى الظهور المهيمن للعسكرية الأوجاقية فى أواخر القرن السابع عشر .

حكومة الثلاثة : الأغاحسن بلفية ، وإسماعيل بك الدفتردار ، والكخيا مصطفي القازدغلى :

كان الأغا حسن بلفية راعى (حامى) زمرة الكخيا مصطفى القازدغلى هو المظهر الحى لقوة الضابط الأوجاقى خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ، ووفقا لما يقوله الجبرتى فإن الأغا حسن واصل ترقية سراًجه حتى حصل على منصب كخيا المستحفظان " (٤٨) وأثناء استحواذه على منصب كخيا إنكشارى ، كوّن مصطفى القازدغلى السّاق (العمود) الثالث لحكومة ثلاثية على رأسها الأغا حسن وصهره

(زوج ابنته) الدفتردار الفقارى إسماعيل بك ، وكان هؤلاء الثلاثة يُسيِّرون أمور مصر لتحقيق كل الأغراض العملية أثناء حكم الواليين العثمانيين إسماعيل باشا (١٦٩٤-١٦٩٧) وقره محمد باشا (١٦٩٩ - ١٧٠٤) ، والحقيقة أن الدمرداش يشير إلى ولاية إسماعيل باشا بأنها دولة إسماعيل باشا وحسن بلفية (٤٩) ، وكما سنرى فريما تكون البنية العملية الحاسمة لزمرة الأغا حسن - قد خدمت كنموذج (أو نمط) احتذاه حليفه القازدغلى .

وكان الأغا حسن بلفية شخصا أقرب إلى الغموض ، ويذكر الجبرتى أنه كان روميا rümi ، ولكنه لم يذكر متى أتى إلى مصر ، وأول تاريخ ذكره الجبرتى عند ترجمته للأغا حسن هو ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤ - ١٦٧٥ . وهو التاريخ الذى أصبح فيه الأغا حسن فى كتائب العزبان (٥٠) ، وعلى أية حال فإن وثيقة وقف (وقفية) مؤرخة فى ١٦٧٥ تحمل توقيعه ككخيا جاويشى سابق Çavuşan Kàhya (٥١) وفى سنة ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦ - ١٦٧٧ وفقا لما ذكره الحلاق كان قد رُقى إلى البكلرية (٥٢) ، وهذا النوع من الترقية المشكوك فيه كان مألوفا فى القرن السابع عشر كطريقة لإزاحة ضباط الفرق (الأجاوقات) ذوى النفوذ غير العادى عن ميادين الصراع ، وكان حسن أغا قادرا بشكل واضح على الهرب من البكلرية بسرعة ، فالجبرتى يحدثنا عن تعيينه متفرقه باشى Müteferrika Başi فى سنة ١٠٨٩/١٦٧٨ ، ثم أغا جونوليان (جمليان) (-Gonul luyanl) فى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م . ومجموعة الوظائف الأوجاقية التى تولاها الأغا حسن تكاد تسمه - بالتأكيد . أنه قدم من القصر الإمبراطورى مادام أغوات الأوجاقات (الفرق) وكل ضباط المتفرقة - في ذلك الوقت - كان يتم إسالهم من استانبول (٥٣) ، وأكثر من هذا فقد رأينا أن كلا من المتفرقة والشاقوسية (الجاويشية Çavuşan) كانا قريبين من والى مصر . بل إن الأغا حسن كان أيضا تابعًا لشخص اسمه الجاويش محمد قياله (٥٤) Qiyala الذى كان ملتزما لشبرا قياله Qiyala فى ولاية الغربية ، وهى قرية من أوقاف الحرمين ، وتولى الأغا حسن نفسه التزام بلفية ، وهى قرية موقوفة فى البهنسا ويبدو أنه أسس منطقة نفوذ فى قرى الأوقاف الأخرى القريبة (٥٥) ، وهذا النوع من السلطة المساندة على قرى الأوقاف يشير إلى روابط قوية بالزعيم

الخصى الأسود للحريم العثمانى السلطانى(Kizlar Ağasi or Darüssaade Ağasi) الذى يشرف على الأوقاف من إستانبول .

وربما كان خط (انتساب) بلفية – قياله Bilifya - Qiyala line يعود إلى واحد أو آخر من الزعماء الخصيان السود أو أحد وكلائهم ، فمن كانوا يعملون على تأمين تدفق نظامى لعوائد الأوقاف بتعيين أتباعهم فى التزامات جمع عوائد الأوقاف ، وربما كانت حماية (رعاية) الزعيم الخصى الأسود قد ضمنت قصر المناصب الإدارية المهمة على وكلائه أو أتباعه ، وربما قام الجاويش محمد قياله Qiyala والأغا حسن بلفية كل من ناحيته بتنفيذ هذه الاستراتيجية إما بتجنيد الأتباع من المركز الإمبراطورى ، أو بالتعاون معهم بمجرد وصولهم لمصر ، ثم تمكينهم من المناصب التى تمكنهم من تكوين قواعد للنفوذ والقوة ، وقد يوضح هذا السببَ فى قيام الأغا حسن بتوجيه مصطفى القازدغلى إلى كتائب الإنكشارية بدلا من ضمه إلى إحدى الأوجاقات (الفرق) التى كان يقودها حسن أغا نفسه .

إن حكومة الثلاثة التى كونها الأغا حسن بلفية مع الكخيا مصطفى القازدغلى وإسماعيل بك الدفتردار تمت خارج الصراع الصامت بين زمرة البلفية والزعيم الفقارى إبراهيم بك ابن ذى الفقار ابن خشداش إسماعيل بك (مملوك الأستاذ master نفسه) ذو الفقار بك الذى حاول تحقيق مشروع توسيع نطاق الفقارية ، هذا الصراع لعب دورا كبيرا فى توضيح طبيعة الزمرة البلفية والاضطراب (التذبذب) بين الولاءات للرتب rank والولاءات للفرق Factional (ليس المقصود الأوجاقات أو الفرق العسكرية) فى وقت كان فيه تكوين المجتمع العسكرى المصرى فى حالة سيولة in flux (أى لم تكن معالمه شديدة الوضوح) .

كان إبراهيم بن ذى الفقار قد عُين أميراً للحاج فى سنة ١٦٩١م. محل الزعيم القاسمى القوى إبراهيم بك أبو شنب ، وفى هذه الأثناء احتفظ إسماعيل بك زوج ابنة الأغا حسن بمنصب الدفتردار ، وبالسماح للفقارية بالاحتفاظ بالمنصبين خرجت الحكومة العثمانية عما جرت عليه عادتها من تقسيم المناصب بين الفقارية والقاسمية ، ولمتابعة السير فى اتجاه السيادة الفقارية المطلقة حاول ابن ذى الفقار التأثير فى كتائب الإنكشارية التى كان القاسمية حتى ذلك الوقت يتحكمون فيها ، لقد تخلص من

ثلاثة ضباط من القاسمية ، وبهذا أفسح الطـــريق لعــودة الضابط الباش أوده بـــاش (الباش أوضاباشى) كجك محمد Başodabaşi الطموح ذى الرتبة الأدنى (٥٦) ، وكان كجك قد طُرد من الأوجاق مرة فى سنة ١٦٨٠م، ومرة فى سنة ١٦٨٦م، بسبب معاندته لمصالح الضباط الأعلى رتبة (٥٧) .

وبدا تعـاون كـچك مـحـمـد مع ابن ذى الفـقـار فى البـداية مُـريكا ، فـالبـاش أوضـاباشـى يظهر فى حولية الجبرتى وفى الدراسات الثانوية الأخرى كبطل شـعبى يدافع عن العسكر والناس ضـد تجاوزات النبـلاء من عـسكرين وبكوات (٥٨) . بل إنه يظهر وقد لعب دورا شـخصيا مهما فى سقوط أحد ضباط القاسمية وهو فى منصب كاتب كبير (كاتبى كبير Katib - i Kabir) سليم أفندى ، ويظهر من أمر صدر فى سنة ١٦٩٦ أن هذا الباش أو ضاباشى اقترض من سليم ٣٠٠٠ قطعـــة ذهبيـــة (أشرفى ألتون Şerif altun) وكـان أيضـا مدينا لضـابطين اخرين من الإنكشـارية ومسئولين من مسئولى الجمارك (٥٩) ، ورغم العداوة الشخصية التى كان يكنها كچك محمد لسليم أفندى ، فربما كان سليم هذا هو بالضبط نموذج الضابط عالى الرتبة المستغل ، والذى كان كشك محمد يحظى بالمديح لمواجهته له ، حقيقة إن الدمرداش جعل من الكخيا مـصطفى القـازدغلى – العدّو الرئيسى لكچك مـحـمـد – المرتّب لطرد سليم أفندى من الإنكشارية باتهامه باحتجاز جانب من رواتب الجنود لنفسه (٦٠) .

ومن النظرة الأولى بدت مجموعة البلفية قابلة لمكيدة ابن ذى الفقار وكچك محمد ، ووقف إسمـاعيل بك وحسن أغا ليربحوا مـاليا من برنامج ذى الفقـار الخاص بتسيد الفقارية وهيمنتها فما أن تولى ذو الفقار إمارة الحج فى سنة ١٦٩١ م ، حتى عمل بعد ذلك بوقت قصير على نقل الإشراف المحلى على أوقاف الحرمين من ضبـاط الإنكشارية والعـزبان إلى البكوات – بل وقـصـر غـالبـهـا على البكوات الفـقـارية (٦١) ، وكـانت هذه المواقع (المناصب) مقصورة على ضبـاط الأوجـاقات فقط فى سنة ١٦٧٠ م، كجزء من إصلاحـات قره إبراهيم باشا ، إن توقيت الاضطلاع بالبكلرية يجعل المرء يشك أن هذا كان من تدبير ابن ذى الفقار فى مـحاولة لإضـعـاف ضباط الأوجـاقات نوى الرتب العليا ، ومثل هذه الاستراتيجية استكملها وألحقها بالتخلص من الضباط القاسمية ومناصرة

كچك محمد ، وفى هذه الأثناء كانت الضغوط الفقارية الخانقة على منصبى إمارة الحج والدفتردار صارمة لم تنقطع معظم سنى التسعين من القرن السادس عشر مما ساعد على تأمين السيطرة الفقارية على عوائد الأوقاف مادام الإشراف على الأوقاف مرتبطاً بالبكلرية ، وقد استفاد إسماعيل بك الدفتردار الذى طال مكثه فى منصبه من هذا الاحتكار ، وكذلك استفاد أيضا الأغا حسن الذى كان التزامه يشمل البهنسا التى كانت من أوقاف الحرمين ، والواقع أن كلاً من الدمرداش والجبرتى قالا بتآمر الأغا حسن مع إبراهيم بك ذى الفقار والوالى العثمانى ، يقول الجبرتى أن ابن ذى الفقار حبك مؤامرة بمساعدة الأغا حسن بلفيه وحث والى مصر فى ذلك الوقت لتعيين الكخيا رجب Receb مستحفظان وسليم أفندى بيكين Beys (سناجق Sanagiq) [٦٢] ، ويبدو أن الأغا حسن كان منحازا على نحو ما إلى جانب كچك محمد ، فعندما طرد الباش أوضاباشى من كتائب الإنكشارية فى سنة ١٦٨٦م ، جعله الأغا حسن (شوربجى) فى الجونوليان [٦٣] Gönülüyan (أوجاق الجمليان) .

لقد ضاعت الفرصة من مصطفى القازدغلى ، الكخيا الإنكشارى للإشراف على أحد أوقاف الحرمين نتيجة مشروع إبراهيم بك ابن ذى الفقار رغم اشتراكه فى إزاحة الضباط القاسمية من كتائب الإنكشارية ، وعلى أية حال فقد أدت إزاحة الضباط إلى التعجيل بنضال الضباط الأعلى رتبة والأدنى رتبة بين مصطفى كخيا وكچك محمد ، وخسر الكخيا مصطفى توا ، فقد نفاه كچك محمد إلى الحجاز ، ولم يُسمح له بالعودة للقاهرة إلا فى سنة ١٦٩٤م [٦٤]، عندما نجح الأغا حسن بلفية فى حث إبراهيم بك ابن ذى الفقار على السماح له بالعودة ، وعند عودته أمر مصطفى الساخط أحد السكبانات Sekban (المرتزقة) فى طلخا باغتيال كچك محمد .

وانتهت مغازلة إبرهيم بك بن ذى الفقار بعد ذلك بفترة غير طويلة عندما تآمر مع الوالى فى محاولة قتل الزعيم القاسمى إبراهيم بك أبى شنب – سلفه فى إمارة الحاج ، وهناك عدة روايات عن اختباء أبى شنب خوفا من مثل هذه المؤامرة فى جناح حريمه ولم يظهر إلا بعد تعيين والٍ عثمانى جديد وتعيينه قائم مقام [٦٥] .

وقد مات بعد ذلك بفترة قصيرة فى طاعون ١٦٩٦م. كما حدث الشيء نفسه لإبراهيم بك بن ذى الفقار .

وعلى أثر موت إبراهيم بك بن ذى الفقار ، لم تختر مجموعة البلفية برنامجه الصارم فى تأييد الفقارية ، بل على العكس فقد رأى المنافسون إفساد العلاقة بين أتباع ابن ذى الفقار المتبقين وأنصار البلفية ، وعلى هذا اجتمع الأغا حسن بلفية ، وإسماعيل بك ، والكخيا مصطفى على خلع إسماعيل باشا (١٦٩٤ - ٧) لدعم أيوب Eyub بك عتيق ابن ذى الفقار ، ضد أحد أنصار إسماعيل بك [٦٦] ، وفى هذه الأثناء يركز الدمرداش على مواصلة الأغا حسن الاهتمام بالعلاقة الفاعلة مع القاسمية خاصة إبراهيم بك أبا شنب ، لقد طلب الأغا حسن - على سبيل المثال - من أبى شنب الاشتراك فى عزل إسماعيل باشا ، وبعد موت الأغا حسن فى سنة ١٧٠٤ ظهر زوج ابنته إسماعيل بك مشاركا فى السلطة مع أبى شنب [٦٧]، لقد ظهر حسن أغا مع أبى شنب كطرفين يوازنان القوى بين الفقارية والقاسمية ، وهو ما كانت الحكومة العثمانية نفسها تحث عليه ، وبدا هذا التعهد شائعا بين رؤساء الزمر فى أواخر القرن السابع عشر ، إلا أن مشروع إبراهيم بك بن ذى الفقار الخاص بالسيادة الفقارية هدد هذا التوازن فى القوى .

لكن بدعم من الباش أوده باشى كچك محمد ، راح ابن ذى الفقار أيضا يعمل على كبح قوة الضباط من ذوى الرتب العالية (الاختيارية) الذين كان الأغا حسن ممثلهم الأول، لقد أدرك ابن ذى الفقار تهديد البكريـــة فى صمود ضباط الأوجـــاقات (الفرق) ، بحلول القرن السابع عشر كان الضباط يتسللون إلى التزامات القرى المصرية [٦٨] ، وهى العملية التى لم يكن من الممكن تسهيلها إلا باحتكار الضباط الإشراف المحلى على أوقاف الحرمين ، وعندما حاول المسئولون العثمانيون الحصول على عوائد من الريف ، فإنهم كانوا يتجهون مباشرة إلى هؤلاء (الاختيارية) وأحيانا كانوا يفوضونهم ويعتبرونهم وكلاء لهم أو مندوبين عنهم Vekils ، وإذا ما حصل هؤلاء الضباط على التزامات استراتيجية فى القرى ، تحكموا فى تدفق الحبوب من قرى الصعيد المنتجة لهذه الحبوب ، ولم تكن أهمية هذه الحبوب ترجع - فقط - لكونها

عوائد تدفع عينا وإنما كانت أيضا تصدر فى موسم الحج للحجاز حيث يتم توزيعها على فقراء المدينتين المقدستين ، كما كان يتم مقايضتها بالبن (٦٩) ، إن الأهمية المالية والتجارية الهائلة لقرى صعيد مصر لم تكن لتضيعَ من ابن ذى الفقار عندما حاول أن يناور الاختيارية بمناورات أبرع من مناوراتهم ولم يكن الأغا حسن ليسمح بضياعها منه فهو الضابط صاحب الالتزام ، وهو فى الصدارة - فى هذا الميدان - بلا منازع .

ويستطيع المرء أن يقول - إذن - إن النقطة التى عندها كون الأغا حسن وابن ذى الفقار - شركة كانت هى النقطة التى يصنف فيها الولاء للفرقة Factional Loyality (فى هذه الحال للفقارية) ضمن (أو فى نطاق) الولاء للرتبة rank ،الولاء للبكلرية فى مقابل الولاء للضباط ، حقيقة إن التوتر بين الولاء للفرقة (الفقارية) Factional Loyality والولاء للرتبة بدا يدعم سياسات النخبة ويمدها بالوقود اللازم فى فترة متأخرة من القرن السابع عشر ، وعلىٰ أية حال فالعبقرية المميزة لزمرة البلفية كانت فى أنها لم تسمح لأى ولاء من الولاء ين أن يطغى على الآخر ، فمن ناحية أصر الأغا حسن على الاحتفاظ بنظام الفرقتين Two - Factian System (الفريق الفقارى والفريق القاسمى) ومن المفترض أن ذلك لصالح النظام ، ومن ناحية أخرى فإن زمرة الأغا حسن ربطت استراتيجيا بين الضباط والبكوات ، فكثير من البكوات كانوا هم أنفسهم ضباطاً سابقين وسمح لهم جميعا بالاشتراك فى التسابق للحصول على الالتزمات ، ويعد إسماعيل الدفتردار حالة من الحالات ؛ فقد كان أغا قبل زواجه من ابنة الأغا حسن ، وقام بدور الضابط الذى يتولى الالتزام (أى أنه كان ضابطا وصاحب التزام فى آن واحد) ، وكان مع اثنين من الكخياوات الإنكشارية - يعمل وكيلا Vekil للوالى العثمانى حسن باشا فى جمع العوائد من قرى الفيوم والغربية ، وأدى المهمة نفسها فى قريتين من قرى جرجا لرئيس مساعدى الرزنامجى Ruznameci (أمين سجل يوميات الخزانة) (٧٠) .

لقد كانت المنافسة بين زمرة البلفية وزمرة إبراهيم بك بن ذى الفقار - فى هذا الوقت منافسة بين نوعين من الزمر مختلفين اختلافا أساسيا ، فزمرة ابن ذى الفقار

وضعت نصب أعينها هدفا هو الزمرة نفسها ، وتشير الظواهر إلى تفضيلها السيادة البكلرية beylical Supreumacy ، أما مجموعة البلفية فعلى العكس فقد استسلمت للفكرة التقليدية عن توازن القوى بين الفريقين .

فرغم ثروتها ونفوذها وتأصلها فى ظاهرة الضابط المتولى الالتزام Officer / tax Farmer فإنها لم تتردد فى دمج البكوات فى الزمرة باسم النفعية (البرجماتية) ، وفى عقود لاحقة ستتبنى القازدغلية شكلا مغايرا لهذه الاستراتيجية النفعية (البرجاماتية) فى بناء الزمرة ، ولابد أن كچك محمد كان واحدا من البلفية الذين جمعوا بين مهام الضابط ومهام تولى الالتزام رغم أن سكبانه his Sekban فى طلخا – الذى حثه مصطفى كمال يقا – على قتل كچك محمد – هو دليلنا الوحيد على أن مصطفى كان له ممتلكات فى الريف ، والكخيا مصطفى هو إلى حد بعيد أكثر الشخصيات الثلاثة فى مجموعة البلفية غموضا ، لقد كان دائما موجودا فى الأحداث الخطرة – كعزل إسماعيل باشا – ومع هذا فمدى سلطته لم يكن محددا بوضوح كاف ، وتعطينا الحوليات انطباعا أن الأغا حسن وإسماعيل بك كانا أهم الثلاثة ، فعندما شغل قره محمد باشا (١٦٩٩ – ١٧٠٤ م) نفسه بملذاته ، ترك مهمة جمع العوائد ودفع الرواتب لإسماعيل بك الدفتردار والأغا حسن بلفية وليس للكخيا مصطفى بالتحديد (٧١) ، ومع هذا فإن عبد الكريم يشير إلى إسماعيل بك والكخيا مصطفى باعتبارهم رأس (زعيمى) الفقارية (٧٢)، ومن الواضح أن القصر الإمبراطورى فى إستانبول كان مدركا لشهرة مصطفى وأهميته ، وفى صياغة لأمر سلطان فى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٩ م يخاطب السلطان كل نبلاء مصر (ذوى الحيثية) لأداء الواجبات التى أناطها السلطان بهم – يفرد أغا الجمليان حسن " والاختيار مصطفى فى أوجاق المستحفظان " (وورد ذكر إسماعيل بك الدفتردار فى السياق بطبيعة الحال) (٧٣) ، ومثل هذه الصياغة غير معتادة إلى حد كبير ، فهؤلاء الأشخاص الذين أفردهم الأمر السلطانى هم الذين تعترف بهم الحكومة المركزية (فى إستانبول) كقوة تنفذ بها الأوامر .

وكان الكخيا مصطفى بلا شك يعتبر شخصا ذا نفوذ بسبب مكانته فى كتائب الإنكشارية ، فنحن نعلم أنه جمع ستمئة تابع على الأقل فى هذه الكتائب ، فالجبرتى يذكر أن الستمائة تابع للكخيا مصطفى القازدغلى قد انضموا إلى كتائب العزبان مع بداية الحرب الأهلية سنة ١٧١١ (٧٤)، وأكثر من هذا فعندما عُزل كجك محمد فإن الكخيا مصطفى ومن بطرفه his party حكموا الأوجاق بيد من حديد وأمعنوا تقتيلا ونفيا وطردا فى مناوئيهم (٧٥)، وأحد أفراد هذه المجموعة وهو الشوربجى مصطفى بن الحصرى زاد من القوة المالية للإنكشارية بنقل دار سك العملة من ديوان الوالى ، ليجعلها داخل بوابة الإنكشارية فى القلعة وأخذ على عاتقه وظيفة " أمين دار الضرب " (٧٦) ، ولابد أن هذه الاستراتيجية تمكن الإنكشارية من مواجهة تخفيض قيمة البارا para المصرية (العملة الفضية) وبذا يتم مواجهة تخفيض رواتبهم (٧٧) ، وبذلك كانت زمرة القازدغلية عند موت مؤسسها فى سنة ١٧٠٤م. قوة كثيرة العدد متينة الاقتصاد داخل أوجاق الإنكشارية .

زعماء القازدغلية بعد موت المؤسس :

أكانت زمرة القازدغلية برعاية الكخيا مصطفى خلال الفترة من منتصف القرن السابع عشر إلى فترة متأخرة منه – موجودة؟ هذه مسألة مختلف فيها ، فإذا كان مصطفى واحداً من بين العدد الكبير من العساكر الأناضوليين Kapikulu ، فهو إذن مجرد واحد بين عدد كبير من العساكر القادمين من منطقة كازداغى Kazdagi فى غرب الأناضول ، ومن المقبول أن تكون مجموعات من المهاجرين القازغلية قد تعاونت معا داخل المجتمع العسكرى المصرى فى نحو نهاية القرن السابع عشر ، لكن الكخيا مصطفى هذا برز عن رفاقه القازدغلية ونجح فى تكوين زمرة انتهى بها المطاف إلى التسيد على مصر ، وعلى النحو نفسه فإن كلا من هذه التجمعات كان يمكن أن تضم أناضوليين أخرين أو حتى غير أناضوليين ، هؤلاء التابعون (أو التوابع) القازدغلية الذين وردت الأماكن التى أتوا منها (أصولهم) فى سجلات رواتب ١٧٣٧ تشمل خمسة

أناضوليين من مناطق مختلفة ، بما فى ذلك لاظستان Lazistan بالإضافة إلى بوسنى وبغدادى ، وهذا البغدادى كان فيما مضى تابعا فى جيوش الولاء الذين يحكمون حكما ذاتيا فى بغداد ، لذا فربما كان مملوكا چورچيًا .

ومن المؤكد أن القازدغلية الأوائل – كما وصفوا أساسًا فى صفحات الدمرداش – كان ينقصهم التماسك الشديد الذى ظهر فى زمرتهم بعد ذلك ، وربما كانت هناك مجموعتان قازدغليتان منفصلتان أو حتى ثلاث ، وكانت شخصية الكخيا ناصح Nasuh أحد خصوم الباش أوضاباشى أفرنج أحمد (الثمانية) والذى أدى طرده من كتائب الانكشارية إلى اشتعال الحرب الأهلية فى سنة ١٧١١م، – كان هو نفسه على نحو خاص شخصية مبهمة ، والدمرادش والجبرتى يشريان إليه ونسباه إلى القازدغلية (الكخيا ناصف القازدغلى) بل ويزعم الجبرتى أنه ابن أخ الكخيا مصطفى [٧٨] ، ومع هذا ففى حولية الحلاق وكذلك فى مجموعة الوثائق المهمة mühimme يرد هذا الشخص باسم الكخيا ناصح Nasuh دون أى نسبة على الإطلاق ، وفى الحوليات والأوامر السلطانية على سواء لا يظهر ناصف مرتبطا بوضوح بزمرة قازدغلية أكبر فانما يظهر – فقط – مرتبطًا بقائدين آخرين مهمين من قادة التمرد هما الكخيا نجدلى حسن ، وكور Kör (تعنى الأعمى) عبد الله ، وهو جاويش ، ويفيد ارتباط ناصف بأحد الضباط الذين ترجع أصولهم إلى مدينة نجده (نغده) الواقعة وسط الأناضول إلى وجود عدد من العسكر الأناضوليين بين المتمردين ، أو على وجود ثلاثة على الأقل منهم يمكن تحديدهم كأناضوليين [٧٩] ، ومن الممكن أن يكون ناصف هذا مهاجرا من كازداغى أو من منطقة أخرى فى الأناضول ، لم يلتحق بزمرة القازدغلية أو على الأقل ابتعد بطريقة ما عن أن يكون من بين الأعضاء الفاعلين والمؤثرين فى الزمرة ، ورغم أنه لم يكن هناك نبيل قازدغلى آخر مرتبطًا بتمرد ناصف وأصدقائه ، فالحقيقة أن الستمائة عضو فى زمرة الكخيا مصطفى حذت أخيرا حذو المتمردين فى كتائب العزبان مما يشير إلى شىء من الروابط بين المتمردين والزمرة القازدغلية الرئيسية ، وقد تكون هذه الروابط فى جانب منها على الأقل عرقية (إثنية) ، ولكنها قد تكون أيضا ناتجة عن تضرر عام بسبب المساس بامتيازات الضباط ذوى الرتب العالية ،

وبمسار الترقية (الأوضاباشى – الشاقوس " الجاويش " – الكخيا) ذلك المسار الذى عمل أفرنج أحمد على تمزيقه وإخراجه مِن مساره ، ومسار الترقية هذا لعب دورا حاسما فى تطور القازدغلية بعد ذلك .

الجاويش حسن Çavuş :

بعد موت الكخيا مصطفى فى سنة ١٧٠٤ م. انقسمت المجموعة القازدغلية الرئيسية التى كان هو نفسه على رأسها إلى فرعين: فرع على رأسه تابعه الجاويش حسن ، وفرع على رأسه تابعه الجاويش سليمان ، أما سليمان فبدا ملتزما بالتقاليد التى تراعيها الجلفية أى القيام بدور الرفيق التابع أو الأضعف ، رغم أنه كان تحت رعاية (حماية) الجاويش إبراهيم الذى وجه الزمرة القازدغلية لتصل إلى ذرى غير مسبوقة ، وظل سليمان نفسه شخصية غير بارزة يلقى عليه الجاويش حسن بظلاله ويغطيه تماما ، وكان حسن بلا شك هو الأكبر سنا والضابط الأكثر خبرة ، وذكر الجبرتى أنه هو الذى رقى سليمان من شوربجى إلى أوضاباشى (أوده باشى) فى سنة ١١٢٨ أو ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م [٨٠] .

أما الجاويش حسن ، فلا نعلم عنه إلا القليل تماما كعلمنا عن الكخيا مصطفى ، وتشير سجلات المحكمة الشرعية التى فحصها أندريه رايموند إلى حسن باعتباره مملوكا لمصطفى ، وعلى أية حال فإن أيا من حوليات بدايات القرن الثامن عشر لا تشير إليه بهذه الصفة ، وربما كان هذا لأن كُتَّاب هذه الحوليات لم يكونوا متأكدين إن كان مملوكا أم لا [٨١] .

وعند موت الكخيا مصطفى فى سنة ١٧٠٤م. ارتدى حسن الدلامة "dolema" وفقا لما ذكره الدمرداش – وهى عباءة تدل على أن لابسها جاويش (شاقوس [٨٢] Çavuş) ، وكان قد أصبح باش جاويش bas Çuvuş بحلول عام ١٧١١ وكخيا فى سنة ١٧١٤ ، ومن الواضح أن (حسن) كان – ببساطة – غير قادر على بسط سيطرته على كتائب الإنكشارية التى كان يسودها الكخيا مصطفى ، لكنه – أى حسن – كان مضطرا للترقى فى الرتب ، وعلى أية حال فإن خط الترقية الذى سلكه كان هو الخط المعتاد : أوضاباشى Odabasi – شاقوس Çavus (جاويش) – كخيا ، وهو خط الترقية السائد

بين طبقة الكخياوات ، ويبدو أن حسنا قد مات بعد فترة وجيزة من ترقية إلى رتبة كخيا إذا كان لنا أن نأخذ برواية الجبرتى التى نفهم منها أنه فى سنة ١١٢٨ هـ / ١٧١٦ م شارك أتباع حسن شاقوس (جاويش) فى رياسة headship كتائب العزبان [٨٣] ومن المفترض كممثل للإنكشارية القازدغلية الذين انضموا إلى كتائب العزبان احتجاجًا على الأوده باشى أفرنج أحمد .

والحقيقة أن أهم عمل action للجاويش حسن كان هو التحاقه بهذا الانضمام (الارتداد) إلى العزبان فى محرم سنة ١١٢٢ هـ / مارس ١٧١٠م ، ويمكن اكتشاف دوره فى هذا التحول إلى كتائب العزبان بصعوبة من خلال الحوليات ، فأخبار النواب ، وعبد الكريم ، وأحمد جلبى (شلبى) ، والجبرتى ، كل هذه الحوليات تروى روايات مختلفة عن الموضوع ، أن الأتباع الستمئة للمتوفى الكخيا مصطفى يتبعهم خمسة عشر ضابطا إنكشاريا نقلوا ولاءهم لكتائب العزبان بعد أن اتفقوا على عدم إمكانهم تأييد أفرنج أحمد كباش أوضاباشى [٨٤] başodabaşi ، ومثل هذه الرواية تميز بين القازدغلية المتمردين (الساخطين) والضباط الإنكشارية المتمردين (الساخطين) ويمكن أن نعتبرها تعنى إما أن المدرجين ضمن زمرة القازدغلية كانوا يتحركون دون موافقة ضباطهم ، أو أن الزمرة القازدغلية فى هذه المرحلة لم تكن تضم عددا كبيرا من الضباط ، وعلى أية حال فالجبرتى [٨٥] يشير (بعد ذلك بفترة وجيزة) إلى ثلاثة كخياوات وعشرة شوربجية Carbaçis بين العسكر المرتدين defecting الذين نقلوا ولاءهم للعزبان مما يعنى أن القازدغلية كانوا بالفعل ممثلين تمثيلا جيدا بين رتب الضباط المختلفة فى سنة ١٧١٠ ، ويشرح كتاب " أخبار النواب " وحولية الجبرتى بالتفصيل أن الجاويش حسن Çavus ، وخشداشه الشوربجى سليمان ، وتابع هذا الأخير الشوربجى إبراهيم عند العودة من الحج فى صفر ١١٢٢هـ / أبريل ١٧١٠ ، انضموا إلى الخارجين exodus ، وفى وقت لاحق تجمعت قوة عزبانية لمواجهة قوات أفرنج أحمد التى تضم هؤلاء الإنكشارية الذين سبق أن انضموا إلى العزبان " مثل الأمير السابق الباش جاويش Bas Çayus حسن ، والأمير الجاويش حسن ، التابع القازدغلى والأمير الكخيا حسن شلبى وجماعة الجاويش محمد جدك [٨٦] .

إن الخارجين القازدغلية ؛ أى المنضمين إلى كتائب العزبان قد وضحوا عدة ملامح عامة للزمرة القازدغلية فى هذه المرحلة من تطورها ، ففى المقام الأول استمرار المعارضة الشديدة للقازدغلية للزمر الأوضاباشية الراديكالية كزمرتى كچك محمد وأفرنج أحمد ، وأكثر من هذا فبحلول عام ١٧١٠ كان للزمرة القازدغلية أعداد (أعضاء) كافية تمكنهم من إلحاق الضرر بكتائب الإنكشارية إذا تعرضت مصالح القازدغلية لأى تهديد ، ومن هنا فقد عرضوا (أظهروا أو أبدوا exhibited) تضامنا مع المرتدين الثمانية (المقصود : ارتدوا عن إنكشاريتهم وانضموا للعزبان) الذين بدا أنهم كانوا فى غالبهم ضباطا ساخطين ، وربما كانوا من الذين كان خط ترقيتهم يسير فى خط أوده باشى - جاويش - كخيا ، وهو الخط الذى اعتدى عليه (انتهكه) أفرنج أحمد ، وتؤكد رغبة الجاويش حسن فى الانحياز إلى مجموعة جدك Gedik group فى هذا الارتداد defection التزام Cammitment القازدغلية بالمبدأ العام وهو الحفاظ على امتيازات كبار الضباط ، فقد كان الكخياوات الذين سادوا كتائب الإنكشارية فى هذه الفترة من زمرة جدك Gedik household وهى الزمرة أو المجموعة التى كان يؤثرها الزعيم القاسمى إسماعيل بك من إيواظ Ivaz ، وعلى هذا فقد كان الجدك Gediks منافسين محتملين للقازدغلية ، وأكثر من هذا فلم تكن هناك رابطة سابقة من ولاء تربط الزمرتين ، ولكن الحفاظ على هيمنة الكخياوات على كتائب الإنكشارية وعلى خط الترقية من الأوده باشى حتى الكخيا - كان مسألة خطيرة أو محل انتقاد لترقى (صعود) القازدغلية فى الفرقة (الإنكشارية) ، لذلك اختار الجاويش حسن أن يأخذ جانب رفاقه الضباط ذوى الرتب العالية ، رغم موقفهم التنافسى منه .

وأخيراً دلت ظروف تحول الجاويش حسن القازدغلى إلى كتائب العزبان على الأهمية الشديدة لضباط الإنكشارية فى قافلة الحج ، لم يستطع الجاويش حسن القازدغلى الانضمام إلى حركة الارتداد (التحول إلى العزبان) فى بدايتها لأنه كان مع الشوربجى سليمان والشوربجى إبراهيم - بعيدا فى الحج (كان فى الديار المقدسة مع قافلة الحجاج) كان الجاويش حسن يتولى مهمة سيردار القطار Serdar al - qitar

(أى قائد مسيرة القافلة) أما سليمان فكان سردار الصرة (أى قائد القوة التى تقابل الحجاج عند عودتهم إلى مصر) أما إبراهيم فكان سردار الجداوى Jiddawi (أى الذى يشرف على القافلة عند توقفها فى ميناء جدة على البحر الأحمر) ، لقد تعزز دور الإنكشارية فى الحج وزادت قيمتهم منذ بواكير القرن الثامن عشر عندما تدهورت حالة الأمن فى طرق الحج بسبب زيادة هجمات البدو ، وأصبح سردار القطار على نحو خاص – منصبا بارزا فى هذه الأعوام وبدأ صاحب هذا المنصب يضارع بنفوذه أمير الحج [٨٧] amir al - hajj ، وبدأ الجاويش حسن وزميلاه (سليمان وإبراهيم) تقليدا قازدغليا مؤداه أن تدخُّل الزمرة القازدغلية فى أمور الحج يمكِّن الزمرة من بناء روابط مع الحجاز ، تلك الروابط التى كونها الكخيا مصطفى خلال خدمته هناك (فى الحجاز) ، فقد كانت الارتباطات الجيدة مع الحجاز غايةً فى الأهمية بالنسبة لتجارة البن فى البحر الأحمر ، تلك التجارة التى راحت كتائب الإنكشارية عموما – والقازدغلية خصوصا – تهيمن عليها فى القرن الثامن عشر [٨٨] .

وعلى هذا ، فمن بعض الأوجه ، تمثل مهمة الجاويش حسن القازدغلية تراجعا عن السلطة الدكتاتورية التى تكاد تكون كاملة والتى مارسها الكخيا مصطفى رعية الجاويش حسن (أى الذى كان يرعاه حسن Hasans's Patron Mustafa Kâhya) على كتائب الإنكشارية ، بل إنه مع أن القازدغلية ظلوا لفترة راضين عن دور التابع لضباط الجدك Gedik officers فقد احتفظوا بممارسات فعّالة بين جماعة (رتب) الكخياوات وبين سائر الرتب المؤدية إلى رتبة الكخيا ، أو بتعبير آخر التى تعتبر رتبة الكخيا هى آخر خط الترقية فيها ، ومن خلال هذا الخط من الترقيات سيستعيد القازدغلية مرة ثانية السيطرة على الفرق (الأوجاقات) ، وفى هذه الأثناء تمكنت الزمرة القازدغلية فى ظل الجاويش حسن من السيطرة على إدارة قافلة الحج ، وبدت سيطرتهم سيطرة شخصية أكثر من كونها مؤسسية ، مادامت المناصب الثلاثة الرئيسية فى قافلة الحج كان يشغلها القازدغلية فى وقت من الأوقات التى كانت فيها الزمرة لا تُحكِم قبضتها على الرتب (المناصب) العليا فى كتائب الإنكشارية ، إن ارتباط القازدغلية بالحج

وبتجارة البن سيثبتان مركز القازدغلية عندما تحركت أخيرا للسيطرة على الأوجاق (الفرقة الإنكشارية) ، والخلاصة أن أعوام إدارة الجاويش حسن كانت هى أعوام التمهيد لغلبة هيمنة الزمرة فى كتائب الإنكشارية .

الجاويش عثمان :

بعد موت الكخيا حسن فى حوالى سنة ١٧١٦م تولى تابعه his client الجاويش عثمان إدارة الزمرة القازدغلية ، وهو - مثل الجاويش حسن تشير إليه وثائق المحكمة الشرعية على أنه مملوك لراعيه his patron ، وعلى أية حال فإن الحوليات التاريخية ووثائق الدفاتر المهمة mühimme لم تحدّد هذا أو بتعبير آخر لم تذكر أنه مملوك ، وفى ظل وصاية الجاويش عثمان فرضت القازدغلية نفسها كزمرة إنكشارية متفوقة ، واتبعت الاتجاه العام الذى ساد بين الإنكشارية وهو منافسة البكلرية فى السيطرة على الالتزامات الريفية المربحة ، وقد مارس الجاويش عثمان مثل هذه السلطة (تولى الالتزام) من خلال سلسلة من التحول فى الولاءات كانت - أى هذه السلسلة من التحولات - ذات طابع انتهازى .

لقد صعد نجم الجاويش عثمان فى سياق إهمال الانقسام الفقارى القاسمى (أى بعد أن أصبح الانقسام الفقارى القاسمى على وشك الزوال) ذلك الانقسام الذى هيمن على الكوادر العسكرية فى مصر حوالى قرن من الزمان ، فبموت الزعيمين القاسميين إيواظ بك فى سنة ١٧١١م. وإبراهيم بك أبى شنب فى سنة ١٧١٨م. انقسم الفريق القاسمى Faction على نفسه ، فابن إيواظ إسماعيل بك الشاب المتحمس مثير الفتن والقلاقل ركب موجة المنافسة التى طال أمدها مع المملوك الشركسى لأبى شنب ، ونعنى به محمد بك شركس ، وفى هذه الأثناء حاول البيكان أن يتفوقا فى نفوذهما على خليفة (أوريث) الزمرة الفقارية (زمرة ذى الفقار بك) تابع client الزمرة البلفية Bilifya وخوفًا من هذا التهديد لتوازن القوى التقليدى أصدرت السلطات العثمانية فيضًا من القرارات المفاجئة القاضية بتقسيم المناصب المهمة بين الفقارية والقاسمية (٨٩) ، ووسط

هذا الاضطراب العظيم ، راحت القوة المتنامية لضباط الأوجاقات (الفرق) تضغط ضد طبقة البكوات التى كانت حتى الآن تسطير على الفريقين (القاسمية والفقارية) ، ويشهد سجل الالتزام (مقاطعة دفترى muqàtaa defteri) الخاص بسنة ١١٣٤ - ١١٣٥هـ / ١٧٢١ - ١٧٢٣ م [٩٠] على أن الضباط العسكريين كانوا يحصلون على التزامات القرى بعدد يكفى لأن يجعلهم يتحدون هيمنة البكوات والكشّاف فى الريف ، وكان الجاويش عثمان القازدغلى فى طليعة هذا التحدى الأوجاقى (فى طليعة العسكريين الذين تحدوا نفوذ البكوات والكشاف) .

لقد أتاح الصراع بين محمد بك شركس وذى الفقار بك فى أواخر سنى العشرين من القرن الثامن عشر (١٧٢٠ -) الفرصة للجاويش عثمان بك ليفرض نفسه كقوة مستقلة ، ففى فبراير سنة ١٧٢٦م. انضم عثمان لقوة من ١٥٠٠ مقاتل من كل أوجاقات (فرق) مصر السبعة تقدمت ضد محمد شركس ودعما لذى الفقار بك [٩١]، ومن الناحية الظاهرية كان هذا الصراع بمثابة مواجهة تقليدية بين الفرقة الفقارية بزعامة ذى الفقار بك وبقايا القاسمية بزعامة شركس محمد ، ومع أن الجاويش عثمان أضعف العداوة بين البكوات من الفريقين (القاسمى والفقارى) بإظهاره إيماءات توفيقية نحو جماعة Party شركس محمد ، وباختصار فإنه بعد المعركة التى هزم فيها شركس محمد هزيمة منكرة منع الجاويش عثمان إعدام عدد من مؤيدى شركس محمد ، أما الأقرباء (أبناء الجلدة) الذين أحضرهم شركس محمد من ديار الكُفر (المقصود من بلاد الشركس) [٩٢] والذين تركهم فى القاهرة عندما هرب فقد أُجْبِروا على الإقامة فى ضياعهم فى الريف ، وفى هذه الأثناء لم يلق ضباط الإنكشارية الثلاثة الذين تحالفوا مع شركس من العقاب سوى التحفظ عليهم فى منازلهم [٩٣] ، وقد أسخطت مكيدة الجاويش عثمان ذى الفقار بك الذى اتهم الجاويش عثمان بخداعه فى ولائه الفقارى ورجباره على نفى الضباط إلى الحجاز [٩٤] ، لكن هذه العروض للشركس التى تم تقديمها بكرم للزمرة القازدغلية . لواحد من المؤيدين الإنكشارية المؤثرين - الشركس ونعنى به الجاويش محمد الدودلى al-Daudli الذى وافق على تعيين الجاويش عثمان كوكيل agent على أراضى الدودلى Dawdli ، وفى هذه الحال اختار الجاويش عثمان الولاءات الأوجاقية (العسكرية) وفضلها على الولاءات للفرق

القاسمية والفقارية Factional Layality وقد استفاد من هذا الاختيار(٩٥) ، والحقيقة أن حماية " رعاية Patranaga الجاويش عثمان للدودلية daudlis تدل على الرغبة فى تدمير الزعامة البكرية للفريق Faction الفقارى باختيار زمرات إنكشارية - سواء أكانت فقارية أم قاسمية ممن تخدم مصالحه ، وعلى هذا فقد دعم نفسه ضد ذى الفقار بك بمد سيطرته على كتائب الإنكشارية .

وفى سنة ١٧٢٩م. أصبح الجاويش عثمان قابضا على زمام كتائب الإنكشارية (٩٦) ، فرغم أنه كان لايزال جاويشا فقد مارس مهام منصب الكخيا ، وراح يرقى الكوادر ويعزلها وفقا لما تمليه الاعتبارات العملية ، لقد رقى عثمان نفسه إلى رتبة كخيا فى العام التالي ، فانقض بقسوة على الزمر الإنكشارية التى لم يقع عليها اختياره لتكون ضمن أتباعه ، وأبطل زمرة hokusehold جدك Gexik وقتل اثنين من المجموعة الشريفية Serifian group الواعدة أى التى كان يتوقع لها الازدهار (٩٧) ، وتحصن وراء سلطانه فحكم الأوجاق regiment بالرعب والضرب ، وبنفى وإبعاد أولئك الذين اعتبرهم غير جديرين بالبقاء (٩٨) .

لقد أقام الجاويش عثمان أُسس سلطانه فى الفترة التى كان فيها فى رتبة جاويش مثله فى ذلك مثل راعيه الجاويش حسن ، وعلى أية حال فقد بدا مستثمرا لهذه الرتبة بطريقة أكثر نجاحًا وبسلطان أكثر مما كان على أيام الجاويش حسن ، فقد أحكم وهو لايزال جاويشا- قبضته على الأوجاق (الفرقة) بطريقة لم يسبق لها مثيل منذ أيام الكخيا مصطفى ، وشارك عثمان أيضا فى الرياسة وهو لا يزال جاويشا بطريقة غير معتادة بالنسبة لجاويش (٩٩) ، وأكثر من هذا فقد كان على عكس حسن غير مضطر للانحياز لإحدى القوى المتنافسة مثل زمرة الجدك Gediks ولكنه ببساطة تخلص منها .

لقد حافظ عثمان ، بل وقوى الارتباطات بقافلة الحج تلك الارتباطات التى وضع أسسها جيل سابق من القازدغلية ، فقد عين لجدة منذ سنة ١٧٢٤م ، وهو منصب (رتبة) يعنى ضابطًا يقابل الحجاج القادمين من مصر عندما يصلون إلى هذا الميناء (جدة) وقد أدى مهامه بكفاءة ؛ إذ أطعم حامية القافلة كما أطعم فقراء مكة فى وقت المجاعة ، وقد امتدحه أحمد شلبى (جلبى) لهذا (١٠٠) ، ففى ظل الجاويش عثمان

أصبح دور القازدغلية فى الحج مرتبطا ارتباطا أكثر وضوحا بتجارة البن فى البحر الأحمر، فقائمة ممتلكات عثمان التى عثر عليها فى سجلات المحكمة الشرعية بالقاهرة تضم مخزنا للبن فى جدة بالإضافة لامتلاكه عدة سفن تمارس نشاطها فى البحر الأحمر [١٠١] ، لقد وثق الجاويش عثمان روابطه مع عشيرة الشرايبى Sharaybi وهى عشيرة من تجار البن والبهار ، احتكرت مع مطلع القرن الثامن عشر منصب الشاه بندر (الشهبندر) Shah bandar ومعناه الحرفى سيد الميناء Lord of the port ورياسة التجار المنخرطين فى التجارة الخارجية overseas(تجارة ما وراء البحار) ، يذكر أحمد شلبى (جلبى) لقد شعر عثمان بولاء كبير للشهبندر قاسم شلبى الشرايبى حتى أنه (أى عثمان) سار فى جنازته من الأزهر حتى القبر [١٠٢] " .

لقد كانت سيطرة الجاويش عثمان – فى معظم الحالات – على كتائب الإنكشارية وتجارة البن – وليس مجرد وصوله لرتبة كخيا – هما اللذان أتاحا له مصادرة عقارات الانكشارية والتجار المنخرطين فى تجارة ما وراء البحار الذين ماتوا بلا وريث خلال طاعون يناير ١٧٣٦ م، ويعطينا الجبرتى انطباعا أن هذه العقارات المصادَرة أساسُ ثروة عثمان [١٠٣] ، ويبدو أن فى هذا القول مبالغة لأن الطاعون لم يحدث إلا فى أواخر حياة عثمان ، فكل ما فى الأمر أن ثروته زادت ، لقد أدى منصب الكخيا بالإضافة إلى النشاط التجارى الذكى طوال عدة سنوات إلى تمكين عثمان من بناء زمرة household ذات تأثير قوى ، ويبدو أن قوائم أتباع عثمان فى المصار الأرشيفية قد قللت من حجم زمرته (مثلتها تمثيلا أقل مما هى عليه فى الواقع) ، ففى سجلات رواتب ١٧٣٧ – ١٧٣٨م. لا نجد إلا سبعة أتباع له بمن فى ذلك واحد وصف بأنه مملوك [١٠٤] ففى هذه الأثناء كانت قائمة ممتلكات عثمان تضم ثلاثة كُشَّاف كان أحدهم كخيا سابق ، وآخر جاويش ، وثلاثة أوضاباشيين، وواحد شوربجى، وواحد خصى حريم [١٠٥] palace eu-nuch ، لقد كان إجمالى قوة زمرته على أية حال أكبر بكثير مما تشير إليه أى من هذه القوائم ويخبرنا أحمد شلبى (جلبى) أن طاعون سنة ١٧٣٦م، قضى على أربعة وخمسين فردا من زمرة household الكخيا عثمان [١٠٦] ، وقد استخدم أحمد شلبى كلمة بيت ليضيف مجموعة group عثمان مما يشير إلى أن حاشيته كانت تكون أسرة

متماسكة مع إلحاق كامل للنساء والأطفال والخدم ، ولم يكن المقصود ببساطة مجرد تجمع للأنصار داخل الأوجاق .

ولا شك أنه كان لهذه الزمرة مقار (جمع مقر) فى منزل (محل إقامة resi-dence) الكخيا عثمان فى حى الأزبكية الأنيق (الواقع إلى الغرب) أكثر من أن تكون مقارهم فى الثكنات فى بوابة الإنكشارية بالقلعة ، وكان مثل هذا المقر (المنزل) الكائن فى وسط مقار (منازل) النخبة أحد أهم علامات (دلائل) قوة النبيل power of a grandee وأكثر من هذا فمقر الكخيا عثمان هو أول مقر (منزل) قازدغلى واضح المعالم يمكن أن نسوق البراهين على وجوده ، فبينما كان بناء – أو شراء – مثل هذا المنزل من بين وسائل الجاويش ، فإن رتبة الكخيا كانت تنطوى على الرواتب والتعويضات الكبيرة الفخمة للتفويض فى إقامة المنشآت العامة الفخمة المعروفة بالمآثر Feats ؛ أى الأعمال الفذة ، وكانت مآثر عثمان كثيرة وجليلة : لقد أقام مسجداً بالقرب من الأزبكية ألحق به كُتابا (مدرسة لتحفيظ القرآن) ، وسبيل ماء للشرب ، وحماماً ، وأشغال رى ، كما أقام زاوية للصوفية وللعميان بالقرب من الأزهر ، وأجرى تحسينات عديدة فى أروقة الأزهر ومساكنه الداخلية [١٠٧] ، وكان ناظر Superintendent الأوقاف الذى أوكلت به صيانة هذه المنشآت هو الجاويش سليمان الذى كان تحت حمايته his Protégé – أى تحت حماية عثمان (الشخص الموضوع تحت حماية أو رعاية شخص آخر يقال له بالتركية العثمانية : شيراك Çirak) ، وكان سليمان هو خادمه his Çuhadar ووكيله vekil ووريثه ، وأخيرا تولى سليمان رعاية الثروة القازدغلية عند اغتيال الكخيا عثمان فى سنة ١٧٣٦م .

إذن ، لقد اتخذت المجموعة القازدغلية فى ظل الجاويش عثمان شكلاً كزمرة واضحة المعالم مترابطة ومتسقة ، حقيقة إن أول إشارة للقازدغلية كمجموعة group متماسكة وردت فى رواية الجبرتى عن الصراع بين ذى الفقار بك وشركس محمد بك ، عندما سأل ذو الفقار الجاويش عثمان أنه إذا لم يكن فقاريا فهو إذن لم يكن قازدغليا ، وأعاد عثمان السيطرة القازدغلية على أوجاق الإنكشارية ؛ تلك السيطرة التى كان سلفه الكخيا مصطفى قد حققها ، بل إن إنجازات عثمان فاقت بقدر ملحوظ ما أنجزه

الكخيا مصطفى ؛ لقد جعل الجاويش عثمان الزمرة القازدغلية مركز قوة مستقلا تمام الاستقلال ، رغم استمرار خداعه لذى الفـقار ، فلم تعـد الزمرة القازدغليـة ملحقة أو تابعة لأى تجمع فقارى قوى كالمجموعة البلفية ، بل لقد أصبحت القازدغلية مؤثرة فى غيرها من المجموعات ، والحقيقة أن البلفية كانت قد فقدت عزتها رغم احتفاظها بمجموعة مؤتلفة من ضباط الأوجاقات والبكوات ورغم تحالفها مع القازدغلية ، ومن هنا أصبحت البلفية تلعب دور المؤيد - إن لم يكن التابع - للزمرة القازدغلية .

وكانت الزمرة القازدغلية فى ظل الجاويش عثمان قد أظهرت من جانبها استعدادا لأن تحذو حذو البلفية بمحاولتها غزو صفوف حكام الجهات والإيالات الصغيرة ، والحقيقة التى مؤداها أن حاشية عثمان تضم ثلاثة كشافين - كما ورد فى سجل عقاراته - حقيقة مهمة وحاسمة لمستقبل الزمرة ؛ لأنها تشير لإرادة جديدة تتحرك فيما هو أبعد من كتائب الإنكشارية طلبا لمزيد من العوائد المالية والنفوذ ، حتى وهى تحكم قبضتها على الأوجاق (الفرقة الإنكشارية) ، وسيكون هذا هو الاتجاه القازدغلى الناجح الذى ستتبعه الزمرة طوال عقدين قادمين . فبينما ستبقى كتائب الإنكشارية قاعدة قوة الزمرة فستبدأ فى السطو على منصب الكاشف ، وأخيرا سيكون منها البكوات .

الجاويش سليمان :

قتل الكخيا عثمان فى مذبحة كان مسرحها بيت الدفتردار فى سنة ١٧٣٦م ، وهو الحدث الذى ورد فى مجموعة الوثائق المهمة" mühimme موصوفة بأنها حادث عنف (واقتى شور أنجيز shür Angiz) ، ويبدو أن الحادث كان مشروعا نمطيا دبره الوالى العثمانى لتقليص عدد القابضين المشاركين على زمام الرياسة ، والاستيلاء على عوائدهم [١٠٨] ، لقد حاول المهاجمون اغتيال ثلاثة عشر نبيلا ممن يكونون زعامة البكرية وزعامة كل الأوجاقات العسكرية السبعة ، ولم ينج من هذه المذبحة إلا ثلاثة ، وكانت نجاتهم فى ظروف تدعو للريبة [١٠٩] .

لقد كان الجاويش سليمان إلى جانب راعيه (الكخيا عثمان) عند قتله فى بيت الدفتردار ، وقد عانى صدمة شديدة غدا واهنا ضعيفا وأصيب بالتهاب فى القصبة الهوائية وهو المرض الذى أدى أخيرا لموته (١١٠) ، وتلقى سليمان أمـرًا إمبراطوريـا (فرمانًا) يخوله استلام عوائد أرض الكخيا عثمان التى عليه أن يقسم جزءا منها بين رعية Çiraks عثمان الآخرين والورثة ، وعلى أية حال فهو قد تجاهل هذا الشرط وحرم الجاويش عبد الرحمن القازدغلى بن الكخيا حسن بن الحامى المتوفى للكخيا عثمان والذى كان عثمان يرعاه وسمح سليمان لعبد الرحمن هذا بالاحتفاظ - فقط - بالفائض من عوائد أرض عثمان والتى بلغت أربعة صُرر purses ، ولما لم يجد عبد الرحمن دعمًا من كتائب الانكشارية راح يبحث عن ملاذٍ له فى أوجاق العزبان فقبله الكخيا الجلفى الذى سيطر على هذا الأوجاق (العزبان) بعد اغتيال الكخيا يوسف البِركاوى فى واقعة عنف (حادث عنف = شور أنجيز Shur- Angiz) (١١١) وبهذا كان عبد الرحمن أول قازدغلى منذ الكخيا عبد الله يتحالف مع الجلفية وهو يبدو تحالفا طبيعيا قازدغلى حرم حقه .

وكان الجاويش سليمان القازدغلى - كما تشير كل الظواهر - قد بدأ بناء زمرة قبل مقتل الكخيا عثمان ، وقبل أن يترقى هو نفسه من جاويش إلى كخيا فى سنة ١٧٣٩ . ويورد سجل الدفع (الرواتب) الخاص بعام ١٧٣٧ / ١٧٣٨م. سبعة أتباع للجاويش سليمان : واحد مملوك ، وأربعة غير مماليك ، واثنين من الأعوان (الأتباع) لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر (١١٢) ورغم هذه الأعداد الصغيرة فإن تعويل سليمان على العناصر غير المملوكية محل خلاف ، فواحد من هذه العناصر غير المملوكية من الأشراف (سلالة النبى) تعود أصوله إلى آسيا الوسطى هو الشريف سليمان قرامنلى Karamanli ، ولأن سليمان لم يُرَقَّ إلى رتبة كخيا إلا قبل موته بشهور فقد كان يعوزه المال الكافى للقيام بمشروعات كبيرة ، وعلى أية حال فقد أسس قصرا فى بولاق كملحق لمقر إقامته فى الحى اليهودى القديم بالقرب من باب زويلة (١١٣) ، واختياره هذا المكان كمحل لإقامته هو فى حد ذاته مدعاة للعجب إذا أخذ المرء فى اعتباره أنه كان فى إمكانه - ببساطة - أن يشغل قصر الكخيا عثمان فى الأزبكية ، لقد كان المركز

التجارى بالقرب من باب زويلة هو مقر الأغا حسن بلفية [١١٤] ، وباختيار سليمان القازدغلى هذا المكان كمقر إقامة له إنما يمركز نفسه فى الحى التجارى الصاخب حيث يتم تفريغ شحنات الأقمشة والبن وخزنها ، ولاشك أن قربه من هذه العمليات ما هو إلا نتيجة التزاماته باعتباره كان وكيلا للكخيا عثمان أثناء حياته ، فقد كان سليمان باعتباره وكيلا لعثمان موكولاً به الإشراف على العمليات التجارية لراعيه (عثمان) بما فى ذلك كل ما يتعلق بأمور تجارة البن المهمة وعمليات تزويد قافلة الحج بالمؤن .

وبعد أن أصبح تكوين الزمرة القازدغلية ، فإن سليمان (الذى أصبح الآن كخيا) عُيِّن " سردار قطار الحج " فى سنة ١٧٣٩م. وكان منصبه هذا ينطوى على مسئوليته عن توزيع مقادير كبيرة من الأموال والبضائع بين القاهرة ومكة ، وتوحى قوائم ممتلكاته أنه غدا مدينا بسبب تمويل قوافل الحج ؛ إذ كان مدينا لشريف مكة ولضباط الأوجاقات ولأفراد آخرين من القازدغلية بالإضافة إلى ديون لتجار الأقمشة بسبب ما أخذه منهم من أثواب لتوزيعها على عدد من زعماء البدو على طول طريق الحج [١١٥] ، وأكثر من هذا ففحص سجل ممتلكاته يثبت أن سليمانا قد حافظ بالفعل على الارتباطات التجارية التى أقامها الكخيا عثمان مع الحجاز وتجارة البن فى البحر الأحمر ، ويشير السجل إلى أنه كان من بين ممتلكات سليمان خمسة عشر قاربا نيليا كان يستخدمها لنقل البضائع إلى السويس كما كان شريكا بالنصف فى إحدى سفن البحر الأحمر كانت بلا شك تعمل فى نقل الحبوب إلى الحجاز ومبادلتها بالبن [١١٦] ، لقد كان على وكلائه المتمركزين على طول طريق الحج أن يمولوا محطات توقف القوافل ، ومن المفترض أنهم كانوا يقومون بالممارسات العامة التى يقوم بها الوكلاء للإشراف على صفقات سليمان التجارية خلال موسم الحج وعلى أية حال فقد أدى مرض سليمان إلى إحباط اعترى هذه المضاربات التجارية الفخمة ، فقد استسلم للمرض بينما كان معسكراً فى بركة الحج منتظراً التهيؤ للمسير .

إنه يبدو أن الكخيا سليمان كان بالفعل أكثر التصاقا بالصفقات التجارية اليومية التى كانت الزمرة القازدغلية تعوِّل عليها من حامية (الكخيا عثمان) ، كما يتضح من اختياره لمحل إقامته وكثرة أنشطته التجارية ، وكان له اليد الطولى فى ازدياد ثروة

الكخيا عثمان ، وبعد مصرع عثمان واصل سليمان منافسته المكشوفة إلا من حجاب رقيق مع زمرة ذى الفقار بك التى يرأسها الآن عثمان بك مملوك ذى الفقار الذى احتكر منصب قائد الحج Commander ، لقد أصبحت المنافسة بينهما راسخة وواضحة بل ومريرة ، وقد لاحظ الدمرداش أن الموكب الذى انطلق فيه الكخيا سليمان فى حج سنة ١٧٣٩م ، كان يفوق موكب قائد الحجاج (أمير الحاج) بهاء ، وهو أمر يرمز لتحديه سلطة عثمان بك فى قيادته قافلة الحج (١١٧) .

الكخيا عبد الله :

لقد أدى مقتل الكخيا عثمان غير المتوقع إلى وقوع بعض الفوضى فى الزمرة القازدغلية ، وتزداد هذه الفوضى والاضطرابات خطورة إذا علمنا أن الزمرة فى ظل الكخيا عثمان كانت قد بلغت شأواً غير مسبوق فى الثروة والنفوذ ، وكان سليمان مسئولا بعض الشىء عن هذه الثروة وهذا النفوذ ، وبالتالى فقد اعتبر نفسه عضو الزمرة الأعلى سلطة إذا وضعنا فى اعتبارنا اغتصابه لعقارات الكخيا عثمان ، ورفض سليمان مشاركة الزمرة فى القيادة ربما كان هو ما دفع الآخرين من أتباع الكخيا عثمان للبحث عن تحالفات مع أعداء سليمان الظاهرين خاصة زمرة ذى الفقار بك .

وربما كان أكثر النماذج حيوية على الانفلات من صفوف القازدغلية إثر موت الكخيا عثمان هو حالة الكخيا عبد الله ، لم يكن من المؤكد أن الكخيا عبد الله كان تابعا للكخيا عثمان ؛ فهو لم يوصف بهذه الصفة سواء فى الحوليات أم فى المصادر الأرشيفية ، وعلى أية حال فثمة دليل على أنه – على الأقل – كان يتردد على الكخيا عثمان ، وكان بين الحين والحين فى الدائرة المحيطة به ، ويذكر الدمرداش أن الكخيا عثمان رقى عبد الله من رتبة جاويش çavus إلى كخيا الوقت فى كتائب الإنكشارية فى سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٦م (١١٨) قبيل اغتياله (أى اغتيال الكخيا عثمان) ورغم أن الكخيا عبد الله لم يظهر اسمه فى سجل الدفع إلا أن شخصا باسم الكخيا عبد الله(١١٩) ورد ضمن المماليك المعتقين فى سجل ممتلكات الكخيا عثمان ونلقى الكخيا عبد الله القازدغلى فى أواخر الثلاثينيات من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ – ١٧٣٩) عندما

انحاز وهو فى منصب "كخيا الوقت" لعثمان بك ذى الفقار والكخيا على الجلفي ، ومثل هذا التصرف يبدو وكأنه قد جعله منعزلا عن كل من حاميه الظاهرى الكخيا عثمان من ناحية والجاويش إبراهيم الزعيم الصاعد لفرع آخر كبير من فروع القازدغلية ، إن حالة عبد الله تؤكد حالة الفوضى التى اعترت الفقارية (الفريق الفقارى) فى الأعوام التى تلت سنة ١٧٣٠م. إذ أثارت القازدغلية ضد بيت ذى الفقار ، وعلى أية حال فإن حالته بالإضافة لهذا توضح كيف أن موت الكخيا عثمان قد أفسد نظام القازدغلية النقار Pecking إن الفقد المفاجئ لمثل هذا الزعيم القوى ترك شيئا من فراغ السلطة مما شجع كلا من الجاويش إبراهيم من ناحية الكخيا سليمان الخليفة الذى اختاره عثمان من ناحية أخرى على محاولة احتكار زعامة الزمرة ، ولما وجد الكخيا عبد الله أنه محاصر بين الكخيا سليمان والجاويش إبراهيم راح يبحث عن وسيلة يعزز بها مركزه ضد كليهما فولى وجهه شطر منافسهما عثمان بك ذى الفقار .

وتشير الأدلة إلى أن محاولة الكخيا عبد الله لتوكيد ذاته قد تكون منطوية على القيام بدور على حساب الكخيا عثمان (ضده) ،لكن مقتل عثمان فى واقعة العنف الآنف ذكرها جعلت الرياسة تنتقل إلى الكخيا عبد الله بالإضافة إلى عثمان بك ذى الفقار ، والكخيا على الجلفى وإبراهيم بك قطامش ، والأكثر مدعاة للريبة أن الكخيا عبد الله والكخيا على الجلفى رفضا حضور الاجتماع المشئوم الفاجع فى منزل الدفتردار ، لسبب غير مفهوم ، وفى المقابل نجد أن نجاة عثمان بك ذى الفقار بشكل إعجازى من هذه المذبحة يبدو أمراً مدبراً [١٢٠] وعلى أية حال فقد نتجت حادثة العنف (واقعتى شورانجيز Shürangiz) عن الارتباك المعقد فى الدوافع والحركات من جانب الزمر الفقارية الوارثة وبقايا القاسمية [١٢١] ، على هذا فمن المخاطرة أن نفترض أن الكخيا عبد الله القازدغلى والكخيا على الجلفى وعثمان بك ذا الفقار قد تآمروا – ببساطة – مع الوالى العثمانى مصطفى باشا للتخلص من القابضين على زمام الرياسة وبالتالى يحصلون على ثرواتهم ، حقيقة إن الوالى – كما رأينا – حاول فى وقت لاحق القيام بهجوم أقل درامية على المشاركين الجدد فى الرياسة .

وإذا كانت علاقة الكخيا عبد الله بالكخيا عثمان القازدغلى علاقة متأرجحة يعوزها الاستقرار فإن علاقته بالجاويش إبراهيم القازدغلى الذى ظهر كزعيم زمرة عقب موت الكخيا سليمان كانت علاقة عداوة صريحة ، وليس من سبب يوضح هذه العداوة أكثر من تحالف عبد الله تحالفا وثيقا مع عدو إبراهيم اللدود عثمان بك ذى الفقار ، ففيما يتعلق بالنزاع حول حيازة الأرض الذى تعرضنا له آنفا وقف الكخيا عبد الله صامدا بجانب عثمان بك ، وفى المواجهة الحاسمة حول فرشوط (فى جرجا) بدا عبد الله على أية حال وقد تلقى على الأقل طعنة عند عقد السلام ؛ إذ ذكر الدمرداش أنه كان قد دخل بين عثمان بك والجاويش إبراهيم (١٢٢) وعندما باءت جهوده بالفشل ظل – أى الكخيا عبد الله – مواليا لعثمان بك ، محذرا إياه من أن الجاويش إبراهيم ينوى إعداد كمين له (ينوى مهاجمته) ، وساعد هذا عثمان الحذر على الفرار إلى إستانبول حيث كافح ليكسب لنفسه الحظوة لدى الحكومة المركزية .

وعلى أية حال فإن عثمان بك قبل أن يغادر مصر اتخذ خطوة مهمة بأن نصح الكخيا عبد الله أن يعود لمعسكر الجاويش إبراهيم على أساس أن " كليكما قازدغلي ، فلا يجب أن يقطع أحدكما نفسه من الآخر " (١٢٣) فعثمان بك يبدو معترفا بالتضامن القازدغلى الذى لم يكن الجاويش إبراهيم نفسه معترفا به ، لقد كان الكخيا عبد الله بالنسبة لإبراهيم وكذلك بالنسبة للحكومة العثمانية متمردا كعثمان بك (١٢٤) ، ورغم أن إبراهيم نعم بكرم عبد الله إلا أنه (أى إبراهيم) سرعان ما استصدر أمرًا إمبراطوريا (فرمانا) بنفيه إلى دمياط ، وهرب عبد الله قاصدا دمشق إلا أنه مات فى يافا (١٢٥) ، فصادرت الخزانة العثمانية أملاكه .

لقد كانت المواجهة بين الكخيا عبد الله والجاويش إبراهيم تمثل أزمة داخل الزمرة القازدغلية على نطاق واسع ، ويمكن قراءة هذه الأزمة بطريقتين : بالعمل على المدى البعيد بعد تولى الكخيا عثمان أو بمعنى أوسع كمكاشفة نهائية (حسم نهائى) فى الصراع على تولى زعامة الفقارية Faqari faction ، وفى الحالة الأخرى لعب بيت ذى الفقار دوره المعتاد كسيف للقازدغلية ، ففى الأعوام التى تلت الهزيمة للقاسمية Qasimi-Faction ومقتل الكخيا عثمان القازدغلى – على أية حال – قد وصلوا إلى نقطة أصبح

فيها من غير الممكن استمرار العلاقات المتوترة مع زمرة الفقارية ، فقد كان على هذا النبيل إما أن يكون مع عثمان بك ذى الفقار أو ضده ، وعند اختيار الجانب الذى ينحازون له ، انشقت القازدغلية ، ورغم هذا كان من الملاحظ أنه أثناء صراع القازدغلية ضد عثمان بك ذى الفقار أو صراعهم إلى جانبه ، فقد ظلت فكرة التضامن القازدغلى بينهم كما لو كانت الزمرة لابد أن تكون - بحق - مجموعة واحدة ، هذا التضامن الظاهرى مدين كثيرا للتضامن المؤسسى لأوجاق الإنكشارية الذى تطورت فيه الزمرة القازدغلية (١٢٦) ، لكن هذا التضامن لم يمنع - فى التحليل النهائى - الكخيا عبد الله أو الجاويش إبراهيم من التحول ضد الفرع المنافس للزمرة ، فعند هزيمة الكخيا عبد الله وعثمان بك ذى الفقار كسب الجاويش إبراهيم وفرعه السيطرة على الزمرة وحسموا مسألة الخلافة الفقارية (مسألة من يتولى الزعامة فيها) (١٢٧) .

الكخيا محمد الطويل :

ويعتبر الكخيا محمد الطويل نموذجًا أكثر نمطية لأتباع الكخيا عثمان القازغلى فقد ظهر الكخيا محمد الطويل بين الحين والحين هو وبعض أتباع معينين فى الصفحات الأخيرة من حولية الدمرداش ، ومن الظاهر أنه أسس زمرة قازدغلية فرعية يحمل كل أعضائها لقب الطويل ، وبالإضافة لهذا فإن ارتباطه كتابع للكخيا عثمان كان ارتباطا واهنا بل وأشد وهنا من ارتباط الكخيا عبد الله به (أى بعثمان) ، وقد أشار الدمرداش أن تابع الكخيا محمد الطويل (ونعنى به الأوده باشى على) قد ارتدى الدلامة dolama وأصبح جاويشًا قبل موت الكخيا عثمان ، كما لوكان يربط حظ زمرة الكخيا محمد الخاصة بحظ راعيه his patron ، وبعد موت الكخيا عثمان عاش الكخيا محمد فى مواجهة الجاويش إبراهيم القازدغلى فى البيت السابق للكخيا شريف مصطفى ، أحد الانكشارية الثمانية المناوئين لأفرنج أحمد الذى أدى طرده من أوجاق الإنكشارية إلى قيام حرب أهلية سنة ١٧١١م، وبناء على توصية الجاويش إبراهيم القازدغلى أمر الكخيا محمد الطويل مجموعته (زمرته الفرعية) باغتيال القاسمى عثمان كاشف (الكاشف عثمان) الذى كان قد نفذ بعض حوادث القتل (واقات الشور أنجيز) فى سنة ١٧٣٦م. وكان هذا بالتأكيد ثأرا لمقتل الكخيا عثمان .

وسمعنا بعد ذلك عن موت الكخيا محمد الطويل الذى حدث بعد فترة وجيزة من شغله منصب كخيا الوقت فى كتائب الإنكشارية ، وفى مشهد أكثر غرابة نجد أن قتلة الكخيا على البركاويه قتلوا داخل بيت محمد الطويل على يد الجماهير الذين اقتحموا عليهم البيت بينما كان محمد الطويل يجهز للدفن ، وكان على تابع محمد – وهو الآن جاويش – قد سمح للقتلة بالدخول عندما زعموا أنهم فى حماية (فى عرض) الزعيم the headman ، والرواية تتضمن أن القاتلين قد سيطروا على البيت بينما كان الجاويش على خارجه (١٢٨) .

الجاويش على – الذى أصبح هو نفسه يسمى الطويل – ظهر مرة أخرى على السطح بين القوى التى جمعها الجاويش إبراهيم القازدغلى ضد عثمان بك ذى الفقار فى سنة ١٧٤٤م (١٢٩) ، وعلى هذا لم يرد ذكره مرة أخرى فى حولية الدمرداشى ، وكان يمكن لحسن الطويل أن يعيد ترسيخ أولاد الكخيا رضوان الجلفى عقب هزيمة هذا الأخير على يد الكخيا عبد الرحمن القازدغلى (١٣٠) ، ومثل آخرين من المرتبطين بالجاويش إبراهيم انضمت مجموعة (الزمرة الفرعية) الطويل لعبد الرحمن عندما قاوم (انقلب على) رضوان بعد موت إبراهيم ، وظهور مجموعة الطويل بمظهر عدم التحول عن تبعية الكخيا عثمان إلى تبعية الجاويش إبراهيم تتناقض مع أزدواجية الكخيا عبد الله العميقة ، وربما كان هذا النوع من أنواع المناورة أكثر نمطية بالنسبة لأفراد القازدغلية الأقل بروزا ، فبالنسبة لكل خارج عن زمرته يفتقد وريثًا ، ربما يجد عدداً كبيراً جدا من أعضاء الزمرة يؤيدون زعيمها الموجود بالفعل haedman of the moment مما يدعم ترابط الزمرة وتماسكها .

الجاويش عبد الرحمن :

مات الكخيا عثمان تاركًا الجاويش عبد الرحمن بن الكخيا حسن فى وضع انتقالى غير مريح وغير مستقر ؛ سلُب ميراثه وكان صغير السن ، قليل الارتباطات بدرجة تجعله غير قادر على تأكيد سلطة مستقلة ، وعمل الكخيا سليمان على إعادة

تعيينه سردار قطار الحج ، وجعله يرث أخيرا ثروة الكخيا عثمان ، وكان مشهد توليته – فيما يصف الدمرداشي – أقرب للحزن gripping فزوج أم عبد الرحمن وهو الأغا سليمان (كخيا كتائب الشاقوسان أو الجاويشية Çavusan) دخل خيمة الكخيا سليمان ووجده في النزع الأخير (يحتضر) . وعندما غادرت روحه جسده ، قام الأغا سليمان وأخذ السجل (سجل ممتلكات سليمان كخيا) من المنفذ (الكاتب) وأخذ مفاتيح الصناديق boxes, cases, baskets , trünks وأخبر عثمان بك ذا الفقار الذى أرسل فى طلب الوارث (عبد الرحمن) وخلع عليه قفطان السردارية (سردار قطار الحج) وسلمه الأغا سليمان المفاتيح وذهب إلى الخيمة الممتلئة بممتلكاته الشخصية المنقولة وكل ما هو لازم له .

وكانت هذه اللوازم تضم قدرا كبيرا من البن المجروش والست شويكار Sitt Shuykyar المحظية البيضاء التى انتقلت من الكخيا عثمان إلى الجاويش سليمان (١٣١) .

ولم يصبح عبد الرحمن القازدغلى كخيا الوقت لكتائب الإنكشارية حتى سنة ١١٦١ هـ / ١٧٤٨م . لقد انتظر طوال عدة سنوات تالية فى الظل بينما كان الجاويش إبراهيم القازدغلى يمسك بزمام السلطة ، وخلال هذه الفترة عمل كسردار قطار الحاج " فى عدة مناسبات ، وبدأ مشروعات بناء مدهشة لازالت تزين القاهرة " وكان سعيه للسلطة عقب موت الجاويش إبراهيم وبالتالى خارج نطاق دراستنا هذه ، وعلى أية حال فلا قيمة لكون الجاويش عبد الرحمن – مثل الكخيا عبد الله – أكّد ذاته ورسخ نفسه بالتأكيد على بنية التحالفات التى كان الكخيا عثمان والكخيا سليمان قد أقاماها ، ففى ظل عثمان وسليمان واصلت الزمرة القازدغلية كوريث فقارى وإن كان هذا لم يمنع من ميل بين الحين والحين لبقايا القاسمية عن طريق حثها (أى حث بقايا الفقارية) على منافسة الزمرة الفقارية الصامدة القوية بزعامة ذى الفقار بك ، وعلى أية حال فإن الجاويش عبد الرحمن لم يرسخ ارتباطاته فقط ببقايا القاسمية ، بل أيضا بزمرة ذى الفقار ، لقد كان مدينا باستلامه ميراثه لاتفاق جرى بين عثمان بك ذى الفقار وزوج أمه القاسمى الأغا سليمان (١٣٢) ، ويبدو "أن الأغا سليمان من ناحيته قد رسخ مكانة حليفىْ عثمان بك : الكخيا عبد الله والكخيا على الجلفى ، اللذين يشير إليهما

الدمرداشى باعتبارهما أصحابه "His Companions" عند موت سليمان القازدغلى ، ونذكر أن الكخيا على الجلفى هو أول من تلقى عرض عبد الرحمن باللجوء ، عندما كان عبد الرحمن مضطراً إلى ترك كتائب الإنكشارية ، هذا النمط من التحالفات وفقا لكل الاحتمالات كون محاولة عبد الرحمن للوصول إلى القوة والنفوذ ضد الكخيا سليمان القازدغلى الذى كان قد اغتصب ميراثه - برغم كل شىء وكانت هذه التحالفات التى تمركزت حول عثمان بك ذى الفقار قد أصبحت بديلا دائما عن الفرع الرئيسى للزمرة القازدغلية ؛ إذ كانت يمكنهم احتضان أعضاء الزمرة القازدغلية الذين أبعدهم الزعماء القازدغلية ؛ بل إنه فى حالة عبد الرحمن كما كان الحال فى حالة الكخيا عبد الله ، كانت هذه التحالفات البديلة توضح نصيب الفقارية وقدرها عقب وفاة آخر خصومها الألداء الكبار شركس محمد بك فى سنة ١٧٣٠م. لقد انقسمت الفرقة إلى كتلتين متصارعتين التأمتا من أخلاف الزمرة الفرعية البلفية : القازدغلية وزمرة ذى الفقار ، وإذا حمل النبيل (الأمير) ضغينة ضد زعيم أحد الكتلتين blocx لم يكن أمامه إلا الانضمام للكتلة الأخرى ، ومن السخرية أن هاتين الكتلتين فيما بعد الفقارية لم تأخذا أبدا مكان الزمرتين (الفرقتين) المهجورتين (المنقرضتين) .

الخلاصة :

إن وجود هذه الاحتكاكات التنافسية الكثيرة فى صفوف الزمرة القازدغلية يدل على التعقيد الشديد فى تكوين هذه الزمرة بالمقارنة بالزمرة الجلفّية ، فالزمرة الجلفية زمرة بسيطة التكوين نسبيا ، بدت من الناحية العملية مصمَّمة (مركبة) لتقوم بدور المساعد والوسيط أكثر من قيامها بدور المحرك والمثير ، وهذه الخاصية جعلت منهم - أى الجلفية - شركاء نموذجيين لأى زمرة تبحث عن شريك لتشق طريقها للقمة فى عهد كان فيه الفريقان (القاسمية والفقارية) إلى زوال فى العقد الثالث (الثلاثينيات) من القرن الثامن عشر .

ومن هنا فقد أصبح زعماء الجلفية شركاء فى البداية لمجموعة ذى الفقار ، ثم للقازدغلية ، وكانت شراكة الكخيا رضوان الجلفى والكخيا إبراهيم القازدغلى الذى كان رضوان بلا شك تابعا له – تمثل ذروة ما وصلت إليه الجلفية من ثروة ونفوذ ، وعقب موت الكخيا إبراهيم ، وهزيمة الكخيا رضوان بواسطة الكخيا عبد الرحمن القازدغلى تدنت مكانة الجلفية ليصبحوا وكلاء تابعين للقازدغلية retainers .

ورغم أن الزمرة القازدغلية كانت أكبر وأكثر تعقيدا بكثير من الزمرة الجلفية ، إلا أن الملاحظ أن تطورها خلال نصف قرنها الأول هو أن الزمرة كانت محكومة بثبات من خلال خط واحد one line أعنى ذلك الخط الممتد من المؤسس **الكخيا مصطفى** عبر تابعه **الكخيا حسن** إلى آخر تابع **الكخيا عثمان** وأدى اغتيال الكخيا عثمان القوى بالإضافة إلى تدهور السياق الزمرى (بين القاسمية والفقارية) الذى نمت فيه زمرة القازدغلية – إلى ترك باب الزعامة مفتوحاً لفرع قازدغلى آخر هو فرع الكخيا إبراهيم ، واستخدم الجلفية – مثلهم فى ذلك مثل القازدغلية – بقايا الفقارية خاصة بيت ذى الفقار كسيوف (يضربون بها) ، والحقيقة أن الجدير بالذكر هو الحالة أو الطريقة التى تمركزت بها الزمرتان (القازدغلية والجلفية) فى الكتائب (الأوجاقات) مما مكنهم من القيام بدور الوقيعة بين البك والزمر الفقارية الباقية ، واختفى التوتر القديم بين السنجق والأوجاق مع تفسُّخ الفرقتين التقليديتين (القاسمية والفقارية) .

وبغض النظر عن قضية الانقسام إلى فريقين فإن تطور القازدغلية والجلفية يوضح أهمية هاتين الزمرتين الأوجاقيتين فى السيطرة على الضباط من ذوى الرتب العليا ، وفى الحفاظ على خط ترقية منضبط خلال هذه الرتب ، وفى حالة كتائب العزبان كان خط الترقية يجرى من الشوربجى إلى الكخيا ، وفى حالة الانكشارية من الأوده باشى ومن ثم جاويش (شاوش) إلى كخيا ، وبينما تبدو رتبة الكخيا مفتاحا للسيطرة على كلا الأوجاقتين (العزبان والإنكشارية) إلا أن الوصول لهذه الرتبة (الكخيا) فى العزبان أكثر أهمية ، وربما باستثناء الأب المؤسس **الكخيا مصطفى** فإن الزعماء القازدغلية الأوائل وضعوا أسس ثروتهم ونفوذهم وكون كل منهم الحاشية المحيطة به وهو فى رتبة جاويش (شاوش) ، وقد يذهب المرء بعيدا إلى حد التأكيد

على أن الوصول لقدر وافر من الثروة والسلطة كانا من مستلزمات الوصول إلى رتبة كخيا ، وأن المنصب نفسه كان مجرد زبد وسكر على سطح الكعكة ، فإبراهيم القازدغلي - كما قيل - تولى منصب كخيا الوقت لثلاثة أشهر فقط ، وحتى الآن كان المزيد من العوائد والنفوذ والمكانة يمكّن الكخياوات من القيام بمشروعات بناء على نطاق واسع كان من النادر أن يتمكن الجاويشية (الشاڤوسية) من القيام بها ، وربما لهذا السبب لا نجد مآثر (منشآت ضخمة) لإبراهيم القازدغلي إلا بعد أن رُقى إلى كيخا [١٣٣] ، ومما يؤيد ذلك أنه لكي تحتكر رتبة الكخيا كان على القازدغلية أن يسيطروا أولا على رتبة الجاويش (الشافوس) ، وقد أنجزوا بالفعل هذا فى الثلاثينات من القرن الثامن عشر كما تشير لذلك السجلات المالية رغم أنهم - أى القازدغلية - لم يستبعدوا عناصر أخرى من رتبة جاويش [١٣٤] ، وبينما كانوا يحكمون قبضتهم ، على هذه الرتبة عملوا بجد على الاحتفاظ بقيادة كتائب الإنكشارية بعيدا عن أيدى الضباط المبتدئين الأدني رتبة ، وكان آخر تهديد خطير من الأدنى هو ذلك الذى سببه الجاويش قره مصطفى الذى حيده الجاويش عثمان فى سنة ١٧٢٩ [١٣٥] . وعلى هذا فقد احتفظ القازدغلية بخط الترقية من أوده باشى إلى جاويش (شاڤوس) إلى كخيا مفتوحا لأتباعهم ، ومن الظاهر أن هؤلاء الأتباع كانوا يدخلون الكتائب برتبة الأوده باشى أو ما هى أدنى منها ، وإذا رقى الواحد منهم إلى رتبة جاويش (شاڤوس) أصبح من حقه أن يرتدى الدلامة ومن حقه أن يغادر الثكنات ليكون لنفسه زمرة (جماعة) مستقلة ، وعلى هذا فإن مجموعة الأتباع داخل الثكنات كان يمكن أن يكونوا زمرة household بالمعنى الحرفي للكلمة ، وكان يمكن أن يكون لها مقر ، وعلى هذا كان مهمًا للجاويش Cauvs أن يبنى (أو يشترى أو يصادر) مقر إقامة كبير فى موقع بارز غالبا ما يكون قريبا من بيوت راعيه أو حلفائه ، وقد وصلت الزمرة القازدغلية إلى هذه المرحلة فى ظل الجاويش عثمان ؛ إذ كان بيته فى الأزبكية قد أصبح مركز عصب السلطة العسكرية فى القاهرة .

ويدل ارتباط القازدغلية والجلفية بخط الترقية الآنف ذكره هذا على قبض الزمرتين على بنية الأوجاقات ، إن بنية التطور التى أبدتها الزمرتان (القازدغلية والجلفية)

لم تصل أبدا لقضية رتبة الكخيا التى تحل محل الرتب الأدنى درجة كمركز Locus القوة ، واحتفظت الزمرتان (القازدغلية والجلفية) بالتكامل المؤسسى مع أوجاقاتهم إلى الحد أن فيما خلا الحالات الاستثنائية يتحتم أن يخدم الفرد كجاويش (شاقوس) أو شوربجى قبل أن يصبح كخيا ، ونجح القازدغلية فى جعل منصب (رتبة) الجاويش (الشاقوس) الإنكشارى قويا أكثر من أى وقت مضى ، ومن ثم استثمروا رتبة الكخيا وقت كان هذا المنصب (الرتبة) قد صار ذا نفوذ وقوة غير مسبوقتين وبهذه الطريقة أقاموا منصة الانطلاق لتغلغلهم فى البكرية ، لقد كانت هذه الوثبة وحدها وراء الأوجاق هى التى دمرت سلطة التسلسل الهرمى العسكرى داخل الأوجاقات خلال الزمرة ، فبينما لم تستطع رتبة الكخيا أن تحل محل رتبة الجاويش Cavus كمركز للسلطة والنفوذ ، فإن البكرية القازدغلية المتأخرة زمنا استطاعت بالفعل أن تحل محل رتبة الكخيا التى هى مدينة لها بنفوذها .

الهوامش

(1) Mühimme - i Misir, vol .1 , Nos 409 , 411, 412 (all 1127 / 1715) on Shahin Oda Bashi

عن الأوده باشى شاهين .

(٢) الجبرتى ، عجائب ، مج٢ ، ص ٥٢ .

(٣) Al - Khashshab, Tadhkira Li Ahl al - basair الخشـاب ، تذكرة لأهـل البصـائر . (الكخيا سليمان كان بالفعل تابعا للكخيا على ، وكان خشداشيًا (تابعًا أو مملوكًا) للكخيا رضوان .

(٤) قرية سندا بسط فى الغربية ترد بأشكال مختلفة فى المصادر الأرشيفية : ساند بط Sand Batt ، وساند بسط وأحيانا بسط فقط . انظر على سبيل المثال : أرشيف قصر طوبقابى (D 5520 / 1 1159 / 1746

3 (1167 / 1753-4) , D 7662 (1163 / 1750) Mühimme - Mühimme -i Misr vol S . Nos 44 and 93 (1146/1733-4) .

ويشير الخشاب إلى سنجلف بكلمتين سن أو سين وجلف Sin Julf

(٥) عن الشرايبية ، انظر حاشية ١٠٢ ومؤسس زمرة الفلاح هو الحاج صالح ، وقد كان فلاحا مصريا يتيما جمع ثروة وكون نفوذا بعد التحاقه بزمرة الكخيا على الجلفى . عن ظهور زمرة الفلاح انظر الجبرتى ، عجائب الآثار ، مج٢ صص ٨٩–٩٠ والفكهانية Manavs أيضًا ورد ذكرهم فى سجلات الرواتب ١٧٣٧ – ١٧٣٨ . لقد ظهروا مع زمرة الفلاح كمعارضين لبلوط كابان على بك فى سنة ١١٨٣ / ١٧٧٠ ، انظر الجبرتى ، عجائب الآثار ، مج٢ ، ص ٣٣٥ .

(6) Mühimme - i Misr vol. I , nos 409 , 412 .

(٧) الدمرداش ، درّة ، ص ٢١٣.

(٨) الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٨١ . أحمد شلبى (جلبى) أوده ، ص ٢٥١ . الحلاّق ، تاريخ مصر الكبير (تركى) 304 r (لا يسمى فى هذا المصدر : جلفى) .

(٩) الدمرداش ، درة ، ص ص ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٣١ – ٢٣٢ . انظر أيضا الجبرتى ، مج٢ ، ص ٥٢ . كان ذو الفقار خازندار للأغا عمر بلفية ، تابع تابع الأغا حسن بلفية (الأغا على) .

(١٠) الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٨٢ .

(١١) الجبرتى ، عجائب (مج٢ ، ص ٥٢) والدمرداش ، درة (ص ٢٣٢) ، كلا المرجعين يشيران له بالصفة نفسها (مملوك) .

(١٢) الجبرتى ، عجائب ، مج٢ ، ص ٥٢ . الدمرداش ، درة ، ص ٢٣٢ .

(١٣) يعد السرّاجون من بين الجنود العثمانيين الذين حاصروا حصن أزوف Azov فى منتصف القرن ١٧ انظر :

Evliya Celebi, Narrative of travels in Europe, Asia and Africa.

ترجمة Joseph Von - Hammer - Purgstall

صدر فى مجلدين . (London, 1834)

Vol. I I , P . 194 .

– رحلة ابن بطوطة (طبعة بيروت ١٩٦٤) ص ٤٨٠ حيث ذكر أنهم يحرسون الشوارع ليلا .

(١٤) خاصـة واحـد من عينتـاب (Gaziantep) بورصة ، إسبرطة ، استانبول .

(١٥) الدمرداش ، درة ، ص ٤٥٢ .

(١٦) الجبرتى ، عجائب ، مج٢ ص ٥٢ ، الدمرداش درة . ص ٣٦٣ .

(١٧) لقب الزمرة أتى من التزام بركة الفيل . انظر الدمرداش ، درة ، ص ٢٧٦ .

(١٨) فى الدمـرداش (درّة ، ص ٤٤٠) يكتب اسم القريـة طحطـا ، إلا أنه وفقـا لما ذكـره هـالم Haim (Àegypten vol I , p. 98) جرى العرف على كتابتها بالهاء (طهطـا) . وقـد أورد الدمـرداش (الدرة ص ص ٤٤٠ – ٤٤٤) القصة كاملة .

(19) Mühimme - i Misr . vol IV nos . 404 405 , 434 , 435 , 476 (all 1144 / 1731 -2) and 507 (1145 / 1732-3) .

(٢٠) الدمرداش ، درة ، ص ٤٤٤ .

(٢١) هذه إشارة للزمرة الدمياطية ، حليفة الفقارية التى ظهرت بوضوح فى بواكير القرن ١٨ ، ويرجع اسمها إلى توليها جمع جمارك ميناء دمياط .

(٢٢) الدمرداش ، درة . ص ٤٥٢ .

(٢٣) الشخصـان الوحيدان المدرجان تحت مسمى " سرّاج " فى سجل رواتب سنة ١٧٣٧ يتبعان كتائب العزبان ، وأكثر من هذا فقد كان الجاويش فى كتائب العزبان يؤدى خدمته كسراج للكخيا ، انظر : عبد الكريم ، تاريخ مصـر (بالتركية العثمانية) Fo 97 V. وفى كتاب: A Descriptioon of the East (vol I . p 169) يشير بوكورك : Pococke إلى أنه :

" IF Azabs go through those other offices of Serachs and Chouses , they never are advanced to be Caias "

وهولت P. M Holt يقدم لنا العملية التفصيلية التى يتم بها إدراج السرّاجين فى كل الأوجاقات عن طريق " رعاتهم " ليكونوا فى رتبة جاويش أنظر :

EI^2 , s.v. " Misr" by Holt .

(٢٤) المثالان البارزان اللذان يوردهما الدمرداش فى حوليته هما سرّاجى شركس محمد بك ومنافسه الرئيسى ذى الفقار بيك : الصيفى والشتوى (الاسمان يعنيان حرفيا ما هو منسوب لفصل الصيف وما هو

منسوب لفصل الشتاء) ، وربما كان هذان الاسمان غير حقيقيين ، ويكتب أحمد شلبى بدلا من الصيفى ، السيفى ، أى بحرف السين ، وهذا يجعله اسم نسبة للسيف .

(٢٥) نفـر (بالتـركية تنطق بكسر النون والفاء) تشير - تقليديا - للجندى (العكسرى) ، ، بينما (واجب رعاية) تشير إلى من ألحق بالأوجاقات تطوعا أو قسرا من السكان .

(٢٦) الدمرداش ، درة ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢٧) انتهى شغل الكخيا سليمان لمنصبه فى القاهرة عندما تم إبعاده إلى الحجاز لاشتراكه فى هجوم مضاد عقب حادث شـغب مؤسف (واقعتى شورأنجيز) سنناقشها بعد ذلك . أنظر أحمد جلبى (شلبى) ، أوده ، ص ص ٦٢٣ - ٦٢٤ .

وفى رواية الدمرداشى (درة ص ص ٤٢٠ - ٤٢٥) أن الكخيا إبراهيم الجلفى خشداش الكخيا على قد تم نفيه .

(٢٨) الدمرداش ، درة ، ص ص ٤٩٤ - ٤٩٥ ، وقبل ذلك كان يشار للجنود " بأنفار وسرّاجين " وعلى أية حال يكون المقصود نوعًا معينا من المرتزقة ، وهذا يشير مرة أخرى إلى أن الزمرة الجلفية استمرت فى ضم غير المماليك إليها . وعن الحلوان انظر

Shaw , Financial & Administrative Organization , P . 35 .

وكذلك :

Crecelius, Roots of Modern Egypt, P . 28 .

(٢٩) كان هذا هو احتجاج جزارى الحسينية ضد حسين بك شفت ، انظر الجبرتى و عجائب ، مج ٣ ، صص ٣١٦ - ٣١٧ .

(30) Malieden Müdevver 4787

(31) Ibid 7069

التى تورد أيضا قازدغليا واحدا بين الجاويشية واثنين بين العزبان .

(٣٢) هناك قازداغى واحدة على الأقل بالقرب من مدينة أوزاك usak شرق أزمير . انظر :

Türk Ansik Lopedisi, s.v. " Usak" by R . Izbirak

وعلى أية حال فجبل إدا Ida هو الأشهر إذ تتم الإشارة إليه تباعا فى الأطالس والقواميس الجغرافية .

(٣٣) والدمرداشى على سبيل المثال يشير للحكومة العثمانية بالدولة الرّومّية .

(٣٤) انظرل -

J. M . Cook, The Troad : An Archeological and Tropographicaul study (Oxford, 1973) PP. 3 , 304 .

هذا الوصف تضمنته أيضا ملاحظاتى عن منطقة قازدا غ .

(٣٥) وتظهر المدينة أيضا فى فرمانات القرن الثامن عشر . انظر على سبيل المثال :

Mühimme - i Misr, vol. II . No . 182 . (1129 / 1717)

(36) Pococke , A description of the East vol. II PP. 108 , 120 .

Türk Ansiklopedisi, s.v. " Tahtacilar" by E . R . Figlali

(٣٧) عند وصف عملية نقل مدفعين كبيرين من مدافع القرن ١٦ من السويس للأناضول يذكر أحمد شلبى (أوده ، ص ٢٩٦) أنه قد تم نقلهما بواسطة عربات غريبة على عجلات من أخشاب التنوب Firs القازداغى (شواهى قازداغى) Shawahi Qazdughli . وقد استخدم المؤرخ صيغة النسبة التركية غير الفصيحة .

(٣٨) عن قوائم الأكراد والتركمان ، انظر :

Mühimme - i Defteri 99 . No 186 .

(أول ربيع ثانى ١١٠١ / ١٦٩٠) ويمكن أن نجد أوامر للجنود من منطقة بيجا كاريس Biga-Karesi فى وثائق : Maliyeden Müdevver 4414 (1070/ 1659 - 60) and 4465 (1083 / 1673 - 4)

وربما كان التجنيد من منطقة قازداغى قد بدأ قبل ذلك بمدة طويلة ، ويذكر المؤرخ إبراهيم بسيوى Perce-vi شخصا اسمه صالح باشا وزير سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦) الذى بدأ كمرتزق قازداغى وأصبح أخيرا واليا على الجزائر . انظر : Terih-i Pacevi , 2 vols in (Istanbul, 1865-7) vol 1 p . 40

إننى مدينة لليزلى بيرس Leslie Peirce بهذه الإشارة المرجعية .

(٣٩) Mühimme - i Deftevi 96 , No 26 cearly Cumaze i , 1089 / 1676) (منتصف شهر صفر ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩) 98 No `26.

(٤٠) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية)

Fos 204 v - 205 r.

وأخبار النواب (بالتركية العثمانية)

Fo 34 r .

وأحمد شلبى . أوده ، ص ١٧١ (بالتركية العثمانية)

(41) Raymond " Soldiers in trade " 4

الأناضوليون الذين أوردهم رايموند أتوا – فى الأساس – من عينتاب (Gazientap) وملطية وهربوت Harput .

(٤٢) أخبار النواب (fos 29 v . ff 2) وحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fos . 139 - 144) وعبد الكريم ، تاريخ مصر (بالتركية العثمانية) (Fos 8o v. 84v.) وأحمد شلبى ، أوده (p.162) . أخبار النواب يشير إليهم بالزرب Zurub وشلبى Zurub أما الحلاق فلا يستخدم هذا ، بينما عبد الكريم يستخدم Surbe وهى كلمة تعنى سربا من الطيور .

(43) Mühimme - i Misr vol VII, No . 82

(منتصف شعبان ٦٦ / ١٧٥٢)

(٤٤) بالإضافة إلى لاظ إبراهيم وأبو مناخير فضة يوسف لدينا مثال السيفى سرّاج شركس محمد بيك وهو أرمنى حارب فى بلغراد فى سنة ١٧١٨ وأعاده للقاهرة شوربجى كتائب العزبان القوى يوسف البركاوى ،

وقد فرّ إلي شركس محمد بعد ارتكابه جريمة أراد الشوربجي يوسف البركاوى معاقبته عليها (أحمد شلبى) ، أوده ، ص ص ٤٢٦ – ٤٢٧) .

(45) I . Carl Brown , The Tunisia of Ahmed Bey , 1837 - 1855 (Princeton , 1974) p.54 .

(٤٦) انظر على سبيل المثال :

الدمرداشي ، درّة ، ص ص ٧٨ ، ١٦٢ .

الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ١١٢ .

وبالإضافة لهذا فالجبرتى يشير إلى مصطفى بالقازدغلى الكبير ويجد القازدغلية ، وأكثر من هذا فيبدو من غير المحتمل ، أن " تابع " قد تعني إشارة جغرافية كما يظهر فى بعض السياقات الأخرى لتعنى ببساطة شخصا من منطقة قازداغ ، فالتابعين (التوابع) القازدغليـة فى دفاتـر الرواتب يضمـون بوسنيين وبغداديين (قد يكونون مماليك چورچيين) وخمسة أناضوليين من مناطق مختلفة .

(٤٧) اثنان من رؤسـاء الزمرة ربما ورد ذكرهمـا مـرتين على الأقل " الجـاويش عثمـان هو غالبا الكخـيا عثمان بعد ذلك ، وربما كان سر أوده عبد الرحمن هو الباشا جاويش عبدالرحمن فيما بعد "

(٤٨) الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٣٤ .

(٤٩) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٢ .

(٥٠) الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٥١) حـمـزة عـبـد العـزيز بدر Daniel Crecelius , The Waqfs of Shhin Ahmed Agha " Al 26 (1992) 86

(٥٢) الحلاق ، تاريخ مصـر القـاهرة (Fo 213) الجـبرتى (عـجائب ، مج ١ ص ٢٣٤) لا يذكر هذه المعلومة .

(53) Shaw , Financial and administrative Organization , p.193

(٥٤) طبعة ١٩٥٨ من الجبرتى فيها (فياله) وهو بلا شك خطأ طباعى أو خطأ من الناسخ .

(٥٥) انظر فصل ٨ (ص ص ١٥٦ – ١٦٠ من النص الإنجليزى) .

(٥٦) الكخيا الإنكشارى هليل تم اغتياله بينما الباش اختيار (رئيس الضباط ذوى الرتب العليا) الكخيا رجب ورئيس كتابه سليم أفندى يرقيان لرتبة البكوية ، وقد تم إعدام سليم أفندى بعد ذلك . انظر الدمرداشى ، درّة ص ص ١٢– ١٣.

الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٥٧) عن كچك محمد ، انظر الجبرتى ، عجائب ، ص ص ٢٤٢ – ٢٤٥ .

Holt , The career of kuchuk Mohammed , 269 - 87

(٥٨) انظر على سبيل المثال : الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ص ٢٣٨ ، ٢٤١ .

Holt , Ibid , 285-7 .

(59) Mühimme - i Defteri 108 , No 1315

(أول رمضان ١١٠٧) وتشير الوثيقة على نحو خاص إلى أنّ كجك محمد كان لديه ٣٠٠٠ أشرفى Serifi altun من أموال سليم ، ولأن سليما مات دون وريث فربما يكون هذا المبلغ قد ضاع (لم يرد) ، حقيقة إن مغتاليه فيما يبدو ادّعوا أنه بلا وريث حتى ظهر بعض المدَّعين . والجبرتى على أية حال (مج ١ ، ص ٢٣٣) يؤكد أن سليمان كان بلا وريث .

(٦٠) الدمرداش ، درة ، ص ١٤ .

(٦١) خاصة الدشيشة الكبرى لإبراهيم بك بن ذى الفقار بدلا من الأغا الإنكشارى . والمحمدية لمراد بك الدفتر دار بدلا من كخيا الإنكشارية ، والمرادية لإسماعيل بك بدلا من الباش جاويش الإنكشارى والخاصكية لعبد الله بك بدلا من كخيا العزبان ، ومن بين هؤلاء كان مراد بك هو القاسمى الوحيد . انظر أحمد شلبى . أوده ، ص ١٧٨ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 22 br) وحل إسماعيل بك محل مراد بك فى الدفتر دارية بعد ذلك بثمانية أشهر .

(٦٢) الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣١ ، وانظر أيضا الدمرداش درة ، ص ١٢ .

(٦٣) الجبرتى عجائب ، مج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٦٤) الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٣٧ ، طلخا قرية على فرع دمياط فى الشرقية ، تختلف الروايات فى تحديد قاتل كجك محمد . وأحمد جلبى (أوده ، ص ١٩٠) يقول أنه مهما كان قاتله فهو لا يساوى حذاءه (أى حذاء كجك) .

(٦٥) أحمد شلبى ، أوده ، ص ص ١٩٤ – ١٩٧ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo . 220 r) ، عبدالكريم ، تاريخ مصر (Fo 99 v .) الدمرداش ، درّة ، ص ٣٠ (لايورد قصة مماثلة) .

(٦٦) أحمد شلبى (حلبى) ، أوده ص ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٦٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٢ ، الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٣٧ .

(٦٨) انظر :

Maliyeden Müdevver 1350 , Müqata defteri 1134 - 5 / 12721 - 3 (دفاتر المقاطعة)

(٦٩) وقد شرح هذا كل من :

- Pococke , A Descriptin of the East . vol . ־1 P . 204 .

- Tuchscherer " Pelerinage " 175

(70) Mühimme Defteri III , No . 1002

(منتصف المحرم ١١١٤ / ١٧٠٢) 112, No . 996 . (111 / 1700 أول ذى القعدة) و ١١٥ ، رقم ١٤٥٤ (منتصف ربيع الأول ١١١٩ / ١٧٠٧م)

(٧١) الدمرداشى ، درة ، ص ١٠١ .

(٧٢) عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fo 112 r) .

(٧٣) الدفاتر المهمة Mühimme Defteri (منتصف ذى القعدة ١١١٠) vo . 12 .

(٧٤) الجبرتى ، عجائب م مج ١ ، ص ١٠٧ . أوضح رواية عن وقائع الحرب الأهلية هى تلك التى أوردها عبد الكريم فى (تاريخ مصر) (Fos . 128 r - 146 v .) .

(٧٥) الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ٢٣٨

(٧٦) الدمـرداشى ، درّة ، ص ٧٥ وانظـــر أيضـــا Mühimme-i Defteri III No 14 (منتصف ذى القعدة ١١١٠ / يونية ١٦٩٩) التى تسجل تصنيف البلاط مع هذه الحركة .

(٧٧) اقترح علىّ هذا : شكوت باموك .

(٧٨) الجبرتى ، عجـائب ، مج١ ، ص ٢٧٦ ، وإن كان الأمـر كذلك فيمكن أن يكـون نصيف ابنا لعلى بن محمد الذى يظهر مع مصطفى بن محمد فى سجل رواتب سنة ١٦٧٥م .

(٧٩) فى رواية أحمد شلبى (أوده ، ص ٢٢٤) يظهر هؤلاء الثلاثة كالتالى : الكخيا نجدلى حسن كخيا ، والأوده باشى عنتبلى حسن ، والشوربجى أحمد تابع بكير أفندى (زمرة بشير أفندى) – كما هى ممثلة فى سجل رواتب سنة ١٧٣٧ ، تتكون تماما من الأناضوليين وباقى الثمانية هم الجاويش كور عبد الله ، والكخيا قره إسماعيل ، والكخيا شريف مصطفى ، والأوده باش إبراهيم ، وقائم مكام الدمرداش (درة ، ص ١٣٥) تختلف اختلافا طفيفا ، إذ تضم الأوده باش عنتابلى محمد ، والأوده باش إبراهيم جدك ، وتضع بكير أفندى تابع الشوربجى أحمد مع الجاويش جدك محمد ، وفى الحوليات العربية يكتب لقب نجدلى حسن هكذا (نجدى) والشكل العثمانى على أية حال هو (نكدهلى) .

(٨٠) الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٨١) انظر على سبيل المثال : عبد الكريم ، تاريخ مصر (Fos 135 r v 152)

(٨٢) الدمـرداشى ، درة ، ص ١٢٠ . وكلمـات الدمـرداش على أية حـال تـعطينا انطبـاعـا أن حـسن كـان جاويشا بالفعل عندما تسلم (الدلامه) .

(٨٣) الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ١٤٣ تاكد تاريخ وفاة الكخيا حسن من خلال بحث أندريه رايموند فى أرشيف المحكمة الشرعية .

(٨٤) عبد الكريم ، تاريخ مصر (127 v) ، أخبار النواب (Fo , 7o r) ، أحمد شلبى ، أوده ، ص ٢٢٩ ، الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ١٠٧ يشير مؤلف أخبار النواب فى بداية الوقائع إلى " أتباع الكخيا مصطفى القازدغلى المتوفى » وفى فترة لاحقة يشير إلى أن حوالى " ٦٠٠ نفرو الذين اتفقوا على اتجاه هؤلاء الثمانية " ، ومع أن الجبرتى لم يحدد الرقم ٦٠٠ فإنه ذكر " عددا كبيرا من الأنفار " كما أنه يذكر ١٥ ضابطا بالإضافة إلى مجموعة " طائفة " الكخيا مصطفى وأحمد شلبى يحدد عدد الضباط بعشرين .

(٨٥) أخبار النواب (Fo , 70 v) ، الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ١٠٨ .

(٨٦) الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ١١٢ . أخبار النواب (Fo 75 r) لا تورد إلا شخصين اسم كل منهما حسن : الجاويش حسن القازدغلى ، وحسن جلبى (شلبى) الذى أصبح بعد ذلك كخيا ، وربما كان هذا الأخير هو ابن الجاويش حسن الذى مات فى طاعون ١١٤٨هـ / ١٧٣٥ – ١٧٣٦م (الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، مج ٢ ص ٤٨) .

(٨٧) وصلت ذروة المنافسة فى المواجهة بين الجاويش إبراهيم القازدغلى (سردار القطار) وعثمان بك ذو الفقار أمير الحاج فى سنة ١٧٣٨م فقد رفضا حتى أن يركبا معا . انظر الدمرداش درّة ، ص ٤٣٥ .

(88) Raymond, Artisans et commmercants vol. II, pp. 707 FF. Tuchscherer, " Pélerinage" 175, 181 .

ويوضح رايموند أن ضباط الإنكشارية وضعوا تجارة البن الخارجية تحت حمايتهم .

(89) Mühimme - i Misir, vol . III , nos 583 , 584 , 585 , 596 (all 1138 / 1725 - 6)

ويبدو أن هذه أول مرة يرد فيها ذكر الفرقتين فى أوامر الحكومة المركزية .

(90) Maliyeden Müdevver 1350

(٩١) أحمد جلبى أوده ، ص ٤٧٣ .

(٩٢) أحمد جلبى ، أوده ، ص ٤٨٢ .

(٩٣) أحمد جلبى ، أوده ، ص ٤٧٨ ، كان الثلاثة هم الأغا أحمد لهلوبة ، والكخيا رجب ، والجاويش محمد تابع الكخيا على الدودلى .

(٩٤) أحمد شلبى ، أوده ، ص ص ٥٤٨ - ٥٤٩ . فى مشهد مثير قال ذو الفقار بك للجاويش عثمان إذا لم تكن فقاريا فأنت لست قازدغليا .

(٩٥) وفقا لما ذكره أحمد شلبى (أوده ، ص ٥٧٧) استقر ذو الفقار بك على نفى الجاويش محمد بدلا من إعدامه وذلك خوفا من قوة الجاويش عثمان فى سنة ١٧٣٢م - بعد موت ذى الفقار بك - استدعى الجاويش عثمان الجاويش محمد من الحجاز وأعاده لوضعه فى كتائب الانكشارية ،

(٩٦) أحمد شلبى ، (أوده ، ص ٥٥٠) يؤرخ تولى الجاويش عثمان زمام السلطة على كتائب الانكشارية فى رمضان ١١٤١هـ / مايو ١٧٢٩م .

(٩٧) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٣٦٢ . والمقتولان هما : الكخيا شريف مصطفى وابنه الجاويش شريف محمد .

(٩٨) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٧٠ ، مات أربعة أشخاص تحت الضرب ، لكنهم وفقا لما ذكره أحمد شلبى ، كانوا يستحقون ما حاق بهم ، وقد تعنى لهجة الثناء فى كلمات أحمد شلبى على موافقة عامة حظى بها الجاويش عثمان .

(٩٩) فى سنة ١٧٢٨م حاز عثمان " الرياسة " مع كل من ذى الفقار بك والكخيا يوسف البركاوى (من العزبان) وهليل أفندى الشركى (الدمرداشى ، درة ، ص ٣٧٥) .

(١٠٠) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٤٣٢ .

(101) Tuchscherer, " Pélerinage" 158

وتؤكد مجموعة الوثائق المعروفة بالمهمة Mühimme أن كثيرا من سفن البحر الأحمر التى تم استخدامها فى نقل البن كانت تحت حماية الإنكشارية .

(١٠٢) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٨٩ ، ساد فرع عشيرة الشرايبية التى أسسها الحاج محمد ديد Dede فى منصب الشهبندر (شاه بندر Shah bandar) وأصبح زعيم فرع آخر - وهو يوسف شريك إسماعيل بيك بن إيواظ ، أصبح (كاشف) وبعد ذلك (بيك) وانضم يوسف بك لحملة ذى الفقار بيك انظر الدمرداشى ، درة ، ص ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ، أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٥٥ . وعن الحاج محمد أنظر الجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ص ٢١٩ وما بعدها .

(١٠٣) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٤٨ . أنظر إيضا الدمرداش درة ، ص ص ٤١١ - ٤١٢ . وانظر أيضا Tuchscherer , " Pelerinage" 159 : أتباع عثمان ممن حازوا " الرياسة " : محمد بيك قطامش

والكخيا يوسف البركاوى وهليل أفندى الشركى ، وفى هذه الأثناء صادروا أموال السناجق والأغوات ممن لا وريث لهم ، والأول منهم من كتائب العزبان ، والثانى من طوائف الحرفيين والثالث سيباهى .

(١٠٤) هذا الرقم الإجمالى هو ناتج جمع أتباع الكخيا عثمان القازدغلى ، والجاويش عثمان قازدغلى .

(١٠٥) Tuchscherer, " Pélerinage" 157, No.10 وتم أيضا إدراج اسم شخص هو هليل ، وكذلك مصطفى الخازندار .

(١٠٦) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٦٠٨ ، الجبرتى (عجائب ، مج٢ ، ص ١٢) يجعل الرقم ١٢٠ .

(١٠٧) عن بيته انظر Behesns - Abouseif , Azbakiyya and its Environs, pp.55 ff وعن المبانى والإنشاءات الأخرى انظر :

الجبرتى ، عجائب ، مج٢ ، ص ٤٨ . الدمرداش ، درة ص ٤١١ Tuchscherer, " Pelerinage" 158

- Bayard Dorge, Al-Azhar : A Millennium J Muslim Learning , memrial ed . (washington, DC 1974

وكان الأزهر مقسما إلى أروقة (جمع رواق) ، وكانت مقسمة وفقا لأعراق الطلبة أو البلاد التى أتوا منها .

(108) Mühimme - i Misir m vol V, nos 347, 367 (all 1148 / 1736) (both 1149/ 1736-7) , 428 1154/ 1737 - 8)

ويزعم الجبرتى (مج ٢ ، ص ٥٧) أن الهجوم كان يهدف فى الأساس مجموعة القطامشة الفقارية السابقة الذين أخذوا بزمام " الرياسة " والذين تأخروا عن دفع الحلوان Fee عن التزامات القرى التى يتولون التزامها ، بل إن حقيقة أن الواقعة تشير إلى محو الزعامة (لا بالنسبة للبكوات فقط وإنما أيضا بالنسبة لمعظم ضباط الأوجاقات) تعنى "أن الوالى كان يهدف إلي الاستحواذ على " الرياسة كاملة " فى يديه .

(١٠٩) العشرة المقتولون فى هذه الوقعة الدموية هم محمد بيك قطامش (دفتر دار) ، وعلى بيك قطامش (أمير الحاج) ، وصالح بيك قطامش ، والكخيا عثمان القازدغلى ، حليفة الكخيا أحمد الخربوطلى ، والكخيا يوسف البركاوى (من كتائب العزبان) ،، وهليل أفندى (أغا الجمليان) ، والشوربجى صالح ، والشوربجى حمزة (من التوفنكيان أو التفكية) ونجا عثمان بيك ذو الفقار وكخيا الجاويشى وباشى Basi المتفرقة .

(١١٠) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٧ واستخدم الجبرتى مصطلح مرض القصبة .

(١١١) الدمرداش ، درة ص ص ٤٢٦ - ٧ منحت فرمانات مماثلة لإبراهيم بيك قطامش وشخص اسمه الجاويش الخربوطلى . أنظر أيضا الجبرتى عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٧ .

(١١٢) هناك تابع واحد للكخيا سليمان القازداغى (القاز طاغى) لكن لأن الجاويش سليمان لم يرق إلى كخيا إلا فى سنة ١,٧٣٩ فلا يمكن أن يكون هو المقصود ، والأقرب أن الكخيا سليمان هذا هو خشداش الكخيا حسن القازدغلى وراعى الكخيا إبراهيم .

(113) Tuchscherer, " Pélerinage " 161 - 2

(١١٤) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٣٧٢ .

(115) Tuchschererm " Pélerinage" 162 ,

(١١٦) Ibid, 172 ff وأكثر من هذا ، يمكن للمرء أن يفترض أن ديون سليمان لابد أنها كانت مشتملة على ديون لتجار الحبوب لقاء الحبوب التى كان يوزعها ويبيعها فى الحجاز .

(١١٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٤٣٦ .

(١١٨) نفسه ، ص ٤٠٤.

(119) Tuchschererr " Pélerinage" 157

(١٢٠) إنه لافتراض ضعيف أنه نقول زنه بصرف النظر عن عثمان بك فإن الوحيدين من القابض على زمام الرياسة اللذين كتبت لهما النجاه كانا من المقربين جدا لديوان الوالى وهما باشى المتفرقة وكخيا الجاويشية .

(١٢١) الدفتردار التى تمت المذبحة فى منزله هو الأمير الفقارى محمد بك إسماعيل بن إسماعيل بك زوج ابنة الأغا حسن بلفية ، ومحمد بك هذا بالإضافة لتمثيله البلفية (من حرسها القديم) فإنه كان يلقى الدعم والتأييد من الأغا الحاج بشير كبير الخصيان السود (انظر فصل ٨) وأشترك أيضا عدد من المتآمرين القاسمية : سليمان بن الفراش مملوك الإيواظى محمد بك الجزار ، وأمير الحاج السابق رضوان بيك ، وزوج ابنة إيواظ بك (صالح كاشف وعثمان كاشف (الكاشف عثمان) وقد قتل الاثنان الأخيران عددا من القتلى ، واتهم الكخيا أحمد البركاوى تابع الكخيا المقتول يوسف البركاوى (من العزبان) بأن تخلف عمدا عن راعية his paren كى لا يشترك معه فى الشرك trap ، وكما رأينا فإنه كان العقل المدبر فى وقت لاحق لاغتيال الكخيا على الجلفى . انظر الدمرداشى ، درّة ، ص ص ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٨ . أحمد شلبى ، أوده ،

(١٢٢) الدمرداشى ، درة ، ص ٤٩٤ . العبارة :" دخل بينهم " تقيد أن الكخيا عبد الله كان يحاول منع الطرفين المتقاتلين ، وعلى أية حال فليس هذا هو أسلوب الوساطة الرسمى .

(١٢٣) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٠٦ .

(١٢٤) انظر الفصل الخامس (النص الإنجليزى ص ص ٨٩ – ٩٠) عن وجهة النظر الرسمية للحكومة العثمانية .

(١٢٥) الدمرداش ، درة ، ص ٥١٦ لا يذكر بشكل واضح هروبه للشام ، والجبرتى (عجائب مج ٢ ، ص ٧٥) يذكر أن عبد الله مات فى الشام ، ومجموعة الوثائق المعروفة باسم Mühimme - i Misir (مجلد ٦ ، رقم ١٦٨ " ١١٥٧ / ١٧٤٤) أنه مات فى يافا ، وتذكر أن حسين تابع عثمان بيك قد نفى إلى دمياط .

(١٢٦) يذكر هولت الدليل نفسه فى كتابه :

Egypt and the fertile Crescent,p,91`

(١٢٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٤٣٢ . وفى حولية أحمد شلبى أن يوسف كاشف الجيزاوى الذي قتل الكخيا عثمان القازدغلى سمى فى وقت لاحق عثمان كاشف (أوده ،٦٢٠) .

(١٢٨) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(١٢٩) نفسه ، ٤٩٧، ٥٠٣ .

(١٣٠) نفسه ، درة ، ٥٨١ .

(١٣١) نفسه ، ٤٣٧ ، الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ١٢٠ وما بعدها . انظر أيضا :

Hathway , " Marriage alliances" 145

(١٣٢) كان الأغا سليمان مملوكا للقاسمى مصطفى بك القرد وخشداشا لصالح بك القاسمى الذى سيصبح عدوا لدودا لعلى بك الكبير بلوط قابان فى أواخر القرن ١٨ . وفى سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ نفى على بيك سليمان العجوز إلى الدلتا مع خشداشية آخرين لصالح بك . انظر الجبرتى ، عجائب ، مج٢ ، ص ص ١٠٢ - ٢ .

(١٣٣) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٦٦ ، الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ص ٩١ . معظم المبانى التى تمت أثناء حكمه نفذها شريكه الكخيا رضوان الجلفى .

(١٣٤) تحالف الجاويش نجدلى حسن – على سبيل المثال – مع القازدغلية ، وفى سجل رواتب ١٧٣٧ – ١٧٣٨م نجد للجاويش حسن نجدلى أعوانا أكثر من أى فرد من أفراد الزعماء القازدغلية مع استثناء الثمانية فى الحرب الأهلية فى سنة م١٧١١ .

(١٣٥) أحمد شلبى ، أوده ، ٥٢٦ .

الفصل الخامس

صعود الكخيا إبراهيم القازدغلى
وظهور البكلريَّة القازدغليَّة

خلفيّة الكخيا إبراهيم

أتى الكخيا إبراهيم من الفرع الذى يمكن أن نصفه بأنّه فرع ثانوى للزمرة القازدغلية ، ذلك الفرع الذى بدأه الكخيا مصطفى ، وكان إبراهيم "تابعا" للكخيا مصطفى أكثر من كونه شخصا غامضا من بطانة الجاويش cavus سليمان الذى بدأ قانعا بإلحاق نفسه بخشداشه الأكبر سنا والأشد إقداما الكخيا حسن ، ولا نستطيع تبيُّن الأصل العِرقي لإبراهيم بشكل يقينى ، فمجموعة الوثائق التى تضمها الدفاتر" المهمة Mühimme " تنسبه للقازدغلية وهذا يتضمّن أنّه مثل الكخيا مصطفى أتى من مناطق الأناضول الغربيَّة ، بل إن هذه الوثائق المسمَّاة "بالمهمة – مهمّى دفترى – تطلق هذا اللقب – القازدغلى – على رؤساء الزمرة الأقدم منه مثل الكخيا حسن ، والكخيا عثمان اللذيْن تشير وثائق محكمة القاهرة الشرعيّة إلى أنهّما مماليك (١) ، فإذا كان إبراهيم مملوكا فلابد أنّه اتبع المماليك المحرَّرين خلال تطور الزمّرة القازدغلية ، وأكثر من هذا فجيل إبراهيم – مثل الجيل القازدغلى السَّابق – ارتبط أخيرا بتقليد " الرَّفيق الأضعف " الذى وقع الجاويش سليمان – راعى إبراهيم – نفسه ضحيَّة له ، ولذا ظهر إبراهيم كمقدَّم بين أتباع الجاويش سليمان أمَّا هم فلم يظهروا فى الحوليّات إلاّ لِماما (٢) .

وقد أتبع الكخيا إبراهيم الممارسة القازدغلية الراسخة فى استخدام الحج طريقا للنفوذ ، فنحن نذكر أنه فى وقت ارتداد القازدغلية الجماعى لكتائب العزبان فى سنة ١٧١٠م كان الجاويش حسن القازدغلى يعمل سردارا لقطار الحاج بينما كان

خُشداشه (رفيقه) الأقل رتبة سليمان يشغل منصب سردار الصرّة ، وشخص آخر هو الشوربجي إبراهيم يشغل منصب سردار الجدّاوى (الشوربجى رتبة عسكرية فى كتائب العزبان وليس اسم) ، فإذا كان إبراهيم هذا هو تابع سليمان فإن الكخيا إبراهيم الذى سنسمع عنه بعد ذلك والذى كان - وقتئذ - يتولى دورا قياديا فى الحج يكون قد انخرط فى هذه المهمة منذ تاريخ باكر تماما ، فإبراهيم لم يترقّ إلى رتبة جاويش حتى سنة ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٥م ، وأصبح بعد أن حمل هذه الرتبة (جاويش) سردارا لقطار الحاج فى سنة ١١٥١ هـ / ١٧٣٨م .

وفى أثناء حماية قافلة الحاج أغضب الجاويش إبراهيم أمير الحاج البيك عثمان ذا الفقار[٣] ، وكما لاحظنا عند حديثنا عن الزمرة الجلفية فإن العداوة بين الأميرين (الجاويش إبراهيم والبيك عثمان) بلغت ذروتها فى صدامهما بخصوص قرية فرشوط فى جرجا فى سنة ١٧٤٣م . عندما أجبر الجاويش إبراهيم البيك عثمان على الهرب من مصر إلى إستانبول ، وكان هذا الحدث مقدمة لقيام الجاويش إبراهيم بطرد الوالى العثمانى الباشا محمد راغب فى سنة ١٧٤٨م . وهو الأمر الذى فُسِّر بعد ذلك على أنه حركة تمّرد قام بها إبراهيم [٤] ، لكن إعادة موازنة القوى بين الوالى والزمر الفقارية المتبقية بعد هروب البيك عثمان أظهرت أن وصف إبراهيم بالتمرد كانت مسألة مرحلية تماما كالتحالفات السياسية ، و إعادة التقويم على هذا النحو أَوْضَحَ ما هو أكثر من هذا ، وهو محاولة إبراهيم تجنُّب وصَمَهِ بوصمة التمرّد .

إعادة النظر في العصيان المسلح الذى قام بهِ الجاويش إبراهيم

هرب البيك عثمان ذو الفقار بعد أن قام الجاويش إبراهيم القازدغلى بعزل كاشف فرشوط الذى كان أحد أفراد حاشية البيك عثمان و إحلال كاشف آخر محله من جماعته (أى جماعة الجاويش إبراهيم) بل إن الجاويش إبراهيم ضمن أخيرا تأييد الوالى العثمانى وكذلك السلطان لما قام به وبالتالى فقد كان البيك عثمان بمعارضته العنيفة لتعيين كاشف من طرف الجاويش إبراهيم إنما يعارض رغبات الحكومة الإمبراطورية (السلطان) فقد كانت الفرمانات الواردة إلى القاهرة فى هذا الوقت

تعتبر أنّ المتمردّ هو البيك عثمان وليس الجاويش إبراهيم ، ولقد وصفت هذه الفرمانات عثمان بأنه متمردsaki وخائن وعبرّت عن اهتمام كبير بجمع الحلوان acquisition free الذى كان مطلوبا من عثمان دفعه عن قرى كثيرة تولّى التزامها (٥) ، وكان من بين هذه القرى قرية فرسكور فى ولاية البحيرة بالدلتا ، و التى كانت قد خصِّصت لزراعة الأرز بهدف استخدامه فى البلاط السلطانى ، وكان من بين انتهاكات البيك عثمان الكثيرة حَبْسه أرز البلاط السلطانى ، وغير ذلك من المؤن المعدّة لهذا الغرض (٦) . ورغم جهود الحكومة لتقسيم أوقاف الحرمين فقد استطاع البيك عثمان بشكل أو آخر تولّى نظارة ثلاثة أوقاف : المرادية و الخاصكية و أوقاف الوالدة valide ، والأوامر الواردة فى مجموعة الوثائق " المهمة Mühimme " تأمر بأن يُرسل البيك عثمان للخزانة العثمانية الضرائب المفروضة على القرى الموقوفة (٧) ، وفى هذه الأوامر ما يفُيد ضرورة مصادرة ممتلكات البيك عثمان وبيعها ، وإذا حاول البيك دخول مصر ثانية وجب القبض عليه وإعدامه (٨) . باختصار لابد من عدم إتاحة أى ملجأ له .

بل إن البيك عثمان عندما وصل إلى إستانبول بذل جهدا بطيئا وحذرا ومراوغا حتى تغيرت صورته فى أعين رجال القصر ، وورد فى فرمان صدر وقت وصوله إلى إستانبول ما يعبِّر عن السخط لوصوله إلى العاصمة العثمانية دون صدور فرمان يأمر بحضوره ، بل إن معظم ما حواه هذا الفرمان يتناول مصادرة منزل البيك عثمان فى القاهرة على يد مناوئيه المنتصرين ، والأمر الذى لا يصدّق أن اسم البيك عثمان عند وروده فى هذا الفرمان كان مشفوعا بصيغة التشريف العربية " دام عزّه " وهى صيغة يصعب إطلاقها على خائن ، بل إن هذه الوثيقة (الفرمان) تبدو وكأنها من إملاء البيك عثمان نفسه (٩) ، وقد يكون هذا قريبا من الصحّة لأن الوثيقة (الفرمان) قد صدرت استجابة لشكوى البيك عثمان مما لاقاه من سوء معاملة ، فمصدر ما أورده الفرمان من تفاصيل عن الموقف فى مصر هو شكوى عثمان نفسه .

إنه لمن الواضح أنّ البيك عثمان عند وصوله إلى إستانبول لم يدّخر وسعا فى تقديمه الالتماسات للبلاط لإصلاح ما أفسده ، وسرعان ما أتت جهوده ثمارها فتم ردّ اعتباره إليه كما تشير الوثائق " المهمة " ، فمنحه البلاط السلطانىّ الإذن بالبقاء فى إستانبول رغم أن ممتلكاته وبيته فى مصر قد تم الاستيلاء عليها وتم بيعها ولم تلغ

إستانبول هذا ، وفى أمر صدر- غالبا – بعد ذلك فورا للأفراد المصريين تم تحذيرهم من التدخل فى رواتب (العلوفة والسيرايه Ceráye) أسرة البيك عثمان أو فى "وقف" الأسرة الذى أوْقفه على أسرته لإمدادها بما يلزمها ، ولم يمض وقت طويل حتى أحضر أسرته إلى إستانبول ، وبحلول عام ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦م . تم تّعيينه " سنجق بك " لأدرنه مع وعد بأن يستعيد أمواله وممتلكاته فى مصر [١١] ، لقد مارس البيك عثمان ومؤيدوه قدرا كبيرا من الضغط على البلاط وقد استخدموا (عثمان ومؤيدوه) أيضا وسائل ماديّة ملموسة للحث على تحقيق أغراضهم ، فقد أشارت الوثيقة (الأمر) إلى أن البيك عثمان دفع "ضريبة اعتذار bedel_I afv " مقدارها ٢٠٠ كيس مصرى ليكسب عطف الحكومة العثمانية [١٢] .

وحتى من موقع منفاه الذى فرضه على نفسه حاول البيك عثمان استخدام الوالى العثمانىّ الجديد ، ورئيس الوزراء القادم (الصدر الأعظم) الباشا راغب محمد (١٧٤٤- ١٧٤٨) لعودة الفقارية فى مصر ، وعلى أية حال فإن البيك عثمان لإنجاز هدفه هذا كان عليه ليس إزاحة الجاويش إبراهيم القازدغلى فقط ، وإنما أن يزيح أيضا ما تبقى من أخلاف الفقارية : مجموعة قطامش ، وكانت هذه الزمرة قد أسسها البيك محمد قطامش المملوك الجورجى للزعيم الفقارىّ البيك قيطاس الذى سبق أن تم إعدامه فى سلسلة أحداث الحرب الأهلية سنة ١٧١١م . وكان البيك محمد قطامش نفسه قد مات فى حادثة مؤسفة (واقعة عنف : wakát shúr - Angiz) فى سنة ١٧٣٦م . وعندما غادر البيك عثمان مصر استعاد القَطامشَة مناصب " الرياسة " الرئيسية التى كانوا قد هيمنوا عليها قبل سنة ١٧٣٦م . فالبيك الراحل إبراهيم قطامش – الذى كان تحت حماية البيك الراحل محمد – حلّ محل البيك عثمان ذى الفقار فى منصب شيخ البلد (القاهرة) بينما أصبح خُشداشه (رفيقه) البيك هليل أميرا للحاج ، وفى هذه الأثناء شغل البيك على من الزمرة الدمياطيّة ــ التى تجبى جمارك ميناء دمياط ــ منصب الدفتردار [١٣] .

ولم يُضع هذا الجيل الجديد من القطامشة الوقتَ فى إثارة سخط الباشا راغب محمد والحكومة العثمانية ، فقد كان البيك هليل قطامش أميرا للحاج يتسم بالجشع وقد نهب عبيده السّود الأفريقيون الذين اشتراهم مُفَضلا إياهم على المماليك القوقازيين

أو السَّراچين الأناضوليين – نهبوا الحجّاج تباعا ، فجأروا – أى الحجاج – بالشكوى للوالى العثمانى باسم الحجاج المغاربة الذين سخط سلطانهم المولى عبد الله سخطا شديدا ، وقد أورد الحديث خطاب مولاى عبد الله وردَّ الباشا العثمانى راغب ، وقد تعهد الباشا راغب فى رده بقتل البيك هليل قطامش وثلاثة من المسئولين معه فى قافلة الحاج ، ووصفه بأنه متمرد [١٤] .

وأتاح موت الحاج بشير أغا (١٧١٧ – ١٧٤٦) رأس الخصيان السود أتاح للباشا العثمانى راغب الفرصة لمهاجمة القطامشة وغيرهم من المشاركين فى " الرياسة " ، وأدى موت هذا الطواشى العجوز إلى جهود حثيثة من لدن الخزانة المركزية لاستيراد ما تركه من ثروة فى مختلف أنحاء الإمبراطورية (العثمانية) ، وكانت الغلال والفائض faiz (العوائد الفائضة بعد التوزيع) من القرى المصرية المدرجة ضمن أوقاف الحرمين والتى كان الأغا بشير ناظرا عليها – فى ذمّة in the possession of شيخ البلد إبراهيم[١٥] قطامش دفتردار البيك على الدمياطى ، والبيك عمر قطامش بن أحد مماليك البيك محمد قطامش ، وعندما طلب وكيل الأغا بشير منه تسليم الغلال أجاب البيك إبراهيم قطامش فيما يقال " ليأكل السلطان برازا " ، ومع هذا فقد كان راغبا فى تأخير التزام إحدى القرى للمكيل مقابل عربون من الغلال [١٦] ، من الواضح أن إصرار البيك إبراهيم تمخض فى النهاية عن صدور خط شريف (مرسوم إمبراطورى) يلقى – بشكل سرى – على عاتق الباشا العثمانى راغب ، قتل كل القطامشة بمن فيهم البيك على الدمياطى ، ونفى ما تبقى من الدمايطة (المقصود زمرة البيك المذكور) .

وعلى أية حال فقد كانت بصمات البيك المبعد عثمان ذى الفقار واضحة فى هذا الخط الشريف (المرسوم السلطانى) ، فقد كان على تابعيه وحاشيته أن ينفذوا عمليات الاغتيالات هذه ، وكان هؤلاء الأتباع محتجزين فى بيت البيك حسن الخشاب رعّية أستاذ (سيّد) عثمان (البيك ذو الفقار) وكان البيك حسن الخشاب قد أصبح أثيرا جداً لدى الباشا العثمانى راغب [١٧] ، وعلى أية حال فإن تصميم الجاويش إبراهيم القازدغلى على التمسك " بالرياسة " وقف عائقا فى طريق استفادة الفقارية لمكانتهم ، وعلى هذا فإن البيك حسين الخشاب والباشا العثمانى راغب قاما بحبك مؤامرة لقتل الجاويش إبراهيم وحليفه الكخيا رضوان الجلفى ، ومرة أخرى نجد البيك عثمان

ذا الفقار كامنا خلف الستار، لقد وقع الاغتيال على كاهل عدد من مماليكه كانوا مختبئين فى القاهرة ، وكان عليهم أن يوقعوا بإبراهيم ورضوان فى منزل الخشاب ، وكان من المقدر أنهم إذا أتموا مهمتهم بنجاح أن يعيدوا البيك عثمان إلى القاهرة ، ولكن الجاويش إبراهيم علم بالمؤامرة فواجه الباشا العثمانى راغب وطلب استصدار فرمان بإعدام الخشاب ، ولكن الوالى العثمانى الذى أخذ بهذا الطلب رفض أن يصدر أمرا بإعدام رجل ينفذ أمر سيدنا السلطان حبيب الله ورسوله ، فما كان من الجاويش إبراهيم إلا أن عزله فورا وطارد الخشاب خارج القاهرة (١٨) .

إن اجتثاث الجاويش إبراهيم لكل من البيك حسين الخشاب والباشا العثمانى راغب كان بمثابة حركة تمرد تجعل الحكومة العثمانية تدعم البيك عثمان ذا الفقار بقوة ، ومع هذا فمن الملاحظ أن سياسة الحكومة المركزية تجاه البيك عثمان – كما يظهر فى دفاتر" الوثائق المهمة "mühimme – ينقصها الاتساق بشكل واضح ، حقيقة أن الصراع بين زمرة الأخلاف الفقارية بدا مُضاعفا فى العاصمة العثمانية ، والأوامر الواردة فى مجموعة الوثائق المعروفة باسم المهمة تطلق كلمة " متمرد " saki ؛ أى طريد العدالة على مناوئى أى مجموعة group تحظى بالثقل الأكبر فى البلاط العثمانى ، ففى شهر رمضان ١١٥٩ هـ / سبتمبر ١٧٤٦ م . أى بعد أن كاد البيك عثمان ذو الفقار أن يتوطن بشكل نهائى فى العاصمة – ظهر أمران يصفان كلا من الجاويش إبراهيم القازدغلى و الكخيا رضوان الجلفى بأنهما متمردان Saki . وتعكس هذه التهمة المنافسة التى طال أمرها بين البيك عثمان و الجاويش إبراهيم على تولى أمور قافلة الحاج: فقد زعمت هذه الأوامر (الآنف ذكرها) أن الجاويش إبراهيم فشل فى تسليم الحبوب لأهالى المدينتين المقدستين ، كما فشل فى حماية الحجاج والقرى المصرية من هجمات البدو ، وأكثر من هذا فهذه الأوامر تبدو متعرضة لسيطرة الجاويش إبراهيم فى أوجاق الإنكشارية ، تلك السيطرة التى استطاع بواسطتها احتكار منصب سردار قطار الحاج ، لقد كان من الضرورى معاقبة الجاويش إبراهيم وحلفائه ولابد أيضا من الحفاظ على النظام فى الأوجاق (فرقة الإنكشارية) (١٩) ، وعندما نتذكر أن منصب سردار قطار الحاج يعتمد على قدرة هذا الضابط على حماية قافلة الحجاج من هجمات البدو ، نجد أن تحركات البيك عثمان تصبح أكثر قربًا للفهم ، فإذا استطاع

البيك عثمان أن يلفت الانتباه لقدرته هو شخصيا على إداره قافلة الحجاج بشكل آمن بمهاجمته للجاويش إبراهيم واصفا إياه بعدم الكفاءة فى حماية قافلة الحجاج وتدبير أمورها ، فإنه بذلك - أى البيك عثمان ــ يضع أساس استعادته لسلطانه فى مصر ، لقد صدر أمر (خط شريف) قبل هذه الاتهامات التى وجهها للجاويش إبراهيم بوقت قصير يطلق على البيك عثمان لقب " شيخ البلد" وذلك لأول مرة منذ هروبه (إلى إستانبول) [٢٠] ، ووفقا لممارسة راسخة (مألوفة) عين السلطان البيك عثمان لتولى أمر أدرنة ، ليخفف من جهوده الرامية للعودة إلى القاهرة ، وربما حقق تعيينه سنجق بك لأدرنة غرضين : مكافأة البيك اللحوح ، و إبعاده عن العاصمة ، ولم يكن " السنجق بك " بأكثر المناصب جلبا للربح ولا كان أكثرها بهاء .

ولا بدت عودة الفقارية مستفيدة من إبعاد القطامشة الذى أعقب العفو عن البيك عثمان ذى الفقار ، رغم جهود الباشا العثمانى راغب ، والبيك حسن الخشاب لتهيئة هذه الظروف لصالح الفقاريّة ، وبدلا من هذا فإن الحكومة العثمانية المركزية بدت وكأنها تعتبر الجاويش إبراهيم القازدغلى وحلفاءه أخلافا - بحكم المنطق - للقطامشة فى الرياسة ، وبينما كان القطامشة المنفيون والذين تم إعدامهم يوصفون بأنهم متمردون فى سلسلة الأوامر العثمانية الصادرة بدءا من سنة ١٧٤٧ ، فإن الجاويش إبراهيم القازدغلى و الكخيا رضوان الجلفى كانا يوصفان بأنهما قائدان من قادة مصر ، على نحو يشبه كثيرا وصف الأغا حسن بلفيه و الكخيا مصطفى القازدغلى فى أواخر القرن السابع عشر[٢١] لم يوصف أبدا أى منهما (الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان) مرة أخرى بأنه متمردٍ ، وكما كان الحال بالنسبة للقطامشة ، فإنهما لم يتأثرا - إلا قليلا - بالتغيرات التى أحدثها البيك عثمان ذو الفقار ، لقد كان هدف سلسلة الأوامر العثمانية والتى بدأت فى سنة ١٧٤٧ والتى أشرنا إليها آنفا- كما هو متوقع - وممتلكات القطامشة ، وكذلك ممتلكات البيك على الدمياطى كما كانت تهدف إلى بيع الالتزامات الخاصة بالأشخاص الآنف ذكرهم بالمزاد (لمن يدفع أكثر) [٢٢] وفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠م . تم العفو - على أية حال - عن اثنين من القطامشة وسمح لهما بالإقامة فى مكة ، وإن حُظر عليهما العودة لمصر [٢٣] لقد لعبت مكة بالنسبة للقطامشة الدور نفسه الذى لعبته أدرنة بالنسبة للبيك عثمان ذى الفقار .

لقد تجلى كرم الحكومة العثمانية المركزية مع الجاويش إبراهيم فى عدم اتخاذها إجراء حاسما ضده عند طرده للباشا العثمانى راغب ، كما أن الأمر الذى نص على تعيين الباشا أحمد – والى سنجقية إيشل Snacak of Icil على الساحل الجنوبى للأناضول – محل راغب ، هذا الأمر يستخدم عبارات مخففة عند الإشارة لظروف عزل راغب دون إشارة إلى الجاويش إبراهيم ، و إنما يكتفى الأمر بوصف ما حدث بأنه واقعة عنف (٢٤) " شورا أنجيز shurangiz " وعلى العكس من هذا نجد أن البيك حسين الخشاب وأتباعه يوصفون بأنهم متمردون .

لقد ورد فى هذا الفيض المضطرب من الأوامر العثمانية ضرورة طرح التزاماتهم فى المزاد ،والاستيلاء على منازلهم (٢٥) ، والحقيقة أن هذه الأوامر كانت أمرا نمطيا تتبعه الحكومة العثمانية المركزية فى التعامل مع القابضين على زمام " الرياسة " بشكل غير شرعى (لا توافق عليه الحكومة العثمانية المركزية) : حرمان من حماية القانون ، وجهود شديدة لإثبات أن ثرواتهم حرام (مكتسبة بطرق غير شرعية) ، ويتبع ذلك شىء من التساهل واللين على نحو أو آخر ، إن تحليلنا النهائى للأمور – على هذا – يعنى أن الحكومة العثمانية المركزية نظرت للبيك عثمان ذى الفقار و القطامشة والخشاب على أنهم مجرد رؤساء (قابضين على زمام الرياسة riasa) لحقهم الفساد ، لا أكثر ولا أقل ، فالحكومة المركزية – بالتأكيد – لم تعترف بضرورة ملحة تجعلها توافق على عودة البيك عثمان وأتباعه للقبض على زمام السلطة فى القاهرة .

كانت الرابطة بين الباشا العثمانى راغب والبيك حسن الخشاب أصعب على فهم أغوارها ، ربما شعر راغب بالامتنان للخشاب ومن تبقى من أتباع البيك عثمان ذى الفقار لمعاونتهم فى التخلص من القطامشة :وربما كان هذا هو ما عناه الباشا العثمانى راغب عندما أيد الخشاب بتنفيذ أمر السلطان – وذلك وفقا لرواية الدمرداشى ولكن الدمرداشى قد يكون مبالغا عند حديثه عن امتداد محاباة الباشا العثمانى راغب وتحيزه لأنه – أى الباشا راغب – لم يتعرض لتوبيخ أو أى عقاب آخر علنى لوقوفه إلى جانب الخشاب ، بل إنه عين نيشانجى nisanci ؛ أى أنه أصبح الموظف المسئول عن كتابة الطغراء السلطانى فى الوثائق الإمبراطورية (العثمانية) و الطغراء هى الشكل المنمق بطريقة فنية لتوقيع السلطان ، ثم جرى نقله (أى راغب باشا) إلى وظيفة

محصل لناحية أيدين Aydin فى غرب الأناضول (والمحصل هو جامع الضرائب أو القائم على تحصيلها) وهى مهمة حساسة (ومن السخرية أن الناحية تقع عند سفح جبال القازداغى kazdagi) وربما كان شغله لهذا المنصب فى ناحية صغيرة مثل أيدين Aydin يشير إلى أنه على نحو ما لم يعد أثيرا لدى الحكومة المركزية ، وقد يكون هذا ناشئا - على نحو جزئى - عن مسلكه فى مصر ، وعلى أية حال فلم يكن راغب باشا شديد الأسف لمغادرته مصر ، لقد تعب من حكم " أم الدنيا " (المقصود مصر) كما ورد فى قصيدة كتبها ، وقال فيها أيضا : "هذا يكفى . كفى ما عانيته من القاهرة، دعونا نسرع عائدين إلى الروم Rum " (٢٦) ولا يمكن أن نعتبر عزله من باشاوية مصر هزيمة عنيفة ساحقة لأنه كان قد قضى فى القاهرة أربعة أعوام زائدة عن الفترة التى قضاها معظم الباشات (الولاة العثمانيين فى مصر) .

ولاشك أنَّ كثيراً من العناصر التى كان لها دور فى تدهور حظوظ الفقارية وازدهارهم مرة أخرى ، ثم ما تعرضوا له من إحباط - زامنت صعود نجم الجاويش إبراهيم القازدغلى ، وفى المقام الأوَّل كانت المعاملة النمطية للحكومة العثمانية للأمراء grandees المحليين الذين حاولوا استغلال " الرياسة " لتحقيق أغراضهم الشخصية ، لكن هناك عوامل أخرى لعبت - بالتأكيد - دورا آخر فيما حدث فإذا كان الخشاب - تابع البيك عثمان ذى الفقار - وجد فى الباشا العثمانى راغب حليفا فقد وجد البيك عثمان نفسه - فيما يظهر - حليفا فى البلاط العثمانى ، ولا يمكن لغير هذا أن يفسر لنا سرعة توطنه فى العاصمة العثمانية وتغلغله فيها ، لكن حدث فى الوقت نفسه أن هذه السرعة التى حقق بها هو وأتباعه نفوذا وُوجِهت مرّة أخرى بصراع على السلطة فى العاصمة العثمانية ، وقد أدىَّ موت الأغا الحاج بشير الذى كان معتادا على دَعم الأخلاف الفقارية فى سعيهم " للرياسة " وربما كان موته لكمة عنيفة للفقارية كما كانت للقطامشة ، والنقطة المعبِّرة فى هذا الصدّد هى هروب البيك حسين الخشاب إلى صعيد مصر (وليس إلى إستانبول) ومن ثم إلى الحجاز ، وذلك أنه ربما أحس أن إستانبول قد توقفت عن تقديم المأوى لأنصار البيك عثمان ذى الفقار المهزومين ، وربما كان توقف دعم البلاط للفقارية هو العامل الكامن وراء نقل البيك عثمان إلى أدرنة ، وقد استفاد الجاويش عثمان من ناحيته من الرحلة التى قام بها للقاهرة - خلال سنى الخمسين من

القرن الثامن عشر – الأغا أبو كوف أحمد الذى سيصبح مستقبلا كبير الخصيان السود ، و الذى كان من ألد أعداء الباشا راغب (٢٧) .

وعلى هذا فالتحليل النهائى يشير إلى أن صعود نجم الجاويش إبراهيم القازدغلى لم يكن نتيجة تمرد جسور وإنما بدا نتيجة قدرته فى تنصيب نفسه خادما وحيدا شديد الولاء للسلطان وسط مجموعة من الانتهازيين يخدم كل منهم مصالحه الخاصة ، لقد ظل حذرا متدبرا حتى وهو قابض على " الرياسة " على عكس أسلافه فى الرياسة فلم يحتفظ بإرسالية الخزينة وإنما كان يرسلها دوما إلى إستانبول (٢٨) ، هذه الحكمة وهذا النظر البعيد مكّناه من البقاء فى السلطة مساندا مؤازرا حتى مماته ، بينما أتاح له فى الوقت نفسه جمع مبالغ كبيرة من مصادر أخرى غير الإرسالية (إرسالية الخزينة الآنف ذكرها) ، وكان المصدر الأساسى من بين هذه المصادر بطبيعة الحال الالتزامات الزراعية العديدة التى يتولاها البكوات .

تحالف الجاويش إبراهيم مع الكخيا رضوان الجلفي والتغلغل في البكلرية

أدّى إبعاد الزمرة الفقارية ومجموعة (زمرة) القطامشة مع الزمرة الدمياطية إلى فراغ كبير فى طبقة البكوات ، وقد تم ملء هذا الفراغ إلى حد كبير بأتباع الجاويش إبراهيم القازدغلى و الكخيا رضوان الجلفى ، لكن لماذا اختار إبراهيم ورضوان – فى هذه المرحلة ترقية أتباعهما والدفع بهم إلى رتب البكلرية (البكوية) أكثر من التعويل على التحالفات الاستراتيجية مع الزمر البكلرية السائدة (مجموعات البكوات الموجودين بالفعل) ؟ لقد بقى بعض من مثل هذه الزمر البكلرية أقامت معها القازدغلية تحالفات طويلة المدى خاصة البلفية الذين تقلص عددهم كثيرا، وزمرة الفلاح وهى زمرة أسسها شخص من أصل فلاحى (٢٩) ، واستمرت هذه الزمر فى معسكر القازدغلية خلال فترة الحكم الثنائى (فترة الحكومة الثنائية ، حكومة إبراهيم ورضوان) (١٧٤٨ – ١٧٥٤) رغم أنها كانت فى مواضع التابعين أو الملحقين ، فعلى سبيل المثال ، فى عدة مناسبات كان منصب أمير الحاج – وهو منصب بكلرى أساسى – بمثابة مكافأة لأحد أعضاء الزمرة البلفية (٣٠) ، ومع هذا فمجموعة الوثائق "المهمة" تعطينا انطباعا أنه

بحلول عام ١٧٤٨م . كان القازدغلية هم المجموعة الوحيدة التى خلّت الحكومة المركزية أمامها السبيل باعتبارها قادرة على التعامل مع شئون مصر ، لقد كانت رغبة الجاويش إبراهيم الأكيدة فى تحدى أقوى الزمر البكلرية (أقوى الزمر التى كوّنها بكوات) دالّة على أنه اعتبر نفسه لا يقل عنها شأنا ودالّة على أنه فى الحقيقة كان مكونا لمجموعة تحالفات إستراتيجية بالغة الأهمية ، وبالغة الاتساع .

فلم تكن شراكة الجاويش إبراهيم للكخيا رضوان الجلفى مجرد تحالف إستراتيجى على نمط التحالفات القازدغلية الباكرة ، تلك التحالفات التى كانت تسعى للتوافق مع الزمر التى كان من المحتمل أن تكون زمرا منافسة مثل : الجدك Gediks وذى الفقارية و القطامشة ، وإنما كانت هذه التحالفات الجديدة تنطوى عل الدور الجلفى التقليدى وهو القيام بدور الوسطاء بين الزمر الأقوى والقيام بدور التابع لها ، فالكخيا رضوان – كما رأينا – كسر الارتباط الجلفى التاريخى التقليدى ببيت house ذى الفقار بانضمامه إلى الجاويش إبراهيم ضد البيك عثمان ذى الفقار فى نزاع فرشوط فى سنة ١٧٤٣م ، وفى وقت تولية الباشا راغب ولاية مصر كان الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان يشكلان حكومة من اثنين A pair ، وعندما وصل بهما الأمر إلى القبض على فرمان الرياسة فى سنة ١٧٤٨م اتفقا على أن كل ما يقع فى يد الكخيا إبراهيم من التوابل أو غير ذلك من الأموال المنتزعة أو المغتصبة يقدم ثلثه للكخيا رضوان (٣١) لقد كان اتفاق هذين الضابطين يشبه الشراكة التجارية المعروفة باسم المضاربة Commenda حيث يقوم إبراهيم بدور المشارك الفعلى (الفعال) الذى ينفذ الصفقات التجارية ، أما رضوان فهو الشريك السلبى الذى يقدّم ماله للاستثمار ، ولا يقوم بأى شىء آخر سوى القليل (٣٢) وربما كان رضوان هو الذى موّل بشكل جيد معظم المغامرات التجارية والمضاربات ، والحقيقة أن الموارد المالية التى أتاحتها له رتبة الكخيا جعلته شخصا مطلوبا تماما من وجهة نظر إبراهيم ، فالمشروعات المعمارية التى كان الكخيا يستطيع تمويلها ، تضفى الشرعية على حكومة الاثنين (حكومتهما الثنائية) وتسمح لها بوضع علامات دائمة من خلال المشروعات الخيرية الضخمة المعروفة باسم" المآثر" .

وبالإضافة إلى الهدف التجارى (المتعلق بالبزنس) للشراكة فقد بدت حكومة الاثنين (الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان) تدار وفقا لخطة دقيقة يتم من خلالها اقتسام السلطة ، فعلى سبيل المثال ، عندما شرعا فى ترقية أتباعهما لرتب البكلرّية ، أخذا على نفسيهما عهدا بأن يرقى كل منهما العدد نفسه وفى الوقت نفسه ، إنه لأمر أساسى فى حكومة الاثنين أن يتم توازن القوى بين زمرتى كليهما ، فهذا المبدأ (مبدأ القسمة المتساوية) احتفظت به الأزواج الحاكمة pairsمن بكوات القازدغلية فى أواخر القرن الثامن عشر الذين حاولوا إدارة مصر بشكل جماعى jointly (٣٣) .

وبالنسبة للأتباع الذين رفعهم الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان للبكلرية فقد كانوا على سبيل المثال من رتبة الأغات (الأغوات) من مختلف الأوجاقات العسكرية (الفرق) ، وقد أيد الجاويش إبراهيم مطالبة أمير الحاج البيك هليل قطامش بمنصب حاكم جرجا ، أثناء مواجهته للبيك عثمان ذى الفقار بشأن فرشوط فى جرجا ، وعلى أية حال فإنه عند إعدام البيك هليل قام الجاويش إبراهيم بترقية تابعه عثمان القصير(٣٤) أغا كتائب المتفرقة إلى البكوية (البكلرية) وأقرّه على جرجا ، وفى الوقت نفسه فإنه تنفيذا لمبدأ اقتسام السلطة قام الكخيا رضوان بترقية تابعه أغا كتائب العزبان (إسماعيل) للبكلرية وولاّه حكم المنوفية (٣٥) ، وبإجراء هذه التعيينات على النحو الآنف ذكره يكون إبراهيم ورضوان قد أحييا نظام الترقى من رتبة الأغا إلى البكلرية ، ذلك النظام الذى ساد أواخر القرن السابع عشر ، وهذا المسار فى الترقية يبدو ملازما لرجحان كفة ضباط الأوجاقات بين النخبة العسكرية ، وكان هذا على سبيل المثال سمة لأوج البلفية (أو بتعبير آخر للبلفية فى أوجها) وأكثر من هذا فإن أول محمى (خاضع لحماية) الكخيا تتم ترقيته إلى بك هو مصطفى تابع الكخيا حسين الدمياطى الذى كان برتبة أغا ، إن تبعية الكخياوات لرتبة الأغا مكنتهم من استخدام هذه الرتبة كطريق للبكوية .

ولا زال هؤلاء الأغوات لا يتبعون فى وصولهم لهذه الرتبة طريق الترقية المعتاد فى الأوجاقات ، وكقاعدة عامة لم يكن أى جاويش رُقى إلى رتبة كخيا يُرقى بالضرورة إلى أغا ومنها إلى بك (٣٦) ، وفى حالات استثنائية كان الجنود فى رتبة شوربجى وما دونها ، وكذلك الرجال الذين لا يندرجون فى الأوجاقات (الفرق العسكرية) كان

يمكن تعيينهم أغوات كاستثناء خاص (٣٧) لكن بشكل عام كان يمكن تبيّن مسارين محددين للترقية بين الأوجاقات بحلول منتصف القرن الثامن عشر: الترقية من الجاويش إلى الكخيا ، وهذا الطريق يؤدى إلى السيطرة على الأوجاق (الفرقة) ، والترقية من رتبة الأغا الى البكلرية (البكوية) وهذا الطريق يؤدى إلى السيطرة على حكم الأقاليم (الايالات ، والنواحى ، والجهات)، وكما رأينا – قد أصبح حالة خاصة ، بل أكثر من هذا فبحلول أواخر القرن الثامن عشر لم يعد الأغوات الإنكشارية يتناوبون أو يتعاقبون بين هذا المنصب ، ومنصب السوباشى subasi أو الوالى الذى كان ينضم إلى أغا الإنكشارية فى ضبط الأمن فى القاهرة ، ولتحاشى قيام تحالفات ملائمة مع الزمر البكلرية بعد الفقارية والتى كانت عنصرا جوهريا للاستراتيجية القازدغلية السابقة ، لقد أقحم الجاويش إبراهيم الزمرة القازدغلية نفسها فى البكلرية، وكانت السيطرة المباشرة على المناصب البكلرية الأساسية – خاصة إمارة الحاج – من بين اهتماماته بلا شك ، وقد أظهر الضباط القازدغلية – الذين كانت علاقاتهم متوترة بشكل متزايد مع البيك عثمان ذى الفقار أمير الحاج الذى احتفظ بمنصبه لفترة طويلة – أظهروا أن ثروات سردار قطار الحاج الإنكشارى قد تم احتجازها رهينة على يد أمير الحاج العنيد ، ومما زاد الأمر سوءا ما تعرضت له مصالح القازدغلية التجارية بسبب رغبة الحكومة العثمانية المركزية فى تقوية منصب أمير الحاج على حساب تجار البن الذين ارتبط بهم القازدغلية ارتباطا وثيقا ، لقد أجبر الأمران الصادران فى سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م التجار المتعاملين فى طريق الحجاج على دفع ضريبة عن كل جوال sack (ferde) بن لأمير الحاج لحمايتهم من هجمات البدو، وكانت هذه الأوامر تهدف إلى تخفيض المصروفات التى تخرج من الخزانة العثمانية لرعاية قافلة الحاج ، وما يتعلق بالحج من أمور ومنع التجار من السرقة من الأموال الحكومية (٣٨) ، لقد استطاع الجاويش إبراهيم بسيطرته على قافلة الحاج وتجارة البن أن يخفف من وطأة تدخل الحكومة العثمانية فى أية عملية من عمليات المقايضة بين التجار وأمير الحاج (قائد قافلة الحاج) .

وبالنسبة للتحكم فى تجارة البن وقيادة قافلة الحاج ، كان هذا يعنى التحكم فى قرى صعيد مصر التى تنتج الحبوب التى تنقل إلى المدينتين المقدستين ، وفى بعض الحالات

كانت تتم مقايضة بعض هذه الحبوب بالبن ، وسنذكر أن الجاويش إبراهيم كان بالفعل يبذل قصارى جهده للحصول على التزامات القرى لنفسه وجماعته his party فى الأيام التى كان فيها لا يزال مقيدا أثناء منافسته للبيك عثمان ذى الفقار، وحتى فى ذلك الوقت ، كان أكبر الالتزامات الزراعية ، بالإضافة إلى حكم الولايات والأقاليم (الداخلية) . محل اهتمامه ومجال تفكيره خاصة ولاية جرجا التى كانت أكبر ولايات مصر ؛ إذ كانت هى سلة الخبز الخاصة بمصر ، وبطبيعة الحال أدى تجاوز الجاويش إبراهيم إلى فراد البيك عثمان إلى إستانبول ، وكما رأينا فإن الجاويش إبراهيم لم يضع وقتا فى تأكيد سلطته المباشرة على سلة خبز مصر (جرجا) بترقية تابعة الأغا عثمان القصير إلى البكوية (البكلرية) وتعيينه حاكما على جرجا .

حقيقة لقد كان الاهتمام بالسيطرة على إمدادات الحبوب و إمارة قافلة الحاج هما اللذان أمليا على الجاويش إبراهيم الترقيات الثلاثة إلى رتبة البكوية التى أجراها أثناء حياته ، وبالإضافة للأغا عثمان القصير رقى الجاويش إبراهيم ، والكاشف على القرد (عرف أخيرا بالغزاوى) و الأغا حسين كشكش [٣٩] ، وكان البيك على القرد أمير حاج بالفعل فى سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩م ، بينما كشكش - بعد أن قضى عاما كحاكم governer (كاشف) للمنصورة ، أصبح مديراً director (أمين Amin) لمخازن الغلال (الحبوب) فى القاهرة ، وأخيرا سيقود قافلة الحجيج أربع مرات فبث الرعب فى قلوب البدو الذين كانوا يشنون الغارات على القوافل [٤٠] .

لقد أثبت الجاويش إبراهيم و الكخيا رضوان بشغلهما مناصب البكوية (البكلرية) بأتباعهما أنهما حققا أقصى درجات النجاح ، رغم أنه كاد هذا التعيين يكون قصرا على ضباط الأوجاقات (الفرق العسكرية) ، إنه لمن الواضح أن هؤلاء الضباط قد حسموا مستقبل الزعامة العسكرية فى مصر بوضعها فى البكلريّة ، أو بتعبير آخر ادخروها lay in مستقبلا البكلريّة ، لأن طبيعة للبكلريّة نفسها كانت قد تغيرت عن القرن الماضى ، فلم يعد الترقى إلى البكلرية عقابا يفرض على ضباط الأوجاقات (الفرق) المفرطين فى طموحهم ، بل لقد أصبح هذا الترقى (إلى البكلرية) وسيلة مرغوبة جدا للوصول إلى السلطة والنفوذ بشكل مبرز ، فبعد موت الجاويش إبراهيم (١٧٥٤م) بفترة وجيزة طالب تابعاه الكاشف حسين الصابونجى ، و الأغا كجك على

(الذى سيصبح فيما بعد بولوت كابان أو البيك على) ، طالبا الكخيا رضوان الجلفى أن يجعلهما بيكين ، وكى يتم الاحتفاظ بالمساواة القازدغلية الجلفية كان رضوان مضطرا لترقية اثنين من أتباعه أيضا وهما الكاشف محمد والكاشف على ، والحقيقة أن ثلاثة من هؤلاء الأربعة كانوا بالفعل كشاف (جمع كاشف) ؛ أى حكام لولايات أو جهات مصرية فرعية minors مما يشير إلى أن السلطة الرائجة أو الغالبة فى مصر قد انتقلت من الأوجاقات لـ الفرق العكسرية القائمة فى غالبها على أسس حضرية urban base إلى السيطرة على الإدارة الريفية (إدارة الأقاليم) التى يمارسها البكوات مرتبطين بالكشاف (جمع كاشف) (٤١) .

وربما كان الاعتراف بهذا التحول فى القوى هو الذى جعل الكخيا إبراهيم القازدغلى لا يجد إزعاجا فى إعداد واحد من أعضاء زمرته ليخلفه فى رتبة كخيا إنكشارى ، فقد سمح للكخيا عبد الرحمن بن رئيس الزمرة القازدغلية فى بواكير القرن الثامن عشر وهو الكخيا حسن ليكون زعيما للزمرة (القازدغلية) وقائدا للأوجاق الإنكشارى فى الوقت نفسه ، وحالة الكخيا عبد الرحمن حالة - فى حد ذاتها - جديرة بالتوقف عندها لأنها توضح النهاية الأقل عظمة التى تردّى فيها الفرع الرئيسى للزمرة القازدغلية ، فعندما نفوا القطامشة و الدمايطة (الزمرة الدمياطية) وجدنا الحكومة المركزية تشك فى أن الكخيا عبد الرحمن - وكان وقتئذ جاويشاً - يتآمر مع الزمر المعزولة proscribed parties ويعمل معها على الهروب إلى الحجاز ، ورغم عدم وجود دليل على تعاطف خاص بين عبد الحمن و أى من الزمرتين (القطامشة والدمياطية) فإن الدمرداشي يذكر أن عبد الرحمن على أدى الحج فى سنة ١١٦١هـ / ١٧٤٨م . لصحبة الجاويش شريف sherif على الدمياطى الذى مات فى الحجاز ، وأخيراً تم العفو عن عبد الرحمن على أن يبقى فى الحجاز بالشروط نفسها التى انطبقت على القطامشة ، وبناء على التماس كبار ضباط الأوجاقات السبع "كبار الضباط أو الاختيارية " سمح له - على أية حال - بالعودة إلى مصر "وطنه الأصلى"(٤٢) ، وكان المحرك الأول وراء هذه الوساطة هو - فيما يبدو الكخيا إبراهيم القازدغلى نفسه ؛ إذ طلب من البيك عمر اختيار أمير الحج إرجاع عبد الرحمن (٤٣) .

وبينما كان الكخيا إبراهيم على قيد الحياة ظل الكخيا عبد الرحمن غير فعال من الناحية السياسية أو بتعبير آخر ليس له دور سياسى كبير إلا أنه – على أية حال – تولى بشكل مفاجئ أمر أتباع إبراهيم واستخدمهم لاجتثاث الكخيا رضوان الجلفى ذى الحظ التعس ، لقد طاردت القوات القازدغلية حلفاءها السابقين فى صعيد مصر حيث مات ميتة بطيئة مؤلمة نتيجة طلق نارى أصابه بجرح فى ذقنه (٤٤) ، وبعد النهاية المحزنة التى واجهها رضوان استمر الكخيا عبد الرحمن فى ترقية أتباع الكخيا إبراهيم للبكلرية ، ولم يظهر أبداً أن عبد الرحمن قد أقام لنفسه زمرة مكتملة نابتة الريش (يمكنها الاستقلال بذاتها) ويبدو هذا أقرب ما يكون إلى ظرف استثنائى إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه كان قد ورث ثروة عدد من الضباط النافذين (ذوى النفوذ) وجمع أموالا كثيرة من خلال صفقاته التجارية الخاصة ، والمراجع الثانوية أكدت – بشكل نمطى – أن عبد الرحمن اتخذ قرارا محسوبا بالانسحاب من مجال العمل السياسى مفضلا تكريس نفسه للبناء والأشغال العامة (٤٥) ، ومثل هذه الحجة – على أية حال – تفشل فى شرح السبب الذى جعل عبد الرحمن يقصى رضوان الجلفى عن السلطة على هذا النحو العنيف إن كان حقا قد قرر الكف عن طموحاته السياسية ، وبطبيعة الحال ، فإن عبد الرحمن وإن كان لم يكوّن قاعدة سلطة ونفوذ من إنشائه فإنه راح يناور بأتباع الكخيا الراحل إبراهيم القازدغلى ، وكان لدى هؤلاء الأتباع القازدغلية كل سبب يجعلهم راغبين فى تدبير توازن القوى الذى كان إبراهيم ورضوان حريصين عليه ،لأنهم بفعلهم هذا سيخلصون أنفسهم من الالتزام باقتسام مناصب البكوية ، والعوائد المالية بالاتفاق مع أتباع الجلفى ، وعلى أية حال ففى ظل هذه الظروف يمكن للمرء أن يتوقع أن عبد الحمن فى محاولته تكوين أتباع له لتجنب أن يكون أداة لتحقيق أغراض أتباع الكخيا إبراهيم ، والتفسير المحتمل لتراخيه (السياسى) هو أنه عقد اتفاقا مع الكخيا إبراهيم فى مقابل عودته لمصر والسماح له بالإقامة فيها مرة ثانية ، وربما كان هذا الاتفاق ينص على ألا يجمع أتباعا عسكريين (ألا يكِّون زمرة عسكرية) ، وألا يتحدى حكومة الاثنين (حكومة إبراهيم ورضوان) طوال فترة حياة إبراهيم ، ورغم عدم وجود دليل قوى لوجود مثل هذا الاتفاق غير العدوانى فإن مثل هذا الاتفاق يسهم كثيرا فى تفسير

مسلك عبد الرحمن ، كما أن مثل هذا الاتفاق يتمشى مع تقاليد الرفقة Comrads الثانوية أو التابعة أو المرتبطة بغيرها أو المساعدة - تلك التقاليد التى اكتملت على أيدى القازدغلية و الجلفية / فيما كان الكخيا إبراهيم لا يسعى لمشاركة الكخيا عبد الرحمن فإنه ربما كان يخطط لتحييده .

لقد برهن الكخيا عبد الرحمن أنه حتى بين كتائب الانكشارية - لم يكن قادراً على تأكيد نفوذ قوى ،لقد قبض على زمام السلطة فى أوجاق الإنكشارية بدءا من سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٦م حتى نفاه بلوط قابان (البيك على) عتيق الكخيا إبراهيم - إلى الحجاز فى سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥م ، بل أن عبد الرحمن لم يكن أبداً بقادر على استغلال السيطرة على أوجاق الإنكشارية لتحقيق نفوذ سياسى قوى رغم أنه كان خبيرا فى استغلالها فى تحقيق ثروات خاصة وإقامة مبان مثيرة للإعجاب ، وهو فى هذا كان على نقيض الكخيا إبراهيم ، وحتى فى السنوات التى تلت موت الكخيا إبراهيم وجدنا عبد الرحمن فاشلا فى جمع زمرة من الأتباع يستطيع بهم توجيه الأمور من خلال رتب الإنكشارية ، فقد ظلت رتب الضباط العليا مشغولة بأتباع الكخيا إبراهيم حتى أواخر القرن الثامن عشر تماما ، وقد خلفهم إما أتباعهم أو أتباع البكوات ممن كانوا رعية إبراهيم (أى ممن كانوا تحت حمايته proteges) ، وبهذه الطريقة فإن زمرة الكخيا إبراهيم التى ظلت بعد موته قد كبحت سلطة الكخيا عبد الرحمن فى الصميم .

وفى هذه الأثناء ألقت البكلرية بظلالها تماما على كتائب الإنكشارية ، هذه البكلرية التى أصبحت الآن وقد هيمن عليها أكثر أتباع الكخيا إبراهيم طموحا ، والحقيقة أن عبد الرحمن كان أخر كخيا إنكشارياً غازل السلطة السياسية الحاسمة ، وظل الكخياوات الأثرياء ذوو النفوذ يظهرون فى الحوليات والوثائق الأرشيفية ، ومنهم على سبيل المثال الكخيا محمد أباظة وهو مملوك الشوربجى (رتبة عسكرية) محمد الصابونجى(٤٦) الذى سنتعرّض له الآن ، لقد رقاه لرتبة كخيا محمد أبو الذهب عتيق على بيك الكبير (بلوط قابان) ؛ وعند وصول محمد أباظة لرتبة الكخيا اشترى كثيرا من المماليك وأصبح ذا نفوذ كبير ، لكن مجال اهتمامه لا يوضح إلا كيفية كون النفوذ الذى مكن الكخياوات من التغلغل فى البكلرية قد انقلب على رأسه بفعل زمرة إنكشارية

أصيلة جعلت رتبة الكخيا فى ذروة رتبها ذات النفوذ وبدلا من لعب دور "صانع الملوك" بالنسبة للبكوات فإن أعلى ضباط الإنكشارية رتبا أصبحوا الآن فى خدمة البكوات أهواء البكوات ، ومن الملاحظ أن هذا التحوّل قد أنجزته زمرة الكخيا إبراهيم خلال جيل من موته (موت إبراهيم) .

الجورجيون والأبخاز (من أبخازيا أو أفخازيا)

لقد رأينا أن الزمرة القازدغلية عقب موت مؤسسها الكخيا مصطفى شكلت قيادات كانت فى غالبها من المماليك القوقازيين ، وعساكر وضباط صف كانوا فى غالبهم من أصول أناضولية فى الأساس ، ومع هذا فمن غير الممكن أن نكون متأكدين من الأصل العرقى لأى قائد أو زعيم بالذات أو أن نحدد الأصل العرقى لأى تكتل داخل الزمرة ككل ، وعلى أية حال فبدءاً من زمرة الكخيا إبراهيم بدأ المماليك الجورجيون والأبخاز (أو الأفخاز) يسودون الزمرة القازدغلية ، ولا شك أن أبرز هؤلاء كان هو بلوط قبان (البيك على) مملوك الكخيا إبراهيم ، وقد عرف بلوط قبان بعد ذلك باسم البيك الكبير على (على بك الكبير) وكان البيك محمد أبو الذهب مملوك أبى الذهب ، وهما البيك إبراهيم والبيك مراد ، جميعا إما من أصول جورجية أو أفخازية ، لقد كانوا جزءا من الجورجيين متزايدى العدد الذين أصبحوا بارزين فى مصر وفى الإمبراطورية العثمانية عامة بعد انهيار الإمبراطورية الصفوية فى إيران فى سنة ١٧٢٢م ، لقد كان الصفويون يستخدمون المماليك الجورجيين بأعداد كبيرة خلال أواخر القرن السابع عشر ، وأدى انهيار الإمبراطورية الصفوية إلى تحرير مصدر العبيد slaves (المماليك) الجورجيين لصالح العثمانيين (كانت جورجيا الغربية فى ظل النفوذ العثمانى وكانت مصدرا مهما للرقيق ‹ المماليك › منذ أواخر القرن الخامس عشر) ، وأكثر من هذا ففى سنة ١٧٢٤م . وقعت الإمبراطورية العثمانية وروسيا اتفاقية تعطى للعثمانيين حق السيادة على كل جورجيا ، واحتفظ بها العثمانيون حتى سنة ١٧٣٥ (٤٧) ، وقد استغل البلاط العثمانى – بحماسة شديدة – هذا المدد الجديد من القوى البشرية ، كما فعلت الشيء نفسه النخبُ العثمانيةَ فى الولايات ، فولاة بغداد الذين كانوا يتمتعون بالحكم

الذاتى – يعدون مثالا واضحا على ذلك ؛ إذ كونوا لأنفسهم بطانات من هؤلاء المماليك الجورجيين حكموا (أى هؤلاء المماليك) الولاية فى النهاية (٤٨) ، وقد حذا نبلاء مصر حذو ولاة بغداد ،لقد كان القادة العسكريون فى مصر يتعرضون بانتظام للجورجيين البغداديين ما دامت الفرق العسكرية القادمة من مصر لمواجهة الإيرانيين كانت تتجمع بشكل نمطى فى بغداد ، حيث كان والى بغداد هو – فى غالب الحالات – القائد الأعلى لهذه الحملات (٤٩) وكما سنرى فإن هناك أدلة مستقاة من هذه الظروف تجعلنا نفترض أن النبلاء القادمين من مصر قد يكونون قد حصلوا على المماليك الجورجيين من العراق ، وتعكس السجلات العسكرية للرواتب ذلك ، فقد كانت جورجيا هى المصدر الرئيسى للقوى البشرية (العسكرية) حتى فى سنى السبعين من القرن السابع عشر (١٦٧٠– ١٦٧٩) و أصبحت هى المصدر الوحيد الأكثر أهمية للتجنيد العسكرى من خارج مصر فى سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ – ١٧٣٩) . (انظر الجدول ٣ /٣) .

وأول زمرة مصرية كبيرة أسسها الچورچيون أو الأفخاز هى فيما يبدو الزمرة القطامشية ، وكان مؤسسها البيك محمد قطامش مملوكا جورجيا أو أفخازيا للبيك قيطاس الزعيم الفقارى وهو كردى فيما يقول الدمرداشى ، وقد أطلق بدو صعيد مصر على البيك محمد هذا اسم البيك محمد قطامش على اسم بائع حلوى (حلوانى) فى القاهرة (٥٠) ، وعلى أية حال فمن الممكن أن لقب البيك محمد (قطامش) يرجع إلى أصل جورجى أو أفخارى ، ويصف إيفليا جلبى (شلبى) قبيلة أفخازية فى القوقاز الغربى معروفة باسم كاميش kamish (وتعنى بالتركية : القصب أو المزمار) ولاحظ أنه بين قبيلة كاميش هذه ، يوجد أطفال الأباظة the children of Abaza يرسلون من (؟) إستانبول (القسطنطينية) والقاهرة "(٥١) وقد يكون هذا اللقب (قطامش)مشتق من حاضرة (عاصمة)جورجيا الغربية كوتيسى kutaisi التى حوّر العثمانيون نطقها إلى قوطايس kutais وعلى النحو نفسه أصبح الجنود الأفخاز أو الأباظيون of abaza كثيرى العدد فى مصر ، ومما يثبت صحة ما ورد فى كشوف الرواتب العسكرية فإن الزمرة البكلرية الأباظية بدأت فى البروز فى حوالى الفترة التى صعد فيها نجم الكخيا إبراهيم ، ورغم أن الأباظية كانوا بادئ ذى بدء متحالفين مع البيك حسين الخشاب

والبيك عثمان ذى الفقار ، فإن أحد أفراد زمرتهم وهو البيك حمزة أباظة تخلى عن زمرة راعيه وهو البيك محمد أباظة ليلتحق بزمرة الكخيا إبراهيم (٥٢) ومثل الشركس حظى الجورجيون و الأفخاز بالتقدير لمهارتهم فى ركوب الخيل وبسالتهم فى الحرب (٥٣) .

وعلى أية حال فإن هذا الحشد الجديد من الجورجيين و الأفخاز لم يكن يعنى الرغبة فى السيطرة القوقازية (سيطرة العناصر القوقازية) بين نبلاء مصر فى منتصف القرن الثامن عشر.

فالطريقة التى أقام بها الكخيا إبراهيم القازدغلى زمرته تؤكد أنه لم يلتزم بضرورة تحديد عرق بعينه أو بتعبير آخر لم يضع الاعتبار الإثنى نصب عينيه ، فإذا تفحصنا الأتباع الذين رقاهم الكخيا إبراهيم إلى (البكلرية) أثناء حياته ،وكذلك الذين تمت ترقيتهم بعد موته مباشرة (إلى البكوية) لوجدنا عددا كبيرا من الذين تخلوا عن زمرهم أو انتماءاتهم والمستعدين للانضمام إليه دون عناء ، فالبيك على القرد الذى عرف بعد ذلك بالغزاوى وإخوته كانوا مماليك لكبير الخصيان السود فى إستانبول ، بينما كان البيك حسين الصابونجى قد عمل فى وظيفة مسئول الخزانة (خازندار) للشوربجى محمد الصابونجى فى كتائب العزبان ، وفى هذه الأثناء كان البيك حمزة ينضم إلى زمرة الكخيا إبراهيم ، وكان معظم هؤلاء البكوات من أصول جورجية أو أفخازية ، وعلى أية حال فلم تكن أصولهم العرقية (الإثنية) هى وحدها الكامنة وراء اختيارهم و إنما كان الهدف هو تقوية قبضة الكخيا إبراهيم و أخلافه على طريق الحج إلى مكة والمدينة وتقوية قبضته أيضا على قرى الالتزام الغنية بالحبوب فى صعيد مصر ، وكل هؤلاء البكوات ــ مثلهم مثل أتباع إبراهيم الذين ذكرناهم آنفا – خدموا فى أوقات مختلفة فى حراسة قوافل الحجيج ، وولاة على القرى المنتجة للحبوب وعلى الولايات الداخلية فى مصر (٥٤) .

وكانت عملية التضامن العرقى أو الدمج بين الأعراق المختلفة أبعد ما يكون عن هدف برنامج الكخيا إبراهيم وإنما هو قد استخدم السيطرة على الصعيد ، وضبط طريق الحج ، وتكوين روابط قوية بالبلاط العثمانى كاستراتيجيات أساسية لتكوين زمرته ، ومع هذا فعند موته كانت زمرته تضم بالفعل عددا غير قليل من الجورجيين و الأفخاز ، وفى أواخر حياته عندما نعم بنفوذ رتبة كخيا الإنكشارية وما تدره الرتبة

من دخل كـان بلا شك قـادرا على اخـتـيـار مماليكه مما جـعله يفـضل هذا على ضم الأعضاء غير المؤثرين أو المطرودين من زمر أخرى ، وربما يكون أيضا قد اختار أن يكون فى زمرته عدد كبير من الجورجيين و الأفخاز ، وربما يكون الكخيا رضوان قد حذا حذوه فى تطبيق استراتيجية جمع الجورجيين و الأفـخاز وهرب إتباع الكخيا رضوان الجلفى إلى بغداد عندما سار الكخيا عبد الرحمن القازدغلى على دربهما بعد موت رأعيهم ، وقيل أنهم استوطنوا هناك (٥٥) وكانت بغداد وقتها تحت حكم ولاة مماليك جورجيين يتمتعون بالحكم الذاتى ، وكان الوالى الباشا حسن وابنه أحمد قد اقتنياهم (أى هؤلاء المماليك) (٥٦) . ويمكن للمرء أن يستنتج أن أتباع رضوان اختاروا لأنفسهم هذا المنفى (البعيد) غير المعتاد لأن المماليك الحاكمين فى بغداد هم أيضا من أصول جورجية بل وكان فى مقدورهم أن يأتوا للقاهرة قادمين من بغداد .

ولا شك أن تخمينات كثيرة طرحت بشأن الأصل العرقى لعلى بيك (بلوط قابان) الذى بدأ نشاطه بداية متواضعة تواضعا شديدا - كما ورد فى صفحات حولية الدمرداشى - فقد كان هو الأغا على كجك مملوك الكخيا إبراهيم ، ورقاه للبكوية الكخيا رضوان الجلفى بعد موت سيده (الكخيا إبراهيم) (٥٧) ، والروايات عن أصل البيك على (بلوط قابان) لا تتفق إلا على أنه بدأ حياته مسيحيا ويؤكد الرحالة الفرنسى فولنى volney أن البيك على كان أفخازيا ، ويسخر من مواطنه (الفرنسى) الذى برهن على أن البيك على كان ابنا لقس يونانى أرثوذكسى ، اعتمادا على ترجمة موثقة لحياة هذا البيك كتبها اس .كى .لوزينان (٥٨) lusignan ، ويتفق مع فولنى فى الرأى الباحث العثمانى صمدى زاده فندقليلى سليمان أفندى الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، ففندقليلى الذى صحب الوالى الباشا راقم Rakim إلى مصر فى سنة ١٧٦٨ ، وقضى عدة شهور هناك - زعم أن البيك على كان يعمل على فرض سيطرة أفخازية فى مصر ، فعندما سمع بهزيمة العثمانيين أمام الروس قال " ليس هناك وقت أكثر مناسبة لتسلط الأفخاز من هذا الوقت " (٥٩) وكان مشروعه يهدف إلى عقد مفاوضات مع روسيا بقصد التحالف معها ، ومن ثم يمد يده للقوقاز مما يضمن له مددا مستمرا من المماليك الأفخاز (٦٠) .

ومهما كان مدى صحة هذه الروايات فإن حقيقة نظريات المؤامرة الأفخازية كانت منتشرة يتداولها الناس وقت صعود نجم البيك على (الكبير) مما يشير إلى أن الزمرة القازدغلية قد أضافت مساهمة جورجية كبيرة بالإضافة إلى (أو) أعداد من الأفخازيين لصفوفها خلال تولى الكخيا إبراهيم وبعد موته ، ويميل المسئولون العثمانيون مثل فندقليلي سليمان أفندى إلى تفسير هذا التكتل العرقى (الإثنى) باستدعاء قوالب (نماذج نمطية) عن حركات تمرد جورجية أو أفخازية لولاة فى القرن السابع عشر(٦١) .

وإذا كانت التكتلات العرقية (الإثنية) ظهرت فى ظل أخلاف الكخيا إبراهيم ، فإننى مقتنع أن هذه التكتلات ظهرت بشكل تلقائى على نحو ما ظهرت التكتلات العرقية فى زمن سابق ، ومع ذلك فمن الطبيعى بالنسبة لمجموعة عرقية ذات لغة واحدة أن تتلاحم على أسس انتماءات أجنبية foreign setting ومن هذا تلاحم الجنود الأناضوليين معا فى منتصف القرن السابع عشر ، وكما عمل البيك شركس محمد على إحضار أقاربه الشركس إلى مصر فى القرن الثامن عشر ، وعلى هذا فإن شيئا من التضامن الجورجى أو الأفخارى قد يكون ظهر فى التوجهات الطبيعية تفقدت بسبب الاهتمامات البرجماتية (العملية) لمكونى الزمر لوجود عدد كبير من الأتباع بالفعل ، كان يمكنهم وسم الزمرة بشكل حى قابل للتطبيق ، إن فيض العساكر العثمانيين القادمين من العاصمة العثمانية (الكابيكولار kapikullari) فى أواخر القرن السابع عشر و أوائل الثامن عشر ينتج عنه زيادة عدد الأناضوليين داخل الزمر العسكرية ، وعلى هذا فإن هذا الفيض الأناضولى قد ألحق به فيض جورجى بعد سنة ١٥٢٤ ، لكن هذا الفيض من الجورحيين لم يكبح الفيض الأناضولى ، أو لم يكن مقصودا به مواجهته ، ومن هذا فإنه حتى فى العقود الباكرة من القرن الثامن عشر وجدنا سجلا ت الرواتب تشير فى الأساس للزمر الجورجية بين أوجاق الجونوليان (الجمليان) ، وفى هذه الأثناء وجدنا فى أواخر القرن الثامن عشر البيك إبراهيم الذى أعتقه البيك محمد أبو الذهب يستخدم علاقاته الدافئة مع روسيا لجمع حاشية له من المماليك الروس وليس الجورجيين (٦٢) .

ومثل هذه التجمعات العرقية (الإثنية) سواء كانت تلقائية أم مخططة حدثت فى المجتمع العسكرى الذى صبغ بصبغة اختلاط الأمشاج (الأعراق) ، وحتى التجمع القازدغلى الباكر كان - وفقا لكل الظواهر - خليطا عرقيا (أو مزيجا إثنيا) اختلط فيه الترك و اللاظيين Lazes والبوسنيين و الجورجيين ، فسجلات الرواتب العسكرية والحوليات ، تورد كلاهما أفرادا عسكريين من أصول عرقية مختلفة ، من الأرمن إلى السودانيين ، وقد لعب التضامن الوقى بالتأكيد دورا مهما فى المجتمع العسكرى المصرى خلال القرون الوسطى للحكم العثمانى ، وعلى أية حال فإننا لا نستطيع - إلا بالكاد - أن نتحدث عن قصر محسوب للرتب العكسرية على مجموعة عرقية بعينها، فقد كانت هذه الرتب متاحة للترك والقوقازيين واليهود المتحولين للإسلام و الأفارقة السود [٦٣] ، هذا التنوع العرقى لا يمكن فصله عن التنوع فى طرق الحصول على المجندين التى اتبعها المسئولون العثمانيون والنبلاء فى الولايات فى بناء زمرهم ، لقد كان التنوع العرقى جزءا من نظام يتواءم مع الرقيق والمتحولين للإسلام والمسلمين الأحرار بالمولد المجلوبين من مناطق متباعدة وذوى الخلفيات المتباينة .

ومع هذا يمكننا ملاحظة استخدام المماليك بشكل أكثر لملء المناصب العليا سواء فى الأوجاقات (الفرق العسكرية) أو البكلرية فى الأعوام التى تلت صعود شأن الكخيا إبراهيم ، فالكخيا إبراهيم هو الذى أرسى تقليد الزمر الإنكشارية التى تسيطر المماليك فيها على منصب (رتبة) أغا الإنكشارية ، ورئيس الشرطة (الوالى أو الصوباشى wali or subasi) حتى سنى الثمانين من القرن الثامن عشر (١٧٨٠ــ ١٧٨٩) لقد كان الأغا عبد الرحمن مملوك إبراهيم - على سبيل المثال - أغا إنكشارياً فى الفترة من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٠ عندما تم إحلال مملوكه سليم مكانه ، وكان هذا المملوك فى هذا الوقت واليا wali (رئيس شرطة) لقد تولى سليم هذا منصب (رتبة) أغا الإنكشارية بشكل متقطع حتى سنة ١٧٨٦ ، وحل محله فى منصب رئيس شرطة القاهرة (الوالى) الأغا موسى ، وهو مملوك آخر من مماليك الأغا عبد الرحمن [٦٤] ، وكان منصبا أغا الإنكشارية و الوالى (بالمعنى الآنف ذكره) من بين أهم المناصب لضبط الأحوال المدنية فى القاهرة .

وإذا اعتبرنا شراء المماليك وترقيتهم إستراتيجية لبناء الزمرة أكثر من اعتبارنا روح شعب ، فيمكننا عندها أن نوفق بين زيادة بروز المماليك فى المجتمع العسكرى المصرى بعد منتصف القرن الثامن عشر ، والحقائق العملية (البرجمانية) فى هذا المجتمع المتباين ، لقد وصل الكخيا إبراهيم بالفعل بسيطرته على كتائب الإنكشارية إلى القبض على زمام السلطة فى مصر كلها نتيجة الفراغ فى مؤسسة البكلرية ، ذلك الفراغ الذى ساعد هو نفسه على إيجاده ، وللحفاظ على هذه السلطة وضمان فيض العوائد المصاحبة لهذه السلطة ، واجه تحدّى السيطرة على إدارة ريف مصر ، تلك الإدارة التى سيطر عليها الكُشّاف (جمع كاشف) والصناجق بكوات بينما كان قابضا على ضباط الإنكشارية الذين يضبطون الأمن فى القاهرة بيد من حديد ، وكان أسرع طريق وآكده لملء المناصب فى المدن والقرى ، وفى الأوجاقات و البكلرية ، هو شراء المماليك من أكثر المصادر ملاءمة : منطقة القوقاز خاصة جورجيا و أفخازيا ، لكن شراء المماليك لتكوين الزمر كان بلا شك خطوة ثورية ، وكانت ثورة الكخيا إبراهيم هذه تتكون من استخدام هذه الاستراتيجية لتنفيذ سيطرة تلقائية على المؤسسة العسكرية والمؤسسة البكلرية معا .

الهوامش

(1) Mühimme - i Misir .-vol. 6, nos 418, 419, 426, 427, (all 1160 / 1747) and 591, 592 (bth 1161, 1748) .

مجموعة وثائق عن مصر عرفت بوثائق مصر المهمة .

(٢) الحقيقة أن الوحيد الذى ذكر هو الكخيا حسن " بيكلى " أو أبو شنب ، الذى ظهر اسمه لماما فى الدمرداشى (درة ، ص ص ٤٠٩ ، ٤٢١). وورد أيضًا فى سجلات رواتب ١٧٣٧ - ١٧٣٨ اسم شخص يدعى يوسف ، وهو التابع الوحيد - الذى ظهر فى هذه السجلات - للكخيا سليمان القازدغلى .

(٣) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٠ كان البيك عثمان يحس بكراهية شديدة للجاويش إبراهيم ، فيما يقول الجبرتى .

(٤) الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney على سبيل المثال يحدثنا عن " عصيان مسلح " (travels vol.i p. 155) أما الجبرتى (مج ٢ ، ص ٣٦١) فيحدثنا عن " الاستقلال " الكخيا إبراهيم ، وهى كلمة قد لا تعنى أكثر من أن قيادته لم تكن تواجه تحديا .

(5) Mühimme –i misir vol. 6, nos 88 , 89 (both 1157/1744 - 5) 255 (1158 / 1745 - 6) .

و " خائن " كلمة أقسى من الكلمة التركية Saki وقد أطلقت الكلمة (خائن) على شركس محمد بك ، أما كلمة Saki فيبدو أنها كانت تطلق على أى شخص يعصى أوامر السلطان . وعن " الحلوان " انظر :

Shaw, Financial and Administrative Org-anization p. 15 .

(6) Mühimme - i Misir vol. 6 , no 89 Shaw, Ibid, p. 15 .

ويه عن فرسكور فى طهطـا) وعن فرسـكور انظر .

(7) Mühimme - i Misir vol. 6 , nos 15,16 , 127, 141 (all 1157/1744-5), 200-3 (all 1158/1745-6) .

وعن نظار أوقاف الحرمين ، انظر الفصل الثامن .

(8) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 88, 93, 94,113,114,140, (all 1157/1744-5) Ibid, nos 126 (1157/1744) .

(9) Mühimme-i Misir, vol 6, no 126 (1157 / 1744) .

تزامن هذا مع رواية الدمرداشى (الدرة ، ص ٥١٦) عن أخبار عثمان للسلطان مراد الأول عن كيفية قيام خصومه بسلب ما يعادل (الحلوان) الخاص به من منزله وأرضه (بلاده bilad) ووفقًا لما ذكره الدمرداشى فقد كتب السلطان مراد (خط شريف) يطالب بهذه الأموال وأرسلها لمصر ومعها وثيقة شهيرة (Yirmi Sekiz Celebi) .

(10) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 140, 143, 144, 147, 166 (all 1157 / 1744 - 5).

(11) Ibid, no. 327, 373 (1161 / 1748) .

تضم التأكيد الأول على أنه تلقّى اعتذاراً (عفواً) .

(12) Ibid, vol. 7, no. 327 .

(منتصف جماد الثانى ١١٥٩ هـ / 1746) .

(١٣) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٥٥٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢

Mühimme-i Misir vol. 6 , no. 426 (1160 / 1747) .

تشير إلى إبراهيم بيك قطامش شيخًا للبلد .

(١٤) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٦٠ - ٦١ . الإجابة المؤرخة فى ١٦ محرم ١١٦١ هـ / ١٧٤٨م . وفى هذا التاريخ كان هليل بك قد لاقى حتفه بالفعل ، وفى رواية الدمرادشى (درة ، ص ٥٢٥) عمل هليل بك أميراً للحاج فى ١١٥٩ - ١١٦٠ هـ / ١٧٤٦ - ١٧٤٧ . ورغم أن هذه الخطابات تبدو مؤلّفة (صحيحة) إلاّ أننى أرى أخذها بشىء من الرِّيبة ، ومجموعة الوثائق المعروفة بالمهمة Mühimme-i Misir لا تشير - وهذا شىء عجيب - لانتهاكات هليل بك .

(١٥) انظر فصل ٨ عن نظارة كبير الخصيان السود للأوقاف ،

(١٦) الدمرداشى ، درّة ، ص ص ٥٢٨ - ٣١ . الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١٨ . فرمانان مؤرخان فى أول رمضان ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ (أرشيفات قصر طوبقابى E 5215 / 27,28 يشيران إلى أن " وكيل دار السعادة " (الذى يشير له نص الدمرداشى) هو الأغا عثمان وكيل الأغا بشير ، والفرمان الأخير مؤرخ فى ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ . وفى حسابات وقف ١١٦٦ - ٧ هـ / ١٧٥٣ - ٤م وجدنا الأغا عثمان مدرجًا كملتزم للدلجمون فى المنوفية ، وربما كانت الدلجمون هى المقصودة فى النص . انظر أيضاً :

Mühimme-i Misir , vol. , 6, pp. 318 , 319 , 341 , 342 (all 1159 / 1746)

عن عوائد الحاج بشير وممتلكاته .

(١٧) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٣٥١ - ٥ ، الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ١٩ - ٢٠ ، نقل الجبرتى روايته عن الدمرداش . عن حسين بيك الخشاب انظر : الدمرداش ، درة ، ص ص ٣٤٤ - ٦ ، ٤٥٩ - ٦٥

(١٨) الدمرداشى ، درة ، ص ص ٥٣٨ - ٥٤٤

(19) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 282 .

(أول رمضان ١١٥٩) .

(20) Ibid, no. 279 (1159)

(21) Ibid, no. 418 (1160)

(22) Ibid, no. 416 , 418 , 419 , 426 , 427 (all 1160 / 1747)

(23) Ibid, no. 583

(24) Ibid, no. 507 (1161 / 1748)

على باشا – والى رودس – كان هو الذى سيُعيّن لكن تم تعيين أحمد باشا ، لطول المسافة التى كان سيقطعها على باشا .

(25) Mühimme-i Misir, vol. 6, nos 501, 502 (all1161/1748) ; 573 (1162/1749) ; 648, 649 (1163/1750) No. 649 .

وتذكر هذه الوثيقة الأخيرة أن حسين بك من القطامشة ، وعلى أية حال فإننا أعتقد أن هذا تكرار خاطئ للأمر (الفرمان) السابق الذى يتحدث عن مقتل قطامش وعن الذين فروا منهم بعد ذلك : خشب حسين بك وأباظة محمد بك " . وبالإضافة إلى أباظة محمد بك كان المتمردون من أتباع الخشّاب هم المشرفون على مخازن القمح التابعة لعثمان بك ، وحاكم الشرقية هليل بك وباشى المتفرقة السابقة عثمان بك .

(٢٦) وردت القصيدة فى " خليفة الرُّيسا " لأحمد رسمى أفندى (استانبول ، المكتبة السليمانية)

Ms Halet Efendi 597/1, fo. 60 v.

وانظر أيضاً :

Norman Itzkowitz " Mehmet Raghib pasha, The making of an Ottoman Grand vizier "

رسالة دكتواره Princeton Univ., 1958) p. 127) عن راغب باشا بعد تولّيه مصر انظر : رسالة الدكتواره الآنف ذكرها ، ص ١٢٠ وما بعدها .

The (Muhassil of Aydin had been Critical For the Keeping of order in that troubled district during the early eighteenth Century, See For example : Mühimme- i Defteri 112 , nos 58 , 541, 791 (all 1113 / 1701) nos . 853, 854, 877, 1315 (all 1114 / 1702) .

(٢٧) عاش أبو كوف أحمد فى مصر قبل أن يصبح خازندار القصر السلطانى (السرّاى) فى سنة ١٧٥٤ . انظر فصل ٨ ، ص ١٦٣ . عن منافسة راغب لكبير الخصيان السود انظر :

Itzkowitz, Mehemet Raghib Pasha, pp. 142 ff .

(28) Shaw, Financial & Administrative Organization, p. 7

(٢٩) عن هذه الزمرة الأخيرة ، انظر الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

(٣٠) انظر الدمرداشى ، درة ، ص ٥٠٨ ، على سبيل المثال عن : إبراهيم بك بلفية مملوك مملوك الأغا حسن بلفية (مصطفى بك بلفية) .

(٣١) انظر الدمرداشى ، درة ، ص ٥٦٠ .

(٣٢) عن المضاربة ، انظر :

A. L . Udovitch , partenership and profit in Medie vol Islam (princetion , 1970) Chapter 6 & S.D. Goitein, A Mediterranean Society : The Jewish Cammunities of the Arab World as portrayed in the Documents of Cairo Geniza, 5 vols (Berkeley & Los Angeles , 1967, 1971 , 1978 , 1983 , 1988) vol.1 pp. 171 ff.

(٣٣) أعنى إبراهيم بك ومراد بك (١٧٨٣ – ٦ ، ١٧٩١) وإسماعيل بك وحسن بك الجداوى (١٧٨٦ – ١٧٩١) .

(٣٤) يكتب الاسم هكذا (قصير) عكس طويل ، وعلى أية حال فالاسم أيضًا قد يكون نسبة لميناء القصير مما يعنى أن عثمان كان يتولى التزام الميناء ، وكان ميناء القصير ذا أهمية تجارية قليلة نسبياً إلاّ فى فترة قصيرة فى أواخر القرن الثامن عشر شهد فيها انتعاشًا . انظر :

Daniel Crecelius, Some remarks on the importance of Qusayr in the Late 18 th Century. Paper delivered at Middle East Studies Association Conference . Baltimore, 1987

وعلى أيه حال فلم يرد ذكر لتولى عثمان لمثل هذا الالتزام (التزام ميناء القصير) .

(٣٥) الدمرداشى ، الدرة ، ص ٥١٤

(٣٦) كان من الاستثناءات النادرة الجاويش رضوان القازدغلى الذى ارتبط بالكخيا عبد الرحمن القازدغلى وقد تولى الجاويش رضوان البكوية فى سنة ١١٦١ / ١٧٤٨ بينما كان عبد الرحمن فى الحج ، انظر : الدمرداش ، درة ، ص ص ٥٣٨ ، ٥٤٤

(٣٧) أحمد شلبى (أوده ، ص ٣٥٤) يخبرنا عن ابن الكخيا يوسف العزباني (من أوجاق العزبان) الذى غضب لترقية أبيه مملوكه (مفضلاً إياه عن ابنه) فترك الانكشارية وعيّن أخيرا أغا فى كتائب العزبان بناءًا على مناشدة الزعيم القاسمى إسماعيل بك بن إيواظ للوالى .

(38) Mühimme-i Misir vol. 6 , nos 531, 532 (60 th 1162) .

تزعم الفرمانان أن التجار حصلوا على مئة كيس مصرى فى العام من أموال الحج .

(٣٩) قرد تعنى بالعربية : الحيوان المعروف ، ولقب حسين بك هو كِش كش فى قوائم البكوات المصريين فى أواخر القرن ١٨ فى أرشيف قصر طوب قابى (E1648 / 2 1773) وعلى أيه حال فإن M. Müner Ak-tepe فى ترجمته لتاريخ حمدى زاده فندقليلى سليمان أفندى كتبها كشكش وكش كلمة فارسية تعنى ريش جناح الطائر ، وكش بالتركية تعنى اللبن المتخثر ، والكلمة قد تعنى أيضًا التراجع فى ألعاب الشطرنج ، كِش ملك) .

(٤٠) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٣٠٥ . قُتل كش كش أخيرًا على يد جماعة على بك (الكبير) بلوط قابان ، وتم نفى على بك الجيزاوى إلى الجيزة (ومن وقتها أصبح لقبه هو الجيزاوى) وذلك بعد أن تآمر لقتل الكخيا عبد الرحمن القازدغلى . انظر :

Holt, Egypt & Fertile Crescent , pp. 93 - 5

(٤١) انظر الدمرداشى ، درة ، ص ٥٧٢ وقد أصبح بكوات إبراهيم " المرعيّن " فى سنة ١٧٥٤ خمسة وأما الجاويشيه فاثنان .

(٤٢) عرّف كونت Kunt " المكان الأصلى Vatan-i asli " انظر :

Ethnic - Regional (cin,) Soldiavity, 135

(43) Mühimme-i Misir , vol . 6 nos 483 , 434 (bo th 1160 / 1747

حيث يوصف عبد الرحمن بأنه متمرد (Soki)

no. 587 (1163 / 1750)

تشير إلى أنه قد تم العفو عنه .

الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٣٨ ، ٥٥٣ .

(٤٤) الجبرتي ، مج ٢ ، ص ١١٠ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال :

Holt, Egypt & the Fertile Crescent . p. 93 , Crecelius, Roots of Modem Egypt , pp. 38 , 46

(٤٦) الجبرتي ، مج ٣ ، ص ٢٩٢ . بعد مقتل محمد الشوربجي ، عمل أباظة محمد في زمرة حسين بك الصابونجي .

(47) David . Lang : The last years of the Georgian Monarchy ,1658 - 1832 (N.Y.1957) PP.11-22, 57- 58 , 69 74 ,105 ,114-115 , 139 - 42

Lang notes (p. 105) the slave trade with westem Georgia also intensified early in the 18 th century .

وانظر أيضًا :

W.E.D. Allen, Ahistory of the Georgian people (London , 1932 réissued N.y, 1971) pp. 192, 282 , 283 , 286 , 287 .

(48) Holt Egypt & the Fertile Crescent, p. 146

(٤٩) الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٥ – ٥٦ .

(٥٠) نفسه ، ص ١٢٨ .

(51) Evliya Celebi , Narrative of Travels , vol . 2 pp. 55 - 56

ورد في فرمانات بواكير القرن ١٨ ذكر لمجموعة (طائفة) القطامشة . والجبرتي (عجائب ، مج ٢ ، ص ص ٤٩ – ٥٠) يجادل في كون محمد بك قطامش (جورجي) أي يتشكك في هذا .

(٥٢) حمزة بك هذا كان مملوكًا للدفتردار السابق محمد بك أباظة الذي هرب من مصر مع حسين بك الخشاب ، وبعد ذلك حاول محمد بك أن يتسلل للقاهرة ، لكن تم القبض عليه وجرى إعدامه .

(٥٣) عدة النبلاء چورچيين والأفخازيين قد ذُكروا لمهارتهم في الفروسية . مثل : حسين بك كشكش (انظر : الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٣٠٥) .

(٥٤) عن القرد ، انظر الجبرتي، عجائب ، مج ٣ ، ص ١٥٨ . وعن الصابونجي ، انظر الدمرداشي ، درة ، ص ص ٤٩١ ، ٥٤٦ – ٥٥٢ ، والجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ص ١١٦ – ١١٨ وعن حمزة بيك وزمرة أباظة عامة ، انظر الدمرداشي ، درة ، ص ص ٥٣٣ ، ٥٤٢ – ٥٤٤ ، ٥٥٩

(٥٥) الجبرتي ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١١٠ . الدمرداش ، درة ، ص ص ٥٨١ – ٥٨٢

(56) Holt , Egypt & Fertile Crescent, p. 146

(٥٧) الدمرداشي ، درة ، ص ٤٦٧

(58) Volney , Travels , vpl. I , PP. 107 - 9

(59) Findiklili , Tarihi , vol 3, p. 99 Ibid

(٦٠) التحالف الظاهرى بين على بك وروسيا كان موضوعًا لعدة خطابات شهيرة متبادلة بين ڤولتير وكاترين الكبرى . انظر :

W.F. Reddaway (ed.) Documents of Catherine the Great : the Crrespondence with Voltaire & the instruction of 1767 in the English text of 1768 (reissue N.y., 1791) pp. 96 , 143 , 326

(61) Kunt, " Ethnic - Regional (Cins) Solidarity " 233 - 9

(62) Daniel , Crecelius , " Russia's relations with Mamluk Beys of Egypt in the 18 the century " paper delivered at the Middle East studies Association Con ference, Boston, 1986 , pp. 10 - 11

لقد ارتبط إبراهيم بك ومراد بك بتحالف أوثق مع روسيا من على بيك (الكبير) ، وقد أدت هذه العلاقة الخطرة إلى إحباط الغزو البحرى العثمانى لمصر فى سنة ١٧٨٦

(٦٣) انظر : Holt , Beylicate , 225 Ayalon , Studies in al Jabarti , 316 ff.

(٦٤) الجبرتى ، عجائب ، مج ٣ ص ص ١٩٢ – ١٩٤ كان الأغا عبد الرحمن خارج منصبه فى جانب من سنة ١٧٦٦ ، عندما كان على بك مبعدا عن القاهرة .

القسم الثانى

استراتيجيات بناء الزمرة القازدغليّة

الفصل السادس

تحالفات الزواج ودور النساء فى الزمرة

منذ تولّى الكخيا عثمان – على الأقل – أمر الزمرة القازدغليّة أصبحت الزمرة بيتًا bayt نابت الريش (مكتملا) بمعنى أنه أصبح زمرة household ممتدة متآثرة ، ولم تكن هذه الزمرة تضم فقط رأس الزمرة (زعيمها) وعلى الأقل قدرًا من أتباعه الذكور ، وإنّما كانت تضم أيضا كل النساء المرتبطات برأس الزمرة : بناته وجواريه وممرّضاته ، وقبل كل شيء زوجاته وسراريه (خليلاته) ، ولم تكن الجوارى والسرارى مجرّد أخلاف Successors وإنما كن أيضًا عناصر مهمّة فى عضوية الزمرة أسهمن فى تطورها .

ففى طريق الزواج والتسرّى – فى الأساس – حقّقت النساء نفوذهن فى المجتمع العسكرى المصرى ، فزواج المرأة من نبيل ذى تأثير يفتح الطريق أمامها لثروته التى ترثها جزئيا خاصة إذا لم يكن له ورثة من الذكور ، وفوق ذلك فإنّ الزواج من امرأة قريبة لأمير مهم أو أرملة له تتيح للبيك أو الضابط الطّموح الوصول إلى أموال مهرها ، وثروتها الخاصّة ، لكن مثل هذا الارتباط إن كان يتيح للمقترن الوصول لثروات المرأة ، فإنّه يُتيح لزوجة النبيل ذى النفوذ كما يتيح للزوج الذى تزوج امرأة ذات اتصالات وثيقة وصنعيةً سياسية واجتماعية متينة ، وعلى هذا فإنّ زواج النخبة الذى هو على هذا النحو كان يشبه إلى حد كبير تحالفا أو شراكة ، وكان كتخطيط استراتيجى وترتيبات مشاركة فى السلطة ، وكان هذا شائعًا بين النبلاء الذكور ، كما كان الزواج والتسرّى هما وسيلة النخبة من النساء لدخول الحياة السياسية للنخبة العسكرية فى مصر .

وعلى أية حال فليس لدينا إلاّ القليل من الأدلّة على أن سياسات مركّبة ومفصّلة عن الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) قد تم تطويرها فى مصر على نسق "سلطنة

الحريم" تلك الحقبة التى زاد فيها تأثير الحريم فى سياسات القصر الإمبراطورىّ والتى انتشرت كثيرا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أنّنا لاحظنا أنهّ فى زُمر بعينها لعبت بعض الزوجات والمحظيات دورا كوسيلة لإضفاء الشرعية وبسط النفوذ ، ولم تكن الزمرة القازدغلية استثناء من هذه القاعدة ، وعلى هذا فإن أىّ مناقشة للزواج كعنصر من عناصر استراتيجية الزمرة القازدغلية لابد من عَرْضه فى سياق أنماط الزواج بين مجتمع النخبة فى مصر كَكُل .

فالمرأة فى مجتمع النخبة فى مصر ظهر أنّها اكتسبت نفوذها وشرعيتها بقيامها بثلاثة أدوار رئيسية : الزوجة أو المحظية قد توثق - وهذا هو دورها الأول - العلاقة التحالفية بين زمرتين ، وثانيا فإنها قد تكون مساهمة فى تحديد هوية الزمرة فتقوم بدور الأم الرئيسة للأسرة afamily matriarch ، وأخيراً فإنها قد تكون بمثابة حارس لثروة الزمرة إما بحمايتها من المغتصبين أو أن تكون هى نفسها جزءا مكوّنًا لممتلكات الزمرة القابلة للتوريث .

توثيق التحالف :

إن كان لرأس الزمرة البارز ابنةٌ فليس بعيدا عن المألوف أن يزوِّجها لأهم أتباعه : وغالبا ما يكون لأكبر أتباعه Client سنا أو لأطولهم عِشْرة له ، وبهذه الطريقة يصبح التابع زوج ابنة رئيس الزمرة وبهذا يصبح مرتبطا بعلاقة قرابة أو نسب بالزمرة ، ويمكن مقارنة هذا بالزواج بين الأسرات الملكية الحاكمة فى أوروبا فى هذه الفترة لكنه أكثر ما يكون شبها بممارسة السلاطين العثمانيين ، إذ كان السلطان يزوّج ابنته لأحد الوزراء البارزين ، وخلال الحقبة العثمانية وجدنا العديد من الصُدور العظام (رؤساء الوزارات) الرفيع يحملُ الواحد منهم لقب (داماد damad) الذى يعنى زوج ابنة السلطان ، وقد عمل كثيرون من أزواج بنات السلاطين ولاة لمصر ، ولا شك أنَّ الداماد الباشا حسن (داماد حسن باشا) زوج ابنة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨- ١٦٨٧) وأخو زوجة السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) الذى تولّى الولاية من سنة ١٦٨٨ إلى ١٦٩٠ ومرة أخرى من سنة ١٧٠٧ إلى ١٧٠٩ ، وكان رئيسا للوزراء (صدراً

أعظم) فى الفترة من ١٧٠٣ إلى ١٧٠٤ - لا شك أنه كان أشهر أزواج بنات السلاطين وأكثرهم بروزا [١] ، وفى القرن السابع عشر على نحو خاص نجد بين الحين والحين نبلاء من مصر يتزوج الواحد منهم ابنة مسئول عثمانى أثناء توليه - أى تولى المسئول العثمانى - مهام منصبه ، فعلى سبيل المثال نجد البيك يوسف صهر النقيب - أو على حد تعبير الحوليات التركية (نقيب داماد يوسف بيك) زوج ابنة نقيب الأشراف الذى كان يتم تعيينه حتى القرن الثامن عشر من طرف إستانبول [٢] .

لقد كان بإمكان هذا النوع من الزواج إذن أن يربط الزّمر المحلية بزمرة النخبة فى إستانبول مثل نقيب الأشراف أو حتى السلطان ، وعلى أية حال فقد كان هذا النوع من الزواج يؤدى إلى ربط زمرتين محليتين أو يمد جذورا لتابع لا جذور له كمملوك أو مرتزق أو جندى لا أسرة له ، ليحكم صلته براعيه his patron ، والأمثلة كثيرة على "الأتباع" الذين تزوجوا من بنات حُماتهم (رعاتهم) وهو الأمر الذى شاع فى مصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فالأغا القوى حسن بلفية ارتبط ارتباطا وثيقًا بزوج ابنته ، وتحالف منه ، ونعنى به : البيك إسماعيل الذى طال مُكثه فى منصب الدفتردار ، وعن طريق زوج ابنته هذا أدار أمور مصر معظم سنى التسعينيات من القرن السابع عشر (١٦٩٠ - ١٦٩٩) بالتعاون مع الكخيا مصطفى القازدغلى ، ويظهر أن الأغا حسن قد رقى إسماعيل من أغا إلى بك بمجرد زواجه من ابنته (ابنة حسن) ، ولم يؤد هذا الزواج - فحسب - إلى ترسيخ رابطة الولاء بين إسماعيل والأغا حسن وإنما أدّى إلى بداية الارتباط بين الزمرة البلفية وزمرة البيك حسن الفقارى الراعى (الحامى) الأصلى لإسماعيل ، وكانت هاتان الزّمرتان همَا عمودَىْ الكتلة الفقارية ، ومن هنا فقد أسهم الزواج فى التماسك الفرقى (الحزبى تجاوزا) factional Cohesion أيضًا .

فالتماسك (أو التضامن) الفرِقى (أو الحزبى تجاوزا) أصبح قليل الشأن بحلول القرن الثامن عشر ، عندما حل فريق (طاقم) مختلط من الزمر المتعاقبة محل الفرقتين الفقارية والقاسمية ، أو بتعبير آخر محل التشرذم الفقارى القاسمى ، ولم يكن توازن القوى القديم ثنائى القطب يعنى سوى القليل لهذا الفريق (الطاقم) المختلط الذى حلّ محلّ التشرذم القديم ، وانفصلت أكثر هذه الزمر الوارثة نجاحا - ونعنى بها

الزمرة القازدغلية – انفصالا كاملا عن الكتلة الفقارية ، وأخيرا وقفت فى صف واحد مع زمرة الجلفية الأصغر (للقازدغلية) والتى اتخذت قراراً أن يكون لها موقف التابع (للقازدغلية) زمرة ضد البيك ذى الفقار ، وبطبيعة الحال كان هذا التحالف قد بلغ ذروته فى الحكومة الثنائية – نعنى حكومة الكخيا إبراهيم القازدغلى ، والكخيا رضوان الجلفى – ذلك الثنائى الذى قبض على زمام السلطة فى مصر من سنة ١٧٤٨ إلى ١٧٥٤م . وعلى أية حال فعند موت الكخيا إبراهيم قام أخلافه باجتثاث رضوان بطريقة قاسية ، ومن الآن فصاعدا حكمت الزمرة القازدغلية الأكبر مصر دون منافس حتى غزا نابليون مصر فى سنة ١٧٩٨م .

لكن القازدغلية تُرِكت لتستوعب بقايا الجلفية ، وهنا أمكن للزواج الاستراتيجى أن يخدم لتحقيق هذه الأغراض ، لقد تزوّجت ابنة الكخيا رضوان الجلفى أخا لواحد من أتباع الكخيا إبراهيم القازدغلى الذى كان قد هاجر من إستانبول خصيصا لينضم لزمرة إبراهيم ، وهذا الزواج – على نحو خاص – كان بمثابة كَيْد لأن العروس كان قد سبق لها الزواج من أحد مماليك رضوان الجلفى (انظر الشكل ٣) ، وعلى أية حال فهذا العريس فشل فى الدخول بعروسه (فشل فى إتمام هذا الزواج) وعند موت رضوان هرب إلى بغداد وأرسل يستدعى زوجته لكنها رفضت اللحاق به ، ونظراً لإصرارها على الرفض صدرت فتوى بإبطال هذا الزواج وفقا لأحكام المذهب المالكى (٢) ، إنه لمن الواضح أن ابنة رضوان المهزوم قد مارست نفوذا كافيا ليس فقط لتتبرّأ من الزواج الذى كان أبوها قد أعدَّه لها قبل وفاته وإنما أيضا لتكون مصدر قوة للقازدغلية وهم يُحكمِون سلطانهم .

ولم يكن الزواج الجلفىّ – القازدغلىّ تحالفا بين قسيمين (طرفين متساويين) فقط ، وإنما الأقرب أنه عمل على مواءمة بقايا الزمرة الجلفية المهزومة مع الزمرة التى هزمتها ، إنه يبدو أمراً مخطّطا حقيقية أن يؤثّر الأمر بحيث لا تقول اليتيمة (العروس التى مات والدها) شيئا لعريسها الجديد الذى وصل حديثا ، وفى الحقبة التى رجحت فيها كفة القازدغلية وجدنا أنّ تحالفات الزواج – على نحو خاص – شاع استخدامها لتوثيق العرى مع الأتباع ذكورا أم إناثا داخل الزمرة لتأكيد التزام هذا "التابع" أو التابعة تجاه الزمرة ، وربما كان أفضل مثال معروف على هذه الممارسة فى القرن

الثامن عشر هو ما اعتاده البيك على (على بك أو بلوط قابان) فى أواخر أيامه من ترتيب زيجات بين ذكور زمرته البارزين وعضوات فى الزمرة نفسها ، وفى سنة ١٧٦٠ زوّج خشداشه البيك إسماعيل من ابنة حاميهم (راعيهم) المتوفَّى الكخيا إبراهيم ، وفى سنة ١٧٦٦ زُفَّت أخت البيك على بلوط قابان لمملوكه الذى أعتقه حديثا ونعنى به البيك محمد أبا الذهب [٤] .

رئيسة الأسرة أو المرأة كزعيمة للأسرة

إنّ الزواج الاستراتيجى من النوع الذى درسناه توًا أمكنه أن يُساهم فى تحقيق المكانة السياسيّة للزمرة ، فزواج البيك إسماعيل من ابنة الأغا حسن بلفية – على سبيل المثال – قوى بشكل هائل الجبهة الفقارية بربط الزمرة البلفية بزمرة البيك حسن الفقارى ، ومع هذا فإنّ هذا الزواج لم يبد جوهريا لتطوير أو إحياء أىّ زمرة ، وأكثر من هذا ، فليس هناك دليل على أن ابنة البلفية أضفت شرعية من أى نوع لأى من الزمرتين ، وعلى أية حال فهناك أمثلة على زوجات أدّين برقة هذه الوظيفة إذ قمن بدور الزعيمات الأمهات أو الأمهات الزعيمات مما أعطى لزمرهن أو الأسرات التى ينتمين إليها طابع الاستمرار .

فالزمرة الجلفية – في الأعوام التى سبقت تبعيتها للقازدغلية – بدا وكأنها تنظر لزوجة مؤسس الزمرة كأمٍّ للزمرة كلها ، وإنْ كان لنا أن نثق فى رواية الجبرتى فإن اسم الجلفية مشتق من اسم زوجة الكخيا حسن مؤسس الزمرة ، وكانت ابنة منصور الزتاحرجى الذى كان يتولى التزام قرية سنجلف فى المنوفية بالدلتا – تعرف باسم السّت الجلفية [٥] ، وعقب زواجه منها أصبح لقب الكخيا حسن نفسه هو الجلفى ، والحقيقة أنه كان يذكر فى الحوليات والوثائق الرسمية بهذا اللقب وحده كما لو أن اسمه الأول لا لزوم له ، [٦] من المفهوم إذن أنّ هذا الزواج هو الذى أتاح للكخيا حسن تولى التزام قرية سنجلف من خلال ابنة صاحب الالتزام ، ومن وقتها أصبح اسم القرية اسمًا مستعارًا للزمرة كلها ، ومن الممكن للمرء أن يفترض أن هذا الالتزام كان أساس ثروة الزمرة تماما كما كان التزام قرية بلفية فى البهنسا بصعيد مصر بالنسبة

= علاقة زواج أم تسرى
ارتباط تابع بزاملية
—— صلة دم
غير محدد
ق = قازدغلى

جلفي
الحاج الأغا بشير (كبير الجلفية)
منصور الزاناره كيا
الأغا محمد
الست الجلفية
الكتخدا حسن الجلفي
الكتخدا على الجلفي
الكتخدا رضوان الجلفي

فقارية/ قازدغلية
حسن بك ذو الفقار
إسماعيل بك الدفتردار = ابنته
الأغا حسن بلفية
الكتخدا مصطفى
الأغا سليمان = أمينة هانم = الكتخدا حسن القازدغلي
الكتخدا سليمان
الكتخدا عثمان (ق)
الكتخدا إبراهيم (ق)
الست = الست بيوتيفار = الكتخدا عبد الرحمن (ق)
الكتخدا سليمان (ق)
بوالى الجيني (؟)
نفيسة
الست = بلوط قابان = زوجة إسماعيل بك = هانم = إسماعيل = ابنة = علي بك
محمد بك أبو الذهب
مراد بك
إبراهيم بك
زليخة

شكل (٢) الصلاة بين الفرقة الفقارية

= زواج أو تسرّي
-- علاقة تابع بمتبوع
— صلة دم

أبو شوارب رضوان بك

أزبك بك

مراد بك الدفتردار

شيخ
إبراهيم بك أبو شنب = السيدة [illegible]

[illegible] بك

محمد بك جركس

إيواظ
الوالد بك

إسماعيل بك

هانم = عثمان بك
يوسف بك الجزار
الأغا صالح (كاشف [illegible])

شكل (٤): القاسمية

للزمرة التى حمل اسم القرية (البلفية) ، وعلى هذا فالستّ الجلفية أصبحت حجر الزاوية بالنسبة للزمرة الجلفية بتقديمها المورد الأساس لثروتها .

وعلى أية حال فالستّ الجلفية لم تختف تماما من التاريخ ؛ لأنها تزوجت من الكخيا حسن بطريقة لا مشاكل فيها ، بل على العكس فقد بدت باقية كأم للزمرة على نحو أو آخر لعدّة سنوات بعد موت زوجها ، ويروى لنا الدمرداشى فى حولياته حادثة انتقامية ذلك أن ذراع لاظ إبراهيم المرتزق الذى قتل انتقاما لاغتيال الكخيا على الجلفى قد تم إحضاره للست الجلفية مقابل الحصول على بقشيش ، وعلى النحو نفسه تم إحضار رأس لاظ إبراهيم لتابع الكخيا على ونعنى به الكخيا رضوان الجلفى [٧] ، وكان الكخيا على قد جعل من نفسه تابعا لزواج الست الجلفية ، وهو الكخيا حسن ، وقد تزوجته بعد موت الكخيا حسن ، يظهر إذن أن كلاً من رضوان والستّ الجلفية قد دفعا ثمن رأس القاتل (الكخيا ذراعه كما فى الحالة التى ذكرناها آنفا) ، يمكن للمرء أن يتساءل ما إذا كان من المعتاد لزوجة المقتول أن تضم تابعه على سبيل الثأر ، حقيقة إنه فى هذه المرحلة بدا الكخيا رضوان والستّ الجلفيّة يُهيمنان على القتل الثأرى كزعيميْن مشتركيْن فى زعامة الزمرة الجلفية .

وعلى أية حال فمن الصعب أن نعرف مدى مهام الست الجلفّية لأن الحوليات لم تذكرها إلاّ قليلا ، تلك التى سادت أدوار النساء عموما سواء كُنّ أمّهات رئيسات (زعيمات) للأسرة أم لا ، وعلى أية حال فهناك مثال أفضل على نحو ما ، وهو زوجة نبيل آخر بارز ونعنى به الزعيم القاسمى البيك إبراهيم أبا شنب (سأشير إليها تيسيراً للأمور فى السطور التالية بمدام شنب أو السيدة شنب = مسز شنب) ، وعلى أية حال فإن الحوليات لا تشير بوضوح لأصول السيّدة شنب أو كيف تزوجها البيك إبراهيم أو لماذا ؟ وعلى أية حال فقد ظهرت السيدة شنب – مثلها مثل الست الجلفيّة – ذات حضور هائل فى زمرتها بعد موت زوجها ، كما لو أنها أخذت مكانه كزعيم رمزى للزمرة ، وفى مناسبات قليلة يشير لها المؤرخ أحمد جلبى (شلبى) بالمرأة ، أو السيدة إشارة إلى مقامها الرفيع الذى يحظى بالاحترام [٨] ، وعندما تم اكتشاف جثة ابنها البيك محمد شنب الذى مات فى مخبئه فى سنة ١٧٢٦ على يد مناوئيه الفقاريين سلموها الجثة لدفنها ، وفى هذه المناسبة قال الوالى العثمانى للسيّدة شنب

"كان من الأفضل أن تلدى حجراً" واقترب من الجثة قائلا "أنت سبب خراب بيت أبيك" (٩) ، وملاحظاته هذه قد تتضمن أنه لم ينجز أعمالا كأعمال أبيه البارزة ، ومن ناحية أخرى هناك معنى المواساة للسيدة شنب التى خان ابنها والديه (أباه وأمه معا) ، وسرعان ما أمر الوالى بتدمير منزل شنب وفى هذا إشارة إلى أنه رغم مكانة السيدة شنب ورغم أنها لم تكن مسئولة عن أعمال ابنها السيئة ، فإن مقر الزمرة لا يمكن أن يستمر بأرملة لم تتزوج من أحد أتباع زوجها المتوفى ولم يعد لها ابن .

وبشكل عام فإن الحوليات العربية تعطينا انطباعا أن الجيل الأقدم من زعماء الزمرة - جيل البيك إبراهيم أبى شنب والكخيا حسن الجلفى والأغا حسن بلفية - كانو أقل ميلا للقتال وأكثر جنوحا إلى استخدام الأساليب السياسية من أخلافهم ، لقد بدت زوجات هؤلاء الزعماء Statesmen الأقدام مشاركات فى الاحترام الذى حازه أزواجهن ، لكنّهن أيضا حققن مكانة من كونهن أمهات لجيل أصغر من النبلاء كانوا ورثة زعامة الزمر عن آبائهم ، وبهذا المعنى كنّ أمّهات للزمر بالمعنى الحرفى للكلمة (كن نسوة زعيمات للزّمر matriarchs) ، ورغم أنّ مكانة السيّدة شنب الكبيرة تعود فى جانب كبير منها لزوجها "الرجل الكبير الوقور" البيك إبراهيم أبى شنب ، إلا أنها أيضاً استقت مكانتها من كونها أم ابن أبى شنب ووريث بيته وزمرته البيك محمد شنب ، وعلى هذا فلا شك أنها مُنيت بخيبة أمل لا حد لها أن ترى ابنها يدمّر التحالفات التى أقامها أبوه ، ويبدّد الثروة التى كونها - ورعاها - والده بعناية .

وعلى أية حال ليس لنا أن نقول إن مكانة السيّدة شنب وغيرها من نسوة النخبة كانت تقوم على الأزواج أو الرجال الذين ارتبطن بهم ، فزوجة النبيل عاشت فى معمعة المكائد السياسية وبالتالى كان عليها أن تكون ماهرة فى تسيير نفسها سياسيا ، وأكثر من هذا ، ففى البداية حصلت السيدات والأمهات الرئيسات (الزعيمات) على نفوذ سياسى لم يكن ليختفى بموت أزواجهن أو أبنائهن أو رعاتهن (حماتهن their patrons) ، وفى فترة الترمّل - تلك الفترة المتسمة بالوقار - كانت الواحدة تقوم بدور العجوز الحكيمة أو الزعيمة المخضرمة التى تستقى منها الزمرة أو الفرقة مكانتها ، ولا تترك الحوليات أمامنا فرصة للشك فى أن السيدة شنب والست الجلفية وغيرهن من النسوة البارزات فى جيلهن كن يمتلكن مثل هذه الحنكة السياسيّة .

الزوجات وثروة الزمرة

الزوجات كحارسات لأموال الأسرة والزمرة

لقد هيّأ انهيار الولاء التقليدى للفرقتين (الفقارية والقاسمية) خلال الجيل التالى فرصة أعظم للنخبة من النساء لإظهار فطنتهن السياسية ، ففى بواكير العقد الأول من القرن الثامن عشر (١٧٠٠ - ١٧٠٩) تمزقت الفرقتان القاسمية والفقارية إلى مجموعات متفرقة ، وبينما قاومت الفرقة الفقارية المنافَسة الداخلية المكتومة بين الزمرة القازدغلية وزمرة البيك ذى الفقار فقد تفسّخت الفرقة القاسمية تماما نتيجة المنافسات الطموحة لأخلاف البيك إبراهيم أبى شنب وأخلاف خشداشه البيك إيواظ ، وأصبح مملوك أبى شنب وهو البيك شركس محمد العدوّ اللدود لابن إيواظ بك ونعنى به : البيك إسماعيل ، ووصل به الأمر إلى حد الانضمام لمشروعات بقايا الفقارية لمواجهة جماعة (أو حزب Party) البيك إسماعيل .

وفى جو بلغ الذروة فى التوتر حيث من الممكن بسهولة أن يتحول حليف اليوم إلى عدو لدود غدا - وجد النسوة أنفسهن وقد اقتحمن بشدّة ميدان الصراع السياسى اقتحاما لم يقتحمنه بهذه الدرجة من قبل أبدا ، وربما كان المثال الصارخ لمثل هذه المرأة الفعّالة سياسيا هو أخت البيك إسماعيل بن إيواظ ذى الثروة الواسعة والأتباع الكثيرين ، والتى كانت ، وهذا طبيعى ، الزوجة الكفؤة المرغوبة بشدة لأىّ من أتباع أخيها والمرتبطين به ، وكانت معروفة بهانم بنت إيواظ ، وهانم كلمة تركية تعنى الآنسة Miss أو السيدة Lady ، وهى كلمة - بلاشك - تدل على الاحترام ، وبسبب الصراع المتلاحم العنيف بين نبلاء مصر تم تزويجها وترملها عدة مرات متعاقبة من إيواظيين بارزين (أو تعبير آخر من أفراد من أتباع إيواظ البارزين) ، ومن الأمور ذات الدلالة أن الحوليات العربية أطلقت على زوجها الثانى وزوجها الثالث لقب (زوج هانم) إشارة إلى المكانة التى يصل إليها من يتزوج هذه المرأة ، تلك المرأة التى أصبحت بمرور الأعوام السيدة الأولى للإيواظية إن لم تكن الأم الزعيمة matriarch .

ولم تكن هانم بنت إيواظ مجرد زعيمة شكلية أو رئيسة صورية وإنما لعبت دورا مهما فى الحفاظ على ثروة الإيواظية بعيدا عن قبضة خصومهم ، وعندما وصل الوالى

(الباشا) المعادى لأخيها إلى مصر فى سنة ١٧٢٠م . ويدأ يحبك مؤامرة لقتله لم تضع هانم وقتا وراحت تقسّم ، وتعيد توزيع كل ممتلكات البيك إيواظ وكذلك ممتلكات أتباعه الذين قُتلوا حتى لا يستطيع الوالى وضع يديه عليها [١٠] ، وقامت بالمهمة نفسها عندما جرى اغتيال أزواجها الثلاثة (الذين تزوجتهم على التعاقب) وقد أطلق عليها المؤرخ الدمرداشى (رأس البيت والزمرة هانم بنت البيك إيواظ "القهرمانه") [١١].

وتتيح لنا مسألة ثروات أزواج هانم المقتولين أن نلاحظ مثالا على كيد النساء وتضامنهن اللذين تجاوزا العداوة الشنبية الإيواظية ، فالدمرداشى يخبرنا كيف أنه فى سنة ١٧٢٤م . حاول قاتلو أوّل أزواجها – وهو البيك على حليف أخيها – خداعها للحصول على الذهب والفراء اللذين كان البيك عبد الله قد أودعهما عندها كأمانة بأن سلموها رسالة (تذكرة) زعموا أنها من عبد الله زوجها وفيها يذكر أنه لا يزال على قيد الحياة ولكنه مختبئ ويود الحصول على ذلك الذهب وتلك القطيفة ، لكن السيّدة شنب ومحظية الوالى السابق الباشا على (١٧٠٦ – ١٧٠٧ ، ١٧١٧ – ١٧٢٠) أخبرتاها (أى أخبرتا هانم) بمصير زوجها ونصحاها أن تكشف مكر القتلة بأن تطلب منهم رؤية زوجها [١٢] ، لقد كان هؤلاء النسوة الثلاث متعاديات ولدى كل واحدة منهن من الأسباب ما يجعلها عدوّة للأخرى ، فلفترة كان الباشا على متعاطفا مع البيك إسماعيل بن إيواظ ، وكانت السيدة شنب أرملة راعى (أو حامى) البيك شركس محمد ، فتعاوُن هؤلاء النسوة يعنى أن التحالف الشنبى – الإيواظى والذى كان قد ثبّت الفرقة القاسمية فى أعوام مضت لم ينحلّ بين نساء القاسمية الزعيمات كما انحلّ بين رجال الفرقة ، أو بتعبير آخر إن كان التحالف قد انحل بين رجال القاسمية فإنه ظل قائما بين نسائها ، ولا شك أن مثل هذا الظرف كان له أثر كبير فى الروابط بين هؤلاء النسوة ، فعلى سبيل المثال فإن السيّدة شنب قد تكون أبدت عطفا أموميا كبيرا لابنة خشداش زوجها المقتول [١٣] ، بل إن هناك شيئا أنثويا لا تخطئه العين فى هذا التحالف لأن الجيل الأكثر شبابا من ذكور الأشناب والإيواظيين لم يظهروا مثل هذا الاحترام للروابط التى سبق أن ربطت آباءهم ورعاتهم their patrons ، فقد كان ابن السيدة شنب يكاد يكون عدوا لدودا للبيك إسماعيل ابن إيواظ كالبيك شركس محمد ، والواقعة كلها تفيد أن الزوجات ، والمحظيات ، والأبناء من الإناث يمكنهن أن يلعبن دورا أكثر ديمومة

من الرجال فى المحافظة على هوية (شخصية) الفرقة السياسية ، لقد ظلت الولاءات القاسمية حيَّة عند هؤلاء النسوة الثلاثة فترة طويلة بعد أن كُنَّ قد وقعن ضحايا طموحات أعضاء الفرقة (القاسمية) من الذكور ، والأكثر مدعاةً للدهشة أن النساء كن راغبات فى التماسك بهذه الولاءات القديمة حتى عندما كان هذا يُهدد الخطط الأساسية ، تلك الزمر التى كونها وانتمى إليها أقاربهم الرجال .

ولم يكن هذا التحالف النسائى غير المعتاد مجّرد صدفة أو أنه كان رمية من غير رام ، فقد ظهر على السطح بعد ذلك بعدة سنوات فى سنة ١٧٣١م . عندما ظهرت النسوة الثلاثة الآنف ذكرهن لدعْم مؤامرة يقوم بها ثلاثة من الرجال الإيواظيين بمن فيهم زوج هانم وقتها [١٤] لقتل الزعيم الفقارى البيك ذى الفقار الذى كان قد اغتال البيك إسماعيل بن إيواظ فى سنة ١٧٢٤ ، ولم تكن المؤامرة حالة انتقام إيواظية بسيطة فهى تقود فى جذورها إلى الفقارى الساخط الأغا هليل Halil قطامش الذى كان هو نفسه يغار من زمرة ذى الفقار الضخمة [١٥] ، لقد نمت العداوات والتحالفات بشكل متزايد غير متوقع مع تفسُّخ الفرقتين التقليديتين (الفقارية والقاسمية) ، ومرة أخرى كان التحالف النسائى هو الحصن الأخير للتضامن القاسمى فى مواجهة انحلال الروابط داخل كل فرقة من الفرقتين ، وأكثر من هذا فعند تأييدهن – ودعمهن – لاغتيال ذى الفقار كانت النسوة يراعين مصالح الرجال الذين كن مدينات لهم بمكانتهن فى التجمع القاسمى ، بعد موت هؤلاء الرجال بمدة طويلة : فقد كان البيك إيواظ قد قُتل فى سنة ١٧١١م وقُتل ابنه فى سنة ١٧٢٤م ، والوالى على باشا قتل فى سنة ١٧٢٠ ، وفى هذه الأثناء كان البيك إبراهيم أبو شنب قد مات فى طاعون سنة ١٧١٨م [١٦] .

وقد راعى البيك ذو الفقار من ناحيته النساءَ كتهديد حقيقى وطلب أن يصدر الوالى أمراً بإبعادهن إلى الأناضول ، وقد رد الكخيا عثمان القازدغلى على هذا قائلا : "يا قلّة عقلك . إنهم سيقولون فى الباب العالى إن الغُز فى مصر خائفون من ثلاثة نسوة فأبعدوهن إلى الأناضول" فما كان من الكخيا عثمان إلاَّ أن تشجَّع وفرض عليهن الإقامة فى منازلهن . وفى النهاية نجح الأغا هليل فى قتل البيك ذى الفقار رغم احتجاز النِّسوة ، لقد بدأ القاتل موجة إحياء العداوة الفقارية القاسمية التى انتهت بمحق بقايا الفقارية[١٧] .

وكان رد الفعل الفقارى إزاء تحالف النساء يعكس أن أعداء النساء كانوا ينظرون لهن كفاعلات يمثلن خطرا سياسيا ، وكمرتكز للتكتل القاسمى ، ولم تعمل النسوة الحساب لإسعاد أى من الزعماء الذين حدث أن رأسوا بقايا الجماعات القاسمية ، بل على العكس لقد تحدّين الصّدع الذى حدث فى الفرقة بحفاظهن على الشراكة الشنبية الإيواظية ، لقد أضعف رجال القاسمية أنفسهم وأخيرا واجهوا كارثة لا لسبب إلا لأنهم لم يحذوا حذو النساء .

وكانت هانم بنت إيواظ هى وحدها الأكثر إثارة من بين سلسلة من زوجات النبلاء اللائى خبّأن ممتلكات أزواجهن ، ففى الغزوتين اللتين حدثتا نحو نهاية القرن الثامن عشر ، تعامل الغزاة بقسوة مع النساء اللاّئى تشبثن بثروات أزواجهن ونظروا لهؤلاء النسوة باعتبارهن يشكلن تهديدا سياسيا محتملا ، وفى سنة ١٧٨٦م رسا فى الإسكندرية أسطول عثمانى بقيادة الأدميرال أو الباشا قبودان سيزايرلى Cezayirli حسن بهدف طرد البيك إبراهيم والبيك مراد اللذين شكلا حكومة ثنائية اقتسمت السلطة ، واللذين شك الباب العالى فى تعاونهما مع الإمبراطورية الروسية [١٨] ، وقد تمادى سيزايرلى حسن إلى حد إيداع الزوجتين فى السجن – زوجتى شيخ البلد (زعيم القاهرة) البيك إبراهيم – حتى يسلّما ثروة إبراهيم [١٩] ، وبعد غزو بونابرت لمصر سنة ١٧٩٨ عاملت القوات الفرنسية المحتلة الستّ نفيسه زوجة الرجل القوى البيك مراد التابع السابق لإبراهيم بيك (البيك إبراهيم) كوكيلة معتمدة لزوجها الذى كان قد فرّ إلى الصعيد ، وقد حصلت على المكانة لأن البيك مراد كان – وفقًا للعرف السائد – قد ترك جزءا من ممتلكاته عندها كأمانة عندما فرّ .

إن التحالف غير العادى للنسوة القاسميات الثلاثة ومعاملة زوجات القابضين على زمام الحكومة الثنائية تشيران إلى الملمح العام للدور الذى لعبته زوجات النبلاء : عندما دُمرت عمليات النبلاء ودبت فيها الفوضى ؛ أى عندما قُتلوا أو اضطروا للفرار من القاهرة ، أصبحت زوجاتهم جُزرا للاستقرار ، إذ واصلن المحافظة على أوضاع أزواجهن أثناء غيابهم ، وما يعنيه هذا هو – فى المقام الأول والأكثر أهمية – أن الزوجات حمين ثروات الزمر من المغتصبين بمن فيهم الحكومة العثمانية ، فمن الشائع أن يترك الأمير الفار ثروة بين يدى زوجته (أو أخته كما فى حالة البيك إسماعيل

بن إيواظ) كأمانة[٢٠] ، ومن هنا تصبح الزوجة من الناحية الفعلية وكيلة لزوجها أو ممثلة له ، وهذه المسئولية قد تجعل الزوجة ذات سلطان سياسى كبير ، وقد تجعلها أيضا عُرضة للعداوات التى كان يتعرض لها زوجها ، وعلى أية حال ففى مثل هذه الظروف يكون جنسها (كونها امرأة) حصنا لها ، فارتباط المرأة بالمنزل وما جرت عليه العادة من معاملة الزوجات والبنات بشىء من الاحترام يجعل من الصعب مهاجمة الزوجة ، فالرجال لا يميلون إلى معاملة النساء بجدية كاملة كخطر سياسى يشكل تهديدا حقيقيا خطيرا ، وهذا فى حدّ ذاته لصالح النساء ، والدليل على ذلك ما تعرض له البيك ذو الفقار من سخرية عندما حاول نفى النسوة القاسميات الثلاثة ذوات الخطر الكبير .

الزوجات كممتلكات تُوَرَّث

ربما بدا متناقضا تناقضا ظاهرياً أن تلعب الزوجة دوراً سياسياً حاسماً بينما هى – فى الوقت نفسه – تعتمد على شىء من الارتباط برجل لتحديد هويتها الاجتماعية والسياسية ، وإذا كانت السيدة شنب حقيقة ذات تأثير خطير فى المسرح السياسى القاهرى فلِمَ لم تستمر الزمرة التى تنتمى إليها بعد وفاة ابنها ؟ لابد أن نتنبه إلى النمط الذى تسهم فيه هذه التبعية (تبعية المرأة للرجل أو اعتمادها عليه) فى قدرة المرأة على ممارسة وظيفة سياسية ، هذا التناقض الظاهرى يقع فى صميم زواج التحالف (أو التحالف الذى يلعب فيه الزواج دوراً) ، إنه يعنى – قبل كل شىء – الممارسة التى بها تنتقل الزوجة من زوجها المتوفّى إلى تابعه ، حقيقة إن زواج هانم بنت إيواظ المتعاقب كان أمراً استثنائيا لا لشىء إلاّ للمكانة الكبيرة التى تمتّعت بها ، ولتعاقب موت أزواجها ، وحالتها هذه لم تكن شائعة ، فعندما يموت الأمير (النبيل) يقوم واحد من أتباعه – تلقائيا – بالتزوج من زوجته أو جاريته الرئيسية ، وكانت هذه الممارسة جزءا من عملية وراثة الرّاعى (الزوج المتوفَى) وتملُّك منزله ، فالتابع الذى يتزوج الأرملة يصبح – نمطيا – هو وارث راعيه (الزوج المتوفّى) وتصبح الزوجة عمليا جزءاً من الميراث ، وعلى هذا فبعد قتل البيك ذى الفقار نقل مملوكه (البيك على) كلَّ أتباعه (ذى الفقار) إلى منزل جديد وتزوج أرملة ذى الفقار ، وبينما يمكننا

النظر إلى هذه العادة كعامل يحط من قدر المرأة ، بل ويعتبرحقيقة علامة على كونها مجرد "شيء" ، إلاّ أنه يمكننا أيضًا أن ننظر إليها على أنها دليل حي على أهمية التحالف عن طريق الزواج (الزواج التحالفى) فى استمرار الزمرة [٢١].

إنَّ تجربة امرأتين من الزمرة القازدغلية تفيد على أية حال أنّ الزوجة الموروثة " heritable wife " كانت ظاهرة معقّدة تحدّد وفقا لقواعد صارمة توارث الزمرة أو بتعبير آخر تعيين أخلاف الزعيم المتوفّى ، وبدت إحدى المحظيات وهى الستّ شويكار وقد تداولتها أجيال الزعماء القازدغلية (انتقلت لواحد منهم إثر واحد على التعاقب) وربما يوضّح هذا اللقب الفارسى "شويكار" الذى يشير إلى المرأة التى لها زوج ، وقد اشتراها أساسا الكخيا عثمان القازدغلى ، ثم انتقلت إلى تابعه الأخير ووريثه الكخيا سليمان بعد اغتياله فى سنة ١٧٣٦م ، وعقب موت الكخيا سليمان بعد ذلك بثلاث سنوات لم تقع – على أية حال – الستّ شويكار مباشرة فى يد وريثه المفترض الكخيا عبد الرحمن مع ثروة سليمان ، وإنما تزوّجت الكخيا إبراهيم[٢٢] – لم هذا التناقض ؟ فرغم أنَّ عبد الرحمن ورث ثروة سليمان إلاّ أنه لم يدع قيادة الزمرة القازدغلية ؛ إذ أن هذا الشرف (قيادة الزمرة القازدغلية) ناله إبراهيم الذى ينتمى إلى نمط آخر (فرع آخر) من الحُماة Patrons والأتباع داخل الكتلة القازدغلية ، وكان قد ورث ثروة هذا الفرع ، يظهر إذن أن أرملة رأس الزمرة (شويكار) لم تكن تعامل تماما معاملة الثروة الموروثة وإنما كانت متاحة – فحسب – لزعيم الزمرة التالى ، حقيقة إن عبد الرحمن عندما أصبح رأسا للزمرة القازدغلية عقب موت الكخيا إبراهيم تزوج – أخيرا – الستّ شويكار ، وعلى هذا فإن ظاهرة "الزوجة الموروثة أو التى هى جزء من الميراث" تبدو من النظرة الأولى مقلّلة من شأن المرأة إلاَّ أنها من الناحية الفعلية متداخلة مع ظاهرة "الأم الرئيسة" أو "الأم زعيمة الأسرة " Family matriarch " فالرجل الذى يدّعى زعامة الزمرة يصبح زوج سيدة الزمرة الأولى .

وما حدث لأمينة خاتون أم الكخيا عبد الرحمن يفيد أنه حتى هذه القاعدة لم تكن تنطبق على كل الحالات ، فعند موت والد عبد الرحمن الكخيا حسن فى سنة ١٧١٦ تزوجت أمينة مملوك حسن وخلفه فى رياسة الزمرة – الكخيا عثمان – وكان هذا جزءًا من عملية شائعة يحدث بمقتضاها أن يرث التابع أرملة راعيه his patron كما يرث

ثروته ، ولابد أن ابن أمينة – عبد الرحمن – كان فى مرحلة الشباب فى هذا الوقت ، وكان من الممكن تماما أن يقوم الكخيا عثمان بدور الأب البديل لعبد الرحمن أو على الأقل أن يكون الرجل صاحب التأثير الأكبر عليه فى فترة شبابه ، ورغم أن عثمان ورث ثروة راعيه his patrons إلاّ أنه أوصى بجزء من عقاراته لعبد الرحمن كما ادخر ثروة الكخيا حسن لعبد الرحمن ، وأضاف – فى الوقت نفسه – من خلال مشروعاته التجارية ، ولم يكن يعرف أن بعد موته فى سنة ١٧٣٦م . سيقوم تابعه الكخيا سليمان بالاستيلاء على المبالغ كلها ، وعلى أية حال فإن الكخيا سليمان لم يتزوج أمينة خاتون التى ترمّلت مرتين ، بل لقد قضت السنوات الثلاثة التالية بلا زوج Single ، وبطبيعة الحال كان ابنها عبد الرحمن – فى ذلك الوقت – قد بلغ مبلغ الرجال وأصبح لديها ابن راشد قد يعوّضها عن ترمُّلها (بقائها بلا زوج) ، وعلى النحو نفسه فإن ابن السّيدة شنب – البيك محمد شنب – قد لعب الدور نفسه بالنسبة لأمه السيدة شنب التى ظلت بلا زواج بعد موت البيك إبراهيم أبى شنب ، وربما كان بقاؤها بلا زوج يرجع لكونها بلغت مرحلة كبيرة من العمر فكان هذا أحد العوامل التى حالت بينها وبين الزواج (٢٣) ، وعلى أية حال فالمؤرخ الدمرداشى يعرض دليلا أعمق على أن الابن الذى بلغ مرحلة النضج يمكن أن يؤثر فى مصير أمه ، وقد لاحظ هذا الحَوْلى – الدمرداشى – أنه عند موت البيك الإيواظى يوسف الجزّار كان ابن البيك يوسف "خالى الإذار" فتلقّى مملوك البيك التزامه وأخذ زوجته وتولّى أمر منزله his house (٢٤) .

فالابن الأكبر والأخ الكبير قد يكون للواحد منهم امتياز (الحق المقصور عليه) تزويج الأم أو الأخت أو الإبقاء عليها دون زواج ، وباختصار فقبل اغتيال البيك إسماعيل بن إيواظ بفترة يسيرة رقى كخيا كتائب الجاويشية إلى بك ، ومن الظاهر أن هذه الترقية كانت تمهيداً لزواجه من هانم التى كان الراغبون فيها كثيرين (٢٥) ، وبعد ذلك بحوالى خمسة عشر عاما يذكر لنا الدمرداشى والجبرتى خبر زواج أم عبد الرحمن أمينة خاتون من الأغا سليمان الذى كان وقتها كخيا الجاويشية ، فى الوقت الذى كانت فيه السّت شويكار تنتقل من يدى الكخيا سليمان إلى يدى الكخيا إبراهيم (٢٦) ، ويمكن للمرء أن يستنتج الكثير مما فعله عبد الرحمن لتزويج أمه من الأغا سليمان الذى كان حليفا وثيقا لعبد الرحمن ، وكان أداة لتأمين الميراث القازدغلى

له (لعبد الرحمن) ، وعلى أية حال فإن أمينة خاتون نفسها ربما قامت ببعض الترتيبات لإتمام هذا الزواج لصالح ابنها .

ولا شك أن إعادة تزويج عبد الرحمن لأمه أتى فى لحظة حاسمة بالنسبة له (لعبد الرحمن) : لقد حصل – أخيرا – على ميراثه بعد أن كان يعترضه طوال عدة سنوات تابعان من الأسرة ، وقد ازداد هذا الميراث بشكل أساسى بسبب مشروعات الكخيا عثمان التجارية ، ورغم هذا فإنه حتى هذا الوقت لم يصبح زعيما للزمرة ، بل كان فى الحقيقة محتاجا للحفاظ على ثروته وهويته السياسية من أن يهيمن عليها الكخيا إبراهيم ، ولهذه الأسباب – بلاشك – كوّن علاقة (صلة) مع الأغا سليمان الذى أخذ على عاتقه الدخول إلى خيمة الكخيا سليمان المحتَضَر ليتأكد من ألاّ يحاول أحد آخر المطالبة بثروته ، فى هذا المثال – إذن – كانت أمينة خاتون أداة لزواج تحالفى (تحالف قائم على الزواج) ثبت أنه ذو فائدة اقتصادية وسياسية لابنها الذى مات أبوه ، لقد كان زواجها منطويا على ثلاثة عناصر من روابط الزواج ، فمن خلال نظام "الزوجة الموروثة" ونظام الأم الرئيسة matriarch ، وثقت التحالفات لصالح عبد الرحمن .

وعلى أية حال لم يكن نظام "الزوجة الموروثة" أى التى "كانت تورّث" دائما أداة ، بل قد يأخذ دورا واضحا فى تشكيل المصائر السياسية لزمرتها ، وأدى الزواج المتعاقب من النبلاء (أمراء) إلى اكتساب المرأة خبرة فى فن المؤامرات السياسية ، ذلك الفن الدقيق ، فعلى سبيل المثال نجد أن هانم بنت إيواظ المهيبة أصبحت أثناء زواجها الثالث شخصية سياسية مؤثرة ، فلم يكن يُنظر لها – بشكل محّدد – كضحية – لا حول لها ولا قوّة – لقدر غامض ، فعندما وجدت نفسها مع زوج جديد حملت طموحاتها على مجالات اهتمام زوجها السياسية ، وعندما وجد زوج هانم الثالث (الأغا صالح) فرصة لحكم ناحية المنصورة فى الدلتا ، ذكر الدمرداشى أنها قالت له "لقد أصبحت صنجق بك وسآخذ على عاتقى حمايتك من كل افتخار"[٢٧] أى افتخار الفقارية خاصة البيك محمد قطامش الذى كان يميل إلى تدمير آخر القاسمية ، وقد قام صالح – أخيرا – بالتواطؤ مع الوالى العثمانى بالاشتراك فى اغتيال الزعماء الفقارية فى سنة ١٧٣٦م . ويمكن للمرء أن يكون متأكدا من أن هانم لعبت دور الليدى مكبث Macbeth فى هذه المؤامرة .

وهناك أمثلة أكثر جدارة بالانتباه إليها عن الفعل المستقل للأرملة ، ونعنى بذلك محظية الباشا علىّ الذى حكم مصر من سنة ١٧٠٦ إلى ١٧٠٧م . ومرة أخرى من سنة ١٧١٧ إلى ١٧٢٠م . فنحن نذكر أن محظيته هذه انضمت إلى هانم بنت إيواظ والسيدة شنب في محاولتهما الباكرة لإحباط خطط الفقارية وحلفائهم ، وعندما تم إعدام الباشا علىّ بناء على أمر سلطانىّ فى سنة ١٧٢٠ اختارت جاريته (محظيته) أن تبقى فى القاهرة ضد رغبة ابنها فى العودة بها إلى إستانبول [٢٨] ، وقد رفضت بالفعل أن تكون متاعا موروثا (زوجة مورّثة heritable) ولا ندرى ما إذا كانت قد تزوّجت أم لا و لا من أين كانت تتلقّى الدعم عقب مغادرة سيد الأسرة ، ويشير لها الدمرداشى دائما ببساطة "محظية الباشا على" مما يجعل المرء يظن أنها لم تتزوج ، ونحن نعلم أن الباشا علىّ دعم البيك إسماعيل بن إيواظ ، وربما كان هذا – فى الواقع – سبب إعدامه ، ولذا تعاطفت محظيته مع بقايا القاسمية ، وفيما عدا ذلك لا نعرف إلا القليل عن المكانة التى سعت لشغلها ، فلم يظهر أنها رَبطت نفسها بزمرة أخرى وربما تكون السيّدة شنب قد آوتها إلاّ أنَّ عُزلتها الظاهرة وافتقادها لحماية رجل لم يؤثرا إلا قليلا فى منعها عن ممارسة النشاط السياسى .

وربما كانت محظية الباشا على استثناء من قاعدة المحظية أو الزوجة التى تورَّث ، فحقيقة أن قابليتها للتوريث كانت تطلب ترحيلها ، ربما أسهمت فى قدرتها على أن تبقى مستقلّة ، وعلى أية حال فيبدو أنه من المعتاد أن تكون القابلية للتوريث (المقصود قابلية المرأة التوريث) كانت مصاحبة لنشاط سياسى أكثر منها حائلة أو مانعة له ، وحتى آخر الأرامل المهمة فى مصر قبل القرن التاسع عشر – ونعنى بها الست – نفيسة حازت نفوذها السياسى بسبب أنها كانت مورّثة ، لقد ترملّت تباعا مثلها فى ذلك مثل هانم بنت إيواظ ، وكانت – مثلها – تتزوج بعد كل ترمُّل ، وكان زوجها الأول هو البيك الشهير بلوط قابان على (على بيك الكبير) وعند اغتياله فى سنة ١٧٧٣ تزوجت البيك مراد مملوك مملوك البيك على – محمد أبو الذهب [٢٩] ، وكانت مثل زوجة البيك مراد الذين فروا للصعيد فى بداية الحملة الفرنسية ، وهناك عدد من الوقائع ذكرها الجبرتى تفيد أن الفرنسيين اعترفوا بها كممثلة لمراد فى القاهرة ، وعندما صادر الفرنسيّون منزل شيخ الأزهر البارز القدير الذى اعترض بعنف على الاحتلال الفرنسى ، اشتكى من

مخبئه للست نفيسة التى نقلت شكواه للبيك مراد فى الصعيد [٣٠] ، وبعد عقد اتفاق سلام مع مراد ومنحه إمارة الصعيد دفع الفرنسيون للست نفيسه معاشا شهريا مقداره ١٠٠,٠٠٠ بارا (عملة فضيّة مصرية) وتمت زيادة هذا المبلغ إلى ١٤٠,٠٠٠ بعد موت مراد فى سنة ١٨٠١م ، بل إنه بعد موت مراد انتقلت الست نفيسة إلى أحد مماليكه وأذعن الفرنسيون لهذا الطقس الذى كان محترما فى ذلك الوقت [٣١] ، لقد ظلت السيدة نفيسة كما تؤكد هذه النهاية فقد كان ادّعاء زعامة زمرة مراد دون الزواج من أرملته ذات المكانة أمر لا يمكن التفكير فيه ، لقد كانت الست نفيسة عنصرا ضروريا لسلطة النبيل القائد .

وبشكل عام فإن قيمة الزوجة المورَّثة (بتشديد الراء وفتحها) مثلها مثل المتاع ذى القيمة للأسرة المترفة تزداد قيمتها بمرور الوقت : فالتزوج من أشخاص بارزين سياسيا يزيد من فطنتها السياسية ، وهذه الفطنة – من ناحية أخرى – تجعلها شيئا ثمينا بالنسبة لأتباع زوجها المتوفَّى ، وهذا يعنى أن زوجة الأمير كانت بمعنى من المعانى ذات دور سياسى ، فرغم أنها من بعض النواحى "بضاعة" أو "شىء" إلاّ أن هذا لم يكن يعنى أنها سلبية أو لا صوت لها ، فدور المرأة المورثة "بتشديد الراء وفتحها " المرأة الرئيسة أو الزعيمة matriarch أو السيدة الأولى لم يكونا بالضرورة متناقضين ، فكثير من النسوة وجدن أنفسهن يقُمن بالدوْرين معا .

خاتمة

لقد كانت نخبة النساء فى مصر من خلال مواقعهن كزوجات أو محظيات أو – فى بعض الحالات – أخوات أو بنات ، قادرات على الإسهام بشكل فعّال فى استمرار الزمرة التى تشبه كثيرا شراء المماليك أو تجنيد المرتزقة ، حقيقة لقد كانت الزمرة هى الميدان الذى لا مفر منه لنشاط نخبة النساء – تماما كما هى بالنسبة للرجال ، بل إن هناك من الأدلة ما يشير إلى أنها أكثر أهمية لعمليات المرأة ؛ لأن المرأة ليست كالرجل إذ لا يتاح لها مغادرة البيت لفترات ممتدّة ، ومع هذا فلم تكن النساء حبيسات بيوتهن بل كن يتمتعن بقدر من حرية الحركة داخل أحياء النخبة فى القاهرة ، وكان من

الشائع أن تتزاور النسوة فى المنازل ، فقد كانت السيدة شنب ومحظية الباشا على تزوران هانم بنت إيواظ ، وكن يحبكن المناورات السياسية خلال هذه الزيارات ، وعلى أية حال ففى أوقات الأزمات كان الرجال عُرضه للهروب من منازلهم بينما تبقى الزوجات والمحظيات ، لذا فقد كن بهذا المعنى مرسى الزمرة وركيزتها ، وكانت ست البيت والمهيمنة على مقر الإقامة (المعروف باسم الحريم) مركزًا لاستقرار نسبى داخل الزمرة ، وبشكل أكثر عمومية كان "الحريم" (مقر الحريم فى الدار) يمثل استقرارا نسبيا وسط مجتمع مضطرب ومتغير ، فهنا - أى فى الحريم - قد يتردد المغتصب القوى فى الدخول إليه على الأقل ، وهنا قد يخبئ عدوّه المقهور ثروته على أمل أن يعود فى أيام أفضل ، وهنا قد يختبئ بالفعل ليهرب من نقمة عدوّه ، وعلى هذا فنسوة الزمرة لم يكنّ مجرد كماليات (اكسسوار) لسلطة الزمرة ومكانتها ودوامها ، وإنما كنّ عناصر حيوية لتحقيق كل هذا .

لقد تنامت وظيفة النساء بشكل أكثر وضوحًا كلما ضعفت السلطة المركزية فى مصر خلال القرن الثامن عشر ، وكما أصبحت الفرقتين الفقارية والقاسمية بمثابة زى عتيق (مودة انتهى أوانها) فإن نسوة الزُّمر التى كانت ضمن هاتين الفرقتين (القاسمية والفقارية) حافظن على شىء من مظاهر الولاءات التقليدية ، وكنّ فى الوقت نفسه يحرسن ثروة الزمرة أثناء التغير الدائم للتحالفات ، وقد أتاح رجحان كفة الزمرة القازدغلية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بعضَ الأمل فى الاستقرار ، رغم أن القازدغلية راحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول للزعامة ، وهم يؤكدون استقلالهم النسبى عن الحكومة المركزية (فى إستانبول) ، وكما تحصّل أمراء أفراد على المزيد من الثروة والمزيد من السلطة أخذت زوجاتهم وضع رئيسات النساء إلى جوار زعماء الرجال (أزواجهن) ، وعندما كان الزوج يواجه تحديا سواء من داخل الزمرة أو من خارجها كانت الزوجة تتحمل مسئولية المحافظة على الثروة وتماسك الزمرة ، وقد حدث هذا فى كثير من الزمر .

وفى مجتمع كانت السلطة السياسية فيه متمركزة فى زُمر فقد كان الزواج أحد الأشكال الطبيعية للتحالف أو الاندماج ، فالزوجة فى النخبة لم تكن أم ورثة زوجها وأخلافه فحسب وإنما كانت أيضا حليفته وشريكته ووكيلته خاصة أيام الأزمات ، وعلى

هذا فبينما كانت الزوجة شريكة زوجها فى مكانته السياسية والاقتصادية فإنها كانت تستطيع أيضا أن تساهم فيها ، وغالبا ما كانت مساهمتها جوهرية ، حقيقة إن الحنكة فى زيجة أو أكثر تؤدى إلى خبرة سياسية كبيرة ، بل - نمطيا - تؤدى أيضا إلى ثروة كبيرة للزوج الجديد ، لقد كان الزواج يتم التخطيط له مع توقّع أن تستطيع الزوجة أن تحقق بعض المنافع السياسية ، لقد كان زواج المرأة أساسا تبنى عليه نشاطها السياسى ، وباختصار فلم يكن التفويض السياسى للنساء مسألة غير متوقعة فى زواج النخبة وإنما كان ملمحًا أساسيًا لهذا الزواج ، ومن هنا - إذن - فإن نسوة مثل أمينة خاتون والسّت شويكار والست نفيسة كُنّ ذوات أهمية لازدهار الزمرة القازدغلية كنظرائهن الرجال رغم أن الآخرين أكثر شهرة .

الهوامش

(١) انظر :

Edouard de Zambaur, Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam (Hanover, 1927) PP.164,167

استخدمت زوجة حسن باشا نفوذها مع أخيها لإعادة حسن باشا إلى إستانبول بعد توليته للمرة الثانية : انظر : الدمرداشى ، درة ، ص ص ٣٣١ – ٤٣١ . والمثال الأشهر لهذا النوع من الزواج ربما كان زواج محرمة سلطان ابنة سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦) من رستم باشا ، الذى أصبح صدرا أعظم (رئيسًا للوزراء) بعد زواجه بخمس سنوات . انظر :

Peirce, The Imperial Harem, pp. 72, 76-7 .

(٢) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (204v - 205 r) أخبار النوّاب (Fo 34 r) . أحمد شلبى ، زوده ، ص ١٧١ ، فى أواخر القرن ١٨ راحت أسرة الكبرى من الإشراف تحتكر هذا المنصب .

(٣) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ١٥٨ . يذكر الجبرتى أنّ العريس الجديد وإخوته كانوا مماليك عتقاء للأغا قزلار بشير (بشير كبير الخصيان) ، وربما كان الخصى المقصود هو الأغا مورالى بشير الذى شغل منصبه من ١٧٤٦ إلى ١٧٥٢م بعد الحاج بشير الذى عاش عمرا مديدا ، ومن المعقول أن يكون الإخوة تركوا إستانبول بعد إعدام مورالى بشير .

(٤) عن إسماعيل بك ، انظر : الجبرتى ، عجائب ، مج ، ص ٦٩١ وانظر أيضا :

Cerecelius , Roots of modern Egypt, p. 45.

وعن (أبى الذهب) انظر :

Cerecelius ,Roots of modern Egypt . pp. 49 - 50.

والمصادر الواردة فى حاشية ٢٢ .

(٥) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٥٢ .

(٦) الدمرداشى ، درة ، ص ٢١٣ .

Muhimme- i Misir,vol I ,nos ,410, 412 (1127/1715).

(٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٤٧٠ .

(٨) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٤٨٠ .

(٩) الدمرداشى ، دره ، ص ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(١٠) نفسه ، ص ٢٥١ .

(١١) نفسه ، ص ٤٢٣ .

(١٢) نفسه ، ص ٢٨٢-٤ .

(١٣) اغتيال إيواظ بيك فى سنة ١٧١١م حدث هام فى تاريخ نبلاء (أمراء) مصر العثمانية . انظر الدمرداشى درة . ص ص ١٥٤ – ١٥٦ . أحمد شلبى ، أوده ، ص ٢٣٠ . الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ١١٩ – ١٢٢ ، عبد الكريم ، تاريخ مصر (128 r - 146 v.) .

(١٤) كان زوجها هو يوسف بك زوج هانم Zawj Hanim الذى سمى بعد ذلك يوسف بك الخائن بعد تحالفه مع شركس محمد بيك . انظر : الدمرداشى ، درة ، ص ٣٢١ والمتآمران الآخران هما : يوسف بك الشرايبى ، والأغا الانكشارى السابق سليمان أبو دفيّة .

(١٥) الدمرداشى ، درة ، ص ٣٧٧

(١٦) انظر حاشية ١٣ ، الدمرداشى درة ، ٢٢٥ – ٦ ، ٢٦٤ . الجبرتى ، عجائب ، مج١ ، ص ص ٢٧٦ ، ١٤٦ – ١٤٧ ، ٣٠١ – ٣٠٢

(١٧) الكلمة غز Ghuzz شاع استخدامها للدلالة على العسكريين فى مصر وهى مشتقة من الكلمة أوغز Oghuz وتعنى كونفدرالية تركية يعود إليها أصل العثمانيين . الدمرداشى ، دره ، ص ٣٧٨ .

(18) Crecelius "Russia" Relations With the Mamluk Beys of Egypt in the 18 th Century

(١٩) الجبرتى ، عجائب ، مج ٢٣ ص ٣٤٤ .

(20) Al-J̄abarti, "Journal d'un notable du Caire durant", Expedition francaise 1798-1801 . trans, Joseph Cuog (Paris 1979) pp. 41-42,56

(٢١) الدمرداش ، دره ، ص ٤٨٣ . منزل كبير الخصيان السود الأغا يوسف (١٦٧١ – ١٦٨٧) فى سويقة عصفور .

(٢٢) الدمرداش ، دره ، ص ص ٤٣٧ ، ٥٦٦ .

(٢٣) وفقا لما ذكره الجبرتى (عجائب ، مج١ ، ص ٢٧٦) كان عمر إبراهيم بك أبى شنب ٩٢ سنة عند موته فى سنة ١٧١٨م . وليس لدينا معلومات عن عمر زوجته .

(٢٤) الدمرداش ، درة ، ص ٢٦٣ .

(٢٥) نفسه ، ص ٢٣٩ .

(٢٦) نفسه ، ص ٤٣٧ . الجبرتى ، عجائب ، مج٣ ، ص ١٣٠ .

(٢٧) الدمرداش ، درة ، ص ٤١٤ .

(٢٨) نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٢٩) زوجة مراد الأولى هى أرملة صالح بك أحد بقايا القاسمية وعدو على بيك الكبير (بلوط قابان) . عن حياة مراد وموته انظر :

Al-J̄abarti , Journal ... op .ei t p 327

(30) Al J̄abarti , Ibid , p. 238

أرسل مراد كاشفا من زمرته للتوسط لدى الفرنسيين لإعادة منزله إليه .

(31) Al -J̄abarti , Ibid , pp. 308 , 315 , 350

الفصل السابع

الممتلكات والمشاركة التجارية

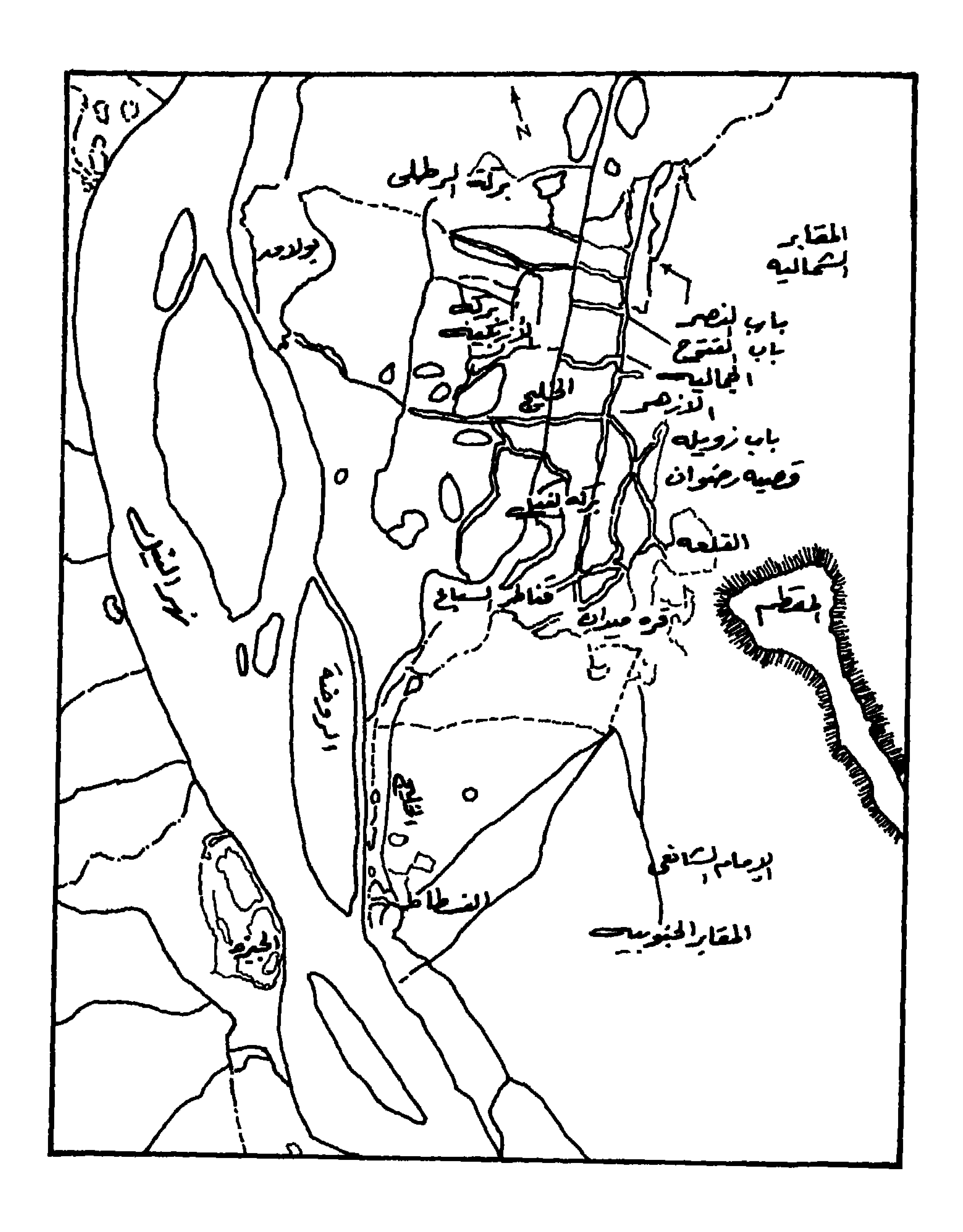
لا يستلزم تكوين الزمرة مجرد تجميع الأتباع ، وعقد التحالفات بالزواج وغير ذلك من وسائل تكوين الروابط ، وإنما يكون ذلك أيضًا بتجميع الثروة الكافية لمؤازرة الأتباع والزوجات والأبناء ولتكون – أى هذه الثروة – ميراثًا يرثونه ، ومن هنا كان الاهتمام الأساسى للأمير الداهية هو تأمين مصدر دائم للدخل ، وقد يتمثل هذا المصدر الدائم من حقوق جمع الضرائب فى كل من المدن والريف ، أو من إيجارات الممتلكات أو من الاستثمار فى التجارة ، وكانت الثروة الرمزية للزمرة ممثلة فى المساجد والأسبلة التى فُوِّض زعيم الزمرة بإقامتها ، أو المقر أو القصر الذى تجتمع فيه الزمرة لتقرير خططها ومشروعاتها لتوسيع مجالات اهتماماتها ونفوذها ، هذا المقر أو القصر هو الأكثر أهمية من المآثر الأخرى ، إن مثل هذه الإنشاءات تُعلن عن وجود الزمرة وتُسهم فى إعطاء أعضائها روح التماسك ، كما تُعطيهم هُوية خاصة .

المنزل house (البيت) :

ربما كان المنزل house (البيت) الذى كانت تستخدمه الزمرة مقرًا هو أكثر العناصر بروزًا وأهمية ، حقيقة لقد كان شراء أو بناء المقر الفخيم يعكس مدى ثروة زعيم الزمرة ومكانته ومدى استقلاله ، وكان زعماء الزمر ذوو الوضعيّات الأقل نسبيًا – مثل ضباط الأوجاقات الأدنى رتبة يميلون إلى استخدام ثكناتهم فى قلعة القاهرة كمقار لزمرهم بينما كانوا ربما يحتفظون بمنازل أكثر تواضعًا لإقامة أسرهم فى الأحياء المجاورة ، وكان الضابط الإنكشارى لا يحصل – بشكل نمطى أو تقليدى –

على مقر أساسى إلاّ بعد حصوله على رتبة جاويش ، أما ضابط كتائب العزبان فلا يحصل على مثل هذا المقر إلاّ بعد حصوله على رتبة شوربجى ، وفى هذه الأثناء كان النبيل غير المنتمى للأوجاقات (الفرق العسكرية) يُرقى تلقائيًا إلى البكوية قبل أن يحصل على مثل هذا المنزل house (البيت) [١] ، وعلى هذا فيمكن للمرء أن يستنتج أن راتب الضابط الأدنى رتبة بالإضافة إلى المبالغ الأخرى التى كان يتحصّل عليها لم تكن تكفى لشراء بيت أو بنائه ، غالبًا أصبح البيت house مرتبطًا برتبة بعينها يمكن لأحد الأتباع أن يطالب بها إذا مات رئيس الزمرة ، فعند موت الزعيم يطالب التابع بالبيت والرتبة معًا ، وكان هذا الإجراء جزءًا من عملية تولّى أحد الأتباع للزعامة بعد موت راعيه .

ومن الناحية النمطية كان البيت الذى يُتَّخذ مقرًا للزمرة واسعًا يضم أجنحة رحبة لزعيم الزمرة وحاشيته ومساعديه ، وكانت قاعة الاستقبال جزءًا أساسيًا منه ، ففيها كان زعيم الزمرة يستقبل ضيوفه ويتناقش مع حلفائه ، ومع أعضاء الإدارة العثمانية ، وكانت صالات الاستقبال فى منازل أكثر نبلاء مصر نفوذًا تأخذ الواحدة منها شكل قاعات الاجتماعات الوسيمة ؛ إذ كان البيت مفتوحًا لكل الناس ، لذا فقد كان يُعرف بالبيت المفتوح وهو مؤسّسة لم تعرفها مصر قبل الفتح العثمانى بهذا المعنى [٢] ، وكانت الاجتماعات التى تعقد فى هذه البيوت " المفتوحة " تضارع " ديوان " الوالى العثمانى فى القلعة ، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر بدأت هذه البيوت المفتوحة تحل محل " ديوان الوالى " كمحور أو مركز للسلطة السياسية ، وعلى هذا فإن بيت (منزل) شيخ البلد – وهو البيك الذى تم الاعتراف به بحلول منتصف القرن الثامن عشر زعيم نبلاء (أمراء) القاهرة – حلّ محل القلعة كمركز للنشاط السياسى فى القاهرة [٣] ، وقد شاركت زوجات شيخ البلد ومحظياته وبناته فى هذه التركيبة السياسية ، بل أنّ هذا ينطبق على بيت (منزل) كل زعيم بارز ، ورغم أنّ النسوة ومن معهن من خادمات ووصيفات كن يقمن فى جناح الحريم ، فإن هذا لم يمنع من أن يكون هذا الجناح هو فى حد ذاته قاعدة السلطة a base of power ، والحقيقة أنه كان يمكن اعتباره زمرة نسائية موازية (لزمرة الرجال) ، وكانت زوجة – أو زوجات – الزعيم على رأس هذه الزمرة (النسائية) ، وكانت جزءًا متممًا لسلطة الزمرة ككُل ، وعلى هذا فالجبرتى يشير إلى الأعضاء من النسوة فى زمرة البيك مراد باسم أتباع الست نفيسة الجليلة


N
بركة الرطلي
المقابر الشماليه
بولاق
بركة الأزبكية
باب النصر
باب الفتوح
الجمالية
الخليج
الأزهر
باب زويلة
قصبة رضوان
بركة الفيل
القلعة
المقطم
قناطر السباع
بحر النيل
الروضة
الإمام الشافعي
الفسطاط
المقابر الجنوبية
الجزيرة

(الزوجة الأولى لبلوط قابان على بك ، والتى تزوجها بعد ذلك البيك مراد) (٤) .
وبحلول منتصف القرن الثامن عشر أضحى واضحًا أنه لم يعد من الشائع أن تقيم نسوة الزّمر الثرية فى منزل منفصل ، ويلاحظ الدمرداشى أن عبد الله أفندى الذى شغل منصب الروزنامجى (الأمين على سجلات الخزانة) كان لديه منزل للحريم تقيم فيه نسوة زمرته (٥) ، وكانت فكرة منزل الحريم عند القازدغلية المتأخرين زمنًا قد تطورت ليُصبح هناك مقر منفصل لكل مجموعة من نساء الزمرة ذوات الوضع القيادى ، ويذكر الجبرتى أن ابنة الكخيا إبراهيم القازدغلى عندما تزوجت الأغا أحمد البارودى انتقل الزوجان إلى منزل الكخيا إبراهيم الشهير خارج باب سعادة وباب الخرج غرب باب زويلة (٦) ، وفى وقت لاحق روى لنا هذا المؤرخ أخبار زيارة قام بها مع الشاعر إسماعيل الخشاب لبيت أم البيك مرزوق زوجة البيك إبراهيم الكبير فى حى عابدين جنوب الأزبكية (٧) ، وكان ابن إبراهيم (البيك مرزوق) قد نشأ نشأة تشبه كثيراً نشأة أبناء السلاطين العثمانيين وقضى فترة فى العقد العتيق (ساراى عتيق) الذى يقع على مسافة غير بعيدة من قصر طوبقابى السلطانى (٨) .

والأدلة تشير إلى أهمية موقع هذا المنزل ورحابته وما به من وسائل الراحة والرفاهية ، وكان منزل جد القازدغلية الأغا حسن بلفية يقع خارج باب زويله مباشرة وهو البوابة الجنوبية للقاهرة الفاطمية الأصلية (٩) ، وكان هذا هو الموقع الذى يقيم فيه كثير من الحرفيّين بمن فى ذلك الجنود العثمانيون الذين اكتسبوا طابعًا محليًا (الذين توطّنوا Localized) (١٠) وامتلكوا محلات ، وحيث كانت تظهر احتجاجات حضرية urban بشكل متتابع ، وأخذ كثير من الجنود العثمانيين ممن كانوا من أصحاب الحرف منازل ومحلات – أيضًا – فى المناطق القريبة من الجامع الأزهر وخان الخليلى (سوق القاهرة الرئيسى) (١١) ، لكن إلى الأبعد شمالاً كانت هناك عدة وكالات كبيرة (الوكالة تضم مخازن للبضائع) منها وكالات للبن وأخرى للكتان كانت قد أسسها فى أواخر القرن السابع عشر الأغا عباس (كبير الخصيان السّود) (١٢) ، وبالإضافة لهذا فإن الوالى (ليس المقصود الباشا العثمانى وإنما السوباشى التركى Subasi أى رئيس بوليس القاهرة) الذى كان يتم اختياره من بين الضباط الإنكشارية – كان هذا السوباشى قد تمركز مع رجاله خارج باب زويله (١٣) ، وعلى هذا فقد كانت البقعة ذات موقع جيد لمن يريد المشاركة فى أكثر قطاعات القاهرة نشاطًا من الناحية التجارية ،

ولمن يريد قيادة أعمال الأمن (البوليس) ، ولم يكن من المعتاد أن يقيم ضباط الأوجاقات فى هذه الضواحى فى القرن السابع عشر ، عندما كان الأغا حسن يشغل منزله ، وكان نبلاء العصر من ذوى النفوذ وكذلك الخصيان السود المنفيون من القصور يتركزون فى بركة الفيل جنوب القاهرة [١٤] ، ولا شك أن الأغا حسن قد رأى ميزات تجارية وسياسية فى هذه البقعة فأقام منزله بها .

وخلال القرن الثامن عشر تحركت صُرَّة (بؤرة) إقامة النخبة شيئًا فشيئًا وباضطراد ناحية الغرب ، وحذا القازدغلية الحذو نفسه بنقل منازلهم ، فالكخيا عثمان القازدغلى كان – فيما يبدو – أول زعيم قازدغلى يبنى منزلاً على شاطئ بركة الأزبكية ، فكان ذلك سنّة أخذ بها معظم أخلافه ، والحقيقة أن الأزبكية بحلول النصف الثانى من القرن الثامن عشر كانت قد أصبحت – على نحو ما – بحيرة قازدغلية ؛ إذ كان يحيط بها نبلاء (أمراء) القازدغلية وحلفاؤهم [١٥] ، وربما كان أشهر مجمع سكنى فى الأزبكية هو القصر الفسيح للبيك محمد الألفى ، مملوك البيك مراد (مراد بك) الذى كان شخصية فعّالة فى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد أصبح القصر كما هو معروف مقر بونابرت خلال الاحتلال الفرنسى لمصر [١٦] .

والاستثناء الجدير بالملاحظة هو أن منزل الكخيا سليمان الشوهادار الذى خلف الكخيا عثمان ، ولم يعمّر – أى سليمان هذا – طويلاً ، قد أقام فى حى اليهود القديم فى قلب القاهرة إلى الشمال الغربى من باب زويله[١٧] ، لكن كون الكخيا سليمان قضى معظم عمره كوكيل تجارى لراعيه الكخيا عثمان فإن هذا يعطى لموقع منزله معنى ، وربما كان معظم زعماء الزمر يمركزون وكلاء تجاريين لهم فى مراكز (مناطق) على النحو الآنف ذكره حيث يزدهر النشاط التجارى دون أن يقيموا هم أنفسهم فى هذه المراكز (المقار) ، وحقيقة كونهم يؤسسون منازلهم فى أماكن بعيدة نسبيًا عن هذه الأحياء لا يعنى عدم انخراطهم فى النشاط التجارى ، وإنما – كما تشير كل الاحتمالات – رغبة منهم فى البعد عن التجار والحرفيين الذين كثيراً ما يقومون بحركات عصيان ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الأمن ببعدهم هذا [١٨] ، فجموع العصاة الراغبين فى المسير من باب زويلة إلى منزل الأمير فى الأزبكية لتقديم مطالبهم لابد أن تكون جموعًا متورّطة ففى الوقت الذى تصل فيه إلى منزل الأمير يكون حماسها قد بَرُدَ [١٩] .

وقلما كان الأمير يقيم منشأة دينية (مسجداً مثلاً) في المنطقة المحيطة بمقر إقامته الشخصى ، ورغم أن كثيراً من منازل (بيوت) النبلاء كانت فخيمة متسعة ، ومفتوحة – بدرجات مختلفة – للعامة فقد كانت هناك أحياء مقصورة فى الأساس على الأمراء وأتباعهم وأولادهم وزوجاتهم ومحظياتهم وخدمهم ، والاستثناء من هذه القاعدة كان المجمع السكنى للكخيا عثمان القازدغلى فى الأزبكية ؛ إذ كان يضم بالإضافة إلى مقر الكخيا عثمان مسجداً وسبيل ماء وحماماً وساقية وكان يضم أيضاً محلات تجارية [٢٠] ، وكان الكخيا عثمان أول زعيم قازدغلى يؤسس زمرة يُحسب لها حساب إذ لم تعد زمرته مجرد زمرة فى ظل الجدك the Gedik أو الزمرة البلفية ، بالإضافة إلى أنه كان أول قازدغلى يقيم فى الأزبكية ، لذا فربما كان مجمعه الخيرى والتعليمى قد وُظّف لخدمة الزمرة القازدغلية ليكون لها حضور رائد فى الأزبكية فى الوقت نفسه تُكسبه تأييداً ودعماً بين المقيمين فى الأحياء المجاورة التى تستفيد من الخدمات التى يقدمها هذا المجمع الخيرى ، كما كان هذا المسجد والمدرسة الملحقة به يسهمان فى تقديم التعليم الدينى لأتباع عثمان خاصة بالنسبة للماليك المجلوبين من بلاد الكُفر [٢١] .

وبينما كان المنزل – بلا جدال – هو المقر السياسىّ فقد كان من الممكن أن يكون أيضًا حصنًا عسكريًا ؛ إذ كان هدفًا واضحًا لأعداء زعيم الزمرة بمن فى ذلك الباشا العثمانى ، فقد كان المنزل بمثابة رمز رئيسى لسلطة الزمرة وقوتها ، ففى أثناء سلسلة الاضطرابات الطويلة التى أعقبت الحرب الأهلية فى سنة ١٧١١م . راحت الزمرتان المتنافستان (الفقارية والقاسمية) تناضل كل منهما للسيطرة على منازل نبلاء الفرقة الأخرى تماماً كما تناضل الجيوش فى المعركة للسيطرة على التلال الاستراتيجية ، ويصف الدمرداشى كيف أن حلفاء الزعيم الفقارى البيك أيوب عملوا على اجتياح الوالى (الباشا العثمانى) وحلفائه القاسميين باستخدام نفق أرضى يربط منزل أيوب بمنزل حليفه الأغا عمر بلفية [٢٢] ، وعلى النحو نفسه كان من الممكن تحويل المنزل إلى حصن بوضع مدفع فوق السطح ومرتكزات للبنادق فى الشبابيك ، وإذا هُزم رأس الزمرة أصبح بيته غنيمة لأعدائه ، وكان إجراءً نمطيًا أن يقوم المنتصرون بسلب منزل المهزوم أو هدمه أو إحراقه [٢٣] ، وللسبب نفسه كان الأمير الذى تسخط عليه الحكومة

العثمانية المركزية يتوقع أن تقوم قوات الوالى بتدمير بيته ، وفى ذروة هذه الاضطرابات الآنف ذكرها نفذت قوات الباشا العثمانى أمراً بإعدام الزعيم الفقارى البيك قايطاس ، وبعدها أغلقوا منزله وقطعوا بالفؤوس شجرة توت عتيقة لها من العمر خمسمئة عام فى حديقة المنزل ، كان الزعيم الفقارى يعقد تحتها اجتماعات ديوانه (٢٤) .

وبالإضافة لكون المجمع السكنى مركزًا لنفوذ الزمرة وسلطانها فقد كان يضم أيضًا جانبًا كبيرًا من الثروة المادية ممثلة فى الأثاث والسجاجيد والأطباق والجواهر بالإضافة للخيول والمواشى ، ووصْف الدمرداشى لمحتويات منزل البيك إسماعيل بن إيواظ الذى تعرض للاغتيال يُظهر لنا أنه كان يضم " أقمشة هندية وعنبر ولؤلؤ وأطباق صينى وأخرى من البورسلين ونقود ومؤن وأطقم للخيل ودروع " (٢٥) . ولم يكن رأس الزمرة غبيًا لدرجة أنه يحفظ كل ثروته فى مجمعه السكنى ؛ إذ كان النبلاء وغيرهم من ذوى الحيثية – كعلماء الدين مثلاً – عادة ما يكون للواحد منهم منزل صغير فى الأحياء الأفقر كالحسينية – خارج باب الفتوح – يخبئ فيه قدراً من ثروته (٢٦) ، وكان من الممكن استخدام جناح الحريم فى المنزل للغرض نفسه ، فالجماعة التى نهبت المنزل الذى كان يعيش فيه عبد الله أفندى الروزنامجى تركت جناح الحريم دون أن تمسه وزعمت أنها قد نهبت المنزل تمامًا (٢٧) ، رغم أنهم كانوا على وعى بما هو موجود فى هذا الجناح ، وفى وقت لاحق نجد فى حوليات الدمرداشى أن الكخيا حسن الرزاز (حامى الكخيا رضوان الجلفى) يصرح أنه يحفظ أمواله فى جناح حريمه ولا يثق فى غير ذلك (٢٨) ، فما دامت الشريعة الإسلامية تُقر أن الممتلكات التى تخص زوجة الزعيم تبقى فى ملكيتها فقد كان وجود الثروة مع النساء أكثر أمانًا ، بالإضافة إلى أن النساء أقل عرضة للهجوم من الرجال كما بينت فى فصل سابق ، لكل هذا كان للنساء دور هام فى المحافظة على ثروة الزمرة .

الالتـــزام :

رغم أن المنزل كان جزءًا من الثروة (الممتلكات) التى تقوم عليها الزمرة بالإضافة لكونه رمزًا لسلطانها ونفوذها إلاّ أنه لم يكن فى حد ذاته مصدراً للدخل ، لذا

فقد عمدت الزمر لتأمين دخولها (جمع دخل) من السيطرة على مصادر الدخل الأساسية ومن النشاط التجارى ، فكلما تكاثرت الالتزامات خلال القرن السابع عشر أصبحت استثمارات مربحة للزمر ، فالالتزامات لم تكن تشمل فقط الضرائب المفروضة على القرى والمناطق الريفية فقط ، وإنما كانت تشمل أيضًا الرسوم المفروضة على العمليات التجارية فى الحضر مثل : الجمارك ورسوم العبور (المكوس) ، وخلال القرن السابع عشر راح ضباط الأوجاقات يفضلون الالتزامات الحضرية (بفتح الحاء والضاد) بينما فضل البكوات الالتزامات الزراعية بالإضافة لحكم الجهات والنواحى (الولايات الداخلية) ، وعلى أية حال فبحلول القرن الثامن عشر انضم الضباط إلى فئة الملتزمين ، وهو تطور أدّى بهم إلى التطلع إلى مزارع الريف فى الولايات الفرعية وأدى هذا أخيراً إلى تغلغلهم فى البكلرية (مؤسسة البكوية) [٢٩] .

وكانت أكثر الالتزامات الزراعية جذبًا هى التزامات القرى المنتجة للحبوب المرتبطة بالأوقاف العثمانية على المدينتين المقدستين ؛ مكة والمدينة (أوقاف الحرمين) إذ كان يمكن للملتزم أن يجمع الفائض Surplus revenue لنفسه ، ذلك الفائض المتمثل فى المتبقّى بعد وفاء القرية بالقدر المعلوم المخصَّص لها لإرساله لمكة والمدينة ، وتشير كل الظواهر إلى أن النبلاء حاولوا تباعًا الحصول على مجموعة من قرى الوقف فى إقليم بعينه مما يتيح ممارسة سلطة فعّالة على الإقليم [٣٠] ، ومثال زمرة البلفية يعيد أن مثل هذه الالتزامات كانت بمثابة مِلْك يورّث ، وكان يمكن أن تكون أساسًا للثروة الأساسية للزمرة ، وكان الأغا حسن بلفية مؤسس الزمرة ملتزمًا لفترة طويلة لبلفية وهى قرية موقوفة فى ولاية البهنسا بصعيد مصر ، ولا ندرى ما إذا كان الأغا حسن نفسه قد عمل على إضافة التزامات أخرى إلى جانب التزام بلفية فى الإقليم نفسه أم لا ، فإن كان فعل لدلّ ذلك على وعى بالأمور المالية ، لكن المؤكد أن مملوكه ونعنى به البيك مصطفى بلفية قد تسلم التزام بلفية عند موت حسن فى سنة ١٧٠٤م . ومدّ سلطان الزمرة البلفية فى الإقليم ، وصدر مرسوم عثمانى (فرمان) فى سنة ١٧٣٣م . يخوّله حق الإدارة الذاتية Serbestiyer على مجموعة من قرى الوقف فى البهنسا [٣١] ، هذا المخزون فى صعيد مصر لم يقدم للزمرة البلفية مصدراً آمنًا للدخل فحسب وإنما قدم لها أيضًا معقلاً فى الإقاليم كان يمكن لأفرادها أن يلجأوا إليه وقت الأزمات ، فعندما

غزا بونابرت مصر فى سنة ١٧٩٨م . فر القازدغلية أخلاف البلفية إلى هناك ، وحاول البيك مراد الانتظار – حتى يحين الوقت المناسب – فى قرية الفشن التى كانت جزءاً من مناطق نفوذ البلفية [٣٢] .

لقد كان نبلاء الزمرة ، بل وكل أفرادها حقيقة يُدْعَون – بالاسم – لتولى الالتزامات التى هى أساس ثرواتهم ، بل هى المصدر الأكيد لدخل الزمرة ، وبالإضافة إلى الزمرة البلفية تقدم لنا الحوليات أمثلة أخرى من الزمرة الجلفية التى يظهر أنها اتخذت اسمها نسبة لقرية سنجلف Sinjalf فى المنوفية ، والبيك عبد الرحمن دلجة Dalja ملتزم قرية دلجة فى الأشمونين [٣٣] ، وكان حكام ولاية جرجا المتميزة فى صعيد مصر يحمل الواحد منهم عادة لقب جرجا ، وربما كان أشهر هؤلاء هو البيك محمد جرجا الذى تمرّد ضد الوالى العثمانى فى سنة ١٦٥٩م [٣٤] .

الأنشطة التجارية

حتى الزّمر التى تحصل على ثروتها الأساسية نتيجة توليها الالتزامات كانت تستثمر أموالها على نطاق واسع فى الأنشطة التجارية بالإضافة لتوليها الالتزامات أو كعمل مرتبط بها (أى مرتبط بهذه الالتزامات) ، وغالبًا ما كانت أرباح العمليات التجارية تسمح لزعيم الزمرة أن يبدأ فى تولّى الالتزامات وأن يبدأ فى إقامة منزل مُتْرَف وشراء المماليك ، واستئجار المرتزقة ، والحراس الشخصيين (البودى جارد) والخدم ، وفى بواكير القرن الثامن عشر كان عدد من الزمر التى أخذت الصّدارة ، كان مؤسّسوها قد انخرطوا فى نوع بعينه من التجارة ، ثم استخدموا الثروة التى جمعوها فى عقد تحالفات استراتيجية ليصعدوا سلّم النفوذ ، وغالبًا ما يظل الاسم الدال على المهنة باقيا كشاهد على أصل الزمرة ، فمؤسس الزمرة الصابونجية Saboncı التى سادت فرقة (أوجاق) العزبان فى العقدين الأول والثانى من القرن الثامن عشر (١٧١٠ – ١٧١٩م) ، (١٧٢٠ – ١٧٢٩م) لابد أنه – فى وقت من الأوقات – كان صانع صابون ، بينما كانت عشيرة المناف Manav التى ظهرت بين الحين والحين (بشكل متقطع) فى سجلات الرواتب وفى الحوليات أثناء الفترة

نفسها قد عمل أفرادها فى وقت من الأوقاف كفكهانية (فالكلمة ماناف فى التركية تعنى الفكهانى أو الفاكهى) ، وزمرة الفلاّح تُعد زمرة أكثر توثيقًا فقد سُميت بزمرة الفلاح نسبة للحاج صالح الفلاّح الذى كان فلاحًا مصريًا يتيمًا جمع ثروة وكوّن نفوذًا بعد التحاقه بزمرة الكخيا على الجلفى ، وقد ضمن أخلافه استمرار ثرواتهم ونفوذهم بربط أنفسهم بالقازدغلية (٣٥) .

وكان للتجارة أو الحرفة الضرورية لتأسيس الزمرة وضمان مورد رزق لأفرادها – أثر لا فكاك منه فى تكوين الزمرة وصياغة سلوك أفرادها ، فالمجنّدون الجدد فى الزمرة لابد من تدريبهم على هذه الحرفة أو على هذا النوع من التجارة ، أو أن يتم اختيارهم منذ البداية وفقًا لقدرتهم على ممارستها ، فالكخيا إبراهيم القازدغلى اختار أتباعًا يمكنهم مساعدته فى ضبط طريق الحج وفى جمع الأموال المطلوبة من قرى الالتزام المنتجة للحبوب فى صعيد مصر ، وهذا يضمن سيطرته على تجارة البن كما أنه يساعده على التغلغل فى البكلرية (مؤسسة البكوية) (٣٦) . وعلى النحو نفسه فإن أعضاء الزمرة الشرايبية Sharaybi انضموا إلى مضاربات تجارة البن والبهار عبر البحار ، وللسبب نفسه فإن المنافسات التجارية كان يمكنها أن تقسم الزمرة الواحدة أو تثير العداوة بين زمرة وأخرى ، لقد كانت الرغبة فى السيطرة المنفردة على جمارك الميناء وعوائد البن قد أسهمت فى اتخاذ الكخيا عثمان القازدغلى قراره بإبعاد زمرتىْ الجدك والشريفى Seriflan عن كتائب الإنكشارية (٣٧) ، وعقب موت الكخيا عثمان أدى اغتصاب الكخيا سليمان لعقاراته إلى إبعاد الكخيا عبد الرحمن عن تجارة البن (٣٨) .

وكان من الممكن لزوجات الأمير أو محظياته أن يلعبن دورًا هامًا فى تكوين المشاركات والاستثمارات التجارية ، والمحافظة على استمرارها ، فبالنسبة للزوجة لم تكن مجرد شريك سياسى – كما لاحظنا آنفًا – بل كانت شريكًا تجاريًا ، فعندما كان رأس الزمرة مضطرًا للفرار كانت الزوجة تقوم على حراسة الثروة ، فقد كانت هى نفسها تقوم بدور الشريك غير الظاهر فى المضاربة التجارية (٣٩) Commenda ، ومما يجعل هذا الأمر مناسبًا أن الأمير كان يُختبئ ثروته فى جناح الحريم فى منزله أو فى جناح الحريم فى منزل آخر منفصل ، وكان من الممكن للزوجة أيضًا أن تقوم

بدور أكثر فعالية فى العمليات التجارية . ويصف لنا الجبرتى كيف أن زوجة شيخ الأزهر فى أواخر القرن الثامن عشر (الشيخ عبد الله الشرقاوى) كانت تستثمر – بدهاء – فى المحلات التجارية والحمامات والعقارات لتعزز رغبة زوجها الشيخ الشديدة فى الحصول على التزام [٤٠] ، هذا النوع من العلاقات الزوجية ذات البعد التجارى ربما كانت ملمحًا من ملامح الأعضاء الجدد فى النخبة ، كما رأينا هذا فى حالة علماء الدين الجدد الذين راحوا تباعًا يؤمِّنون مواضعهم بين الطبقة العليا بتزوجهم من بنات كبار التجار أو بنات العسكريين من ذوى الرتب العالية ، وكان نص الشريعة على احتفاظ الزوجة بأية ممتلكات تحصل عليها مما يشجع زوجات الأمراء على الاستثمار مما يُسهم فى زيادة ثروة الزمرة ، وكان يمكن للحكومة المركزية مصادرة ممتلكات أحد الأمراء أو النبلاء الذين سيتمردون ضد السلطان ، لكنها لم تكن تستطيع المساس بالممتلكات التى تملكها زوجته .

وكان النبيل (أو الأمير) الناشط تجاريًا يمتاز بإقامة منشآت تجارية لم يكن من الضرورى أن تكون فى الحى نفسه الذى يقيم فيه ، لقد شاركت الزمر الإنكشارية والزمر البكرية (التى كونها البكوات) فى ترتيبات تجارية واسعة المدى وإقامة المنشآت المرتبطة بها خاصة مجمعات المخازن والأسواق المالية والوكالات والأسواق المركزية أو القيصاريّات [٤١] Qaysariyyas ، وقبل آخر القرن الثامن عشر – على أية حال – لم نجد هذه الزمر تقف أموالاً على مثل هذه المنشآت التجارية بنفس الدرجة التى كان المسئولون العثمانيون بمن فيهم الباشاوات (الولاة) وكبار الخصيان السود المنفيون – يفعلونها ، والاستثناء الكبير من هذه القاعدة هو منطقة السوق المعروفة باسم قصبة رضوان التى أسسها فى القرن السابع عشر البيك رضوان الفقارى[٤٢] الذى شغل إمارة قافلة الحج لفترة طويلة ، وتقع قصبة رضوان هذه إلى الجنوب مباشرة من سلسلة أسواق القاهرة التجارية حيث مقر إقامة رضوان فى بركة الفيل التى كانت وقتها مقرًا لسكنى النخبة ، وقد أَوْقف عدد من الأمراء (النبلاء) المحلِّيِّين والمسئولين العثمانيين وكالات بالقرب من موانئ القاهرة حيث كان يتم تنزيل حمولات البضائع مثل الكتان والبن وفى القرن السابع عشر – على سبيل المثال – وجدنا الأغا عباس الخصى الأسود المنفى يقف وكالة للبن فى الجمالية شمال القاهرة ووكالة للكتان

فى بولاق [٤٣] ، وبعد ذلك بقرن وجدنا بلوط قابان البيك على (على بك الكبير) يجدّد قيصرية فى بولاق كان قد أوقفها الوالى سنان باشا فى القرن السادس عشر ، وبعد موت البيك على حصل مملوكه البيك محمد أبو الذهب على حقوقه (على حقوق على بك) على هذه القيصارية [٤٤] ، وقد أسهمت مثل هذه المنشآت بشكل مباشر فى العمليات التجارية التى أثْرت الزمرة ، وعلى هذا فقد كان الغرض من هــذه الأوقـاف (التجارية) يختلف عن الأوقاف الخيريّة كالمساجد والأسبلة التى كان الهدف منها كسب حب الناس بخدمتهم ، وعلى أية حال فبحلول أواخر القرن الثامن عشر حلّ قازدغلية هذه الفترة محل المسئولين العثمانيين – إلى حد كبير – كمركز للسلطة ومحور لها ، وحصلوا على عوائد من الخزانة العثمانية تلقى لوقف منشآت تجارية وخيرية لتنفيذ ما تعهْد إليهم به الحكومة المركزية [٤٥] .

الزمرة القازدغلية وتجارة البن فى البحر الأحمر

بعض المشروعات التجارية المعيّنة ارتبطت ارتباطًا طبيعيًا بالتزام ، ويمكن النظر لتجارة البن اليمنى من هذا المنظور ، لقد كان البن يزرع فى منطقة المخا فى جنوب اليمن ، وربما جُلب لليمن من أثيوبيا فى وقت ما فى القرن الخامس عشر [٤٦] ، وكانت سفن البحر الأحمر تحمل البن اليمنى شمالاً إلى الحجاز ، وهناك يدخل تجار البن المصريون فى العملية فيقايضون الحبوب المصرية بالبن ، خاصة حبوب قرى صعيد مصر الموقوفة على الحرمين والتى توزع أثناء فترة الحج السنوى [٤٧] ، وكان الأمراء الذين يريدون تحقيق الربح من تجارة البن يعملون على الحصول على التزامات القرى المنتجة للحبوب فى الصعيد وكذلك السيطرة على طريق الحج .

وقد أحرزت الزمـرة القازدغلـية نجاحًا غـير عـادى فى تأمـين هذين السبيلين (الالتزام والسيطرة على طريق الحج) ، لقد كـان توليـهم أمـر ضـبط طريق الحج استراتيجية بعيدة المدى أخذوا بها وعملوا على تطبيقها ، فمنذ بواكير القرن الثامن عشر احتكرت الزمرة المنصب الإنكشارى " سردار قطار الحاج " وفى الوقت نفسه

بدأت فى الحصول على التزامات القرى المنتجة للحبوب ، خاصة أوقاف الحرمين ، وكانوا فى ذلك يحذون حذو التكتيكات البلفية وتكتيكات الضباط الإنكشارية الآخرين ، وقد أملى هذا البرنامج على الزمرة القازدغلية اختيار أتباعها واستطاعت أخيراً أن تتغلغل فى البكلرية beylicate (مؤسسة البكوية)(٤٨) .

وعلى أية حال ، فإن الزمرة التى تعتمد على تجارة البن لا يمكنها أن تقنع بالسيطرة على طريق الحج والتزامات قرى الصعيد المنتجة للحبوب ، وإنما لابد لها أيضًا من مدّ سيطرتها على السفن التى تحمل البن من اليمن إلى مصر عبر البحر الأحمر ، وقبل بروز الزمرة القازدغلية كان ضباط الإنكشارية يسعون للحصول على التزامات جمع الجمارك فى موانىء البحر الأحمر والنيل ، تلك الموانئ التى كان لابد أن يمر البن اليمنى عَبْرها ، بل إن بعض الزمر استخدمت السيطرة على جمارك البحر المتوسط فى الإسكندرية ورشيد ودمياط ؛ لتستفيد من الواردات والصادرات الأوروبية مثل البن وغيره من البضائع ، وعلى هذا فقد حزن القنصل الفرنسى حزنًا شديداً لوفاة الضابط الإنكشارىّ الكخيا محمد جدك Gedik الذى كان مديراً للجمارك وكان يسمح للتجار الفرنسيين بتصدير البن من مصر دون أن يدمرهم بالضرائب الباهظة (٤٩) .

وعلى النحو نفسه كانت السفن التى تنقل البن والحبوب عبر البحر الأحمر – غالبًا – ملكًا للضباط الإنكشارية ، وعادة ما كانت سفنًا هندية اشتراها هؤلاء الضباط ، فمصر نفسها لم يظهر أنها كانت تصنع السفن خلال الحقبة العثمانية إلى أن بدأ البيك مراد مشروع بناء قوارب نيلية فى آخر القرن الثامن عشر (٥٠) ، وقد يشترك ضابط انكشارى فى ملكية سفينة مع ضابط آخر أو مع تاجر من تجار أعالى البحار ، وفى هذه الحال يمكنه أن يورّث نصيبه فى السفينة ، ويشير سجل ممتلكات الكخيا سليمان القازدغلية أنه كان شريكًا بالنصف فى سفينة من السفن العاملة فى البحر الأحمر ، قد تكون مشيّدة فى الهند ، وكانت هذه السفينة إحدى استثمارات الكخيا سليمان الكثيرة فى تجارة البن (٥١) ، ومن المفترض أن نصيبه من هذه السفينة (نصفها) قد انتقل إلى الكخيا عبد الرحمن مع بقية ممتلكات

سليمان عند موته فى سنة ١٧٣٩م . بعد أن سقط مريضًا وهو على وشك البدء فى رحلة الحج (٥٢) .

ويبدو أن البن نفسه قد كوّن جزءا من الثروة الموروثة للزمرة القازدغلية ، فالكخيا عبد الرحمن ورث حبوب البن التى كانت ضمن ممتلكات الكخيا سليمان فى خيمته عندما كان يعسكر فى بركة الحج ، ولا شك أن سليمان كان ينوى الاتجار فى حبوب البن هذه أثناء الحج ، وربما كان ينوى بيعها للقاطنين على طول الطريق ، وربما كان القازدغلية ينظرون لحمل حبوب البن كما كان تجار مصر فى العصور الوسطى ينظرون لرطل من الحرير الخام باعتباره ثروة حقيقية لإمكانية تحويله إلى نقود سائلة بسهولة (٥٣) . ويظهر أن تجارة البن قد قرّرت بالفعل تكوين (بنية) الزعامات الأولى للقازدغيلة ونوع تحالفاتها ، منذ بداية الزمرة فى أواخر القرن السابع عشر ، ومروراً بالفترة حتى منتصف القرن الثامن عشر ارتكزت الزمرة على ضباط الإنكشارية ممن كانوا دوما فى رتبة جاويش (شاقوس) أو كخيا ممن كانوا يتولون منصب سردار قطار الحاج ، فقد كان هذا المنصب استكمالاً مغرياً للسيطرة الإنكشارية على جمارك موانئ النيل والبحر الأحمر ، والملكية الإنكشارية للسفن التى تنقل البن عبر البحر الأحمر ، هذه المجموعة من الامتيازات مكنت القازدغلية وحلفاءهم من التحكم فى الغالبية العظمى من عمليات نقل البن بالسفن من اليمن والحجاز إلى مصر ، وأكثر من هذا فرغم كثرة تردد القازدغلية على الحجاز فقد كونوا لهم أتباعًا هناك واستثمروا بعض أموالهم فى شراء الممتلكات هناك (فى الحجاز) مما يمكنهم من اللجوء إليها وقت الأزمات ، على نحو ما أصبح للبلفية ممتلكات فى صعيد مصر (٥٤) ، كانوا يحتفظون بها للغرض نفسه .

ولقد بلغ نفوذ الضباط الإنكشارية سواء داخل الزمرة القازدغلية أو فى مصر بوجه عام ذروته فى حكومة الاثنين التى كونها الكخيا إبراهيم القازدغلى ، وكخيا كتائب العزبان رضوان الجلفى اللذين حكما مصر معًا (بالمشاركة) فى الفترة من ١٧٤٨ إلى ١٧٥٤م . إن حكومة الاثنين هذه كانت عميقة الجذور من خلال اشتراكهما معًا فى تجارة البن ، ويذكر الدمرداشى أن الكخيا إبراهيم كان "يعطى ثلث ما يصل

إلى يديه " للكخيا رضوان ، ويفيض الدمرداشى ذاكراً أن ما كان يصل إلى إبراهيم هو ستة أشرفيات (عملة ذهبية عثمانية) عن كل حمل من حبوب البن تدخل دائرة البـــهار (دوان البـهار duwan al bahār) التى يتحكم فيها القازدغلية (٥٥) ، وكانت ترتيبات إبراهيم ورضوان فيما يتعلق بمشاركاتهما التجارية من نوع المضاربة حيث يودع أحد الطرفين رأسماله لدى المضارب (بكسر الراء) لقاء ثلثى الربح ، بينما يقوم المضارب (وهو العنصر الفعّال فى هذه الشركة) ببيع البضائع ويحصل على ثلث الأرباح (٥٦) ، وبينما كان رضوان فى هذه الشركة هو العنصر " السلبى Passive " أى الذى لا يقدم سوى المال إلاّ أنه ليس لدينا ما يشير إلى أنه كان يدفع أى رأسمال لأى من المشروعات التجارية التى كان ينفذها شريكه ، كما هو الحال فى المضاربة التقليدية ، والأكثر من هذا فيبدو أن رضوان كان لديه مزيد من الأموال ليستثمرها بشكل عام ؛ ومن هنا كانت مشروعات البناء الواسعة المدى التى قام بها ، وحياته الرغدة التى كان يعيشها (كان يحيا حياة صالونات Salon Culture) (٥٧) ، وبعد موت إبراهيم فى سنة ١٧٥٤م طلب رضوان من الزعيم القازدغلى الجديد وهو الكخيا عبد الرحمن الذى عانى طويلاً – أن يواصل شركته معه ، لكن عبد الرحمن – بناء على نصيحة مماليك إبراهيم – رفض رفضاً صريحًا ، بل واستعان بهؤلاء المماليك لإبعاد رضوان عن القاهرة (٥٨) ، لقد كان عمل عبد الرحمن هذا إشارة إلى أن هذه الشركة لم تعد ضرورية للقازدغلية فقد كانت هذه الزمرة (القازدغلية) قد حققت هيمنتها وتجاوزت تحالفاتها الاستراتيجية من النوع الذى عقدته مع الجلفية .

ولم يكن الحلف الجلفى هو الحلف الوحيد المرتبط بتجارة البن والذى خططت له القازدغلية بينما كانت تحكم قبضتها خلال العقود الأولى من القرن الثامن عشر ، فقد أخذوا على عاتقهم ربط أنفسهم بعشيرة الشرايبى القوية المكونة من تجار البن والبهار ، فقد كان الكخيا عثمان القازدغلى – الذى أظهر القازدغلية كزمرة قوية هائلة فى الفترة من ١٧٣٠ إلى ١٧٣٩م – قريبًا على نحو خاص من قاسم جلبى (شلبى) الشرايبى شهبندر التجار (شيخ تجار القاهرة الذى كان يتاجر عبر البحار) ، وعند موت قاسم هذا فى سنة ١٧٣٤م سار الكخيا عثمان فى جنازته من منزله (منزل الشرايبى) إلى القرافة (٥٩) ، والأكثر دلالة أن المجمع السكنى للشرايبى كان

ملاصقًا لمقر إقامة الكخيا عثمان فى الأزبكية (الباب إلى جانب الباب) ، لقد استفاد القازدغلية من تعاون الشرايبى معهم ، لا فى تجارة البن فقط وإنما فى صراعاتهم مع الأمراء الطموحين من غير القازدغلية ، والمثال البارز على ذلك هو أن الشرايبية حثوا تجار البن والبهار على تمويل حملة ضد البيك شركس محمد فى سنة ١٧٢٩م (٦٠) .

لقد كان القازدغلية – بالفعل – حتى موت الكخيا إبراهيم زمرة بُن a Coffee household ، فمن الطبيعى إذن أن نتوقع أن تعانى هذه الزمرة من انخفاض السعر العالمى للبن خلال سنى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ – ١٧٣٩) عندما جلب التجار الفرنسيون نوعًا من البن أقل جودة من مستعمرات فرنسا فى الكاريبى إلى أسواق البن فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ؛ مما قلل من الحاجة إلى البن اليمنى (٦١) ، لقد كانت هذه الأعوام نفسها هى الأعوام التى بدأت فيها الزمرة القازدغلية تتكالب على التزامات القرى المنتجة للحبوب ، وبطبيعة الحال لقد مكنت الثروة الناتجة عن تجارة البن القازدغلية من شراء هذه الالتزامات عند طرحها فى المزاد ، وفى ناحية أخرى سهلت هذه الالتزامات مقايضة الحبوب بالبن فى الحجاز ، بل إن هذه الالتزامات كانت مانعًا من تدنى أسعار البن أيضًا مادامت العوائد الزراعية لا تعتمد بشكل مباشر على تجارة البن ، وكلما أصبحت الأرباح العائدة من تجارة البن أقل من ذى قبل راح القازدغلية يركزون المزيد من طاقاتهم للحصول على الالتزامات المربحة ، فأصبحت الأولوية عندهم تولى حكم ولايات مصر الداخلية وتولى البكوية ، والكشوفية ، وعلى هذا فقد يكون تدنى سعر البن وازدياد تذبذب أهمية تجارة البن فى البحر الأحمر وراء تغلغل القازدغلية فى البكرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وأثناء هذا التطور أثبت القازدغلية أن لديهم من الدهاء ما يجعلهم يؤمِّنون مصادر للدخل مما يضمن استمرارهم كزمرة ، لقد بدأ أمرهم كزمرة قوية من بين عدة زمر إنكشارية كونت ثروتها بالعمل فى تجارة البن بالبحر الأحمر وأخيراً أدت سيطرة القازدغلية على أوجاق الإنكشارية بالإضافة إلى سيطرتها على طريق الحج إلى احتكارها لتجارة البن ، ولم تكن المشاركة فى تعريفة البن بين الكخيا إبراهيم

القازدغلى والكخيا رضوان الجلفى ممكنة دون هذا الاحتكار ، لقد أحكم القازدغلية قبضتهم على أرباح البن بالحصول على التزامات القرى خاصةً أوقاف الحرمين التى تنتج الحبوب التى يمكن مبادلتها بالبن أثناء موسم الحج ، وفى المقابل فإن هذه الالتزامات أتاحت للقازدغلية الانخراط فى سلك البكوية (البكلرية) ، وخلال تطور الزمرة صاغت تحالفاتها مع الزمر الأخرى مثل : البلفية والشرايبية اللتين أسهمتا فى نجاح مشاريعها التجارية ، وفى مجتمع كانت الزمر فيه هى أداة النشاط الاقتصادى الكبير لعبت الزمرة دور الشركة التجارية والسيد الإقطاعى ، لقد بدت الزمرة القازدغلية تمتلك عبقرية خاصة فى مثل هذا التخطيط الاستراتيجى الدقيق .

الهوامش

(١) انظر الفصل الثانى والرابع ، وانظر أيضًا :

Raymond , " Soldiers in Trade " 19 - 20 , 27 - 28 .

(2) Aylon , " Studies in al. Jabarti : " Part , 2, 293 - 6 .

(٣) فى سنة ١٧٩٥ عقد إبراهيم بك الكبير ديوانًا فى بيته بالأزبكية ، حضره زعماء القاهرة الدينيين والعسكريين ليعلنوا اتفاقهم لإنهاء العصيان العام . انظر الجبرتى ، عجائب ، مج٤ ، هى حى ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٤) الجبرتى ، عجائب ، مج ٤ ، ص ٣٠٥ .

(٥) الدمرداشى ، درة ، ص ٢١٨ .

(٦) الجبرتى ، عجائب ، مج ٣ ، ص ١١١ .

(٧) نفسه ، ص ٢٨١ .

(٨) انظر :

Pierce , The Imperial Harem , pr. 119 - 125

أقام أبناء السلطان وزوجاته فى قصر طوب قابى (طوبكابى) منذ حكم سليمان الأول .

(٩) أحمد شلبى ، أودة ، ص ١٤٦ .

(10) Raymond " Soldiers in Trade " 27

(١١) نفسه ، ٢١

(12) Jane Hathaway " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunch in Egypt : The Waqf Invenrtory of Abbas Agha , JESHO 37 (1994) 303 , NO 45 . AND 307 .

(13) Raymond , " Essai de geographie " 65 - 73 Raymond , Soldiers in Trade , 27

(14) Raymond , Essai de Geographie 65 ff .

(١٥) نفسه ، ٧٣ وما بعدها .

(١٦) نفسه ، ٧٨ وما بعدها ، وانظر أيضًا :

Behrens Abouseif , Azbakiyya and its Environs , P . 72 .

(١٧) راجع الفصل الرابع .

(١٨) وصف رايموند لأمراء أواخر القرن الثامن عشر بأنهم غرباء عن السكان المرتزقة ، يبدو وصفًا مبالغًا فيه . انظر :

Soldiers in trade P . 34

(١٩) عن الشكل النمطى للعصيان العام فى القاهرة انظر :

Raymand , Artisans et Commercants , Vol II , P. 432 .

(20) Behrens - Abouseif , Azbakiyya & its Environs , PP. 55-8, 114-16

(٢١) " ديار الكفر " عبارة يقصد بها أحمد شلبى بلاد الجراكسة (أوده ، ص ٤٨٢) .

(٢٢) الدمرداش ، درة ، ص ١٦٨ .

(٢٣) على سبيل المثال ، الدمرداش ، درة ، ص ٤٩٩ ، ٥٣٣ – ٤ .

(٢٤) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٢٧١ ، ٢٨٢ .

Hathaway, "Sultaus , Pashas , Taqwims and Muhimmes" 66

(٢٥) الدمرداشى ، درة ، ص ٢٥١ .

(26) Raymond , Essai de geographie 83 - 84

وعلى سبيل المثال انظر أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٨٧ (الأغا حسن بلفية) الجبرتى ، عجائب ، مج ٤ ، ص ٨٥ (الشيخ حسن الكفراوى) .

(٢٧) الدمرداش ، درة ، ص ٢١٨ .

(٢٨) نفسه ، ص ٤٥٦ .

(29) Maliyeden Müdevver 1350 (1134 - 5/ 1721-3), Pococke , Adescription of the East vol.1, P . 164

(٣٠) يلاحظ اللاهوتى البريطانى Richard Pococke أن قرية ملّوى فى الأشمونين كانت على رأس تسع قرى كانت تكون ولاية صغيرة تابعة لمكة خاضعة لأمير الحاج .

Travels of Richard Pococke , p . 60

(31) Muhimme-i Misir vol V , no 18 (1146 / 1733-4)

انظر أيضاً الفصل ٨ ، حاشية ٥٨ .

(32) Al - Jabarti , Journal , p . 238

(٣٣) الدمرداشى ، درة ، ص ٢٩٣ . وانظر ايضاً :

Hathaway " The Role of the Kislar Agasi " 156 - 7.

(٣٤) انظر على سبيل المثال : الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (ورقة ١٦٩ وما بعدها) .

(٣٥) عن الصابونجية ، انظر فصل ٣ ، حاشية ٢٩ وعن الفكهانية وزمرة الفلاح ، انظر فصل ٤ حاشية ٥ .

(٣٦) انظر فصل ٥ ، ص ٩٨ ، ١٠٣ .

(٣٧) انظر فصل ٤ ، ص ٧٦ – ٧٧ .

(٣٨) انظر فصل ٤ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

(٣٩) انظر فصل ٥ ، حاشية ٣٢ .

(40) Raymond , Artisans et Commercants vol . II . PP. 427 - 8

(٤١) رغم أن الوكالة والقيصارية كان يمكن استخدامهما – على نحو تبادلى – كمخزن ، فإن القيصارية قد تعنى أيضاً سوقاً لبيع بضائع الترف . عن المصطلحات راجع :

Raymond , Artrsams et Commercants , vol.1 PP. 254 - 63.

(٤٢) على سبيل المثال ، كان حافظ أحمد باشا (١٥٩١ – ١٥٩٥) قد أوقف وكالات الكتان الخاصة بالأغا عباس ، ووكالات البن فى رشيد . عن هذه الوكالات انظر : حاشية ٤٣ ، أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٢٣ . محمد عبد المعطى الإسحاقى ، كتاب أخبار الأول فيمن تصرّف فى مصر من أرباب الدول (القاهرة ، ١٨٨٧) ص ١٦٣

(٤٣) عن منشآت الأغا عباس ، انظر :

Hathaway , " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunch in Egypt " 303 , 407

(44) Daniel Crecelius " The Waqf of Muhammed Bey Abu-al Dahab in Historical perspective " IJMES 23 (1991) , 59 - 60

(٤٥) وعلى هذا استخدم محمد بك أبو الذهب ريع قيصارية على بك لتمويل إنشاء مدرسته (مدرسة أبى الذهب) . انظر :

Crecelius " The Waqf of Muhammed Bey " 60

(46) Ralph S. Hattox , Coffoe & Coffeehouses. The Origina of a Social Beverage in the Medieval Near East (Seattle and London , 1985) pp. II FF , 73 - 7.

(٤٧) انظر فصل ٣ ، حاشية ١٤ .

(٤٨) انظر فصل ٤ ، ص ٧٦ – ٧٩ وفصل ٥ ، ص ٩٧ – ٨ .

(49) Raymond , Artisan's et Commercants, vol.1 , p. 177

(٥٠) عن السفن الهندية والتجارة الهندية فى الحجاز ، انظر على سبيل المثال :

Muhimme -i Misir - vol 4, no 495 (1144 / 1731) vol. 6. no 26 (1158/1745) Faroghi, Pilgrims & Sultans , pp. 163 , 165 -6

وعن مشروع مراد بيك انظره الجبرتى ، عجائب ، مج ٣ ، ص ٢٨٩ .

(51) Tuchscherer, " Pelerinage " 162 , 172.

(٥٢) عن ميراث عبد الرحمن ، انظر : الدمرداشى ، درة ، ص ٤٣٧

(٥٣) انظر :

Goitein, A Mediterranean Society, vol .1 pp. 222 , 454

(٥٤) قد يوضح هذا إلى حد ما سبب كون الحجاز مكاناً للإبعاد (النفى) خلال أواخر القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ ، فقد تم نفى الكخيا مصطفى (مؤسس الزمرة القازدغلية) والكخيا عبد الرحمن إلى الحجاز ، وفى أواخر القرن ١٨ – على أية حال – كان الأمراء يبحثون لهم عن ملجأ فى صعيد مصر .

(٥٥) الدمرداشى ، درّة ، ص ٥٦٠ – ٥٦١ . الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٢ ومابعدها .

(٥٦) انظر فصل ٥ ، حاشية ٣٢ .

(٥٧) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٦٠ - ٥٦١ . الجبرتى ، عجائب ، مج ٢ ، ص ٩٢ ومابعدها .

(٥٨) الدمرداشى ، درة ، ص ٥٧٧ - ٥٨١ .

(٥٩) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٥٨٩ . وانظر أيضًا فصل ٤ حاشية ١٠٢ . وعن ثروة تجارة البن بشكل عام انظر :
Pilgrims & Sultans by Faroqhi , p. 170

(٦٠) انظر فصل ٤ ، حاشية ١٠٢ .

(61) Raymond , Artisans et Commercants , vol. 1 pp. 156 FF .

وانظر أيضًا الفصل ٣ ، حاشية ٣٣ .

الفصل الثامن

القازدغلية وكبير الخِصْيان السُّود

ضمت الزمرة – كما رأينا – شبكة من التحالفات استطاعت أن تربط رجالاً ونساء بأنشطة متباينة وفى أماكن متباعدة ، لقد استخدم القازدغلية تحالفات تجارية وأخرى على أساس الزواج لإحكام قبضتهم فى مصر والحجاز ، وعلى أية حال كان من الضرورى من وجهة نظرهم أن يمدّوا تحالفات زمرتهم فيما وراء المناطق القريبة منهم ؛ وذلك ليوثقوا الروابط مع القوى المختلفة فى العاصمة العثمانية imperial center : أولئك الذين هم فى موقف يمكنهم من تعيين والٍ (باشا) ودُود فى مصر أو فى إمكانهم – من ناحية أخرى – الأمر بالاستيلاء على ممتلكات القازدغلية ، وعند تكوين هذه الروابط استثمر القازدغلية وحلفاؤهم فى البلاط العثمانىّ الزمرة كوسيلة للتبادل بين مصر والعاصمة العثمانية ، فلم يكن المسئولون العثمانيون ليستطيعوا بسط نفوذهم فى الولايات إلاّ من خلال اندماجهم فى الزمر المحلية أو من خلال تعيين نبلاء محليين فى زُمرهم الخاصة (أى زمر هؤلاء المسئولين العثمانيين) .

ومن بين المعيَّنين العثمانيين (الإمبراطوريين) الذين يقومون بدورٍ هام على الساحة المحلية يظهر أحدهم بارزاً لاستثمار الزمرة وفقًا لصالحه ، إنه كبير الخصيان السود فى الحريم الإمبراطورى (العثمانى) المعروف باسم كزلر (قزلر) أغاسى Kizlar Agasi (أو الداروساد أغاسى Darüssaade Agasi) ، ويرجع استخدام الخصيان فى جناح الحريم فى الدولة العثمانية إلى زمن سحيق ، وقد تم استخدامهم أيضًا فى الإمبراطوريات الفارسية والرومانية والصينية ، وكان العثمانيون قد بدأوا استخدام الخصيان لخدمة الحريم منذ بواكير دولتهم (إمبراطوريتهم) ، وكان خصيان أجنحة الحريم العثمانية يضمون أفارقة سوداً تم جلبهم من شرق أفريقية

جنوب الصحراء الكبرى ، وأيضاً تم جلبهم - فى الأساس - من القوقاز ، وكان كبير خصيان الحريم العثمانى فى الأساس من الخصيان البيض ، وكانت مهمته هى الإشراف على الخصيان الآخرين برتبهم المختلفة ، وعلى أية حال ففى أواخر القرن السادس عشر أصبح للخصيان السود الأولوية فى شغل هذا المنصب (كبير الخصيان) لأسباب غير واضحة تماماً ، ولا شكَّ أنّ السهولة النسبية التى كان يتم بها الحصول على العبيد الأفارقة مقارنة بالعبيد القوقازيين كانت وراء هذا التحوُّل ، وبالإضافة لهذا فقد كان الأفارقة أكثر مقاومة للأمراض لكثرة تعرضهم للجراثيم فى أفريقيا جنوب الصحراء ومن هنا فقد كانوا يظلون أحياء بعد إجراء عملية الإخصاء بنسبة أكبر من القوقازيين (1) ، وعلى أية حال فبحلول بداية القرن السابع عشر أصبح كبير الخصيان فى الحريم السلطانى دائمًا أسود ، وظل كبير الخصيان البيض فى القصر كحارس لعتَبة غرفة اجتماعات السلطان (بابوساد أغاسى Babüssaade Agasi) إلاّ أن نفوذه كان أقل من نفوذ كبير الخصيان السود .

لقد بلغ نفوذ كبير الخصيان السود ذروته فى الإمبراطورية العثمانية خلال الفترة موضوع الدراسة ، لقد بدأ الخَصِىّ يقوم بدور كبير فى الإمبراطورية نحو نهاية القرن السادس عشر ، عندما بدأ الأمراء العثمانيون يقضون سنوات تكوينهم معزولين فى أجنحة الحريم ، ولم يكن الواحد منهم ليظهر إلاّ عند دعوته لتوليه عرش السلطنة ، ومع دخول هذه العادة التى عُرفت باسم " نظام القفص Kafes " أصبح لأمهات السلاطين الموجودين فى السلطنة أو أمهات سلاطين المستقبل نفوذ هائل ، وعلى النحو نفسه أصبح للخصيان الذين يحرسون الحريم نفوذ كبير ؛ لأنهم كانوا وسيلة الاتصالات بين النساء (فى جناح الحريم) والسلطان وحاشيته ، كما كانوا يُشرفون على ميزانية الحريم (الأموال المخصَّصة لهن) ، وباختصار لقد أصبح الحريم هو محور السلطان الإمبراطورىّ ، وانتعشت سياسات الحريم وتألق سلطان كبير الخصيان السود حتى أنه مع منتصف القرن السابع عشر نافس رئيس الوزراء (الصَّدر الأعظم) فى السيطرة الفعلية على سياسة الدولة (٢) .

وفى هذه الأثناء كانت صلات كبير الخصيان السّود بمصر محل اعتبار ، بل إن الحقائق تفيد أن مهام هذا الخصى كانت متضافرة متشابكة مع هذه الولاية (مصر) من البداية للنهاية ، فالخصيان العاملون فى خدمة الحريم كانوا يُجلبون - عمومًا -

للسلطان عن طريق والى مصر ، الذى كان يختارهم من عبيد القوافل التى كانت تصل سنوياً من سنار ودارفور فى دولة السودان الحالية [٣] ، وكانت القلة من الخصيان السود التى تصل لمنصب كبير الخصيان السود تندمج فى الحياة المصرية طوال حياتها[٤] ؛ لأن الخصى كان هو ناظر (أو متولى Mütevelli) أوقاف الحرمين ، وكانت هناك أربعة أوقاف كبرى : الدشيشة الكبرى ، والحرمين التى كان أول تأسيسها فى عهد السلطنة المملوكية وتشمل وقف الخاصكية ، والدشيشة الصغرى أو المرادية التى أسسها مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) ، والمحمدية التى أسسها مراد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) [٥] ولما كانت هذه الأوقاف تستمد جانباً كبيراً من عوائدها من القرى المصرية فقد أصبحت هى القناة الرئيسية التى يظهر من خلالها نفوذ كبير الخصيان السود فى مصر .

وكان كبير الخصيان السود يُنفى إلى مصر عند عزله من منصبه ، وكأنما المقصود بذلك هو إحكام صلته بمصر ، وبدأ العمل بهذا التقليد فى سنة ١٦٤٥م . عندما أبحر الأغا سنبل إلى مصر بعد خمس سنوات قضاها فى منصب كبير الخصيان السود فى الحريم السلطانى (وفى طريقه إلى مصر أسره - للأسف - قراصنة فرسان القديس يوحنا فى مالطة ، فقتلوه فمات شهيداً) [٦] ، وطوال أكثر من قرن ونصف القرن تم إبعاد سبعة عشر من شاغلى منصب كبير الخصيان السود إلى مصر (من أصل ٣٨ شغلوا المنصب فى هذه الفترة) ، بالإضافة إلى العديد من الخصيان السود الأدنى درجة ، وبطبيعة الحال كان هذا النوع من النفى (الاستبعاد) من غرائب المؤسسة العثمانية : لم تكن المسألة تنزيلاً فى الرتبة بشكل كريم فلم يكن المقصود تدمير الصحية ، وإنما الإبقاء عليه فى الحفظ والصون لكن بعيداً عن السلطة المركزيّة ، وأكثر من هذا فقد كان هذا المبعد exile يتلقّى راتبًا ، فقد كان الخَصِى يتسلّم راتبًا (معاشًا) من الديوان الوالى العثمانى [٧] ، وكان بإمكانه - مثله فى ذلك مثل الموظفين الآخرين المبعدين - أن يضرب بجذوره فى موطنه الجديد وأن يهب أوْقافا ويقتنى ممتلكات ، وربما اشترى عبيداً .

وباختصار ، كانت مهام كبير الخصيان السود تنقسم إلى قسمين : عندما كان يمارس عمله فى إستانبول حيث كان يعمل فى خدمة المصالح السلطانية ، وعندما

كان يعمل فى منفاه فى مصر عندما كان يعمل لتحقيق مصالحه الشخصية ، ومع هذا فلا يمكن أن نفصل فصلاً تاماً بين هذين الجانبين ، فمن الواضح أن كبير الخصيان السود كان يتوقّع أن يبنى عُشّه فى مصر ويرسّخ حياته فيها ، ويقضى ما تبقى من عمره بشكل طيب ، وكل هذا بدعم من إستانبول ، وأكثر من هذا ، فمنذ أواخر القرن السابع عشر فصاعداً كان إبعاد الزعيم الخصى الأسود إلى مصر بمثابة تمهيد لتعيينه شيخًا للحرم النبوى(٨) ، وهو منصب يعنى قيامه بسلسلة من المهام السلطانية الأخرى بما فى ذلك نظارة وقف كبير ، كما اتضح فى حالة خصىّ واحد على الأقل ، والأكثر دقة أن نصف ارتباط الخصى الأسود الكبير بمصر بأنه ارتباط مصالح شخصية فى الولاية التى تتعرض لتقلبات من حيث اهتمام الإمبراطورية بها ، وعلى أية حال ، فقد كان الخَصى الأسود هو المسئول العثمانى الوحيد الذى ينطوى عمله على مهمة محددّة فى مصر ، مهمة توكل إليه بانتظام ، بل وارتباط وجوده بهذه المهمة بحكم الضرورة ؛ أى إنه ارتبط بها ارتباطًا لا مفر منه .

حدود المصالح الشخصية للزعيم الخصيّ الأسود في مصر

إلى أىّ مدى امتدت مصالح الزعيم الخصى الأسود فى مصر ؟ إن قائمة ممتلكات زعيم خصى أسود هو عباس (١٦٦٧ - ١٦٧١) تُشير إلى أن هذه المصالح كانت عريضة وعميقة بشكل ملحوظ ، وقد بقيت قائمة الممتلكات هذه فى أرشيف قصر طوبقابى ، وقد جُمّعت بعد موت عباس ، وتقع فى قسمين : قائمة من ٣٧ كتاباً books تعقبها قائمة طويلة بممتلكات عقارية تفيد القوة التجارية الهائلة للأغا عباس ؛ إذ كان يلاحظ تباينها وامتدادها فى الريف والحضر على حد سواء ، فقد كانت ممتلكات عباس خارج القاهرة تشتمل على ممتلكات فى سبعة مدن فى ثلاثة أقاليم مختلفة (٩) ، والأكثر لفتًا للنظر هو تركز ممتلكاته التجارية فى ناحية زفتى(١٠) الواقعة على النيل شمال شرق القاهرة ، فهناك كان لديه قيصاريّة (سوق مغطى) ووكالة (به خان لقوافل) ومجمّع لطحن البن (Kahvehane) وأربعة محلات تجارية ومخزنين (١١) أقام فوق أحدها كتّاباً ، وفى هذه الأثناء كان الوقف فى القاهرة يضم مجموعة الممتلكات بما فيها الأراضى والمحلات التجارية والمنازل بالإضافة إلى مقر إقامة عباس نفسه فى حى

النخبة فى ذلك الوقت – ذلك الحى المطل على بركة الفيل جنوب القاهرة ، لكن الأهم من كل ذلك والأكثر قيمة من الناحية التجارية هو وكالاته : واحدة فى الجمالية خارج باب الفتوح ، والأهم فيهن وكالته الكبيرة فى ميناء بولاق التى كانت بمثابة مخزن كبير للكتان ، ومركز للاتجار فيه (١٢) .

والأهم من هذه الممتلكات جميعًا فإن قائمة الحَصْر المشار إليها آنفًا تجعل من عباس راعيًا لصناعة الكتان فى مصر – تلك الصناعة الأساسية منذ القدم – ففى قرية شبرا بسيون فى الغربية تورد قائمة الحصر أربعة معاطن للكتان Keten islatack mahall – هذه المعاطن تعد جزءًا متممًا للصناعات القائمة على الكتان (١٣) ، وربما كان حى الغربية فى القاهرة مقرًا لثلاث معاصر (١٤) ratabas ومصابغ boyahane ، وارتبط بهذا عشرة محلات ، وعشرة مخازن فوق هذه المحلات وعدّة خرابات ẖarábe .

وعلى أية حال ، ربما كانت أكثر ملامح هذه الوثيقة مدعاة للحيرة هو ما تُلقيه من ضوء على الاتجاهات الفكرية والعقلية لعباس هذا ، فهى تشير لاهتمامه بالطب ، وتضم قائمة الممتلكات أربع أوان نحاسية لثمانية من الأطباء (tibbci) فى زفتى ، وكان هناك كتابان من بين ٢٧ كتابًا امتلكها عباس تتناول الطب ، بل إن الشارع الذى أقام فيه كان اسمه " شارع الطب " Tibb Sokği (زقاق الطب) .

وتشير موضوعات كتبه الأخرى إلى قدرات مالكها اللغوية وميوله المثيرة ، فمعظم مكتبته (١٥) تتكون من نصوص دينية : القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، ومجموعات من الفتاوى الحنفية وشروح (تفاسير) بالعربية والتركية ، أضف إلى هذا ثلاثة كتب فى التاريخ منها " تواريخ آل عثمان " يتناول التاريخ العثمانى فى القرن الخامس عشر ، ومجموعة من الأشعار الفارسية للشاعر الهروى (من هراه) فى القرن الخامس عشر ، ومعظم هذه الكتب الدينية والأدبية تمثل المنهج (المقرر الدراسى) الذى كانت الحاشية السلطانية تتعلّم من خلاله (١٦) ، لكن تعليم الحاشية الرسمى لم يكن أربعه كتب تشير إلى اهتمام بالميول الصوفية : منها كتاب " كيمى سعادة Kimiyya - i Saade " الذى ربما كان مؤلفه هو الغزالى ، "وطبقات الأولياء" لفريد الدين العطار (القرن العاشر) وللعطار أيضًا كتاب "مناقب الطير" ، ومجموعة من التراتيل الصوفية (قراءة الأوراد) وقد كان من الملائم إذن أن يضم الوقف زاوية صوفية خارج باب الفتوح – البوابة

الشمالية للقاهرة الفاطمية – وهذا يجعل الزاوية فى قلب حى الحسينية الذى كان مركز الحركة الصوفية(١٧) .

قنوات النفوذ : الوكلاء والمماليك

ولم تورد قائمة أوقاف الأغا عباس أسماء الأشخاص الذين لابد أنه قد استعان بهم لتسيير تجارة الكتان وصناعته ، والإشراف على القرى بل وحتى العناية بكتبه ، فإذا كان هذا الخَصِى الأسود يقبض على زمام هذه السلطة التجارية وهو فى منصبه أو هو خارج منصبه ، فمِن خلال من كان يُسيِّر أموره ؟ هل عيَّن لنفسه أتباعًا صحبهم معه من إستانبول ؟ أم أنه سيّر أموره مَن خلال وسطاء محلّيّين (من مصر) ؟ ويمتد هذا السؤال ليصبح مشتملاً على مدى امتداد جذور هذا الزعيم الخصى الأسود فى المجتمع المحلّى ، فإذا كان هذا الخَصى قد امتد بجذوره فى مصر تجارياً وثقافيًا – كما يشير لذلك سجل الوقف – فإلى أى مدى انتشر نفوذه السياسى تبعًا لذلك ؟

ومن المؤكد أن وكلاءه VEKILS فى مصر كانوا هم أكثر الأشخاص ارتباطًا بمصالحه ، وقد ارتبطت أعمالهم بالنشاطات التجارية الموّثقة توثيقًا جيداً : وكان الوكيل يؤتمن على بعض الأموال ويوكل إليه عمل محدّد ، قد لا يكون ذا طبيعة مالية ، وبمعنى من المعانى كان الوكيل هو الطرف الفاعل فى عملية المضاربة (من المفهوم أن الطرف السالب هو صاحب رأس المال (١٨) ويبدو أن الزعيم الخصى الأسود قد عيّن وكلاء بينما كان هو شخصيًا خارج مصر) ، وعلى هذا فالحاج بشير (الأغا بشير) ترك له وكيلاً فى القاهرة بينما كان هو فى الطريق من المدينة المنورة إلى إستانبول لتسلم " عباءة mantle " كبير الخصيان السود فى سنة ١٧١٧م . فقد كتب أحمد جلبى (شلبى) أنه " مكث فى مصر مدّة شهرين ، ثم غادر إلى إستانبول بعد أن عيَّن عبد الله الفحل وكيلاً له ؛ لبناء مدرسة وسبيل ماء فى مواجهة قنطرة سنقر" (١٩) ، ولا يمكننا أن نعلم ما إذا كان عبد الله الفحل كان من بين حاشية الحاج بشير أم كان – بالفعل – شخصًا محليًا قام الحاج بشير برفع شأنه بتوليته هذه المهمة ، ويظهر وكلاء آخرون فى مجموعة " الوثائق المهمة عن مصر – Muhimme-i Misr " خلال الفترة الطويلة

التى تولى فيها الأغا بشير منصبه (١٧١٧ - ١٧٤٦) ، وكان هؤلاء الوكلاء جميعًا يحمل الواحد منهم لقب أغا Styled Agha (*) - محمد أغا ، عثمان أغا ... إلخ ، وهناك وكيل تُرك دون تحديد هويته (لم يذكر إن كان أغا أو غير ذلك) ، وربما كانوا من خصيان الحريم أو كانوا من أعضاء الأوجاقات العثمانية فى مصر ، ويكاد يكون من المؤكد أن عبد الله الفحل كان مملوكًا وليس خصيًا ، لأن لقب " الفحل " يشير إلى أنه ذكر غير مخصىّ .

وثمة براهين محدَّدة تربط بين وكلاء زعيم الخصيان السود وغيره من خصيان الحريم لدى الكوادر العسكرية فى مصر ، خاصة فى القرن السابع عشر ، فالمؤرخ الحلاّق على سبيل المثال يصف إيواظ بيك (البيك إيواظ) الذى كان - سابقًا - من بين كتائب حاملى البُلط (جمع بلطة) فى القصر السلطانى (بلطجية القصر ، والمفرد : بلطه جى أو بلطجى) والذى أتى إلى مصر مع نذير أغا الخصى المُبعد (الأغا نذير) فى حوالى سنة ١٦٦٥م ، لقد ائتمن نذير البيك إيواظ على عشرة آلاف دوكات ذهبية بندقية رغم أن المؤرخ الحلاق لم يصفه بأنه وكيله ، ومع هذا فقد كان إيواظ من الناحية الفعلية ممثلاً ماليًا له [٢٠] ، وتولى فى وقت لاحق منصب سلحدار أغاسى Silahdar Agási (حامل الأسلحة Weapons bearer) ثم رُقِّى أخيرًا إلى رتبة البكوية ، هنا نجد ظاهرتين متداخلتين : عضو فى حاشية خَصِى من خصيان الحريم ينضم إلى النخبة العسكرية المحلية ، كما أن ممارسة نفى خصيان الحريم إلى مصر ينتج عنها ضخ مباشر (تطعيم) لأفراد القصر السلطانى فى المجتمع العسكرى المصرى ، وهذه الحالة ممثلة بوضوح وعلى نطاق واسع ؛ فسجل الأجور والرواتب لسنة ١٦٧٥ - ١٦٧٧م يحدد عدد أتباع الزعيم الخَصِى الأسود ، وهم قليلون جدًا بالنسبة للعدد الإجمالى للجنود ؛ إذ كانوا حوالى ١٥ من بين ٢٠٠٠ ، ولكن الأكثر مدعاة للاستغراب هو أن معظم هؤلاء الأتباع الخصيان كانوا من أوجاق المتفرقة ، ذلك الأوجاق الذى ظل القصر السلطانى يعين أفراده مباشرة حتى منتصف القرن السابع عشر ، والذى كان هو المستودع الأساسى للبكوات (الذى يتم تعيين البكوات من بين أفراده) حتى أواخر

(*) يفيد النص أن أغا فى هذه الحال ليست بالضبط رتبة عسكرية . (المترجم)

القرن السادس عشر [٢١] ، والأكثر من هذا فقد ضمت كتائب المتفرقة أتباعًا آخرين لمسئولين عثمانيين خاصة رئيس الوزراء العثمانى (الصدر الأعظم) ونقيب الأشراف الذى ظل حتى القرن الثامن عشر يتم تعيينه من إستانبول [٢٢] .

وكان الامتداد الطبيعى لهؤلاء الوكلاء متشابكًا مع الموقع الذى يشغله كل منهم ومع " عنقود " الأتباع فى الكتائب العسكرية التى كونت زمرًا مكتملة ، حتى إن الزعيم الخصى الأسود يشرع بمجرد وصوله إلى مصر فى استغلالها ، ومع هذا فلم يكن هناك سوى زعيم خصى أسود واحد هو الأغا يوسف (يوسف أغا) (١٦٧١ – ١٦٨٧) كان يمكن أن يُقال إنه هو نفسه قد تزعّم زمرة ، ومع هذا فلا نستطيع أن نحدد سوى اثنين من أتباعه :

أولهما : هو البيك أحمد الذى يبدو أنه هو نفسه الحاكم القاسمى للمنوفية ، الذى تشير له الحوليات بإيجاز وبين الحين والحين ذاكرة أن أهم إنجازاته هو قيادته قوة عسكرية للدفاع عن رودس فى سنة ١٦٩٥ [٢٣] .

وثانيهما أكثر وضوحًا ، حالة البيك مصطفى القزلار Kizlar وقد أطلق عليه القزلار ؛ لأنه كان من رعّية الأغا يوسف (يوسف أغا) ، وأصول مصطفى غامضة ، وتظهر أوّل إشارة له يُعوَّل عليها فى حوليّة الحلاّق : عندما وصل الباشا حسن إلى مصر فى سنة ١٦٨٧ م . كان البيك مصطفى يشغل منصب قائمقام (البيك القائم بأعمال الباشا المعزول) [٢٤] ، وتاريخ هذه الوقائع قريب جدًا من تاريخ إبعاد الأغا يوسف (يوسف أغا) مما يُعين على تصديق أن مصطفى قد صحب الأغا يوسف إلى مصر ، وربما تكون إستانبول قد دسّته فى النخبة العسكرية المصرية أو أن يكون – أى مصطفى – قد تمركز فى مصر قبل وصول يوسف أغا إليها ، والبيك مصطفى ليس مثل البيك أحمد ؛ إذ أن البيك مصطفى قد انحاز للكتلة الفقارية ، وكان فى الحقيقة مرتبطًا بروابط الولاء مع الزمرة البلفية [٢٥] ، وامتدت مهامه الوظيفية خمسين عامًا ، شغل خلالها منصب قائمقام مرتين ، كما تولّى ولاية جرجا مرة ، وشغل منصب الدفتردار مرة أخرى ، وتوفى البيك مصطفى فى حوالى سنة ١٧٣٠م . ولابد أنه كان قد بلغ عمرًا مديدًا ، وفيما يتعلق بأتباعه فيبدو أنه لم يترك سوى القليلين ، هذا إذا لم

يكن له أى أتباع على الإطلاق ، ويشير الدمرداشى إشارة عابرة إلى مملوك تابع للبيك مصطفى استقر فى المنزل القديم للأغا يوسف فى حى سويقة عصفور فى جنوب القاهرة ، وكان هذا المنزل فى وقت من الأوقات راعى (حامى) يوسف أغا ، وهذا الراعى هو الزعيم الخصى الأسود الأغا طاظ ياتور على الذى تم إبعاده إلى القاهرة فى سنة ١٦٤٨ ، هذا المملوك قد تردّى به الحال إلى الفقر حتى اضطر إلى التعاقد على بيع فعلى للبيت بأن أجره لمدة تسعين عامًا - ذلك النوع من الإيجار المعروف بالحِكر [٢٦] - فإذا كان لمصطفى بيك إذن زمرة فى هذا الوقت فلابد أنها صغيرة وفقيرة حتى وهى مرتبطة بزمرة راعيه .

ومن الصعب أن نقرر تمامًا السبب الذى جعل الأغا يوسف غير قادر على تكوين زمرة ناجحة متماسكة ، ويمكن تفسير حالته هذه بتفسير إيجابى وآخر سلبى :

أما التفسير السلبى فيعنى أنه ربما أجمعت السلطات المحلية (فى مصر) والعثمانية (فى إستانبول) على منع هذا الزعيم الخصى الأسود من تكوين زمرة مستقلة فى مصر ، ففى أواخر القرن السابع عشر كان المشروع الفقارى القاسمى قد أصبح نسيجًا اجتماعيًا سياسيًا استوعب داخله كل من يدخل إليه من خارجه ، ولا شك أن احتفاظ المرء بزمرة لنفسه فى هذا المحيط مسأله تزداد صعوبة فى حالة الزعيم الخصى الأسود الذى هو بحكم طبيعته الهامشية جداً يصعب أن يستوعبه المجتمع العسكرى الذى تلعب فيه الفواصل العرقية والجنسية (الذكورة والأنوثة) دورًا مهمًا .

وفى الوقت نفسه فيبدو أن إستانبول حاولت منع أى زعيم خصى أسود من أن يكون له موطئ قدم دائم فى النخبة العسكرية فى مصر ، وعلى هذا ففى سنة ١٦٧٥ عندما ترأس الأغا سليمان (١٦٥١ - ١٦٥٢) وفداً من العسكريين ليلتمسوا من السلطان عزل الوالى العثمانى ، اتّهم بالتدخل فى الأمور العسكرية وتم إبعاده إلى جزيرة ليمنور Lemnos فى بحر إيجه [٢٧] ، وربما كانت البواعث نفسها كامنة وراء إرسال الأغا يوسف (يوسف أغا) إلى المدينة المنورة (ليكون شيخ الحرم النبوى) فى سنة ١٦٩١م بعد وصوله لمصر بأربع سنوات ، وقد يعنى الإبعاد تقليل الراتب أو المخصّصات مع أنه يبدو أن الأغا يوسف لم يفقد أيًّا من ممتلكاته أو امتيازاته[٢٨] .

وعلى أية حال فثمة تفسير آخر مُفاده أنَّ الأغا يوسف (يوسف أغا) لم يكن يفكر فى زمرة مستقلة وإنما كان ينوى أن يجعل من البيك مصطفى ممثلاً دائماً للزعيم الخَصِى الأسود فى مصر ، حتى وهو مشارك مشاركة كاملة فى المجتمع العسكرى المصرى ، ويزداد هذا التفسير وضوحًا إذا علمنا أن البيك مصطفى عمل وكيلاً لكل من الأغا يوسف والأغا الحاج بشير ، بينما كان هذا الأخير لايزال كبيراً للخصيان السود [٢٩] وكانت قوته ستزداد إذا كان البيك مصطفى قزلار هو نفسه البيك مصطفى الوارد ذكره فى مجموعة الوثائق " المهمة " كخازندار للأغا نذير الزعيم الخصى الأسود (١٦٩٢ - ١٦٩٤) [٣٠] .

والزعيم الخصى الأسود الوحيد الذى يمكن أن نزعم أنه وراء تكوين زمرة معتمدة على نفسها هو الأغا الحاج بشير (١٧١٧ - ١٧٤٦) الذى عاش عمراً مديداً والذى يمكن أن يُقال عنه إنه أقوى الزعماء الخصيان السود فى التاريخ العثمانى ، لقد تمَّ إبعاد الحاج بشير إلى مصر قبل أن يباشر مهامه ككبير للخصيان السود ، وفى سنة ١٧١٣ بينما كان يباشر أعماله كخازندار القصر السلطانى تم إبعاده إلى قبرص مع الأغا أوزون Uzun سليمان (١٧٠٤ - ١٧١٣) ثم انتقل بعد فترة وجيزة إلى مصر قبل أن يُنقل إلى المدينة المنوّرة ليكون شيخ الحرم النبوى " وتم استدعاؤه إلى القصر السلطانى فى سنة ١٧١٧ ، وكما رأينا فقد توقف - فى طريق العودة - فى القاهرة وعيّن له وكيلاً لبناء سبيل ماء فيها .

وإن كان لنا أن نصدق الجبرتى فإن الحاج بشير قد خلف وراءه أكثر من سبيل فى مرحلة من المراحل ، والجبرتى يمتدح مملوك بشير المسمَّى محمد أغا بتأسيسه الزمرة الجلفية بتزويجه تابعه الكخيا حسن من ابنة منصور الزاتارجى Zataharci السنجلفى (انظر الفصل الرابع ، ص ٥٣ - ٥٤ ، النص الإنجليزى) ، وربما كان الأغا محمد هذا هو وكيل الحاج بشير الذى تشير له الحوليات باسم الحاج محمد أغا (الأغا الحاج محمد) الذى ورد اسمه فى عدد من الأوامر السلطانية فى سنى الثلاثين من القرن الثامن عشر (١٧٣٠ - ١٧٣٩) والتى تتناول - أى هذه الأوامر السلطانية - موته والتصرف فى ممتلكاته [٣١] ، وعلى أية حال ، فهذه الأوامر السلطانية لا تربط الأغا محمد بقرية سنجلف فى المنوفية ، ولا يبدو أن هناك أدلة - سوى القليل - على أن الزعيم الخصى الأسود قد أقام له وكيلاً فى هذه القرية ؛ لأنها لم تكن من قرى

أوقاف الحرمين ، لكن نجد هنا مرة أخرى أنه ربما كان الأغا محمد يهتم (في هذه القرية) بمصالحه الشخصية مثله في هذا مثل الأغا عباس الذى كوّن له أتباعًا فى هذه القرية ، ومن هنا فإن الوكيل قد يكون أكثر من قناة يمارس من خلالها الزعيم الخصى الأسود نفوذه ، فقد يستغل ارتباطاته بالمكان (القرية ... إلخ) لتحقيق مصالح ومنافع خاصّة به .

التغيرات الحادثة في إدارة أوقاف الحرمين وتأثيراتها علي الزّمر العسكرية

مع الحاج بشير نصل إلى مسألة نفوذ الزعيم الخصى الأسود وهو شاغل لمنصبه (ككبير للخصيان) خاصة ذلك النفوذ أو السلطان الذى يخوّله إياه توليه الإشراف على أوقاف الحرمين ، لقد كانت هذه الأوقاف تكوِّن بوضوح رباطًا مؤسسيًا يربط بين المصالح السلطانية العليا والمصالح المحلّية ، فلم يكُن التلاقى بين ما هو إمبراطورى (سلطانى) وماهو محلّى مقتصراً على الترتيبات المؤسَسية ؛ بل كان مصبوغًا باعتبارات الاندماج الشخصى ، فهنا أيضًا نجد علاقات التبعية والزمرة تلعب أدوارًا مهمة فى التبادل بين المركز (إستانبول أو العاصمة) والولاية (مصر) .

لقد شكلت الأوقاف الأربعة الإمبراطورية (التابعة لعاصمة الدولة) شبكة من القرى الموقوفة فى كل أنحاء مصر ، فعدّة مداخيل من " الفائض " الذى كان الأغا بشير يستخلصه لنفسه من هذه القرى تعطينا انطباعًا عن كيفية تخلّل الأوقاف فى الريف المصرى ، فهذه السجلات (الوثائق) تذكر بالاسم واحداً وثلاثين قرية ، منها ٢١ قرية أستطيع أن أحكم – بشكل قاطع – أنها من قرى الوقف ومنها قريتان أستطيع – بتردد – أن أحكم أنها منها ، وتشير التقارير إلى الجهات (الولايات الداخلية) التى تقع فيها هذه القرى بما يفيد أن هذه القرى كانت منتشرة فى تسع ولايات (مديريات أو محافظات بالمصطلح المعاصر) من بين ١٣ ولاية داخلية [٣٢] . ومع هذه المصادر الكثيرة للدخول والسلطة الإقليمية (على الأقاليم) المحققة للغرض كانت مناصب نظارة الأوقاف بالإضافة إلى مناصب تولى الالتزام محل منافسات ضارية لأسباب مفهومة ، وعلى هذا فخلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن

الثامن عشر – عندما كان البكوات وضباط الأوجاقات يتنافسون للحصول على عوائد الريف عمومًا – لا نندهش أن نجد إدارة أوقاف الحرمين فى حالة تقلّب (عدم استقرار) ، وعلى أية حال فهذه التغيرات لم تكن تثار أو تحدث بفعل المصالح المحلّية وحدها وإنما كانت تشكل جزءًا من الحوار المستمر بين السلطة العثمانية المركزية والولاية (مصر) ، وكان الزعيم الخصى الأسود شريكًا أساسيًا فى هذا الحوار بشكل متتابع بصفة مزدوجة : باعتباره شخصًا ممثلاً للسلطة المركزية (فى إستانبول) وباعتباره أيضًا شخصًا محليًا (مرتبط بمصالحه فى مصر) ، وقد تغير هذا الحوار بشكل واضح فى عقدين بين عامى ١٦٧٠ و ١٦٩١م .

إصلاحات الباشا قره إبراهيم ١٦٧٠

فى سنة ١٦٧٠ تعرّضت إدارة أوقاف الحرمين لتغيير أساسى على يد الوالى قره إبراهيم الذى وصل إلى مصر على رأس ٢٠٠٠ جندى عثمانى لإصلاح ماليّة مصر ، وأعاد قره إبراهيم تحديد المنوط بهم الإشراف المحلى على وقف الدشيشة الكبرى وأوقاف الحرمين ووقف الخاصكيّة ، ونقل نظارة هذه الأوقاف من البكوات إلى أغا الإنكشارية ، وباش جاويش الإنكشارية ، وكخيا العزبان ، على التوالى [٣٣] ، وعلى أية حال ، فقبل التمعّن فى تفاصيل هذا التحوّل ودوافعه لابد أن نضع فى اعتبارنا الهيكل العام الذى تعامل مثل هذا التغيير معه ، ففى الدولة العثمانية تُلقى شبكة من الأشخاص والصراعات والتحالفات بظلالها على البنية المؤسّسيّة للإمبراطورية ، وأكثر من هذا فإن كلاً من المكائد المؤسسية (التى تدبرها المؤسسات) والشخصية (التى يدبرها الأشخاص) تجرى خلال ثلاثة نطاقات : النطاق الإمبراطوريّ (مستوى الدولة العثمانية) ويشمل النظام القضائى وهيمنة رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ودوائر القصر والسلطان وأم السلطان (والدة السلطان Valide Sultan) وكبير الخصيان السود ، والنطاق البكلرى (البيكوى) وضباط الأوجاقات الذين كانوا مركزًا للنفوذ على المستوى المحلّى ، ونطاق الفرق Factions والزّمر households اللتين ينتمى إليهما هؤلاء النبلاء ، فإذا ما تناولنا هذا التحوّل فى إدارة الأوقاف فى ضوء هذه النطاقات ، أصبحت دوافع التغيير أكثر وضوحًا .

لقد كان والى مصر العثمانى مترعرعًا فى النطاق الأول (الإمبراطورىّ) وكان واحدًا من الوسطاء بين نطاقه (الإمبراطورىّ) والنطاقين الآخرين ، وخلال النصف الثانى من حكم السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) عندما قام رؤساء الوزارات (الصدور العظام) من أسرة كوبريللى بتنفيذ إصلاحات إدارية ومالية ، كان على والى مصر أن يحذو حذو الصدر الأعظم ؛ لأنه من حاشيته ، وقد كان الباشا قره إبراهيم هو الليفتنانت الشخصى (الكخيا) للصدر الأعظم كوبريللى فاضل أحمد باشا (الباشا فاضل أحمد كوبريللى) [٣٤] ، وقد أجرى إصلاحات فى إدارة أوقاف الحرمين فيها كثير من ملامح إصلاحات كوبريللى ؛ لضمان مزيد من السيطرة الإمبراطورية (المركزية) على عوائد الولاية ، وهذا يعنى من الناحية العملية زيادة نفوذ رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) على حساب كبير الخصيان السود والمرتبطين به فى الولاية ، وعلى هذا فقد كان هذا الإصلاح إصلاحًا محليًا ومركزيًا فى الوقت نفسه .

وإذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا سَهُل علينا فهم إصلاح الأوقاف كما وردت فى الحوليات ، ففى كتاب الحلاق (أخبار النوّاب) وكتاب أحمد (شلبى) نجد أن قره إبراهيم يشرع فى تدقيق حسابات الأوقاف فى عهد القائمقام الحالى البيك كنعان والقائمقام السابق البيك يوسف صهر النقيب [٣٥] ، ولما وجد حسابات هذين البيكين غير دقيقة ويعتريها الفساد أرسلهما إلى إستانبول حيث أُودعا السجن ، وكان انهيار ثروة البيك كنعان على نحو خاص مسألة واضحة ، لقد كان قد أتى إلى مصر فى حاشية الوالى العثمالى شاه سوار محمد Sehsüvaroglu فى سنة ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م وأصبح وكيلاً لكبير الخصيان السود المعزول موصلى أغا (أغا موصلى) (١٦٦٢ - ١٦٦٧) سلف الأغا عباس [٣٦] ، والحقيقة أنه يبدو أن البيكين كنعان ويوسف كانا هما الناظرين المحليين على أوقاف الحرمين ، رغم أن هذا غير واضح من خلال الحوليات ، ومن ناحية أخرى فقد كانا يتمتعان بصلات وثيقة بالولاة السابقين على قره إبراهيم والذين كانوا على علاقة وثيقة بالقصر السلطانى ، وعين يوسف قائمقام بواسطة الباشا البوستانجى إبراهيم (١٠٧٨ - ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٧ - ١٦٦٨م) ، بينما كنعان رعية الوالى شاه سوار محمد تم تعيينه قائمقام بواسطة الوالى قره قاش على باشا (١٠٧٩ - ٨٠ هـ / ١٦٦٨ - ٩م) [٣٧] ، ورغم إصلاحات قره إبراهيم فى هذا الوقت إلاّ أنه عمل على مواجهة التكتل المحيط بكبار الخصيان السود والولاة

المرتبطين بالقصر (٢٨) ، والأتباع المحلّيين لكل من الخصيان السود والولاة ممن ينتمون أيضًا للنخبة العسكرية .

لقد وقع اختيار قره إبراهيم على إحلال ضباط الأوجاقات فى إدارة الأوقاف ، أولئك الضباط الذين غالبًا ما كانوا خلال القرن السابع عشر بعيدين عن القصر لكنهم أيضًا كانوا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بديوان الوالى(٣٩) ، فقد كان الباش جاويش الإنكشارى يحضر للديوان بشكل منتظم ، وفى هذه الأثناء كان الأغا الإنكشارى لايزال يتم تعيينه من قبل إستانبول ، وأكثر من هذا فقد بدأ تقليد تعيين أغا الإنكشارية ناظرًا للوقف يترسّخ على يد بعض الولاة (٤٠) (وضع كخيا العزبان الذى أصبح له الأهمية نفسها بعد ذلك وضع يصعب التحقق منه على عكس وضع أغا الإنكشارية) ، وباختصار فإن هؤلاء الضباط كانوا أشخاصًا مؤثرين على المستوى المحلّى ، وكانوا رغم ترسخ جذورهم فى المركز الإمبراطورىّ (العاصمة العثمانية) إلاّ أن نفوذهم لم يمتد فيما وراء ديوان الوالى ، وإذ استطاع الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من أسرة كوبريللى أن يعين حلفاءه كولاة ، واستطاع هؤلاء الولاة بدورهم ملء مناصب نظارة أوقاف الحرمين بضباط فى دواوينهم ، عندما يستطيع الصدر الأعظم أن يحصل على جُعل من عوائد الأوقاف ليكبح بذلك قوّة كبير الخصيان السود وأتباعه ، وكان للإصلاح فائدة إضافية متمثلة فى توزيع مناصب النظارة (المناصب الإشرافية) وضبطها إدارياً ، ففى المقام الأول كانت مناصب ضباط الأوجاقات أفضل بكثير من منصب البيك سواء من ناحية المهام المنوطة بهم أو من ناحية الفترة الزمنية ، فبتقسيم نظارة الأوقاف بين عدد من المسئولين يكون الباشا قره إبراهيم قد منع أى نبيل من بناء نفوذ قوى لنفسه باحتكار كل المهام الإشرافية (النظارة) .

ولا يبدو أن قره إبراهيم قد وضع فى اعتباره كثيراً المجال الثالث من المجالات الثلاثة التى تحدثنا عنها ونعنى به الزُمر المحلّية ، فالفرقة (*) Faction التى كان ينتمى إليها البيك كنعان والبيك يوسف لم يرد لها ذكر فى الحوليات رغم أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنهما – على الأقل – قد نشأ متعاطفين مع الفرقة القاسمية ، وعلى أية حال ففى هذه المرحلة نجد أن مجموعة إمبراطورية (انتماؤها

(*) ليس المقصود هنا : الأوجاق . (المترجم)

الأساسى للحكومة المركزية فى إستانبول) ونعنى بهم الصدر الأعظم وكبير الخصيان السود ووالى مصر - هم الذين أصبحت لهم الصدارة على شبكة الزّمر والفرق المحلية ، وكان هذا أمراً غير معتاد أبداً ، كما أكدت ذلك التطورات اللاحقة فى نظارة الأوقاف .

وقف والدة السلطان ١٦٧٨

لقد بدا النظام الجديد متماسكاً لحوالى عقد من الزمان ، ثم أصبح الوقف الجديد لوالدة السلطان يُعطى لأمير قافلة الحج المصرية الفرصة لنظارة وقف إمبراطورىّ كبير مرة أخرى ، لقد أسست هذا الوقف ربيعة جولنوس Gülnüs أمَةُ الله زوجة محمد الرابع فى سنة ١٦٧٨م ، وكان هذا الوقف يقدم المال اللازم لمستشفى ومطبخ يقدم الحساء فى مكة ، وكان كثير من عوائد هذا الوقف يأتى من أربعة قرى مصرية تم اختيارها بعناية ، كما كانت عوائد أخرى تحوّل للغرض نفسه من ميناء بولاق (٤١) ، وسلسلة حسابات الوقف من سنة ١٦٨٢م وحتى سنة ١٧١٣م . تشير إلى أمير قافلة الحج على أنه ناظر الوقف ، بل إن كبير الخصيان السود المعزول الأغا يوسف (١٦٧١ - ١٦٨٧م) قد أُطلق عليه " ناظر " فى وثائق مختلفة بعد ١١٠٨ هـ / ١٦٩٦م ، ومنذ تولّى الأغا يوسف منصب شيخ الحرم النبوى بعد سنة ١٦٩١م . يميل الباحث إلى الخلوص بأن أمة الله هى التى عينت شيخ الحرم هذا ناظر وقف على مستوى الدولة العثمانية كلها (على المستوى الإمبراطورىّ) بينما يكون أمير قافلة الحج ناظراً على الوقف فى المكان الذى هو فيه On the Spot وهو منصب معادل لمنصب " المتولّى " . على أيه حال ، فالوثائق لم تشر أبداً للأغا يوسف أو لأى أمير قافلة حج بالناظر فى الوقت نفسه الذى يكون فيه أميراً لقافلة الحج ، بل على العكس فالوثائق تعطينا انطباعًا محدّداً هو أن نهاية كل فترة من فترات نظارة يوسف كان يعقبها تولّى واحد من النبلاء المحليين (٤٢) ، إنها مسألة صعبة أن نميّز أين يقف الأغا يوسف كشخص ، وكبير الخصيان السود كمؤسسة فى علاقته مع هذا الوقف الجديد . لقد تم تأسيس هذا الوقف عندما كان الأغا يوسف لا يزال متوليًا لمنصب كبير الخصيان السود ، وعلى

هذا فربما كان لديه بعض التبرير لإطلاق الناظر على أمير قافلة الحج ، فأمراء قوافل الحج قبل سنة ١٧١٠ كوّنوا خطا فقاريًا قويًا : ذى الفقار بيك ، وإبراهيم بك ابن ذى الفقار بك وأيوب بك ، وقايطاس بيك (٤٣) ، وأكثر من هذا فباستثناء أيوب بك نجدهم ينتمون جميعًا لخط Line ذى الفقار بك (توفى ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ - ١٦٩١م) : فإبراهيم بك هو ابنه ، وقايطاس بك كان مملوك إبراهيم (٤٤) ، والارتباط بين يوسف أغا والفقارية من خلال البيك مصطفى قزلار مثلاً لايبدو مجرّد اتفاق عرضى ، فالتفسير الوحيد المحتمل للظاهرة هو أن أم السلطان وكبير الخصيان السود استخدما نفوذهما من جديد لرعاية الفريق Faction الذى يفضّلانه فى الساحة المصرية خاصة وقد بدأت الحقبة الكوبريللية تَشْحُب ، ومن ناحية أخرى قد ينجح آل كوبريللى فى إضعاف كبير الخصيان السّود إلى الحد الذى تجد فيه أم السلطان نفسها مضطرة للعهد بنظارة الوقف للنبلاء المحليين فى مصر ، وقد أصبح الأغا يوسف المبُعَد - فى هذا السياق - منافسًا للبكوات الفقارية فى نظارة الوقف .

والحقيقة - كما تشير كل الاحتمالات - تقع على نحو ما بين هذين البديلين ، فكل الأدلة تشير إلى النفوذ الهائل للأغا يوسف فى مصر وفى الفرقة الفقارية ، وفى هذه الأثناء كانت الحقيقة التى مؤدّاها أنه كان قادرًا على الحصول على " العفو " بل وكسب تعيينه " شيخ الحرم " فى ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠م ، وفى وقت لاحق بينما كان يتولى هذا المنصب حصل على نظارة وقف والدة السلطان ، كل هذا يشهد باستمرار تغلغله فى القصر السلطانى ، وعمومًا فبعد سنة ١٦٩١م . كرّس الأغا يوسف نفسه لتدعيم مركزه وتقويته ، لقد ورد اسمه ناظرًا حتى عندما تولى أمكا زاده Amcazade حسين باشا المصلح من آل كوبريللى (١٦٩٨ - ١٧٠٢) الصدارة العظمى (رياسة الوزراء) (٤٥) ، وكان أميرا خلال توليه النظارة لمرتين هما الفقاريّيْن أيوب بك وقايطاس بك ، لقد خلف أيوبُ يوسفَ فى نظارة الوقف فى سنة ١١١٥ - ١١١٦ / ١٧٠٣ - ١٧٠٤م ، بينما أصبح مملوك يوسف ، وهو أحمد بك منوفية ، فى سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ - ١٧٠٠م . أميرًا للحاج ، وباختصار فقد بدا الأغا يوسف مستخدمًا ارتباطاته الشخصية بأمراء الحاج الفقاريين ليضع يده على عوائد الأوقاف ، ومن الطبيعى أن

تصبح مهمته أيسر عندما يكون هناك سلطان متعاطف معه على العرش ، أو عندما يشغل الصدارة العظمى شخص ذو علاقة طيبة معه .

ومهما كانت تفاصيل مكائد وتدبيرات الأغا يوسف فإن المرء يخرج بانطباع قوى أن مثل هذه الإدارة والسيطرة التى مارسها على وقف والدة السلطان كانت نتيجة تأثيره الشخصى وسلطته المؤسسيّة ، فلم يحدث بعد ذلك أن شيخ الحرم غدا ناظراً لوقف والدة السطان رغم الحقيقة القائلة بأن عدداً من كبار الخصيان السود أتوا بعد يوسف ، وشغلوا منصب " شيخ الحرم " بعد عزله ، إنه صحيح تماماً أن نؤكد أن الأغا يوسف كان آخر زعيم للخصيان السود يتحلّى بنفوذ حقيقى وهو مُبعد (عن إستانبول) .

وحالة الأغا يوسف توضّح أن ممارسة إبعاد كبراء الخصيان السّود إلى مصر يمكن أن تقوّى الزّمر المحلية وبالتالى تُضعف سلطة الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) على توزيع عوائد الوقف ، وقد أعطى وقف والدة السلطان الفرقة الفقارية - خاصة زمرة ذى الفقار بك ، الفرصةَ لزيادة نفوذهم فى الوقت الذى وثّقوا فيه ارتباطاتهم بالأغا يوسف . وعلى أية حال فقد أتى وقت تنافس فيه الأغا يوسف مع هؤلاء الأمراء الفقارية على نظارة الوقف ، وعندما كان مسئول عثمانى - سواء كان مُبعداً أم لا - يطرح بنقله مع زمرة - أو فرقة - محلية قوية فإنه يكون بذلك قد خاطر بنفوذه (أصبح عُرضة لأن تهيمن هذه الزمرة المحلية القوية عليه) ، ومن المؤكد أن مثل هذا التهديد قد وجد فى نهاية القرن السابع عشر كما اتضح من حالة البيك إبراهيم بن ذى الفقار الذى استغل بنجاح الفرصة التى أتاحها له وقف والدة السلطان بأن فرض الاحتكار الفقارى على نظارة الوقف .

من الواضح أن مسألة إدارة وقف والدة السلطان قد تشابكت مع النطاقين : الإمبراطورى (المركزى) والمحلّى لدرجة أن إصلاح الوقف الحادث فى سنة ١٦٧٠ لم يحقق هذا الهدف كما كان وقف والدة السلطان يحققه ، فالإصلاح السابق بدأه الوالى بناء على أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ، ووقف والدة السلطان يرجع فى أصله إلى النطاق الامبراطورى لكن إدارته تعتمد - من الناحية العملية - على توزيع

النفوذ بين النطاقين الإمبراطوريّ والمحلّيّ ، فحينما يكون للأغا يوسف كبير الخصيان السود ، يد ، فإن هذا يعنى أن إدارة الوقف تُدار من خلال النطاقين : الإمبراطوريّ والمحلّيّ ، وفى هذه الأثناء كان النطاق الفِرَقيّ (بكسر الفاء وفتح الراء Factional) قد أصبح واضحًا فى الصورة طالما أن وقف والدة السلطان ، والأغا يوسف - على نحو خاص - يعززان من موقف الفرقة الفقارية ، وقد لاحظنا ميلاً من المسئولين الإمبراطوريين عن الوقف إلى السيطرة على المسئولين المحليين عنه ليدوروا فى فلكهم ، وكان هذا الاتجاه يواكب الميل إلى الابتعاد عن المؤسسيّة الخالصة ، والميل إلى تغيير الأشخاص القائمين على إدارة الوقف ، هذان الاتجاهان وصلا ذروتهما - إن لم يكونا قد نشأ - فى الضربة الجسورة التى قام بها البيك إبراهيم بن ذى الفقار ، ممثلة من جهوده فى إزاحة تأثير النطاق الإمبراطوريّ ، وغلبة النطاق المحلّيّ .

البيك إبراهيم بن ذى الفقار وتجدد نظارة البكوات على أوقاف الحرمين

بعد واحد وعشرين عامًا فقط من تولى ضباط الأوجاقات أمور أوقاف الحرمين عادت نظارته مرة أخرى للبكلرية (مؤسسة البكوات) ، ويعطينا وصف الحوليات لهذه التغيرات انطباعًا أنها لم تكن تغييرات مؤسسيّة فى السلطة وإنما كانت مسألة بكوات أفراد (بعينهم) سيطروا على مناصب النظارة بمرسوم سلطانى ، فهذا المرسوم الذى جعل التغيير ذا صبغة شرعية يظهر وقد عيّن أربعة أشخاص كنظّار جدد (للأوقاف) ووفقا لهذا المرسوم نجد أمير قافلة الحج البيك إبراهيم بن ذى الفقار يحل محل الأغا الانكشارى كناظر على وقف الدشيشة الكبرى ، وحلّ البيك مراد الدفتردار محل الكخيا الإنكشاريّ فى نظارة وقف المحمديّة ، وحل البيك إسماعيل محل الباش جاويش الإنكشارى فى نظارة وقف الحرمين ، وحل البيك عبد الله محل الكخيا العزبانى (كخيا العزب) فى نظارة وقف الخاصكية ، والمرسوم السلطانى الذى يعتمد إصلاحات قره إبراهيم يشير إلى " كل من هو أغا المستحفظان ، وكل من هو باش جاويش المستحفظان " وهكذا (٤٦) .

وهذا التغيير الجديد يتلاءم تماماً مع تعيين البيك إبراهيم بن ذى الفقار أميراً للحاج فى سنة ١٦٩١م . ومع مشروعه لتوسيع دائرة نفوذه ، وكان لمشروعه هذا هدفان رئيسيان : الهيمنة على كتائب الإنكشارية بتحييد ضباطها الأعلى رتبة ، أو - بشكل أكثر تعميماً - إحكام السيطرة الفقارية على المؤسسات فى مصر (على كل النظام المؤسسّى فى مصر) ، وليخرج الهدف الأول إلى حيّز الوجود ، أقصى الضباط الإنكشارية البارزين المنتمين للفرقة القاسمية ، وتحاشى كوادر الضباط الأعلى رتبة تماماً ، وناصر الباش أوده باش basodabasi المنشق كچك (كشك محمد) (٤٧) ، لقد كانت منافسة ابن ذى الفقار للضباط ذوى الرتب العالية فى الأوجاقات قد جعلته يبدو مخططاً لسيطرة البكوات على نظارة الأوقاف بهدف إضعاف هؤلاء الضباط .

وعلى أية حال ، فلابد ألاّ نهمل العنصر الفِرَقىّ (*) (الحزبى تجاوزاً) فى استراتيجية ابن ذى الفقار ؛ فقد كان الضباط الإنكشارية الذين أقصاهم من القاسمية ، وكان يهدف إلى ضمان السيطرة الفقارية على أوجاق الإنكشارية ، وأكثر من هذا فقد كان ثلاثة من البكوات الأربعة الذين رشحهم لنظارة الأوقاف من الفقارية ، وكان الاستثناء الوحيد هو البيك مراد - الدفتردار القاسمىّ ، وعلى أية حال فبعد ثمانية أشهر فقط من هذا التحوّل تم عزل هذا البيك (مراد) ليحل محله الفقارى القوى البيك إسماعيل ، وقد يكون عزل مراد قد أحدث أثراً فى عوائد وقف المحمدية (وقد يكون غير ذى أثر) طالما أن نقل نظارة الوقف لم يكن - فيما يظهر - تغييراً مؤسسياً (فى طبيعة المؤسسة نفسها - والمقصود مؤسسة الوقف) كما لاحظنا آنفاً ، وقد كان البيك إسماعيل معيناً بالفعل دفتردارا فلم يكن بالتالى فى حاجة إلى التسيّد على وقف المحمدية .

هذه الاعتبارات تجعل الأمر يبدو أقرب ما يكون إلى كون ابن ذى الفقار كان على نحوٍ ما أكثر اهتماماً بالفرق العسكرية منه بالفرق الحزبية Factions (الانتماء الفقارى أو الانتماء القاسمى) فرغم رغبته الشديدة فى تأكيد الهيمنة الفقارية إلاّ أنه كما هو ظاهر كان أكثر اهتماماً بتطويق ضباط الأوجاقات الذين وصلوا لذروة قوتهم فى أواخر

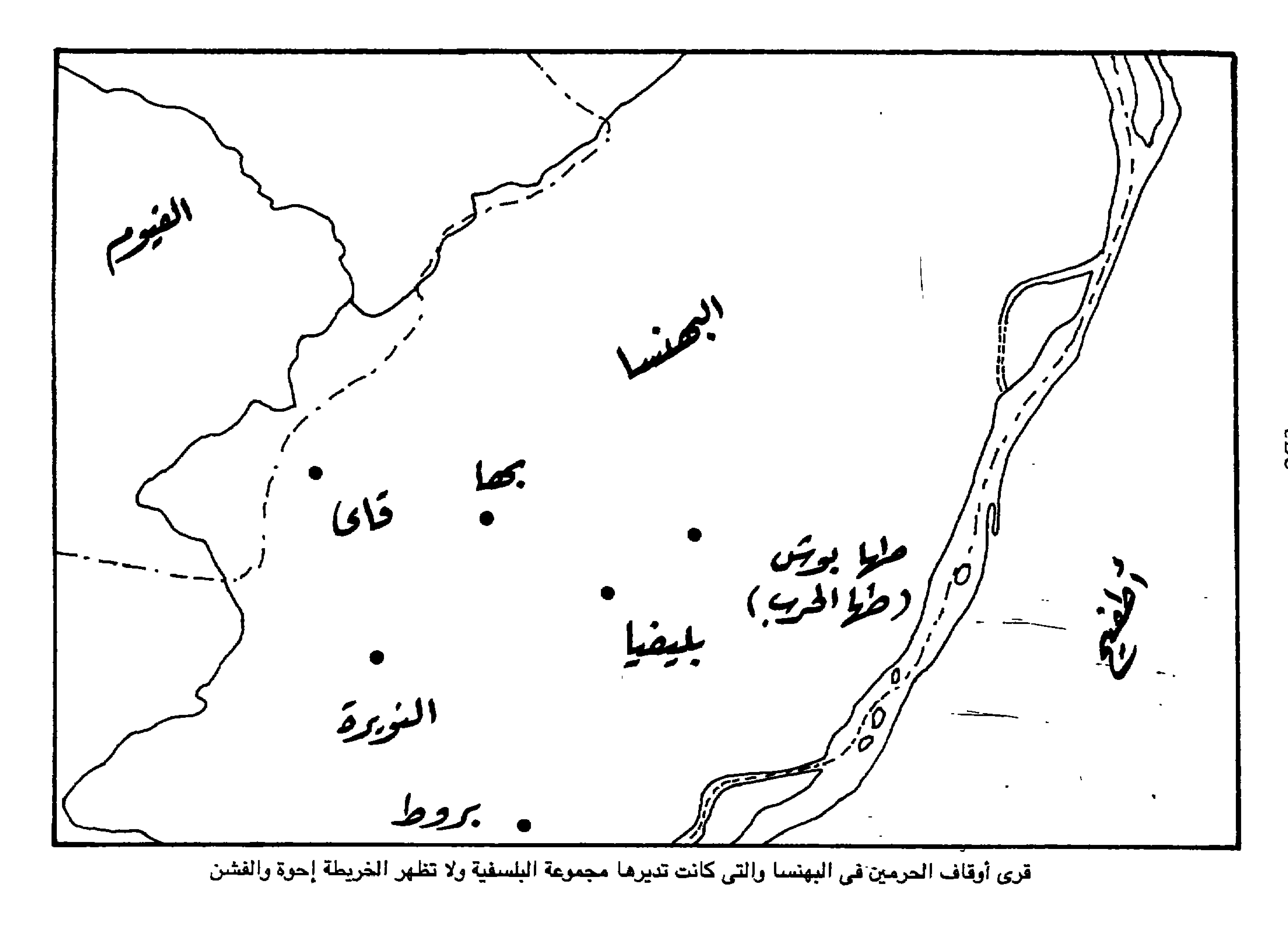
(*) المقصود الفرقتين القاسمية والفقارية ، ومابين القوسين توضيح من المترجم . (المترجم)

القرن السابع عشر ، ويمكن للمرء أن يسوق الدليل على أن ابن (ذى) الفقار قد أثار قضية عامة مع البيك القاسمى قبل أن ينحاز إلى الضابط الفقارى ، ومما يدعم هذه الفكرة تنافسه مع أكثر ضباط الفقارية قوة وهو الأغا حسن بلفية (انظر فصل ٤ ، ص ٦٦ - ٦٩ من النص الإنجليزى) .

كما أن ماورد عن وقف والدة السلطان لم يرد فيه أبداً أى أمير قافلة حج قاسمى ناظراً للوقف قبل البيك إسماعيل بن إيواظ فى سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م ، ولم يكن هناك سوى اثنين من أمراء قوافل الحج القاسمية خلال الأعوام من تأسيس الوقف وحتى نظارة البيك إسماعيل : إبراهيم بيك أبو شنب فى سنة ١٠٩٩ - ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨م ، وأحمد بك منوفيّة تابع الأغا يوسف فى سنة ١١١١ / ١٦٩٩م ، وكان أبو شنب من القوّة بمكان لأن غيابه عن الوقف كان يعد مسألة غير مقبولة ، وأكثر من هذا فنحن نعلم أن إبراهيم بك بن ذى الفقار كان يعتبر قوّة أبى شنب مصدر تهديد ، فقد حاول اغتياله (انظر الفصل الرابع ، ص ٦٨) ، ومع هذا فالطبيعة العامة للوقف الخيرى تجعل المنافسة فيه مفتوحة على مصراعيها خاصة لمن تولى إمارة قافلة الحج رغم ما اعترى الفترتين اللتين تولّى فيهما هذا المنصب الأغا يوسف من انحراف عن الطريق القويم [٤٨] ، وقد مكّن تولى الفقاريين لإمارة قوافل الحج فرقتهم (الفقارية) من السيطرة على وقف والدة السلطان .

وكان برنامج البيك إبراهيم بن ذى الفقار - كما طبقه من خلال نظارة الوقف - واحداً من بين برامج أخرى تهدف إلى سيطرة البكرية خاصة البكرية الفقارية ، وكان وقف والدة السلطان بمثابة اختبار لمدى القدرة على السيطرة ، وربما كانت نظارة أمراء قوافل الحج الفقاريين لوقف والدة السلطان قد شجعت ابن ذى الفقار على التحرك نحو أوقاف الحرمين .

والسؤال الأكثر استعصاء على الإجابة هو ما إذا كانت خطط ابن ذى الفقار للسيطرة على أوقاف الحرمين مدينة بشىء ما للأغا يوسف ، لقد كان انتقال مناصب نظار الوقف للبكرية قد حدث خلال الشهور التى أعفى فيها الأغا يوسف ليُعيّن شيخاً للحرم ، وباستعراض الظروف التى تم فيها هذا يبدو من المنطقى أن نخلص إلى أن



قرى أوقاف الحرمين في البهنسا والتى كانت تديرها مجموعة البلسفية ولا تظهر الخريطة إحوة والفشن

وضع الأغا يوسف إزاء الأوقاف الإمبرطورية كان مرتبطًا على نحو ما برجحان كفة بكوات جماعة ابن ذى الفقار فى مناصب نظارة الوقف - كما كان الحال بالنسبة لوقف والدة السلطان . وعلى أية حال فمن الغباء أن الأغا يوسف كان مسئولاً عن نجاح جماعة ابن ذى الفقار أو العكس بالعكس ، والنتيجة الأكثر قبولاً هى أنه فى أوقات بعينها أُتيح لفريق أن يستخدم الفريق الآخر لتحقيق أغراضه .

ومد سلطان البيك إبراهيم بن ذى الفقار على أوقاف الحرمين يمكن أيضًا فهمه من خلال تداخل المصالح الإمبراطورية (المركزية) مع المصالح المحلية ، تمامًا كما كان الحال فى التغييرات الأخرى التى حدثت فى نظارة الأوقاف ، وفى هذه المرحلة كانت التحوّلات فى نظارة الوقف تعود إلى ظروف محلية ، لقد كانت السلطات المركزية (الإمبراطورية) تذعن بقدر ما كان السلطان يصدر من الأوامر ما يؤيد التغييرات التى أحدثها إبراهيم بك ، وباختصار فإن الدور الإمبراطورى (المركزى) فى هذا التحول فى نظارة الأوقاف بدا إلى حد كبير دوراً متفاعلاً مع ما حدث بالفعل (أى لم تكن المبادرة فى التحوّل بسبب هذه الأوامر الامبراطورية أو المركزية) .

هذا الوصف ملائم لتوضيح طبيعة الأمر الإمبراطورى الصادر فى ١١١٠ هـ / ١٦٩٩م الذى يدعو لعودة أوقاف الحرمين لضباط كتائب الإنكشارية والعزبان ليكون الوضع كما هو " فى الأوّل " (٤٩) ، وكان السلطان الذى أصدر هذا الأمر استجابة لضباط الأوجاقات المظلومين هو مصطفى الثانى الذى كان صدره الأعظم (رئيس وزرائه) فى ذلك الوقت هو أمكا زاده حسين كوبريللى ، ويتوافق تاريخ إصدار هذا المرسوم مع محاولة إنعاش إصلاحات كوبريللى (إعادتها للحياة من جديد) (٥٠) ، ورغم ذلك فإن هذا الأمر (المرسوم أو الفرمان) كما تدل كل الشواهد قد تجاهله البكوات الذين استمروا فى الهيمنة على نظارة الوقف ، ويشير هذا الإخفاق الإمبراطورىّ (إخفاق الحكومة المركزية فى إستانبول) إلى التعارض بين ثورة ابن ذى الفقار والتحوّلَيْن الكبيرين اللذين حدثا فى وقت باكر فيما يتعلق بنظارة الأوقاف ، وفى هذه الحال لم يقم أى والٍ مصلح بتقنين (تكويد) توزيع مناصب النظارة ، ولم يعد أى قريب للسلطات الإمبراطورية ذى طموح يجد وقفًا جديداً (يتولّى نظارته) ، وباختصار لم تعد هناك أية سلطة إمبراطورية تعمل على تثبيت أى مجموعة محلية فى السلطة ،

وبدلاً من ذلك أصبحت المبادأة فى يد القوة المحلية ، وأجبرت المسئولين الإمبراطوريين فى الحكومة المركزية على الاعتراف بسلطانها ، بل إن تضخم نفوذ ابن ذى الفقار لم يكن فى اتجاه واحد ، فقد أدّى تأسيس وقف والدة السلطان ودعمها الدائم للأمراء الفقاريين وكذلك دعم كبير الخصيان السود المُبعد لهم إلى وجود مناخ ملائم ساعد على علو شأن بن ذى الفقار ، وبتقوية قوى محلية بعينها عملت القوى الإمبرطورية (المركزية) على تمكينها من تعزيز موقفها .

فما هو إذاً العنصر الفرَقى [*] (بكسر الفاء وفتح الراء Factional) الذى بدا دائمًا متسيداً على النطاق المحلّى ؟ إن التغيرات الحادثة فى إدارة الوقف من سنة ١٦٧٨ فصاعداً تنحاز بشكل واضح للفقارية طالما أن أعضاء هذا الفريق الفقارى هيمنوا على مناصب نظار الوقف ، ورغم أن الأغا يوسف كان له على الأقل تابع من القاسميين إلاّ أنه يدعم الكتلة (الفرقة) الفقارية ، وفى هذه الأثناء كان مخطط ابن ذى الفقار قد تقرَّر بتأييد الفقارية رغم أنه أيضًا اتبع برنامج إتباع (أو إلحاق) ضباط الأوجاقات ذوى الرتب العالية للبكوات ، وأكثر من هذا فهو باتباعه هذا البرنامج لم يتردد فى إبعاد المجموعات المنافسة داخل التكتل الفقارى وحالة زمرة الأغا حسن بلفية جديرة بالملاحظة ، ومع هذا فحقيقة خلو نظارة الأوقاف من القاسمية خلواً شبه تام فى الفترة من ١٦٧٨ إلى ١٧١١م . يشير إلى أن الفريق المواجه (الفقارية) قد استخلصوا لأنفسهم إدارة (نظارة) الأوقاف ، ولا جدال فى أن التغييرات فى إدارة الوقف الناتجة عن إنشاء وقف والدة السلطان وطموح ابن ذى الفقار قد أفادت الفقارية .

لقد كانت زيادة الهيمنة البكرية على يد ابن ذى الفقار فى هذه الأثناء ناجحة على المدى الطويل كنجاح مشروعه لفرض الهيمنة الفقارية ، ويُظهر مثال البيك عثمان ذى الفقار وهو أمير فقارى فى القرن الثامن عشر (ولا علاقة له بالبيك إبراهيم بن ذى الفقار) - يظهر أن أمير الحاج لم يكن قادراً على الاحتفاظ بنظارة الوقف فحسب وإنما كان أيضًا قادراً عى مد سيطرته على الأوقاف الإمبرطورية (التابعة

(*) نسبة للفرقتين القاسمية والفقارية . (المترجم)

للحكومة المركزية) ، وكما أوضحنا فى الفصل الخامس فإن البيك عثمان رسم خططًا لا للسيطرة على نظارة الدشيشة الكبرى فحسب وإنما أيضًا للسيطرة على نظارة المرادية والخاصكية ووقف والدة السلطان ، وكان هذا أيضًا مع موافقة ضمنية للمسئولين العثمانيين الذين لم يتحركوا إلاّ متأخرًا لكبح جماحه .

زمرة الأغا حسن بلفية وأوقاف الحرمين

المنافسة ذات الطابع المرير التى كانت بين ابن ذى الفقار – داخل التكتل الفقارى – والقائد التابع لأوجاق الجمليان Gönüllüyan (الأغا حسن بلفية) تطرح مسألة أهمية نظارة الوقف بالنسبة للنفوذ المحلىّ أو النفوذ على المستوى الإمبراطورىّ ، إلاّ أن الأغا حسن يقدم لنا مثالاً لطريق آخر للسلطة والنفوذ ، فلم يكن حسن " بيكا " ولا " ناظرًا " لوقفٍ إمبراطورىّ ، ولكنه جمع العوائد وكوّن سلطة إقليمية بحصوله على التزامات مجموعة من قرى صعيد مصر موقوفة على الحرمين (من أوقاف الحرمين) ، ورغم أنه هو نفسه كان يقيم عادة فى القاهرة كما يفعل أمراء الحاج ، إلاّ أنه نَثَر أتباعه ووكلاءه بطريقة تجعله يحتفظ بسيطرة مباشرة على قاعدة سلطانه فى البهنسا بصعيد مصر ، وبذا أصبح له سيطرة إقليمية خالصة مما كان ينقص ابن ذى الفقار [٥١] ، لقد بدا غير متطلّع لمناصب البكوية الفخمة ولا لمناصب نظارة الأوقاف المُفضية إلى النفوذ ، وعلى أية حال فقد عمل على جعل أتباعه وحلفائه فى مواضع تمكنهم من الحصول على هذه المناصب لأنفسهم [٥٢] .

إذًا ، فأى هذه الطرق أكثر فائدة للسيطرة على مناصب النظارة الكبرى أو الالتزامات لقرى الوقف الاستراتيجية ؟ لقد سلك معسكر الأغا حسن بلفية الطريق الأخير (للسيطرة على قرى الوقف الاستراتيجية) فبرزّ بذلك معسكر ابن ذى الفقار الذى سلك الطريق الأول (طريق الحصول على نظارات الأوقاف) ، ومع هذا فيمكن القول إن مجموعة الأغا حسن كانت لا تزال راغبة فى الحصول على مناصب النظارة ، فالأمر الإمبراطورى (السلطانى) الصادر فى سنة ١٦٩٩م . والذى يدعو لعودة مناصب النظار إلى ضباط الأوجاقات ، كان – حتى لا ننسى – بناء على التماس تقدم به

ضباط الإنكشارية والعزبان وكان من بين مقدمى هذا الالتماس أحد رعاة (حماة) الأغا حسن ، ونعنى به الكخيا مصطفى القازدغلى ، وبطبيعة الحال ففى وقت لاحق فإن مجموعة بلفيّة الفرعيّة وعلى رأسها البيك ذى الفقار احتكرت منصب إمارة الحاج على نحو أكثر كفاءة وأبعد أثرًا مما فعل – بعد ذلك – البيك إبراهيم بن ذى الفقار .

يمكن للمرء إذن أن يسوق الدليل على أن الطريق الذى اتبعته مجموعة الأغا حسن نتجت عن حالة بسيطة هى حالة حصرم حَلب (التظاهر بعدم الرغبة فيما لا يمكن الحصول عليه) ، لقد ركزت المجموعة البلفية على التزامات القرى خاصة التابعة لأوقاف الحرمين لعدم مقدرتها على الوصول إلى مناصب الوقف الكبرى ، وكانت مثل هذه الالتزامات الزراعية ذات أولوية كبرى بين ضباط الفرق العسكرية (الأوجاقات) بشكل عام ويشهد بذلك سجل الالتزامات (مقاطعة دفترى) الخاص بالسنوات ١٧٢١ – ١٧٢٣م [٥٣] ، لقد كانت هذه القرى هى مصدر الحبوب التى كانت تصدر لفقراء المدينتين المقدستين أثناء موسم الحج ، وبدون السيطرة على القرى المنتجة للحبوب لا يمكن أن تعنى السيطرة على نظارة الأوقاف سوى القليل ، ومن هنا فإن هذه القرى كانت أيضًا محل طمع أمراء الحج الآن أو مستقبلاً ، كما اتضح فى حالة البيك القاسمى المنافس إسماعيل بن إيواظ ، وكذلك شركس محمد فى أواخر العشرينيات من القرن الثامن عشر [٥٤] .

لقد استطاع الأغا حسن – وجماعته – بسيطرته على قرى الوقف الاستراتيجية السيطرة على تصرفات نظار أوقاف الحرمين ، وإذا نحّينا سيطرة المجموعة البلفية على قرى الأوقاف نجدها – أى هذه المجموعة – قد نعمت أيضًا بعوائد من الجمارك وتجارة البن ، وعوائد " حماية " أصحاب المهن والتجار فى القاهرة ، " وهى مهام كان يقوم بها ضباط ملتزمون بها "Officer / tax Farmer" . هذه المجموعة من العوائد أعطت المجموعة قدرًا من القوة فى المضمارين الاقتصادى والسياسى لم يستطع أمراء الحاج فى فترة من الفترات تحدّيها[٥٥] .

ومع هذا فلم يكن الأغا حسن بالضابط الذى يواجهه البكوات بشكل راديكالى ، فلم يقم بأى دور فى حروب الرُّتب التى بدا البيك إبراهيم بن ذى الفقار شغوفًا

بخوضها ، وبدلاً من ذلك وجدناه يمزج - بدهاء - الضباط والبكوات داخل زمرته ليحصل على أعلى مزايا ممكنة من العوائد المتاحة ، ومن هنا فقد صاغ تحالفًا مع البيك إسماعيل الدفتردار الذى كان هو نفسه قد رقّاه من أغا إلى بك ، بينما زرع الكخيا مصطفى القازدغلى ، وقد أعطته صلته بالبيك إسماعيل ارتباطًا بأوقاف الحرمين ، مادام البيك إسماعيل - من خلال إعادة التنظيم الذى جرى فى سنة ١٦٩١ - قد أصبح مسئولاً عن أوقاف الحرمين ، وعلى أية حال فلو أن التماس سنة ١٦٩٩ نجح فى استعادة ضباط الإنكشارية والعزبان وعلاقات مؤثّرة ، ما دام كخيا الإنكشارية كان واحداً من رعيته Protegé ، من الواضح أن الأغا حسن تفوّق على البيك إبراهيم ابن ذى الفقار فى التخطيط المستقبلى (تحسّب ما هو آتٍ) ، لقد كانت زمرته قد أُعِدّت لاهتبال عوائد أوقاف الحرمين إذا ما أتاحت الظروف ذلك ، بالإضافة إلى أن زمرته قد وضعت فى اعتبارها بدائل للدخل كثير منها ذو صلة بالوقف ، مما ضمن له السّطوة فى حالة ضياع أى فرصة من الفرص .

زمرة الأغا حسن بلفية وكبير الخصيان السود

هل استفاد الأغا حسن بلفية بحصوله على التزام قرى الوقف الاستراتيجية من ارتباطاته الإمبراطورية (بالسلطات فى إستانبول) ، تلك الارتباطات التى بدا أن البيك إبراهيم بن ذى الفقار قد نَعِم بها ؟ حقيقة إن أحواله قد انتعشت فى ظل واليين كانت علاقته بهما طيبة خلال العقد التاسع من القرن السابع عشر : ، الواليان إسماعيل باشا وقره إبراهيم باشا ، سمحا للأغا حسن والبيك إسماعيل الدفتردار والكخيا مصطفى القازدغلى بتدبير أمور الولاية (مصر) بشكل فعّال ، وعلى أية حال فيمكن للمرء أن يستنتج أن الأغا حسن - فوق كل ذلك - قد نعم بارتباطات هامة مؤثرة بالبلاط العثمانى طوال حياته ، فالرياسات الأوجاقية التى تولاها تجعله إفرازاً من إفرازات البلاط العثمانىّ ، وأكثر من هذا فقد كان راعيه الجاويش محمد قياله Qiyala (من الواضح أنه كان فى وقت من الأوقات متوليًا التزام شبرا قياله - إحدى قرى أوقاف الحرمين فى الغربية) (٥٦) ، ومادام الذين يتولون التزام قرى أوقاف

الحرمين لابد أن يقرهم - أو يباركهم - كبير الخصيان السود فلابد أن الأغا حسن بلفية قد نعم بشىء من الروابط مع هذا المسئول (كبير الخصيان السود) .

لقد كان على الأغا حسن أن يدعم مهمته من خلال مختلف كبار الخصيان السُّود ومع أى من التقلبات التى قد تحدث نتيجة ميولهم المتباينة ، وكما ظهر فى القسم الأول من هذا الكتاب فقد أشرف يوسف أغا كبير الخصيان السود - على نحو ظاهرى - على صعود نجم منافس الأغا حسن (البيك إبراهيم بن ذى الفقار) ، ومن ناحية أخرى تحالف تابع يوسف الفقارى (مصطفى بك قزلار) مع المجموعة البلفية ، وعلى هذا ففى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر عندما بسط الأغا يوسف نفوذه ببراعة على القاهرة تعلّم الأغا حسن بلفية أن يستعد لأى احتمال .

لقد أصبحت ارتباطات الزمرة البلفية بكبير الخصيان السود - فيما يبدو - أكثر توثقًا بعد موت الأغا حسن ، وأصبح يمكن الاعتماد عليها بشكل أكثر فائدة ، خاصة خلال تولى الأغا الحاج بشير لفترة طويلة (١٧١٧ - ١٧٤٦) ، وبينما بدا الأغا حسن قد مارس السلطة الفعليـة إلى جوار البلفية ، فإن مملوكه البيك مصطفى بلفية [٥٧] تلقى مرسومًا رسميًا بإدارة قرى البهنسا المرتبطة بمختلف أوقاف الحرمين ، وصدر فرمانًا فى سنة ١٧٣٣م بتسليم كل قرى الوقف المختلفة فى الإقليم للبيك مصطفى كسيربستيه Serbestiyet (أى إقليم له حق إدارته إدارة ذاتية بشكل كامل) إلاّ أنها لا تعد ملكية كاملة له [٥٨] ، وتم إدراج تسع قرى بالقرب من بلفية ، منها ست أمكننى (أى المؤلفة) التعرف عليها وتحديدها ، وهى التى وضحتها فى الخريطة ، وهى تمثل المجال الوثيق للبلفية فى البهنسا ، والحقيقة الماديّة (الملموسة) عن مجال النفوذ هذا تؤكد أن التزام قرى الوقف ليست - ببساطة - مجرد مصادر للدخل ، وإنما كان يمكن استخدامها طريقًا لتوسيع مجال النفوذ الإقليمى [٥٩] ، وبهذه الطريقة كانت الارتباطات مع الزعيم الخصى الأسود يمكن تحويلها إلى سلطة إقليمية حقيقية .

وتعطينا حولية الدمرداشى إشارة مثيرة لعلاقة أكثر مباشرة وتوثُّقًا بين مجموعة البلفية والأغا الحاج بشير ، ويصور الدمرداشى المشهد الذى اختارت فيه الدولة

(الحكومة المركزية فى إستانبول) البيك محمد قطامش أميرًا للحاج ردًا على هجوم البدو على قافلة الحاج المصرية فى سنة ١٧٣٣ ، " وقال أغوات دار السعادة ، وفيما يتعلق بالدفتردارية ، ابن سيدى البيك محمد إسماعيل [٦٠] ، والبيك محمد هذا كان ابنًا للبيك إسماعيل الدفتردار زوج ابنة الأغا حسن بلفية" ، ولا يستطيع المرء أن يخمن المقصود بكلمة " سيدى " لكن فى مواضع أخرى من حولية الدمرداشى وفى المصادر المملوكية ترتبط كلمة " سيد " بالتكريم (master) [٦١] ، ومن ناحية التسلسل الزمنى من الممكن أن يكون البيك إسماعيل سيدًا " master " للحاج بشير ، رغم أن الأغا حسن بلفية هو المرشح " لهذه السيادة " بشكل أكثر معقولية ، وعلى أية حال فربما كان الأمر الأكثر أهمية أنه أشار إلى أن طبيعة العلاقة التى تعنى علاقة السيد بالعبد هى حقيقة أن مؤرخًا محليًا كالدمرداشى قد أدرك تدخل كبير الخصيان السود فى أمور مصر وارتباطه ببعض الفرق Faction المحلية – هى فى هذه الحال المجموعة البلفية .

وفكرة أنّ تولى التزام قرى الأوقاف تعنى سلطة ونفوذًا فى الإقليم الذى تقع فيه هذه القرى فكرة لقيت تأييدًا فى الكتابات التى ظهرت بعد ذلك (١٧٤٦ – ١٧٤٧م) والتى تناولت " الفائض " الذى تراكم لدى الأغا الحاج بشير من عدد من قرى أوقاف الحرمين بمصر ، وثلاث من هذه القرى سُلِّمت كالتزامات لعدد من النبلاء المحلِّيين : شعشاع فى المنوفية للكخيا العزبانى رضوان الجلفى ، وبشبيش فى الغربية للجاويش الإنكشارى عبد الرحمن القازدغلى ، وكلا الباب Kila al- Bab فى الغربية لأمير الحاج السّابق البيك عمر قطامش [٦٢] ، والمصطلح الذى كان يستخدم فى إسناد القرية لشخص ما هو " عُهدة فلان " وهى عبارة تعنى ببساطة أن القرية موضوع الحديث أصبحت التزامًا للشخص المذكور ، والقرى " العهدة " المدرجة فى هذه الرواية كلها لأشخاص من الزمرة الفقارية بعد طرد البيك عثمان ذى الفقار ، لقد أصبحوا زعماء لزمرة القازدغلية وحلفائهم الجلفية والقطامشة . وإذا افتراضنا أن هذه القرى "العُهَد" (بضم العين وفتح الهاء Uhdecis) كانت تنعم بدعم الأغا الحاج بشير ، يكون فى ذلك شاهد على أن الزمرة القازدغلية وحلفاءها قد حلّت محل بيت house ذى الفقار برضا ضمنى على الأقل من كبير الخصيان السود .

ومسألة الموافقة الضمنية أو الرضا الضمنى وثيقة الصلة بالطبيعة المتغيرة للعلاقة بين ماهو إمبراطورىّ وماهو محلّى خلال القرنين ١٧ و ١٨ ، وخلال أواخر القرن ١٧ أخذ الأغا يوسف كبير الخصيان السود المبادرة بتجميع الأتباع فى مصر فكوّن بذلك قاعدة سلطة على المستوى المحلىّ ، ويبدو من المنطقىّ أن نفترض أن الأغا الحاج بشير القوى اتبع المسلك نفسه من حيث تجميع الأتباع فى المكان الذى هو فيه ، بشكل مستفز ، ويبدو أن الزمرة الجلفية كانت أكثر الزمر التى نتجت عن جهوده تماسكًا ، ومع هذا فافتراض أن الأغا بشير كان تابعًا للبيك إسماعيل الدفتردار يضع طبيعة هذا النشاط موضع تساؤل ، فإذا كان كبير الخصيان السود المُبعد (بضم الميم وفتح العين) يمكن أن يجنّد القوى البشرية فى زمرته ويختار من النبلاء المحليين من يضمهم إليها فهل كان يمكن أيضًا أن يتم تجنيد كبير الخصيان أو اختياره ؟ يمكن للمرء أن يتوقع أن يصبح نبلاء محليون أكثر ميلاً للتعامل مع خصيان البلاط الإمبراطورىّ سواء كانوا مُبعدين أم لا .

هذه الاعتبارات قد تساعدنا على توضيح ظهور خصىّ البلاط فى سجل ممتلكات الكخيا عثمان الفازدغلى ، الأمير (النبيل) الذى صنع " made " من الزمرة القازدغلية قوّة محلّية هائلة ، وقائمة ممتلكات الكخيا عثمان المحفوظة فى أرشيف محكمة القاهرة الشرعية تضم قائمة بأتباعة (توابعه his twábi) ، والتاسع من هؤلاء " التوابع " شخص اسمه بشير ، أغا دار السعادة [٦٣] ، والمصطلح أغا دار السعادة يشير على نحو خاص إلى خصيان الحريم السلطانى فى إستانبول ، ويستخدم تباعًا ليعنى كبير الخصيان السود ، وإشارة خصى من خصيان الحريم فى هذا السجل يبدو مثيراً للدهشة تمامًا ما دام الأمير أو النبيل المحلّى كان أقرب بكثير لأن يكون تابعًا للخصى (وليس العكس) ، كما رأينا فيما ذكرناه آنفًا ، والأكثر من هذا أيمكن أن يكون هذا الأغا بشير واحداً من خمسة يحملون الاسم والرتبة نفسهما (الأغا بشير) كان كل واحد منهما كبيراً للخصيان السود فى القرن الثامن عشر؟ ويبدو أن اثنين فقط من هؤلاء الخمسة يمكن اعتبارهما من زمرة الكخيا عثمان : الحاج بشير (١٧١٧ - ١٧٤٦م) وبشير الثالث (١٧٥٢ - ١٧٥٥م) .

ولم يستقر الحاج بشير فى القاهرة سوى فترة قصيرة : ما بين إبعاده إلى قبرص وتعيينه شيخًا للحرم النبوى فى المدينة وفى طريق عودته إلى إستانبول ليبدأ عمله ككبير للخصيان السود في البلاط ، ومع هذا فمن المؤكد أنه كوّن علاقات قوية فى مصر ربما يكون قد كونها أثناء السنوات الأربع التى قضاها فى المدينة (١٧١٣ - ١٧١٧م) ويمتدح الجبرتى الحاج بشير بأن عزا إليه تأسيس الزمرة الجلفية ، ويلمح الدمرداشى إلى أنه من زمرة البيك إسماعيل الدفتردار ، ولكن البيك إسماعيل كان قد مات منذ عدة سنوات [٦٤] قبيل وصول الحاج بشير إلى مصر ، وإن كانت زمرته (أى زمرة البيك إسماعيل) قد استمرت (بعد موته) مزدهرة ، وفى هذه الأثناء لم تكن زمرة الكخيا عثمان القازدغلى قد انتهت إليه حتى العقد الثانى (١٧٢٠ - ١٧٢٩) ، وفى هذا الوقت كان الحاج بشير قد اختفى فى إستانبول (منهمكًا فى عمله ككبير للخصيان السوّد) .

أما بشير الثانى أو مورالى Morali بشير (١٧٤٦ - ١٧٥٢) فقد تم إعدامه حتى قبل أن يرى مصر [٦٥] ، وخلفه الذى سنطلق عليه تسهيلاً اسم بشير الثالث أصبح كبيراً للخصيان السود فى سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥٢م فى إستانبول ثم خُلِع وتم إبعاده إلى مصر فى سنة ١١٦٨ هـ / ١٧٥٥م ، وبحلول هذا العام كان الكخيا عثمان القازدغلى قد مات منذ حوالى عشرين سنة ، من الواضح إذن أنه لا بشير الثالث ولا الحاج بشير كانا من الأتباع الخصيان للكخيا عثمان . وعلى أيه حال فإذا دخل أى من هؤلاء الذين يحملون الاسم (الأغا بشير) إحدى الزمر فى مصر قبل أن ينضم إلى مجموعة الخصيان فى البلاط فإن الفكرة (المشروع) تصبح أكثر معقولية من الناحية الظاهرية ، فالخصيان - تقليديًا - كان يُحضرهم للسلطان العثمانى والى مصر الذى كان يشتريهم من أسواق الرقيق بالقاهرة بعد أن يكون قد تم شحنهم من سنار ودارفور ، وبعد أن يقوم اختصاصيون أقباط بإخصائهم فى صعيد مصر [٦٦] ، وكان الوالى يختار الخصيان لنفسه من القافلة نفسها التى يرسل منها الخصيان إلى السلطان العثمانى ، وبالنسبة لخصيان الحريم كان لابد أن يتدربوا فى دار الوالى قبل نقلهم للحريم السلطانى ، وكان النبلاء فى مصر - بالتأكيد - يختارون الخصيان من هذا الطريق نفسه ، وكانوا ولا شك يهدون بعضاً من خصيان زمرهم للقصر السلطانى كلما ترقوا فى الرتب وفى السلك الوظيفى .

وإذا قبلنا فكرة أن الأغا بشير الثالث انضم إلى زمرة الكخيا عثمان القازدغلى فى الفترة ما بين استرقاقه والتحاقه بالخدمة فى القصر السلطانى ، فإن هذا الأمر يكون مقبولاً ، وعندما أصبح بشير الثالث كبيراً للخصيان السود فى سنة ١٧٥٢م . فربما كان سنه – على الأقل – ستين عاما ، وكان من الطبيعى أن يعنى هذا المنصب خدمة طويلة فى الحريم السلطانى : ومعظم كبار الخصيان السود تولوا المنصب فى أواخر حياتهم ، وكانوا يظلون فيه فترة تتراوح ما بين عام وخمسة أعوام ، وسرعان ما كانوا يموتون بعد عزلهم ، وطالما أن معظمهم كان يتم إخصاؤهم قبل البلوغ أو عنده فيمكننا أن نحسب أن استرقاق بشير الثالث جرى قبل فترة تتروح ما بين أربعين وخمسين عاما قبل تعيينه كبيراً للخصيان السّود ، وعلى هذا فلابد أنه انضم إلى زمرة الكخيا عثمان بعد سنة ١٧٠٢م . بقليل ، وقبل تعيينه فى القصر السلطانى للمرة الأولى قبل سنة ١٧٢٠م . بقليل [٦٧] ، وكان الكخيا عثمان فى ذروة سلطانه فى العقد الثانى (١٧٢٠ – ١٧٢٩) وبواكير العقد الثالث (١٧٣٠ – ؟) وكان – كما هو مفترض – قد كوّن لنفسه حاشيه قبل وفاة حاميه الكخيا حسن فى سنة ١٧١٦م ، وعلى هذا فيبدو أنه من الممكن (من حيث التتابع الزمنى على الأقل) أنه قد ضمّ بشير أغا الثالث لزمرته خلال هذه الأعوام .

فإذا كان بشير الثالث هو فعلا كبير الخصيان السود الإمبراطوريين الذى ظهر اسمه فى سجل وراثة الكخيا عثمان ، فلا شك إذن أن انتسابه يعطيه الأساس الذى يبنى عليه عندما عاد للقاهرة عند عزله فى سنة ١٧٥٥م ، وربما يساعدنا هذا الارتباط على فهم ما ورد فى كتاب " وصف مصر " الذى أعدته القوات الفرنسية المحتلة ، عن منزل فى الأزبكية خاص بالأغا بشير ، ووفقا لما ذكره أندريه رايموند Raymond فهذا المنزل قد تم إنشاؤه فى الفترة من ١٧٥٥ إلى ١٧٩٨م (الحملة الفرنسية على مصر) [٦٨] .

وهذا المنزل المُقام فى الأزبكية يصبح على نحو خاص مثيراً للجدل عندما نستدعى للذاكرة منزل الأغا يوسف فى سويقة عصفور الذى ورثه يوسف من حاميه الأغا تاز (طاظ) ياتور على وانتقل بعد ذلك لماليك (مماليك يوسف) ، فهذا المنزل – يبدو أنه

كان المقر الفعلى لكبير الخصيان السود المُبعد ووكلائه وأتباعه ، وربما كان منزل الأغا بشير فى الأزبكية – على النحو نفسه – قد تم إنشاؤه لتحقيق هذا الغرض نفسه ، أى كقاعدة جديدة للخصيان المُبْعَدين ، وممثلاً لانتقال مركز إقامة النخبة ، ومن ثم يمثل قوة سياسية لما هو كائن غرب الأزبكية ، وأكثر من هذا فقد كانت الأزبكية موقعًا ملائمًا لمثل هذه المراكز القيادية ؛ فقد كان منزل الأغا بشير بالقرب من منزل راعيه الظاهرى الكخيا عثمان القازدغلى وبالقرب من منزل حلفاء عثمان من التجار الشرايبية ذوى النفوذ ، وأكثر من هذا فقد كان المنزل محاطًا بمقار إقامة أكثر نبلاء القازدغلية فى أواخر القرن الثامن عشر خاصة البيك إبراهيم ، والبيك مراد ، والبيك إسماعيل الذين حكموا القاهرة خلال العقدين الثامن والتاسع (١٧٨٠ – ١٧٩٩) ، هذا التجمع أحال الأزبكية – بالفعل – إلى بحيرة قازدغلية .

كل هذه الاعتبارات تساعدنا فى توضيح العلاقات بين الكخيا إبراهيم القازدغلى وكبار الخصيان السود ، لقد وصل الكخيا إبراهيم إلى السلطة على أنقاض الأغا الحاج بشير ؛ ذلك أن موت الخصىّ العجوز عجل بسقوط مجموعة قطامش ، وإبعاد الكخيا عبد الرحمن القازدغلى فى الوقت نفسه ، وتشير الأدلة فى هذه الظروف إلى أن صعود الكخيا إبراهيم لم يكن ممكنًا إلا بتعاونه مع أخلاف الأغا الحاج بشير : الأغا مورالى بشير (١٧٤٦ – ١٧٥٢م) ، والأغا بشير الثالث (١٧٥٢ – ١٧٥٥م) ، والأهم الأغا أبو كف أحمد (١٧٥٥ – ١٧٥٨م) المنافس الأول للوالى راغب محمد باشا ، والحقيقة أن أبا كف أحمد استقر فى القاهرة قبل أن يصبح خازندار البلاط فى سنة ١٧٥٤م ، فقد كان إذًا حاضرًا (فى القاهرة) عندما كان الكخيا إبراهيم فى ذروة سلطانه ، وصدرت عدة أوامر سلطانية بشأن استعادة ممتلكات أبى كف بعد موته ، ويُفهم من هذه الأوامر أنه كان – إلى حد ما – يعتمد ماليًا على الكخيا إبراهيم (٦٩) ، ولذا فإن أى فضل قدمه لإبراهيم إنما كان ردًا للجميل .

وتفيد أمثلة الكخيا إبراهيم والكخيا عثمان والبيك إسماعيل الدفتردار أنّ زمرتى البلفية والقازدغلية عملتا على غرس خصيان القصر السلطانى فيهما (فى الزمرتين) ، وهذا يعنى ما هو أكثر من مجرد مجاملة كبير الخصيان السود على أمل الحصول على

التزامات قرى أوقاف الحرمين ، لقد كان هذا يعنى أيضًا ضم الخصيان الشبان فى إحدى الزمر تم تقديمهم فى وقت لاحق للقصر السلطانى ، على أمل ألا ينسى الخصى هذا الإحسان (وعلى هذا فقد ظل الأغا الحاج بشير يتذكر إحسان البيك إسماعيل وفضله عليه) ، وقد يعنى هذا أيضًا صياغة تحالفات مع الوكلاء أو المشمولين بالرعاية من الخصيان السود الذين يمارسون مهام مناصبهم بالفعل أو الذين تم إبعادهم عنها كما فعلت البلفية مع البيك مصطفى القزلار وكما فعلت القازدغلية مع الجلفية .

لقد كانت الزمرة القازدغلية تتوقع كما توقعت البلفية قبلها أن رعاية خصى شاب يمكن أن يؤتى ثماره يومًا عندما يصبح هذا الخصى كبيرًا للخصيان السود ، ومن ثم يكون تابعًا للزمرة التى أحسنت إليه ، هذه الاتجاهات الانتهازية جعلت خصيان الحريم أعضاء فى الزمر وذوى دور فى التراث السياسى للنخبة العسكرية فى مصر ، لقد كان هؤلاء الخصيان يشكلون رباطًا دائمًا بين الزّمر المحلية والقصر السلطانى عندما يمكن أن يؤدى تدخل كبير الخصيان السود لصالح أمير طموح إلى رفعه(أى رفع هذا الأمير) إلى أعلى المناصب فى مصر وأكثرها ربحية ، وعند أى مواجهة مع الوالى العثمانى فى مصر أو الصدر الأعظم (رئيس الوزراء فى إستانبول) يمكن أن يكون كبير الخصيان السود حليفًا قويًا يمكن الاعتماد عليه ، وفى الفترة من ١٦٧٨ إلى ١٧٥٤ – مع استثناءات قليلة – كانت الجماعة التى تحظى بتأييد كبير الخصيان هى التى تسيطر على مصر سواء أكانوا ضباط أوجاقات أم بكوات [٧٠] .

ويجب ألا نغفل للحظة عن حقيقة أن أداة كل هذا التبادل السلطوى بين المركز (العاصمة إستانبول) والولاية ، كانت هى الزمرة ، فالخصىّ لم يكن يملك سلطانا أو نفوذًا لمجرد أنه خصى وإنما لارتباطه بزمرة بعينها ، فالعضوية فى زمرة نافذة فى القاهرة – سواء كانت زمرة الوالى أو زمرة أخرى – كان يمكن أن تكون مدخلاً للقصر (البلاط) السلطانىّ ، وفى المقابل كان الانتماء إلى زمرة السلطان (حاشيته أو بلاطه) يمكّن كبير الخصيان السود من القبض على زمام سلطة على المستوى الإمبراطورىّ ، والنفوذ فى كلا المجالين (الإمبراطورىّ والمحلّىّ) سواء كان أثناء تولّى كبير الخصيان السود لمهام منصبه أو بعد تركه ، كان يمكنه من حماية الزمر فى مصر ، بل ويجعله يحاول بناء زمرة خاصة به لدعم نفوذه فى البلاد التى تم إبعاده فيها ، ولا شك أنه من

الخطأ أن نؤكد أن عملية الإخصاء لا تؤثر فى مقدرة المخصى على أن يكون عضواً فى المجتمع العسكرى فى مصر ، فالخصى لا يصبح بيكًا أو ضابطًا فى الأوجاقات ، وأكثر من هذا فالخصيان يواجهون شكلاً من أشكال الحواجز الراسخة عندما يشرعون فى تكوين زمر كبيرة ودائمة ، وذلك هو الهيكل العام الذى تعمل من خلاله شبكة من الرعاة والذين هم محل رعاية تلك الشبكة المتسمة بالحيوية التى ربطت النطاقين الإمبرطورىّ والمحلى ، كما ربطت العناصر المختلفة داخل النطاق المحلّى ذاته .

الهوامش

(١) انظر هذه النقاط فى :

Norman, Penzer , The Hlarim (London , 1936 reprint 1965) pp. 161-7

(2) Ozuncarsilit, Osmanli Devletinin Saray Teskilatt, pp. 173-9

(3) P. S . Girard , Description de L'EGYPT , VOL.17 : memoire sur l'ágriculture, L'industrie, et le Commerce de L'EGYPT . 2nd ed. (Paris , 1824) pp. 278 - 96. H.A.R. Gibb & Harold Bowen, Islamic Society and the West : A study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Middle East , I vol. in 2 parts (London , 1950 - 7) part I : Islamic Society in the 18 th Century, p. 305. no. 3

(4) Despité Stanford Shaw's rigorous terminological breakdown in Financial & Administrative Organization pp. 41-5, the titles seem to have been Fairly Fluid.

(5) Shaw, Financial & administrative Organization, pp. 269 - 70

وقد ضم شو أيضاً الوقف الذى أسسه أحمد الثانى ـ (١٦٩١ – ١٦٩٥) والذى لم يذكر – على أية حال – فى الحوليات أو فى مجموعة وثائق أوقاف الحرمين muhimme – والمؤلف I.H. Uzuncarsili فى مؤلفه :

Mekke-i Mükerreme Emirleri (Ankara , 1972) p. 15

يذكر فى قائمته فقط مملوكًا عتيق خاصكية ، والدشيشة الكبرى ، وكذلك الدشيشة الصغرى أو المحمدية ، والحرمين . وانظر أيضاً :

Faroqhi , Pilgrims & Sultáns pp. 80,90

(6) Mehmet Süreyya , Sicill-i Osmanli , 4 vols, in 3 (Istanbul . A.H. 1308) VOL. 3, P. 113

كل المعلومات الأساسية عن الخصيان أخذتها من هذا المصدر .

(٧) وفقًا لما ذكره شو Shaw فإن تكليفهم (الـ Keside) هو العناية بالضباط العثمانيين الذين يخدمون السلطان فى مصر :

(Financial and administrative organization , p. 202)

وعلى أية حال فقد كانت مهمة الفرقة (الكتائب) – فيما يبدو – أكثر تعقيدا ؛ فخصيان الحريم السود ضمن هذه الـ Keside كانوا قادرين على تكوين قوة مقاتلة ، وعلى هذا فكبار الخصيان السود يظهرون كعسكريين مع البكوات والأغوات والأمراء الشركس فى حملة سنة ١٦٥٩ ضد محمد بك الفقارى وفى وقت لاحق كانوا يتبعون البكوات على صهوات الجياد فى الموكب المصاحب للمحمل (الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة / مخطوط بالتركية العثمانية (Fos 169 r. 1707) .

(٨) Topkapi D 7657 (Undated بدون تاريخ)

وعن التحليل المفصل لهذه الوثيقة ، انظر :

Hathaway " The Wealth and influence of an exiled Ottoman Eunch in Egypt "

(٩) منية جعفر وشبرا بسيون فى الغربية : زفتى وميت غمر فى الشرقية ، وخراب قزاره وبهاده ومنية عاصم فى قليوب . وهذه المواقع موضحة فى : Halm , ägypten وكذلك فى : Carl Petry , The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle ages (princeton, 1981) .

(١٠) تكتب القيسارية بالسين ، وهو الشائع فى مصر كما هو واضح من وثائق الجنيزة فى مصر . انظر :

Goitein, A Mediterranean Society . vol. I p. 194

(١١) ناقش هذا الاستخدام Goitein فى :

A Mediterranean Society , vol. I . p. 187

(١٢) هذه المطابقة موضع خلاف مادامت وكالة الكتان فى بولاق قد أوقفها حافظ أحمد باشا (١٥٩١ – ١٥٩٥) لرعاية بئر (عين ماء) فى طريق الحج . انظر أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٢٣ .

(13) Goitein , A Mediterranean Society vol. 1 p. 105 Girard, Memoire , pp. 99 FF .

(١٤) ملاحظة Goitein علي بطاقة ميكرو فلمية (جامعة برينستون) تفيد أن رطبة ratba فى إحدى وثائق الجنيزة تعنى : ثوباً فضفاضاً (النص : ثوب مقصورة رطبة) .

(15) Muhimme-i Deftei 110. no 947 (1159/1698)

تؤكد أن هذه الكتب كانت جزءاً من مكتبة (كتابهين Kitabhane) وتشير هذه الوثيقة أيضاً أن والى مصر السابق إسماعيل باشا (١٦٩٤ – ٧) باع بطريق غير شرعى ممتلكات الوقف .

(١٦) انظر على سبيل المثال :

Barnette Miller , The palace School of Muhammed the Conqueror (N.Y, 1951) PP. 94 FF . Paul Rycaut , The Present State of the Ottoman Empire (London, 1668 . repint N.Y., 1971) P. 32

(١٧) كانت الحسينية وما حولها كانت المركز الرئيسى للطريقة الصوفية الخلوتية ، خاصة الجلشينية والدمرداشية وكانت ذات نفوذ كبير فى بداية العصر العثمانى ، وفى القرن الثامن عشر كان المشهد الحسينى هو مركز البيّومية التى سادت بين جزّارى الحسينية . انظر :

Ernst Bannerth " La Khalwatiyya en Egypte : Quelques aspects de La vie d'un Confrerie " MIDEO & (1964 - 6) , 1-74 . B.G. Martin, " A Short historty of the Khalwati Order of Dervishes " in Nikki R. Keddie (ed.) , Scholars , Saints , and Sufis (Berkeley , Los Angeles and London, 1972) .

(١٨) عن هذا النوع من المشاركة انظر :

Udovitch , Partnership & profit in Medieval Islam, Chapter 6 and Goitein , A Mediterranean Society vol. I. pp. ,71 FF .

وانظر أيضاً فصل ٥ ، حاشية ٣٢ .

(١٩) أحمد شلبى ، أوده ، ص ٢٩٠ .

(٢٠) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (Fo. 185) .

(٢١) انظر فصل ٣ ، وعلى النقيض نجد سجل رواتب ١٧٢٧ – ١٧٢٨ لا يورد إلاّ اثنين من توابع كبير الخصيان السود .

(٢٢) انظر فصل ٣ .

(٢٣) الحـــلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 230 r.) وأحمد شلبى ، أوده ، ص ١٩٢ ، والدمرداشى ، درة ، ص ١٧ – ١٩ ، والجبرتى ، عجائب ، مج ١ ، ص ٧٧ .

(٢٤) الحلاق وتاريخ مصر القاهرة (Fo 217 v.) .

(٢٥) يصف الدمرداشى كيف أن الأغا حسن بلفية وزوج ابنته إسماعيل بك قد توسّطا لمصطفى بك عند الوالى حسين باشا ، ليحصل مصطفى على حكم إقليم جرجا (درة ص ٥٨ – ٥٩) .

(٢٦) الدمـرداشى ، درة ص ٣٢٢ ، وانظر أيضـًا الحـلاق وتاريخ مـصـر القـاهرة (Fo 219 v.) وعن الحكر انظر :

Badr & Crecelius , " The Waqfs of Shahin Ahmad Agha " 92. no. 73

(٢٧) الحلاق وتاريخ مصر القاهرة (Fo 213 r.) .

(٢٨) وعلى نقيض ذلك أنه عندما عزل من منصبه ككبير للخصيان السود ، تمت مصادرة أملاكه بما فيها منزله فى سويقة عصفور ، وعندما وصل مبعداً إلى القاهرة استعاد وكيله فى القاهرة المنزل . انظر الحلاق ، تاريخ مصـر القاهرة ، (Fos 220 r. & 222) . أخبـار النوّاب (Fo. 40 r) وأحمـــد شلبى ، أوده ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٢٩) Muhimme - i Defteri gg. no 491 (منتصف رجب ١١٥١ / ١٦٩٠) تشير إلى مصطفى بك كوكيل للأغا يوسف ، وكوكيل للحاج الأغا بشير أصبح اسم مصطفى بك هو (المتصرِّف) وتعنى المدير لبلاد (أراضى) القـاسمى عبد الرحمن بك دلحه بعد هروب هذا الأخير إلى إستانبول طالباً وساطة الأغا الحاج بشير . انظر الدمرداشى ، درة ص ٢٩٣

Muhemmi - i Misir, vol 4 no. 8 (1139 / 1726 - 7)

Hathaway " The Role of Kislar Aghä 145

(30) Muhimme - i Misir , vol. 1 , nos 447 (1128 / 1716) 471 (1129 / 1717)

(31) Muhimme - i Misir , vol. 4 , no 514 (1145 / 1732 - 3) vol. 5. nos 44, 56 (1146 / 1733 - 4

يشير مجلد ٥ (رقم ٤٦) بشكل غريب (غير مألوف) لمحمد كوكيل خرج haric أى ممول بالمؤن للمخازن الإمبراطورية (العثمانية المركزية) . ربما يكون الناسخ قد خلط بين الآغا محمد ومحمد بك قطامش (قارن بالوثيقة رقم ١١ ، مجلد ٧)

(٣٢) عن قرى الدلتا سبع فى الغربية وواحدة فى المنصورة واثنتان فى قليوب ، وثلاث فى المنوفية ، وواحدة فى الشرقية ، وواحدة (أو اثنتان) فى البحيرة ، وعن قرى الصعيد : أربع فى البهنسا ، وواحدة (أو اثنتا فى الجيزة ، وواحدة فى الفيوم .

Topkapi D 2520 / 1-3

(٣٣) الحلاق ، تاريخ ... القاهرة (Fos v - 205 r) أخبار النوّاب (Fo 34 r.) أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٧١ . قائمة الضباط ... تشير إلى الهيمنة التى حققها بعد ذلك الباش جاويشية فى الإنكشارية والكخياوات فى العزبان .

(٣٤) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 203 v.) صهر النقيب (نقيب داماد) أى زوج ابنة نقيب الأشراف .

(٣٥) أنظر : Jane Hathaway " sultans, pashas..."

(٣٦) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 179 v.) تشير إلى كنعان أفندى تابع محمد باشا ، وقد ورد كنعان كوكيل للآغا موصلى فى قضية ملكية فى سجلات المحكمة الشرعية بالقاهرة / Top Kapi E 7900) (1080 / 1669 - 70) تشير إلى أن كنعان استولى على الممتلكات الخالصة للموصلى عند موته (أى موت الموصلى) .

(٣٧) قره قاش علي باشا سمّى (عيّن) كنعان قائمقام وهو على فراش الموت (الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة < Fo 203 v. ، وأخبار النواب < Fo 33 r. > وأحمد شلبى ، أوده ، ص ١٦٩) ومن المهم أيضًا أن نذكر أن قره قاش عليّ تم دفنه بالقرب من معلّم كنعان الخاص شيسوقار أوغلو محمد باشا .

(٣٨) بينما كان قره قاش على وزيرا كان البوستانجي إبراهيم ضمن كتائب البستانجية فى القصر السلطانى ، والبستانجية كتيبة عسكرية قريبة من السلطان . انظر :

EI , s.v. " Bostandji " by I.H. Uzuncarsılı

(39) Pococke , A description of the East, vol. 1. pp. 166 - 7

(٤٠) فى الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo 159 v.) أن الآغا الإنكشارى إبراهيم أشار إلى أنه أتى من القصر السلطانى ، وكان الآغا الإنكشارى قد عُين ناظرًا لوقف ضريح عقبة بن عامر واستعاده منه أبو نور محمد باشا (١٠٦٣-٦ / ١٦٥٣-٦) ووقفا تكية صوفية بالقرب من قدم النبى شرق القاهرة القديمة والتى بناها ملك إبراهيم باشا (١٠٧١ - ١٦٦١/٤٧ - ٤) انظر الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fos. 157 v. 189 v.) وأخبار النوّاب (Fo. 26 v.) .

(٤١) انظر الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fo. 215 r) عبد الكريم ، تاريخ و تاريخ مصر (بالتركية العثمانية) (Fo. g 6) القرى هى ماوى وتوابعها (فى الحلاق وعبد الكريم : توابع) فى الأشموتين . وبيرما وتاتيا Tataya والجمفرية فى الغربية . انظر أيضًا Topkapi E33 . وقد ورد هذا الوقف باختصار فى " أخبار النواب " (Fo. 37 v.) وأحمد شلبى (أوده ، ص ١٧٦) الذى أسماه وقف الخاصكية لأن جولنس أمة الله كانت مقربة من السلطان الحاكم (خاصّة : hasseki) .

(٤٢) انظر على سبيل المثال :

Topkapi E 33/16 , paragraph 3 Line I

وقد ورد اسم يوسف بوصفه ناظراً فى ١٠٠٨ - ١٠/١٦٩٦ - ٨ (Topkapi E 33/4 J) ١٧٠١/١١١٣ - ٢ E)
(33/22 وكناظر سابق فى ١٦٩٩/١١١١ (E 33/19) . وفى حالات أوقاف سلطانية (إمبراطورية) أخرى كان كبير الخصيان السود يشغل منصب الناظر وهو فى منصبه فى إستانبول ، وكان الأمراء المحليون يخدمون بوصفهم نظاراً محلّيين (أو متولّين جمع متولى) . وعن واجبات شيخ الحرمين انظر :

Faroqhi , Pilgrims & Sultaus, pp. 153 - 4

(٤٣) ذو الفقار :

Topkapi E 33/9 (dated 1093/1682) but Covering expenditures For 1091/1680 , E 33/14 (1094 / 1683)

إبراهيم .

E 33/23 (١١١٦ اظر تباعًا فى سنة)E 33/24 (1116) . in an 1116 addendum to E 33/22 (1113/1701-2)
Eyub has raken possession of yusul Agha Faiz

استولى أيوب على فائض الأغا يوسف ، وفى سنة ١١١٥ - ١١١٦م . من المفترض أنه كان ناظراً .

(٤٤) كان أيوب بك " تابع " درويش بك .

(٤٥) ورد أيوب أول مرة بوصفه ناظراً أثناء الصدارة العظمى لإملظ Elmas محمد باشا (١٦٩٥ - ٩٨) فى عهد مصطفى الثانى .

(٤٦) الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (بالتركية العثمانية) (Fo 226 v.) أخبار النوّاب (Fo . 42 v.) بالتركية العثمانية ، أحمد شلبى ، أوده ، ص ١٨٧ ، الجبرتى ، أخبار ، مج ١ ، ص ٧٥ . حدث هذا التغيير فى ربيع ثانى ، ١١٠٢ هـ / ديسمبر ١٦٩١ . ولا ندرى إن كان الكخيا الإنكشارى قد أوكلت إليه نظارة وقف المحمدية فى هذا الوقت أم بعده .

(٤٧) الدمرداشى ، درة ، ص ١٢ - ١٣ . الجبرتى ، مج ١ ، ص ٢٣٠ . الحلاق ، تاريخ مصر القاهرة (Fos 225 ff) . أخبار النوّاب (Fos 38 v. ff.) أحمد شلبى ، أوده ، ١٨٢ ، عبد الكريم تاريخ مصر ، (Fos 98 r ff) .

(٤٨) (Muhimme - i Misir , vol 3, no 222 (1720 s' تعطى - على أية حال - هذا الانطباع ، وعلى أية حال فالمجلد الرابع (الوثيقة ٢٦) من هذه المجموعة نفسها تذكر الكخيا إبراهيم أفندى ناظراً لوقف الوالدة (والدة السلطان) فى الفترة ١١٣٥ - ٣٦ / ١٧٢٣ - ٤ ، رغم أنه كان متمركزاً فى جدة ، وبالتالى قد يكون المعنى أنه ناظر لوقف الوالدة فى موقعه (جدة) .

(٤٩) Topkaoi E 5211 / 22 (منتصف ذى العقدة ١١١٠ / يونية ١٦٩٩م) .

(٥٠) عن إصلاحات حسين كوبريللى ، انظر :

Lewis V. Thomas , A study of Naima, ed . Norman Itzkowitz (N.y., 1972) pp. 66 - 82

(٥١) إدارة هذا الإقليم تعنى - بلا شك - نفوذاً على منطقة بدوية ، وربما يفسّر هذا تسمية الأغا حسن - أحيانًا - " بشيخ نصف سعد " إشارة إلى فريق البدو المتحالف مع الفقارية . انظر : الدمرداشى ، درة ، ص ١٢ .

(٥٢) زوج ابنة الأغا حسن (ونعنى به : إسماعيل بك) الذى شغل منصب الدفتردارية لسنوات طويلة ، يعد مثالاً واضحًا . لقد سبق تحالف إسماعيل مع حسن ، صعوده - أى صعود إسماعيل - السلطة ، لأن حسن رقاه من أغا إلى بك .

(53) Maliyeden Müdevver 1350 (1134 - 5)

(٥٤) انظر : Hathaway " The Role of Kizlar Agasi " 154-7

(٥٥) عن ممارسة " الحماية " انظر : Raymond , Arttsans et Commercants vol. 2 , pp. 688 - 92
Raymond, Soldiers in Trade " 18, 22

وعن دور الإنكشارية فى الجمـارك ، انظر : Raymond, Artisans et Commercants , vol. 2 , pp. 618 - 28

(٥٦) انظر الفصل الرابع ، ص ٦٥ .

(٥٧) ترقى من أغا فى كتائب الشركس إلى بك فى سنة ١٧١٠ . انظر الدمرداشى ، دره ص ١٣٥

(58) Muhimme - i Misir vol . 5 . no 18 (1146 - 1733 - 4)

(٥٩) كتب رتشارد بيكوك Richard Pococke فى بواكير العقد الرابع من القرن ١٨ ، واضعًا تجمعًا شبيهًا من القرى فى ملوى بالأشمونين . انظر فصل ٧ ، حاشية ٣٠ .

(٦٠) الدمرداشى ، دره ، ص ٤٠٧

(٦١) انظر : Ayalon , L'esclavage du Mamelouk pp. 25 ff
Ayalon, Studies in al - Jabarti 275 - 6

ووفقًا لما ذكره Ayalon ، كانت كلمة (سيِّد) نادرة الاستعمال فى ظل السلطنة المملوكية ، بينما شاع استخدامها فى ظل العثمانيين .

(62) Topkapi D 2520 / 1 (1159)

(63) Tuchacherer, " Pelerinage " 159, no 10

(٦٤) مات فى سنة ١١١٩ / ١٧٠٧ وفق ما قاله الجبرتى (عجائب ، مج ١ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٦٥) عن ظروف إعدامه انظر : أحمد رسمى أفندى (Hamilet äl - Kubera) إستانبول ، المكتبة السليمانية ، مخطوط MS Esad Efendi 2258 / 1 Fos 11r ff .

(٦٦) انظر حاشية ٣ .

(٦٧) (وثائق Sicill - i Osmsni) لا تساعدنا إلاّ قليلاً لمعرفة متى وصل بشير الثالث إلى القصر لأنها نادرًا ما تذكر تواريخ مباشرة كبار الخصيان السود لأعمالهم فى القصر كما لا تذكر التواريخ التى حصلوا فيها على رتبهم .

(68) Raymond , " Essai de geographie " 73 ff .
Behrens, Abouseif, Azbakiyya & its Environs , pp. 72 - 73

(69) Mühimme-i Misir , Vol. 7, nos, 405, 411, 442, 450, 455 (1171 / 1758)

(٧٠) حدثت استثناءات خاصة فى العقد الثانى من القرن ١٨ (١٧٢٠ - ١٧٢٩) عندما كان المنافسان الرئيسيان إسماعيل بيك ابن إيواظ ، وشركس محمد بيك فى الذروة ، ومع هذا هناك بعض الأدلة على أن الأغا الحاج بشير كان يميل شيئًا ما إلى ابن إيواظ . انظر أحمد شلبى ، أوده ، ص ٣٤٤ .

الفصل التاسع

نتائج

هذه الدارسة عن أصول القازدغلية Qazdag'lis تتبعت الزمرة العسكرية منذ بداياتها الظاهرة كممجموعة من العسكر فى أحد الأفواج العثمانية إلى أن وصلت إلى مرحلة الزروة كنخبة متشابكة أصبحت هى الأثرى والأكثر نفوذًا فى مصر . فمصالح زمرة القازدغلية فى مختلف مراحل تطورها ربطة ما بين الفوج والبكرية beylicate والسلطة الأمبرطورية . لقد ربطت نفسها بحاشية أحد النبلاء الراسخين ، الذى ارتبط بدوره ارتباطًا وثيقًا بالمركز الأمبرطورى imperial Center ونعم برعاية الطواشى الأسور الرئيسى Chief Black Eunuch ، الكخيا مصطفى Káhya فأسس أتباعه الخاصين به المكوَّنين من المماليك وأيضًا من الأناضوليين الأحرار بالمولد (المولودين أحرارًا) من بين فوج الانكشارية . وكان خلفاؤه - خاصة الجاويش عثمان القازدغلى Osman Çavus al Qazdağli - قد قادوا الزمرة the household لاكمال سيطرة كتائب الانكشارية Janissary Corps حتى عندما بدأوا فى البحث عن أتباع خارج الفوج . وأكثر من هذا فإن الدلائل تشير كما رأينا إلى أن الجاويش عثمان Ósman Çavuş حافظ على روابط القازدغلية Qazdağlis بالزعيم الطواشى الأسود Chief Black Eunuch . وأخيرًا ، فإن الزمرة القازدغلية - فى ظل الكخيا إبراهيم Kâhya اخترقت البكرية beylicate . وحتى فى هذه الظروف نلاحظ وجود أدلّة تتبدّى بين الحين والحين تشير إلى استمرار الروابط القازدغلية بالزعيم الطواشى الأسود . وعلى هذا النحو زرع (أثّل) القازدغلية Qazdağli روابط فوجية (بالفوج) والبكرية والامبرطورية ، ويمكننا أن نفرو استمرارها وطول بقائها إلى نجاحها فى إقامة هذه الروابط الأنف ذكرها والاحتفاظ بها .

إن نموذج القازدغلية يظهر كيف أن سياسات مصر العثمانية المتسمة بالشدّة rough والتعثر (الفوضى) قد سارت إلى نهاية الشوط من خلال الزّمر العسكرية ، خاصة خلال أعوام عصبتي الفقارية والقاسمية وما تلاها . فعلى أيام الكخيا مصطفى القازدغلية al- Qazdağli والأغا حسن بيلينمية Bilifya كانتى الولاءات للقصبة Faction وإلى حد ما للرتبة rank قد خففّت من حدة التنافس بين الزّمر العسكرية الفردية على نحو ما . وعلى هذا فإن الأغا حسن وصهره (زوج ابنته) إسماعيل بك لم يفعلا سوى القليل لمواجهة مكائد تابعهم الفقارى إبراهيم بك ابن ذو الفقار . وبحلول العقود الباكرة فى القرن الثامن عشر كانت هذه الروابط (روابط الزمر) قد بلغت مرحلة الضعف (أو وبتعبير آخر اعتراها الجهد) لدرجة أن الجاويش عثمان القازدغلى Osman Cavus al Qazdağli – على سبيل المثال – قطع عُرى التضامن الفقارى Faqari بأن اتخذ جانب الحلف القاسمى Qasimi allies بزعامة محمد بك الشركى Çerkes Mehmed Bey . والكخيا إبراهيم القازدغلية ومنافسة عثمان بك ذو الفقار إذ تنافسا فى وقت لاحق على أن يفتش معاً مَزّق Shreds العصبة الفقارية . ورغم أن العصبتين (الفرقتين) الكبيرتين كانتا تتكونان من زُمر عسكرية ، فإن المنافسات بينهما كان يمكن أن تدمّرها ، وبالتالى تسهم فى زوالها .

وفى السنوات التى ضعفت فيها التقسيمات التقليدية أصبحت الزمرة أداه للسياسات المحلية بل وإطاراً تعاملت من خلاله الأمبراطورية العثمانية مع الولاية كلها . وحكاية صعود القازدغلية جعلت الوالى العثمانى يحاول تنفيذ الاستراتيجية التقليدية المتمثلة فى إغتيال الأشخاص القابضين على زمام الرياسة (المقصود رياسة الزمرة) عقابا لهم على عدم سداد المبالغ المالية المنوط بهم سدادها ، ولمصادرة ممتلكاتهم لصالح الخزانة الامبراطورية (العثمانية) من جهة أخرى . ومادام القابضون على رياسة riása فى الأيام التى خلت فيها الساحة من الفرق التقليدية كانوا بشكل عام يتركزون داخل زمرة واحدة ، فإن هذا يعنى استهداف هذه الزمرة خاصة بمعنى تركيز الوالى العثمانى (والسلطنة العثمانية) عليها . لقد سقط الجاويش عثمان القازدغلى ضحية مثل هذا المشروع الذى كان أغلب ضحاياه من زمرة قطامشى التى سيطرت فى وقت من الأوقات على " الرياسة " بمعنى أن الرياسة كانت فى يد أفرادها . ويعد أقل

من عقد لعب الكخيا إبراهيم القازدغى على وتر اهتمام الحكومة بالعوائد المالية التى يقبض على زمامها الماسكون بزمام الرياسة من أتباع عثمان بيك ذو الفقار ليضمن لنفسه السيطرة الفعلية على أمور مصر . لقد وضع إبراهيم نفسه فى موضع المسئول عن التحويلات المالية للسلطنة العثمانية باعتباره رجلها فى مصر . وأدى سخط الحكومة على زمرة (ذو) الفقار إلى ارتفاع شأن الزمرة القازدغلية .

وأكثر من هذا فإن هذه الأمثلة على تلاعب الدولة العثمانية بالرياسة (المقصود رياسة الزمر) تشير إلى ملمحين من ملامح تناول الحكومةالعثمانية المركزية (فى استانبول) فى إحدى ولاياتها التى كانت كبرى (مصر) أى عندما كانت (أى مصر) قاعدة للتوسع العثمانى . الملمح الأول هو الوعى بأهمية الدخل المالى والعينى القدام من مصر ، فالوثائق العثمانية تعطينا انطباعًا أن تجاهل الاهتمام بأمور الإدارة فى مصر خلال هذه السنوات ناتج عن وصول المقرر السنوى المالى والعينى فى مواعيدة سواء الأموال المقرر إرسالها سنويًا إلى استانبول أو الحبوب المقرر إرسالها إلى المدينتين المقدستين (فى الحجاز) ، ونتج عن هذا أن الزمرة التى تلتزم بهذا تحظى برضى السلطان وبالتالى تحظى بالموضع المؤثر والنفوذ الفعلى فى مصر . ومن هنا فإن مسألة العوائد المالية والعينية هى أساس توقف المنافسة بين الزمر ، لإرضاء السلطان .

فعلى أيه حال نجد أن هذا يفسّر ما يبدو من تقلّب سياسة السلطان ، إذ كان يعتبر أى تأخير فى تسديد العوائد المالية والعينية تمرّدًا . وتوحى وثائق صادرة من مكتب السلطان العثمانى كيف أن عثمان بيك ذو الفقار هيًا نفسه ليكون على وفاق مع البلاط العثمانى وذلك فى ظل أحداث استثنائية . ربما كان تعامل السلطنة العثمانية – فى ذاك الوقت – مع المتكاسين فى دفع المقررات العينية مرتبطًا بعزلها للطواشية الود المخلوعين (الزعماء الخصيان السود) : بقصد التحفظ عليهم (عند نجاتهم من محاملات الاغتيال) . حقيقة أن عندما ضعف الزمرتين الفقارية والقاسمية لم يكن أمام حكومة استانبول خيار كبير سوى تبنى مثل هذه الاستراتيجية فلم تعد قادرة على تقسيم المناصب المهمة بشكل مريح بين الزمرتين ، فاضطرت لحماية زمر أخرى بديلة لتحتفظ بسيطرتها على الولاية (مصر) وفى بعض الحالات كان يمكن تحقيق قدر من

النفوذ والسطوة بدمج نبلاء (ذوى رتب أو مكانه) من مصر فى الزمـر الأمبراطـورية (العثمانية) سـواء فى استانبول أو فى الولاية (مـصـر) ذاتها . وكـان يمكن لذوى المكانة المصريين (النبلاء) من ناحيتهم ضم ضباط عثمانيين فى زمرهم التى يكوّنونها ... وكان للزعيم الخصى الأسود (الطواشى) دور بارز فى كل الأحوال . وكان هؤلاء الزعماء الخصيان السود يكونون أتباعاً Clients داخل الزمر المحلية الراسخة (المكوّنة بالفعل) كما كان يمكنهم تأسيس زمر خاصة بهم ، إلاّ أن الزمرة الجلفيّه لم ينجح معها هذا الأسلوب كثيراً . وفى هذه الأثناء كان يمكن للنبلاء المصريين ضم خصيان القصر الذين يُتوقع ترقيتهم (ذوى المستقبل الواعد) إلى زمرهموبهذه الطريقة يمكن أن تعمل الزمرة على مدّ الحماية (الداخل فيها) ، فروابط التبعية تشكل جسراً بين العاصمة العثمانية (استانبول) وعواصم الولايات . وبدا يمكن لكل الشخصيات المهمة فى العاصمة العثمانية وفى الولايات أن يسـاهموا فى مثل هذا المشروع ليكونوا ولاة أو قضاة أو موظفين بالإضافة لكونهم عسكريين حاملين لرتب عسكرية مختلفة . ومن الضـــرورى أن نركز على اســتغلال الزعيم الخصى الأســود على هــذه الصــلات (العلاقات) . وهذه الدراسة ، وفقاً لاقتناعى لا تكتفى بكشف الخطوط العريضة لتأثير الخصى الأسود فى مصر . فالخصى الأسود سواء كان مبعداً أم على رأس منصبه كان له دور حاسم فى الولاية . ومن هنا كانت الزمرة مفتاحًا لمجال عمل (نفوذ) الخصى الأسود لا فى مصر وحدها وإنما فى الأمبراطورية العثمانية بشكل عام .

الزمرة القازدغلية وثقافة النخبة العثمانية :

إذا نظرنا للزمرة فى العصر العثمانى نظرة لا تجعلها مؤسسة مملوكية خالصة (المقصود مماثلة للمؤسسات التى سادت فى العصر المملوكى فى مصر) ، وإنما بوصفها أداه مرنه (المقصود غير مغلقة) لحشد الطاقات وجمع العوائد المالية والعينية - إذا نظرنا لها هذه النظرة لم نجد مانعًا من امتداد هذا النظام (الزّمر) خارج نظام العسكرية المصرية ليشمل المصريين قاطبة بل والعثمانيين قاطبة (أى فى الولايات العثمانية الأخرى) لقد كانت الزمرة - فى الحقيقة - هى بناءً استوعب مجتمع النخبة

العثمانية . ويمكن القول أن زمر النبلاء المصريين كانت موازية لزمر النخبة العثمانية (فى استانبول) بمن فى ذلك الوالى العثمانى فى مصر بل وحتى السلطان نفسه . وعلى النحو نفسه يمكن اعتبار الزمرة مجالاً للاهتمامات المشتركة بين المسئولين العثمانيين (فى استانبول) والنخبة المصرية ، وبالنسبة للزمرة العسكرية بمختلف مظاهرها من الكتائب أو الفرق الصغيرة إلى التكوينات العسكرية المركبة فإنها كانت عى نحو دقيق استراتيجية لتكوين مجموعة ذات اهتمام مشترك لا تكف عن السعى للوصول إلى العوائد المالية والعينية والنفوذ والتقرب من السلطة العثمانية المركزية (فى استانبول) ، وربما كان الملمح المثير فى الزمرة القازدغلية يتجلى حقًا فى ضمها كل هذه هذه العناصر مما أدى لكونها أكثر الزمر قوة وتماسكًا ، فى مصر ، فى الأعوام التى تلت إنهيار الفقارية والقاسمية . وعلى هذا فقد كان قرار إبراهيم فى العمل على ترقية أتباعه إلى رتبة البكلرية فى مكّن زمرته من الهيمنة على معظم الضرائب (المربحة) التى يتم جمعها من ريف مصر . وفى الوقت نفسه أمدت استراتيجية القاضية بشراء مماليك چورچيين (من چورچيا) بقوه داعمة لزمرته كما أنه فتح المجال للوصول إلى رتبة البكلرية والرتب المؤدية إليها .

ورغم أن الزمرة القازدغلية قد تغيرت لتصبح زمرة چورچية بكلرية فى غضون أقل من جيل فلا يجب أن تعتبر الكخيا إبراهيم قد تخلّى بشكل راديكالى عن الممارسات السابقة للزمرة . فلم تكن الزمرة القازدغلية تتكوّن أبداً – على سبيل القصر – من أناضوليين أحرار بالمولد ، ولكنها منذ أيامها الأولى كانت تضم خليطًا من مماليك من مختلف الأصول (الأعراق) وأكثر من هذا فقد كان إنتهاك الكخيا إبراهيم مسبوقًا باستراتيجية مماثلة لسلفه الجاويش عثمان الذى شمل بحمايته ثلاثة كُشاف (المفرد كاشف Kashif) . وبطبيعة الحال يمكن القول بشكل عام أن التوجه إلى الهيمنة عى الضرائب الزراعية التى كانت فى تزايد مستمر ، كان ملحوظًا بين حاملى الرتب العسكرية – بشكل عام – فى العقود الأولى من القرن الثامن عشر .

وفى التحليل النهائى فإن زمرة القازدغلية كانت جسراً ربط بين البكوات وضباط الفرق الانكشارية بهيمنتها على كل من الكتائب (أو الفرق) الانكشارية من ناحية والبكوات من ناحية أخرى . وربما استوحى القازدغلية مشروعهم هذا من الزمرة

البلفية الحليفة – تلك الزمرة التى كانت تضم بكوات وضباط معًا . لقد خضعت فى النهاية كتائب الانكشارية فى سنى التسعين من القرن الثامن عشر للبكوات نتيجة المواجهة الحثيثة الوكيدة بين على بك والكخيا عبد الرحمن القازدغلية . وعلى أيه حال فإن الحاق (أو إخضاع) ضباط الانكشارية ليكونوا ضمن نطاق الزمرة القازدغلية ، كان وضعًا حظى – فيما يظهر – بالاحترام والتقدير حتى نهاية القرن الثامن عشر . فحتى العقد الأخير من القرن أو نحو ذلك ، كانوا يأتون – نمطيًا – من زمرة الكخيا إبراهيم القازدغى نفسه أكثر مما كانوا يأتون من زُمر البكوات القازدغلية السّابقين . وقد لعب هؤلاء الضباط أيضًا دور الوسيط فى حل المشكلات داخل الزمرة وفى أثناء القلاقل الاجتماعية . وبهذا المعنى ، كان دورهم يشبه دور أعضاء زمرة الجلفية فى مناسبات عديدة . وهذا يعنى أن الزمرة التابعة أو المشاركة كانت ظاهرة شائعة فى المجتمع العسكرى المصرى ، وكانت تقوم بدور مؤثر ومحدد فى الوساطة وحل المشكلات (إصدار أحكام الإدانة أو أحكام الصلح) . لهذا السبب فلا عجب إذن أن تكون العلاقة بين الكخيا إبراهيم القازدغلى ، والكخيا رضوان الجلفى تمثل شراكة رسمية غير متكافئة ، وهذا لا يعنى بالضرورة أن الزمرة الجلفية خاضعة خضوعًا مهينًا للزمرة القازدغلية ، بل العكس فقد تكون الزمرة الجلفية قد حققت مزايا من وصفها هذا . لقد أتاحت هذه الشراكة – على سبيل المثال – الفرصة للكخيا رضوان الجلفى والكخيا عبد الرحمن القازدغلى فرصة رعاية الفنون والحروف وفرصة إنشاء مبان فخمة . وعلى المدى الطويل أصحب العلاقة بين البكوية والعسكرية أكثر تعقيداً ، فلم تعد المسألة مسألة تبعية بسيطة أو حتى هيمنة فقد تم إدماج العسكريين فى زمن القازدغلية المتأخرين زمنًا فى بنية الزمرة ، ومن هنا ساد التوتر بين السنجق والأوجاق Ocok .

وأثناء تصدع البكوية حولّت الزمرة القازدغلية – إلى حد ما المجتمع العسكرى عامة – إلى كيان يسوده المماليك الجورجيين . وقد نشأ عن هذا التحول عدة قضايا تاريخية ، فمع استيراد (جَلْب) أعداد كبيرة من الجورجيين وغيرهم من القازيين لم يعد المجتمع العسكرى فى مصر – إلى حد كبير – مجتمعاً مختلطًا تتكوّن زُمره من أناضوليين أحرار بالمولد بالإضافة لمماليك من أعرق مختلفة ، وإنما أصبح أقرب

ما يكون إلى المجتمع العسكرى العثمانى فى بغداد . إلى أى مدى أخذت بغداد باستراتيجية جلب المماليك من چورجيا وإلى أى مدى استخدمها العثمانيون الچورجيين فى ولايات أخرى وفى العاصمة العثمانية نفسها ؟ هذا يحتاج إلى بحوث أكثر استفاضة . إن تكوين المجتمع العسكرى المصرى وأسلوب التجنيد المستخدم يوحى بالمقارنة مع نظام النخب العسكرية فى عدد من الولايات العثمانية العربية ، ليس بغداد فحسب وإنما أيضًا ، دمشق وتونس والجزائر (١) .

وإذا كان لنا أن نقارن بين المجتمعات العسكرية - وبالتالى الزمر العسكرية - فى مختلف المواقع ، فلابد أن تكون لدينا فكرة واضحة عن الزمرة العسكرية أو النخبة العسكرية فى الأمبراطورية العثمانية . ومادمنا نهتم ُى بحثنا هذا بمصر خاصة فقد أوردنا معلومات كثيرة عن التلقين والتدريب العسكريِّين فى السلطنة المملوكية ، وقد اهتمت زمر النخبة العثمانية بهذا ، وإن كان ديڤد أيلون Ayalon هو وحده الذى كشف الغطاء عن بعض الممارسات فى مقار البكوات ذوى الشأن ومقار الضباط ذوى الرتب العالية . أما فيما يتعلق بالزمر الأقل شأنًا فلم تحظ باهتمام كاف . وباختصار فإن الحياة فى الأوجاقات فى مصر العثمانية كانت منحطّة إلى حد كبير سواء من حيث التدريبأو الثقافة السياسية للجماعة .

وبطبيعة الحال ، فإن لنظام الزمرة بعده العالى ، فالتجمعات القائمة عى الحماية والتبعية وصلات القربى ، لتحقيق تضامن سياسى ولأغراض اقتصادية ليست قصراً على الأمبراطورية العثمانية - لكنها وُجدت - ولا تزال موجوده - فى مجتمعات كثيرة . فحقيقة أن التجمعات على هذا الأساس الآنف ذكره كانت موجودة فى فلورنسا فى العصور الوسطى ، وكانت موجودة فى جيش الاتحاد السوڤيتى السابق فى ألمانيا الشرقية (٢) تعنى أن الزمرة - كما عرّفناها هنا - قد تكون ظاهرة عرضية فى المجتمع فى مرحلة من مراحل تطوره أو بتعبير آخر فى مرحلة يكون فيها غير متكامل (متحللاً) . وبالنسبة للأمبراطورية العثمانية ، حتى مرحلة تطوير مؤسسات الدولة على النسق الحديث أثبتت سياسات الزمر أنها سياسات مؤثرة فى الفترات الأفضل طوال ثلاثمائة سنة .

الهدف الرئيسى لهذه الدراسة هو التمعن فى الاستخدام غير الدقيق لمصطلح " الزمرة المملوكية " أنه لمن المعقول أ نسأل ما إذا كانت الروح المملوكية لم يتم إجيائها طالما أن العناصر المملوكية الچورجية قد سادت بعد صعود نجم الكخيا إبراهيم . إن إنتشار الثقافة المملوكية يمكن أ يفسر إشارة الجبرتى لمعظم نبلاء (أمراء) أواخر القرن الثامن عشر بقوله أنهم مماليك ، بينما يطبق إسماعيل الخشاب المصطلح نفسه (مماليك) على كل النبلاء (الأمراء) دون فاصل زمنى ، بينما نجد أن أحمد باشا الزّار يزعم أن نبلاء مصر - أمراءها بحلول أواخر القرن الثامن عشر) كانوا بالتحديد مماليك چورچيين وليسو مجرّد مماليك عاديين [٣] وبالتالى فإن مصطلح نبيل أو أمير هو مرادف لمصطلح مملوك چورچى مُحرر (معتق) . ومن هنا سادت الروح المملوكية الچورجية المختلفة عن الروح المملوكية المختلفة سابقًا (أى الروح المملوكية التى يمثلها مماليك من أعراق مختلفة) ، وربما آتخذت هذه الروح الجديدة الروح التى سادت عى عهد السلطنة المملوكية . بهذا المعنى قد يمكننا الحديث عن إحياء مملوكى رغم أ تأكيدنا على أن المماليك (قد استعادوا) السيطرة على مصر يبدو منطوياً على مفارقة تاريخية . وأكثر من هذا فإن الثقافة المملوكية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كانت تنطوى عى الحنين إلى الوطن (حنين المملوك للمناطق التى جُلب منها) ، وكان يمكن استغلال هذا لتحقيق أغراض سياسية ، وبهذا المعنى يمكننا فهم ادعاء أسرة أفراسياب الحاكمة فى البصرة فى القرن السابع عشر نسبًا سلجوقيًا ، كما يمكننا فهم قيام اليونانيين الذين عينتهم الحكومة العثمانية ولاة على مولداڤا وڤاليشيا (الأفلاق والبغدان) فى القرن الثامن عشر - باتخاذ مراسم ذوات طابع بيزنطى [٤] .

القضايا المتعلقة بثقافة النخبة والوعى بالذات يبدو أنها اقتربت كثيراً من السطح أو طفت فوقه عند دراسة التحولات التى جرت فى المجتمع العسكرى فى مصر العثمانية . إن هذه ليست قضايا تاريخية فحسب وإنما قضايا متعلقة بفن كتابة التاريخ ، نظراً للتسوية الذى جرى على أيدى كتاب الحوليات المصريين المتأخرين زمنًا . فمسألة التغيرات فى المصطلحات العسكرية فى ظل النظام القازدغلى المتأخر زمنًا تمثل صعوبات بالغة . إن هذه الدراسة ستكشف أيضًا حقائق جديدة

عن الكتابات التاريخية عن مصر فى القرن الثامن عشر إذا أننا نخضعها الآن لإعادة الفحص .

مشكلة الكتابة التاريخية فى أواخر القرن الثامن عشر :

كما رأينا ، يبدو أن ثمة حاجزاً أقيم بين المؤرخين المصريين فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع ، ومن ناحية والأحداث التى جرت قبل أن يكتبوا بقرن أو نحوه ، ولا نقول شيئًا عن المؤرخين الذين كانوا معاصرين لهذه الأحداث السابقة . هذه الفجوة هى أكثر من كونها افتقاداً معتاداً نتيجة استخلاص النتائج من دراسة عقود قليلة بعيدة ، وإنما هى قد سببت فراغًا هائلاً ى الذاكرة أعاق الفهم . فالجبرتى وهو مؤرخ خدر واع بنفسه بذل بعض الجهود لسد هذه الفجوة بلفت الأنظار إلى كتابات الحوليين من قبله ، وباقتباسه منها . وعلى أية حالٍ فنحن لا يمكن أن نقول الشيء نفسه كاتب مثل عن إسماعيل الخشاب . فمع أن الخشاب يحظى بتقدير باعتباره جامعًا للذاكرة الشعبية (العامة) فى مصر ، فمن الواضح من حوليته أن الذاكرة الجمعية (التراكمية) التى يمثلها هى ذاكرة اختفت منها حقبة زمر الكتائب المكونة من أناضوليين أحرار بالمولد ، أو من عناصر مخلّطه تضم أناضوليين أحرار بالمولد ، وعناصر مملوكية مختلفة الأعراق ، وعندما حاول رحالة أوروبى هو ڤولنى Volney أن يستثمر هذه الذاكرة الجمعية فى تلخيص تاريخ حقبة باكرة (سابقة) استوعب ى كتاباته هذه الأفكار غير الدقيقة أو بتعبير آخر وقع فى فخ الأفكار الخاطئة . وهذه الأخطاء نفسها بل والسقطات تنتظر المؤرخ المعاصر الذى يحاول أن يستقرئ ظروف القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من ظروف وأحوال أواخر القرن الثامن عشر مع محاولة إيجاد فوارق بسيطة أو دقيقة بين الفترتين (الفترة الأولى المقصودة هى القرن السابع عشر أوائل القرن الثامن عشر ، ، والفترة الثانية المقصودة هى أواخر القرن الثامن عشر) . فإذا كانت لدى المؤرخ فكرة مسبّقة يعتبر بسببها أن مؤسسات مصر فى العصر العثمانى هى نفسها مؤسساتها فى العصر المملوكى

فسيجد أن المصادر المتأخرة زمنًا هى التى تؤيد فكرته المسبّقة هذه ، الناتجة عن دراسته لعصر سلطنة المماليك أو عن فكرته عن فترة أواخر القرن الثامن عشر فى مصر أو عن رغبته فى إتخاذ موقف وسط فى دراسة مصر . وفى هذه الحال فإن المؤرخ ومصادره يسهمان فى إحداث مفارقة تاريخية (أو تناقض تاريخى) فيما يتعلق بهذه الحقبة الباكرة (الرقرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر) .

هذه الصعوبة يمكن أن نعزوها لمصادر هذه الحقبة ، سواء كانت مصادر روائية أو غير روائية (وثائقية) . فثمة خطر فى التفسير إن عممنا ما نقرأه فى المصادر العثمانية الباكرة لنحمله يمتد صُعُداً ىُ التاريخ ليشمل المصادر المملوكية (المقصود مصادر العصر المملوكى) . وإن كان الخطأ فى التفسير فى هذه الحال يكون أدق (المقصود أقل خطراً) . وتصبح الخطورة أكثر حدّة على نحو خاص عند كتابة تاريخ مصر العثمانية مادامت المصادر العثمانية الباكرة – بلا استثناء تقريباً – أنت لإلقاء الضوء على بواكير الحقبة العثمانية ، والسلطنة المملوكية من قبلها . وهذه المصادر العثمانية الباكرة غير منشورة إلاَّ قليلاً [٥] . وإذا عدنا إلى أحمد شلبى (حلبى) بعد أن نكون قد قرأنا الجبرتى مثلاً ، فإننى لا نكون متأكدين مما إذا كانت الرتب والألعاب الواردة فى الحولية الأقدام تحمل الدلالة نفسها فى الحوليات التى أتت بعد ذلك (هل مفهوم كخيا وسرّاج وچراك وتابع هو المفهوم نفسهُ ىُ الحوليتين ؛ القديمة والحديثه) .

خطورة القويل على مصادر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تكمن فى خطأ الاعتقاد بأن ظروف أواخر القرن ١٨ تعكس ظروف القرن ١٧ وأوائل ١٨ ، بإختصار فإن ما اعتاده البعض من فرص أحوال أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ عى القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ يمكن أن يؤدى إلى تحريف فى الحقائق المتعلقة بالفترة الأسبق (القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨) . هذا التحريف مرتبط باتجاه فى المنهج التاريخى يظهر أحيانًا بين المؤرخين لفترة ما قبل العصر الحديثُ ىُ منطقة الشرق الأوسط . إنه اتجاه يتعامل مع الحوليات باعتبارها خلاصة واقية للحقائق أكثر من اعتبارها نصًا يمثل استراتيجية خاصة لمخاطبة فئة بعينها . ومن هنا شاع بين المؤرخين استغلال الحولية بجمع أحداث متفرقة وصفها معها لإثبات مسألة بعينها

أو شرحها [٦] . إن هذه الطريقة تؤدى إلى تسطيح التاريخ لتكون حادثة وقعت فى سنة ١٦٥٠ مماثلة لأخرى وقعت فى سنة ١٧٢٠ وثالثة وقعت ى سنة ١٧٨٠ دون التفات كثير للتطورات التاريخية الحادثة . هذه الطريقة فى توظيف الروايت التاريخية تضفى طبيعة متجانسة على كل فترة الحكم العثمانى فى مصر قبل القرن التاسع عشر . والنتيجة هى وضع الحوادث فى غير سياقها وفهم النصوص عى غير معناها ، بل ويؤدى هذا إلى اساءة فهم الوثائق الأرشيفية ذاتها .

هذا الخروج عن السياق التاريخى يشجع المؤرخين على التعامل مع حوالى ثلاثمائة سنة بين فتح سليم لمصر وغزو بونابرت لها على إنها حقبة واحدة لم يحدث خلالها سوى القليل من التطورات المؤسسية ى المجتمع العسكرى المصرى ، وبالتالى يؤكدون على أن العسكر العثمانيين دمّروا هذا المجتمع إلى درجة كبيرة ، وفى الوقت نفسه لم يُغيروا طبيعته المملوكية الموروثة .

وعلى هذا فعندما ساد البكوات المماليك فى نهاية القرن الثامن عشر كان من الطبيعى اعتبار عودتهم إحياء للسلطنة المملوكية التى قُضى عليها منذ فترة طويلة . هذه الفكرة جعلت الباحثين يأخذون عن ابن إياس (فى أواخر العصر المملوكى) وعن الجبرتى بعد ذلك ، دون تمعّن فى الفترة التى تفصل بينهما .

لقد ظهر أكثر فأكثر مزيد من المصادر الروائية والأرشيفية التى تتناول الحقبة الوسطى من الحكم العثمانى فى مصر ، وأصبحت المعروفة مجالاً للفحص والتحقيق والتدقيق على نحو أعمق ، فوجب علينا نحن المؤرخين أن نطور بحوثنا بشكل غير منحاز للعصر المملوكى أو لعصر أواخر الحكم العثمانى . هذا لا يعنى إهمال المصادر التاريخية العائدة لهاتين الحقبتين مادامت هذه المصادر تمثل حلقة وصل لما قبلها وما بعدها فحولية الجبرتى خاصة ، كُتبت بوضوح وذكاء لذا فهى يمكن أن توضح التعتيم . والتشويش فى الحوليات السابقة . لكن استخدام هذه المصادر الباكرة والمتأخرة لا يعنى أخذ كل ما فيها برمتّه جملة وتفصيلاً . إن التحدى الذى يجب أن يواجهه المؤرخون هو أن يكونوا دائمًا واعين بأننا نكتب عن مجتمع دينامى (متحرك) لابد أن تتغير مؤسساته سواء بفعل تغيير تركيبها أو بفعل التطور التدريجى .

والزمرة القازدغلية مثال على ذلك ، فقد تغيرت خلال مجتمع النخبة فى مصر من هيمنة أو جافية فى أواخر القرن ١٧ إلى هيمنة بكوية فى أواخر القرن ١٨ ، وزامن هذا تطور الزمرة القازدغلية من زمرة انكشارية خالصة إلى الزمرة بكوية . وبهذا المعنى فالقازدغلية تمثل شيئًا أكبر من تطور زمرة فى المجتمع العسكرى المصرى العثمانى . إنها صورة مصغّرة منه .

الهوامش

(١) على أية حال فإن بغداد والجزائر تقدمان – على نحو خاص أمثلة شائعة مادامـا يمثلان طرفين متباعدين تقع مصر بينهما : مجتمع يسوده المماليك الجورجيون ومجتمع يسوده الانكشارية الأناضوليـون وعلى أية حال ، فإن كليهما كانا ولايتين حدوديتين تتمتعان ظاهريا بالحكم الذاتى ، وليسا مثل مصر تسيطر عليها الدولة العثمانية مركزيا . وقد مثلت تونس فى القرن الثامن عشر مجتمعًا عسكريًا مخلّطًا قريب الشبه من المجتمع العسكرى المصرى خلال أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . انظر على سبيل المثال : Brown , Ahmad Bey , Chaptér 2 .

(٢) أنظر حواشي الفصل الثانى .

(3) Piterberg " Formation of an Ottoman Egyptian Elite " 282 & n. 41, quoting Ahmad Pasha (Cezzar) , Ottoman Egyptin the Eighteenth Century : the Nizamname-i Misr of Cezzar Ahmad Pasha (ed.) and trans. Stanford J. Shaw (Cambridge, MA, 1962) .

(٤) عن الأفراسياب أنظر : Holt , Egypt and the Fertile Crescent, p. 134 وعن الفاناتريوت أنظر : William H. Mc Neill, Europe's steppe Frontier 1500-1800 (Chicago & London, 1964) PP. 107-10, 173-6 أقوم بدراسة عن هذا الاستخدام السياسى للحنين إلى الوطن (النوستالجيا nostalgia) .

(٥) عالج الدكتور عبد الرحيم هذه المسألة وكذلك دانيل كريسيليوس Crecelius وعبد الوهاب بكر بنشرهم حوليات تعود لفترة أسبق .

(٦) تلك هى بالضبط طريقة أيلون فى كتابة " دراسـات فى الجبرتى " ولم يستخـدم ونتر Winter المصطلح بهذا الشكل الفج . انظر كتاب ونتر : Turks, Arabs & Mamluks II 7 FF .

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق :

Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Maliyeden Müdevver 287, 1350, 2641, 3109, 3678, 4414, 4465, 4787, 4848, 5593, 6783, 6787, 7069, 17764. Military salary registers, land revenue registers, 1077–1159/1666–1746.

Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, Mühimme Defterleri nos. 6, 29, 89–115, 984–1120/1576–1708.

Istanbul, Başbakanlık Osmanlı Arşivi, *Mühimme-i Mısır*, vols. I–VII, 1119–1174/1707–1761.

Istanbul, Topkapı Palace Archives, D 1943: 2520/1–5; 2543; 2983; 2984; 3090; 3887/1, 3; 4641; 5223/1; 5599; 5698; 5909; 6946; 7187; 7244/2; 7450/1–3; 7488; 7657; 7662; 9701; E 33/9, 14, 16, 22–24, 31, 37; 578; 1648/1–2; 1709; 2066; 2519; 2742; 4787; 5207/67; 5211/22; 5215/27–28; 5638; 6746/1–2; 7832/1–5; 7900; 7901/3; 8616/13–15, 22, 56–58; 9183/1–2; 11264; 11648. Accounts and *fermans* relating to the Chief Black Eunuch and the *Awqāf al-Ḥaramayn*, *fermans* relating to Ragıb Pasha and to Bulut Kapan ʻAli Bey, lists of aghas and beys, 1031–1203/1622–1789.

المصادر الروائية الأساسية والرحلات :

ʻAbdülkerim b. ʻAbdurrahman, *Tārīḫ-i Mıṣır*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Hekimoğlu Alī Paşa 705.

Ahmad Çelebi b. ʻAbd al-Ghani, *Awḍaḥ al-ishārāt fī man tawalla Miṣr al-Qāhira min al-wuzarāʼ wa al-bāshāt*, ed. A. A. ʻAbd al-Rahim, Cairo, 1978.

Ahmed Pasha (Cezzar), *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century: The Nizāmnāme-i Mısır of Cezzar Ahmed Pasha*, ed. and trans. Stanford J. Shaw, Cambridge, MA, 1962.

Ahmed Resmī Efendi, *Ḥalīfet ül-ruʼasāʼ*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Halet Efendi 597/1.

Ḥamīlet ül-küberāʼ, Istanbul, Süleymaniye Library, MS Halet Efendi 597/2, MS Esad Efendi 2258/I.

Anonymous, *Akhbār al-nuwwāb min dawlat Āl ʻUthmān min ḥīn istawla ʻalayhā al-*[illegible]*ān*, Istanbul, [illegible] Library, MS Hazine 1623.

Anonymous, *Nisba sharīfa wa risāla muṭīfa tashtamal ʻala dhikr nasab al-Jarakisa min Quraysh*, Princeton University Library, Garrett Manuscript Collection, MS 186H.

Al-Damurdāshī, Ahmad Katkhuda ʻAzaban, *Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt, 1688–1737: Al-durra al-muṣāna fī akhbār al-kināna*, ed. and trans. ʻAbd al-Wahhab Bakr and Daniel Crecelius, Leiden, 1991.

Al-durra al-muṣāna fī akhbār al-kināna, London, British Museum, MS Or. 1073–4.

Evliya Çelebi, *Evliya Çelebi Seyahatnamesi*, ed. Ahmed Cevdet, 10 vols., Istanbul, 1888–1938.

Narrative of Travels in Europe, Asia, and Africa, trans. Josef von Hammer-Purgstall, London, 1834.

Girard, P. S., *Mémoire sur l'agriculture, l'industrie, et le commerce de l'Egypte, Description de l'Egypte*, vol. XVII, compiled by the Commission des Monuments de l'Egypte (France), 2nd ed., Paris, 1824.

Al-Hallaq, Mehmed b. Yusuf, *Tārīḫ-i Mışır-ı Ḳāhire*, Istanbul University Library, T.Y. 628.

Ibn Abi al-Surur, Shams al-Din Muhammad al-Bakri al-Siddiqi, *Al-rawḍa al-zahiyya fī wulāt Miṣr wa al-Qāhira*, abridgement of *Al-kawākib al-sā'ira fī akhbār Miṣr wa al-Qāhira*, Cairo, Dar al-Kutub Manuscripts Division, Microfilm No. 1640, unpaginated.

Ibn Battuta, 'Abdallah Muhammad b. Ibrahim, *Riḥla Ibn Baṭṭūṭa*, introduction by Karam al-Bustani, Beirut, 1964.

Ibn Iyas, Muhammad b. Ahmad, *An Account of the Ottoman Conquest of Egypt in the Year A.H. 922 (A.D. 1516)*, trans. W. H. Salmon, London, 1921.

Badā'i' al-zuhūr fī waqā'i' al-duhūr, Cairo, 1920.

Journal d'un bourgeois du Caire, trans. Gaston Wiet, 2 vols., Paris, 1955.

Al-Ishaqi, Muhammad 'Abd al-Mu'ti, *Kitāb akhbār al-uwal fī man taṣarrafa fī Miṣr min arbāb al-duwal*, Cairo, 1887.

Al-Jabarti, 'Abd al-Rahman b. Hasan, *'Ajā'ib al-athār fī al-tarājim wa al-akhbār*, 7 vols., Cairo, 1958–67.

Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française, 1798–1801, trans. Joseph Cuoq, Paris, 1979.

Kâtib Çelebi, *Kashf al-ẓunūn 'an asāmi al-kutub wa al-funūn*, 3 vols., Tehran, 1967.

Al-Khashshab, Ismail, *Tadhkira li-ahl al-baṣā'ir wa al-abṣār ma' wajh al-ikhtiṣār*, Paris, Bibliothèque Nationale, MS Arabe 1858.

Lane, Edward W., *Cairo Fifty Years Ago*, ed. Stanley Lane-Poole, London, 1896.

Manners and Customs of the Modern Egyptians, introduction by M. Saad el-Din, 2 vols., London, 1908; repr. 1954.

Al-Mawza'i, Shams al-Din 'Abd al-Samad, *Dukhūl al-'uthmāniyyīn al-awwal ila al-Yaman*, ed. 'Abdallah Muhammad al-Habashi, Beirut, 1986.

Mustafa 'Ali, *Mustafa 'Ali's Description of Cairo of 1599*, ed. and trans. Andreas Tietze, Vienna, 1975.

Peçevi, Ibrahim, *Tārīḫ-i Peçevi*, 2 vols. in 1, Istanbul, 1865–7.

Pococke, Richard, *A Description of the East and Some Other Countries*, 2 vols., London, 1743.

Travels of Richard Pococke, LL.D., F.R.S., through Egypt, Interspersed with Marks and Observations by Captain Norden, Philadelphia, 1803.

Al-Qinali, al-Hajj Mustafa b. al-Hajj Ibrahim, *Ta'rīkh waqā'i' Miṣr al-Qāhira. Kināna-ismuhu ta'āla fī arḍihi min 'azlān al-sulṭān Muḥammad Khān wa al-sulṭān Maḥmūd Khān*, Cairo, Dar al-Kutub Manuscripts Division, Microfilm No. 27970.

Reddaway, W .F. (ed.), *Documents of Catherine the Great: The Correspondence with Voltaire and the Instruction of 1767 in the English Text of 1768*, reissue, New York, 1971.

Rycaut, Paul, *The Present State of the Ottoman Empire*, London, 1668; repr. New York, 1971.
Şemdanizade Fındıklılı Süleyman Efendi, *Şemdanizade Fındıklılı Süleyman Efendi Ta'rīhi*, ed. M. Münir Aktepe, 4 vols. in 3, Istanbul, 1976.
Al-Sharqawi, 'Abdallah, *Tuḥfat al-nāẓirīn fī man waliya Miṣr min al-wulāh wa al-salāṭīn*, printed in the margins of al-Ishaqi's *Akhbār al-uwal*, Cairo, 1887.
Volney (Constantine-François Chassebocuf), *Travels through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784, and 1785*, trans. from the French, 2 vols., London, 1805.
Yusuf Efendi, *Tārīḫ-i Mıṣır*, Istanbul, Süleymaniye Library, MS.Esad Efendi 2148.

المصادر الثانوية

'Abd al-Rahim, A. A., *Al-rīf al-miṣrī fī al-qarn al-thāmin 'ashar*, Cairo, 1974.
"Yusuf al-Mallawani's *Tuḥfat al-aḥbāb* and Ahmad Shalabi ibn 'Abd al-Ghani's *Awḍaḥ al-ishārāt*," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
Abou-el-Hajj, Rifaat A., "The Ottoman Vezir and Paşa Households, 1683–1703: A Preliminary Report," *JAOS* 94 (1974), 438–47.
Abu Husayn, Abdul-Rahim, "The *Iltizām* of Mansur Furaykh: A Case Study of *Iltizām* in Sixteenth-Century Syria," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.
Abu-Lughod, Janet L., *Cairo: 1001 Years of the City Victorious*, Princeton, 1971.
Allen, W. E. D., *A History of the Georgian People*, London, 1932; reissued 1971.
Ayalon, David, "Aspects of the Mamluk Phenomenon," parts 1–2, *Der Islam* 53 (1976), 196–225; 54 (1977), 1–32.
"The Circassians in the Mamluk Kingdom," *JAOS* 49 (1949), 135–47.
"Discharges from Service, Banishments, and Imprisonments in Mamluk Society," *Israel Oriental Studies* 2 (1972), 25–50.
"The End of the Mamluk Sultanate (Why Did the Ottomans Spare the Mamluks of Egypt and Wipe Out the Mamluks of Syria?)," *SI* 65 (1987), 125–48.
L'esclavage du mamelouk, Jerusalem, 1951.
"The Eunuchs in the Mamluk Sultanate," in Myriam Rosen-Ayalon (ed.), *Studies in Memory of Gaston Wiet*, Jerusalem, 1977.
"Furūsiyya Exercises and Games in the Mamluk Sultanate," *Scripta Hierosolymitana* 9 (1961), 31–62.
Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom: A Challenge to Medieval Society, London, 1956.
"The Historian al-Jabarti," in Bernard Lewis and P.M. Holt (eds.), *Historians of the Middle East*, Historical Writing on the Peoples of Asia, vol. IV, London, 1962.
"The Historian al-Jabarti and His Background," *BSOAS* 23 (1960), 217–49.
"Mamluk," *EI*².
"Names, Titles, and *Nisbas* of the Mamluks," *Israel Oriental Studies* 5 (1975), 189–232.

"On the Eunuchs in Islam," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 1 (1979), 67–124.
"Studies in al-Jabarti I: Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans," *JESHO* 3 (1960), 148–74, 275–325.
"Studies on the Structure of the Mamluk Army," parts 1–3, *BSOAS* 15 (1953), 203–28 and 448–76; 16 (1954), 57–90.
Babinger, Franz, *Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke*, Leipzig, 1927.
Bacqué-Grammont, Jean-Louis, *Les Ottomans, les Safavides et leurs voisins*, Istanbul, 1987.
Badr, Hamza 'Abd al-'Aziz, and Daniel Crecelius, "The *Awqāf* of al-Hajj Bashir Agha in Cairo," *AI* 27 (1993), 291–311.
"The *Waqfs* of Shahin Ahmad Agha," *AI* 26 (1992), 79–115.
Baer, Gabriel, "Patrons and Clients in Ottoman Cairo," in *Mémorial Ömer Lutfi Barkan*, Paris, 1980.
"Popular Revolt in Ottoman Cairo," *Der Islam* 54 (1977), 213–42.
Studies in the Social History of Modern Egypt. Chicago, 1969.
Bakr, 'Abd al-Wahhab, "Interrelationships among the Damurdashi Group of Manuscripts," in Daniel Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.
Bannerth, Ernst, "La Khalwatiyya en Egypte: Quelques aspects de la vie d'un confrerie," *MIDEO* 8 (1964–6), 1–74.
"La Rifa'iyya en Egypte," *MIDEO* 10 (1970), 1–35.
Barbir, Karl K., "From Pasha to Efendi: The Assimilation of Ottomans into Damascene Society, 1516–1783," *International Journal of Turkish Studies* 2 (1979–80), 61–93.
Ottoman Rule in Damascus, 1708–1758. Princeton, 1980.
Barkan, Ömer Lutfi, *XV've XVIıncı asırlarda Osmanlı imparatorluğunda ziraî ekonominin hukukî ve malî esasları*, İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakultesi Yayınlarından No. 256, vol. I: *Laws*, Istanbul, 1943.
Behrens-Abouseif, Doris, *Azbakiyya and Its Environs: From Azbak to Ismail, 1476–1879*, Cairo, 1985.
Egypt's Adjustment to Ottoman Rule: Institutions, Waqf, and Architecture in Cairo, Sixteenth and Seventeenth Centuries, Leiden, 1994.
Beldiceanu-Steinherr, Irène, "Mālikāne," *EI*[2].
Bowen, Harold, "Adjami Oghlan," *EI*[2].
Brockelmann, Karl, *Geschichte des arabischen Litteratur*, 2 vols. plus 3 supplemental vols., Leiden, 1937–49.
Brown, L. Carl, *The Tunisia of Ahmad Bey, 1837–1855*, Princeton, 1974.
Cahen, Claude, "L'évolution de l'*iqṭā'* du IXe au XIIIe siècle," in Claude Cahen, *Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Damascus, 1977.
Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071–1330, trans. J. Jones-Williams, London, 1968.
Çetin, Atilla, *Başbakanlık Arşivi Kılavuzu*, Istanbul, 1979.
Cook, J. M. *The Troad: An Archaeological and Topographical Study*, Oxford, 1973.

Cook, Michael A. (ed.), *A History of the Ottoman Empire to 1730: Chapters from the Cambridge History of Islam and the New Cambridge Modern History*, London, 1976.

Crabbs, Jack A., Jr., "Historiography and the Eighteenth Century Milieu," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.

Crecelius, Daniel, "Ahmad Shalabi ibn 'Abd al-Ghani and Ahmad Katkhuda 'Azaban al-Damurdashi: Two Sources for al-Jabarti's *'Ajā'ib al-athār fī al-tarājim wa al-akhbār*," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.

Eighteenth Century Egypt: The Arabic Manuscript Sources, Claremont, CA, 1990.

The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760–1775, Minneapolis and Chicago, 1981.

"Russia's Relations with the Mamluk Beys of Egypt in the Eighteenth Century," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Boston, 1986.

"Some Remarks on the Importance of Qusayr in the Late Eighteenth Century," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Baltimore, 1987.

The *Waqf* of Muhammad Bey Abū al-Dhahab in Historical Perspective," *IJMES* 23 (1991), 57–81.

Cuno, Kenneth M., "Egypt's Wealthy Peasantry, 1740–1820," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.

The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740–1858, Cambridge, 1992.

Dodge, Bayard, *Al-Azhar: A Millennium of Muslim Learning*, memorial ed., Washington, DC, 1974.

El-Mouelhy, Ibrahim, *Organisation et fonctionnement des institutions ottomanes en Egypte (1517–1917)*, Istanbul, 1989.

El-Nahal, Galal H., *The Judicial Administration of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century*, Minneapolis and Chicago, 1979.

El-Shayyal, Gamal el-Din, "Historiography in Egypt in the Nineteenth Century," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century, Alexandria, 1962.

"Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-Century Egypt," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

Faroqhi, Suraiya, *Pilgrims and Sultans: The Hajj under the Ottomans*, London and New York, 1994.

Fekete, Lajos, *Die Siyaqat-schrift in der türkischen Finanz Verwaltung*, 2 vols., Budapest, 1955.

Fiğlalı, E. R., "Tahtacılar," *Türk Ansiklopedisi*.

Gibb, H. A. R., and Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Middle East*, 1 vol. in 2 parts, part 1: *Islamic Society in the Eighteenth Century*, London, 1950–7.

Goitein, S. D., *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*. 5 vols., Berkeley and Los Angeles, 1967, 1971, 1978, 1983, 1988.

Gran, Peter, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760–1840*, foreword by Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Austin and London, 1979.

Halm, Heinz, *Ägypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, 2 vols., Wiesbaden, 1979.

Von Hammer-Purgstall, Josef, *Geschichte des osmanischen Reiches*. 10 vols., Pest, 1827–35.

Histoire de l'empire ottoman, trans. J.-J. Hellert, 18 vols., Paris, 1835–43.

Hathaway, Jane, "The Household of Hasan Agha Bilifya: An Assessment of Elite Politics in Seventeenth-Century Ottoman Egypt," *Turcica* 27 (1995), 135–51.

"Marriage Alliances among the Military Households of Ottoman Egypt," *AI* 29 (1995), 133–49.

"The Military Household in Ottoman Egypt," *IJMES* 27 (1995), 39–52.

"The Role of the Kızlar Ağası in Seventeenth–Eighteenth Century Ottoman Egypt, *SI* 75 (1992), 141–58.

"Sultans, Pashas, *Taqwīms*, and *Mühimmes*: A Reconsideration of Chronicle-Writing in Eighteenth Century Ottoman Egypt," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.

"The Wealth and Influence of an Exiled Ottoman Eunuch in Egypt: The *Waqf* Inventory of 'Abbas Agha," *JESHO* 37 (1994), 293–317.

Hattox, Ralph S., *Coffee and Coffeehouses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East*, Seattle and London, 1985.

Hess, Andrew, "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries, 1453–1525," *American Historical Review* 75 (1970), 1892–1919.

The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century Ibero-African Frontier, Chicago, 1978.

"The Forgotten Frontier: The Ottoman North African Provinces during the Eighteenth Century," in Naff and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.

"The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War," *IJMES* 4 (1973), 55–76.

Heyd, Uriel (ed. and trans.), *Ottoman Documents on Palestine, 1552–1615*, Oxford, 1960.

Heyworth-Dunne, J., *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt*, London, 1968.

Holt, P. M., "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," *BSOAS* 24 (1961), 214–48.

"The Career of Küchük Muhammad (1676–94)," *BSOAS* 26 (1963), 269–87.

Egypt and the Fertile Crescent, 1516–1922: A Political History, Ithaca and London, 1966.

"The Exalted Lineage of Riḍwan Bey: Some Observations on a Seventeenth Century Mamluk Genealogy," *BSOAS* 22 (1959), 221–30.

"Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt," *BSOAS* 25 (1962), 38–51.

"Mamluks," *EI*².

"Misr," *EI*².

"Ottoman Egypt (1517–1798): An Account of Arabic Historical Sources," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

"The Pattern of Egyptian Political History from 1517 to 1798," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

Holt, P. M. (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt: Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic*, London, 1968.

Inalcik, Halil, "Centralization and Decentralization in Ottoman Administration," in Naff and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.

"Gönüllü," *EI*²

"The Ottoman Decline and Its Effects upon the Reaya," in Henrik Birnbaum and Speros Vryonis, Jr. (eds.), *Aspects of the Balkans: Continuity and Change – Contributions to the International Balkan Conference Held at UCLA, October 23–28, 1969*, The Hague, 1972; repr. in Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: Conquest, Organization, and Economy*, London, 1978.

The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300–1600, trans. Norman Itzkowitz and Colin Imber, London, 1973.

Itzkowitz, Norman, "Mehmet Raghip Pasha: The Making of an Ottoman Grand Vizier," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1958.

İzbırak, R., "Uşak," *Türk Ansiklopedisi*.

Kaldy-Nagy, Gyula, "The 'Strangers' (*Ecnebiler*) in the Sixteenth Century Ottoman Military Organization," in Gyula Kara (ed.), *Between the Danube and the Caucasus*, Budapest, 1987.

Keddie, Nikki R. (ed.), *Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions since 1500*, Berkeley, Los Angeles, and London, 1972.

Khalidi, Tarif (ed.), *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*, Beirut, 1984.

Kunt, Metin, "Ethnic-Regional (*Cins*) Solidarity in the Seventeenth-Century Ottoman Establishment," *IJMES* 5 (1974), 233–9.

"The Ottoman State and the Ottoman Household," paper delivered at the Middle East Studies Association conference, Milwaukee, November 1973.

The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650, New York, 1983.

Kurtoğlu, Fevzi, *Türk Bayrağı ve Ay Yıldız*, Ankara, 1938.

Lang, David M., *The Last Years of the Georgian Monarchy, 1658–1832*, New York, 1957.

A Modern History of Soviet Georgia, New York, 1962.

Lansing, Carol. *The Florentine Magnates: Lineage and Faction in a Medieval Commune*, Princeton, 1991.

Livingston, John William. "'Ali Bey al-Kabir and the Jews," *Middle Eastern Studies* 7 (1971), 221–8.

"'Ali Bey al-Kabir and the Mamluk Resurgence in Ottoman Egypt, 1760–72," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1968.

"The Rise of Shaykh al-Balad 'Ali Bey al-Kabir: A Study in the Accuracy of the Chronicle of al-Jabarti," *BSOAS* 33 (1970), 283-94.

Marmon, Shaun E., "The Eunuchs of the Prophet: Space, Time, and Gender in Islam," Ph.D. dissertation, Princeton University, 1990.

Eunuchs and Sacred Boundaries in Islāmic Society, Oxford and New York, 1995.

Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid, *Egypt in the Reign of Muhammad 'Ali*, Cambridge, 1984.

"Survey of Egyptian Works of History," *American Historical Review* 96 (1991), 1422–34.

"The Ulama of Cairo in the Eighteenth and Nineteenth Centuries," in Keddie (ed.), *Scholars, Saints, and Sufis*.

Martin, B. G., "A Short History of the Khalwati Order of Dervishes," in Keddie (ed.), *Scholars, Saints and Sufis*.

McNeill, William H., *Europe's Steppe Frontier, 1500-1800*, Chicago and London, 1964.

Miller, Barnette, *The Palace School of Muhammad the Conqueror*, New York, 1951.

[illegible] "Al-Kvr[illegible]," [illegible]

Muhammad, Iraqi Yusuf, *Al-wujūd al-'uthmānī al-mamlūkī fī Miṣr fī al-qarn al-thāmin 'ashar wa awā'il al-qarn al-tāsi' 'ashar*, Cairo, 1985.

Naff, Thomas, and Roger Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*, Carbondale and Edwardsville, IL, 1977.

Necipoğlu-Kafadar, Gülru, *Architecture, Ceremonial, and Power: The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, New York, 1991.

"The Formation of an Ottoman Imperial Tradition: The Topkapı Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries," facsimile of a Ph.D. dissertation, Harvard University, 1986.

Nour, Riza, "L'histoire du croissant," *Revue de Turcologie* I (1933), 3–181/233–410.

Özbaran, Salih, "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf, 1534–1581," *Journal of Asian History* 6 (1972), 44–87.

Pascual, Jean-Paul, "The Janissaries and the Damascus Countryside at the Beginning of the Seventeenth Century According to the Archives of the City's Military Tribunal," in Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation*.

Peirce, Leslie P., *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, New York and Oxford, 1993.

Penzer, Norman M., *The Harem*, London, 1936; repr. 1965.

Petry, Carl, *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton, 1981.

Twilight of Majesty: The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qaytbay and Qansuh al-Ghawri in Egypt, Seattle and London, 1993.

Piterberg, Gabriel. "The Formation of an Ottoman Egyptian Elite in the Eighteenth Century," *IJMES* 22 (1990), 275–89.

Póliak, A. N., "La Féodalité islamique," *Revue des Etudes Islamiques* 1 (1936), 247–65.

"Some Notes on the Feudal System of the Mamluks," *Journal of the Royal Asiatic Society* (1937), 97–107.

Rabie, Hasanayn. *The Financial System of Egypt, A.H. 564–741/A.D. 1169–1341*. London, 1972.

"The Size and Value of the *Iqṭā'* in Egypt, 564–741/1169–1341," in Michael Cook (ed.), *Studies in the Economic History of the Middle East: From the Rise of Islam to the Present Day*, Oxford, 1970.

Rafeq, Abdul-Karim. "Changes in the Relationship Between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Centuries," in Naff and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.

"The Local Forces in Syria in the Seventeenth and Eighteenth Centuries," in V. J. Parry and Malcolm Yapp (eds.), *War, Technology and Society in the Middle East*. London and New York, 1975.

The Province of Damascus, 1723–1783, Beirut, 1966.

"Syrian Manuscript Sources for the History of Eighteenth Century Ottoman Egypt," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.

Raymond, André, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle*, 2 vols., Damascus, 1973–4.

Le Caire des Janissaires: L'Apogée de la ville ottomane sous 'Abd al-Rahman Katkhuda, Paris, 1995.

"Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIIIe siècle," *JESHO* 6 (1963), 58–103.

Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Paris, 1985.

The Great Arab Cities in the Sixteenth–Eighteenth Centuries: An Introduction, New York, 1984.

"The Opuscule of Shaykh 'Ali al-Shadhili: A Source for the History of the 1711 Crisis in Cairo," in Crecelius (ed.), *Eighteenth Century Egypt*.

"The Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns," *International Journal of Turkish Studies* 1 (1979–80), 84–101.

"La Population du Caire et de l'Egypte à l'époque ottomane et sous Muhammad 'Ali," in *Mémorial Ömer Lutfi Barkan*, Paris, 1980.

"Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

"Les Quartiers de résidence de l'élite de l'époque mamelouke à l'époque ottomane (XIV-XVIIIe siècles)," paper presented at the conference "The Mamluks in Egyptian Politics and Society," Bad Homburg, Germany, December 1994.

"Une 'Révolution' au Caire sous les Mamelouks: La Crise de 1123/1711," *AI* 6 (1966), 95–120.

"Soldiers in Trade: The Case of Ottoman Cairo." *British Society for Middle Eastern Studies Bulletin* 18 (1991), 16–37.

"Les Sources de la richesse urbaine au Caire au dix-huitième siècle," in Naff and Owen (eds.), *Studies in Eighteenth Century Islamic History*.

Scanlon, George, *A Muslim Manual of War*, Cairo, 1961.

Sertoğlu, Midhat, *Muhteva Bakımından Başvekâlet Arşivi*, Ankara, 1955.

Shaw, Stanford J., "Cairo's Archives and the History of Ottoman Egypt," *Report on Current Research* (1956), 59–71.

The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517–1798, Princeton, 1962.

"The Land Law of Ottoman Egypt (960/1553): A Contribution to the Study of Landholding in the Early Years of Ottoman Rule in Egypt," *Der Islam* 38 (1962), 106–37.

"Landholding and Land-Tax Revenues in Ottoman Egypt," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

"The Ottoman Archives as a Source for Egyptian History," *JAOS* 83 (1963), 447–52.

— "Turkish Source-Materials for Egyptian History," in Holt (ed.), *Political and Social Change in Modern Egypt*.

Staffa, Susan Jane, *Conquest and Fusion: The Social Evolution of Cairo, A.D. 620–1850*, Leiden, 1977.

Stripling, George W. F., *The Ottoman Turks and the Arabs, 1511–1574*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. XXVI, no. 4, Urbana, IL, 1942.

Süreyya, Mehmet, *Sicill-i 'Osmani*, 4 vols. in 3, Istanbul, A.H. 1308.

Thomas, Lewis V., *A Study of Naima*, ed. Norman Itzkowitz, New York, 1972.

Tuchscherer, Michel, "Le Pèlerinage de l'émir Sulaymān Gāwīš al-Qazdugli, sirdār de la caravane de la Mekke en 1739," *AI* 24 (1988), 155–206.

Türkiye Cümhüriyeti Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü. *Başbakanlık Osmanlı Arşivi Rehberi*, Ankara, 1992.

Türkiye Cümhüriyeti Genelkurumu Başkanlığı Harp Tarihi Dairesi. *Osmanlı İmparatorluğunda Kollar, Ulak, ve İaşe Menzilleri*, Genelkurumu Başkanlığı Harp Tarihi Dairesi Resmi Yayınları Seri no. 2, Ankara, 1966.

Udovitch, A. L., *Partnership and Profit in Medieval Islam*, Princeton, 1970.

U[illegible] Cugatay, *Padişahların Kadınları ve Kızları*. Ankara, 1980.

Uzunçarşılı, İ.H., "Bostandji," *EI²*.

Mekke-i Mükerreme Emirleri, Ankara, 1972.

Osmanlı Devleti Teşkilatından Kapukulu Ocakları, 2 vols., Ankara, 1943.

Osmanlı Devletinin Saray Teşkilatı, Ankara, 1945.

Vryonis, Speros, Jr., *Byzantium: Its Internal History and Relations with the Muslim World – Collected Studies*, London, 1971.

"Circus Factions and Islamic Futuwwa Organizations," repr. in Vryonis, *Byzantium*.

The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Centuries, London, 1971.

"Seljuk Gulams and Ottoman Devshirmes," repr. in Vryonis, *Byzantium*.
Wiet, Gaston, "Personnes déplacées," *Revue des Études Islamiques* 27 (1959), 9–21.
Winter, Michael, "'Ali Efendi's 'Anatolian Campaign Book': A Defence of the Egyptian Army in the Seventeenth Century," *Turcica* 15 (1983), 267–309.
Egyptian Society Under Ottoman Rule, 1517–1798, London and New York, 1992.
"Turks, Arabs, and Mamluks in the Army of Ottoman Egypt," *WZKM* 72 (1980), 97–122.
Zambaur, Edouard de, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'islam*, Hanover, 1927.
Zygulski, Zdzislaw, Jr., *Ottoman Art in the Service of the Empire*, New York, 1992.

المؤلفة فى سطور :

- چين هاثواى ، أستاذة التاريخ بجامعة ولاية أوهايو .
- درست فى جامعة تكساس .
- حصلت على درجة الدكتوراه فى جامعة برنستون سنة ١٩٩٢ .
- تخصصت فى تاريخ الإسلام والعالم الإسلامى ، إلاّ أنها اهتمت بالجوانب الأنثروبولوجية وبالتاريخ العثمانى خاصة .
- تُحرِّر " نشرة جمعية الدراسات التركية " .
- اشتركت مع كارل باربر فى القيام بدراسة مسحيَّة تاريخية عن الولايات العثمانية فى الفترة من ١٥١٦ إلى ١٨٠٠م .
- زارت عدداً من دول الشرق بحثًا عن مصادر لبحوثها منها تركيا ومصر .

المترجم فى سطور : :

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

● دكتواره فى التاريخ الحديث من جامعة القاهرة سنة ١٩٨٠ .

● عمل أستاذاً مشاركاً للتاريخ فى بعض الجامعات العربية ، آخرها جامعة الملك سعود بالرياض .

● شارك فى ترجمة عدد من الموسوعات كما شارك فى الإشراف الأكاديمى على بعضها بالإضافة للترجمة (الموسوعة الإسلامية ، وموسوعة الطفل ، وموسوعة جينز ، ومجموعة أعمال محضير محمد رئيس وزراء ماليزيا عن الأمة الإسلامية) .

● ترجمة ودراسة مجموعة كتب منتجمرى وات عن الإسلام (مثل القضاء والقدر فى فجر الإسلام وضحاه ، والإسلام والمسيحية) .

● ترجمة ودراسة لموسوعة الأديان الحيّة اللتى حرّرها المستشرق / زينر .

● ترجمة ودراسة مجموعة كتب الرحلات إلى مصر والعالم (رحلة ڤارثيما ، ورحلة ڤاسكو ديجاما ، ورحلة بيرتون (٣ج) بالإضافة إلى عشر رحلات أخرى .

● من الكتب المهمة التى ترجمها وحققها بتكليف من المجمع الثقافى فى أبو ظبى : السجل الكامل لأعمال أفونو دلبوكيرك ورحلة بنيامين التطيلى فى العالم الإسلامى .

● المصرية العامة للكتاب .

● من مؤلفاته : المدخل إلى علم التاريخ ، وحيازة الأرض فى نيجيريا .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وڤنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	الڤين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو–أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان لوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت . أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبين	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوربيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليتباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى

٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٠٥٣ / ٢٠٠٢



The Politics of Households in Ottoman Egypt
(The rise of the Qazdaglis)

الفكرة السّائدة لدى معظم المؤرخين الواعين هى أنّ النخبة العسكرية فى مصر فى العصر العثمانى ليست إلاّ إحياء للمؤسّسات التى كانت سائدة فى عصر السلطنة المملوكية، لكن المؤلفة چين هاثواى تؤكّد أن هذا لم يكن دائمًا، أو بتعبير آخر لم يكن فى كل الأحوال؛ فهى تسوق براهين قويّة على أن الهيكل الأساسى الذى كانت النخبة العسكرية المصرية تعمل من خلاله فى القرن ١٧ وأوائل القرن ١٨ هو «الزُّمرة» المكوّنة من الرأس الراعى والتابعين له، وهذه «الزمرة» قابلة للامتداد؛ بمعنى ضم أعضاء جدد عن طريق المشاركة التجارية والزواج والمصاهرة ومشاركة (أو رعاية) خصيان البلاط العثمانى. وقد ركّزت المؤلِّفة على زُمرة على بيك المعروف بالكبير، وهى زُمرة «القازدغلية»؛ لأنها اعتبرتها نموذجًا مصغرًا للمجتمع المصرى كله.